راج باتـــل، جاســـون مور

تاريخ العـــالم فـــي سبـــعة أشياء رخيصـــة

دليل إلى الرأسمالية والـطـبـيـعـة ومستقبـل الكوكب

ترجمة: وفاء م. يوسف

مكتبة صفحة

telegram
@soramnqraa

A History of The World in Seven Cheap Things

By Raj Patel and Jason Moore

مكتبة
t.me/soramnqraa

تاريخ العالم في سبعة أشياء رخيصة

دليل الرأسمالية، والطبيعة، ومستقبل الكوكب

تأليف: راج باتيل - جاسون مور

ترجمة: وفاء م. يوسف

صفحة

صفحة

الكتاب
تاريخ العالم في سبعة أشياء رخيصة
المؤلف
راج باتيل - جاسون مور

الطبعة الأولى: 2024
الترقيم الدولي:
978-603-8387-89-4
رقم الإيداع:
1445/14039

@ Copyright 2018 by Raj Patel and Jason W. Moore

حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع
E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

هذه ترجمة هذا الكتاب مجانية
مبادرة ترجم

مكتبة
t.me/soramnqraa
27 6 2025

جميع أراء المؤلف الواردة في هذا العمل وخلافه تعبر عنه وحده وليست مسؤولية دار النشر أو أي جهة أخرى متصلة بها من الجهات والهيئات الثقافية التنظيمية أو المانحة وغيرها.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

"إذ تتضافر جهودنا لبناء عالم أفضل، من شأن هذا الكتاب أن يغدو إطاراً عملياً أساسياً لرفع سقف طموحاتنا وتعزيزها"

نعومي كلين

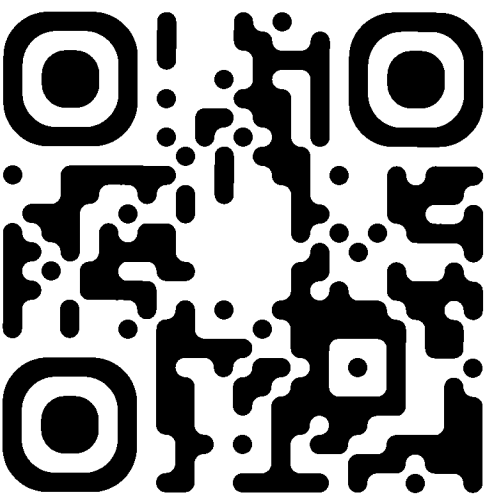

سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

إلى فيل ماكمايكل.....

المعلّم، والمرشد، والمهرّج، والقرش

الفهرس

المقدمة 7
الفصل الأول: الطبيعة الرخيصة 55
الفصل الثاني: المال الرخيص 77
الفصل الثالث: العمل الرخيص 107
الفصل الرابع: الرعاية الرخيصة 129
الفصل الخامس: الغذاء الرخيص 157
الفصل السادس: الطاقة الرخيصة 183
الفصل السابع: حياة الأشخاص الرخيصة 207
الخاتمة 231
المصادر 243

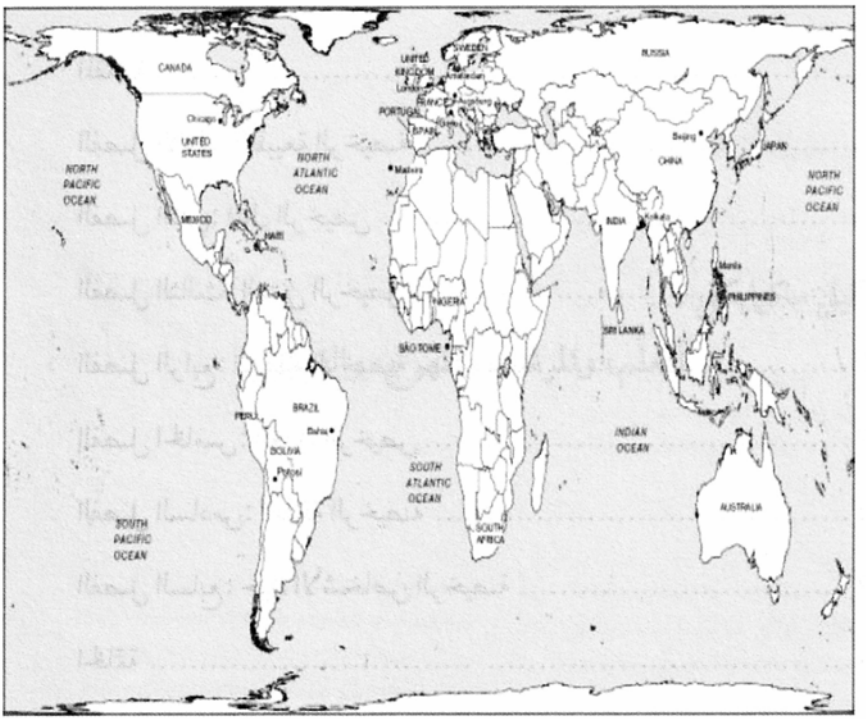

الخريطة 1: المو اقع الرئيسية في إيكولوجيا العالم، كما تظهر في إسقاط غال-بيترز الذي حوّر أشكال البلدان من أجل الإبقاء على نسبة أحجام المساحات بعضها إلى بعض

المقدمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

يَلزم الصاعقةَ والرعدَ بعضُ الوقت، ويَلزم ضوءَ النجوم بعضُ الوقت، ويَلزم الأفعالَ بعضُ الوقت، حتى بعد تمامها، لتُرى وتُسمع. هاته الفعلة أبعدُ من أبعدِ نجمة عنهم – ومع ذلك فإنهم هم الذين قاموا بها!

فريدريك نيتشه، «المجنون» من كتاب «العِلم المرِح»

نشأت كل مظاهر العالم الحديث من زراعة مستقرة، ومدن، ودول قومية، وتقنية معلومات، وغيرها، في حقبة جيولوجية ممتدة اتسمت بحسن الطالع المناخي.[1] ولكن ذلك الزمن ولّى. فمستويات سطح البحر ومعدلات درجات الحرارة آخذة في الارتفاع، واستقرار المناخ يقل أكثر فأكثر. وكانت الحضارة الإنسانية قد نشأت في حقبة جيولوجية تُعرف بحقبة الهولوسين. أما الحقبة التي تتسم بمناخنا الحالي، فقد أطلق عليه بعضهم مسمّى حقبة الأنثروبوسين. وستعرف الحياة الذكية مستقبلاً أننا مررنا من هنا بفضل سجلّ الأحافير الذي ملأه بعض البشر بالأعاجيب، مثل إشعاع القنابل الذرية، ولدائن صناعة النفط، وعظام الدجاج.[2]

---

(1) Roberts 1989; Hansen and Sato 2012.

(2) Carrington 2016; Working Group on the 'Anthropocene' 2016.
نشير إلى الأنثروبوسين هنا باعتباره مجالاً للبحث الجيولوجي: أي الأنثروبوسين الجيولوجي. وهو مختلف عن مصطلح الأنثروبوسين الشائع، والذي يشتمل على نقاشات مسهبة حول أصل الأزمة البيئية. أنظر Moore 2016, 2017a, 2017b.

إن ما سيحدث في المرحلة القادمة هو أمر لا يمكن التنبؤ به من جهة، ويمكن التنبؤ به تماماً من جهة أخرى. فبغض النظر عمّا سيعقد البشر عزمهم على القيام به، سيكون القرن الحادي والعشرين زمن تغيّرات «مفاجئة ولا رجعة فيها» في شبكة الحياة.[3] ويستخدم علماء نظام الأرض مصطلحاً مبسطاً بعض الشيء بالنسبة إلى نقطة تحوّل أساسية في حياة نظام الغلاف الحيوي، وهي تحوّل الحالة. ولسوء الحظ، فإن البيئة التي نشأ منها هذا التغيّر الجيولوجي قد أنشأت أيضاً بشراً غير مؤهلين لتلقّي الخبر بشأن هذا التحوّل في الحالة. وكان مجنون نيتشه الذي أعلن موت الإله[4] قد قوبل بطريقة مماثلة. فعلى الرغم من أن أوروبا الصناعية كانت قد قَصَرَت السلطة الإلهية على الحضور شبه الإلزامي إلى الكنيسة صباح أيام الأحد، إلا إنَّ مجتمع القرن التاسع عشر لم يكن ليتصوّر عالماً من دون الإله. ويقابل ذلك ما يحدث في القرن الحادي والعشرين، حيث إن تصوّر نهاية الكوكب بالنسبة إلى معظم الأشخاص أسهل من تصوّر نهاية الرأسمالية.[5]

نحن بحاجة إلى تحوّلٍ في الحالة الفكرية لنُواكِب الحقبة الجديدة.

تتطلب مهمّتنا الأولى الدقة اللغوية في ملاحظة إشكالٍ ما في تسمية الحقبة الجيولوجية الجديدة بالأنثروبوسين. فجذر الكلمة anthropos، (أي «الإنسان» بالإغريقية)، يلمح إلى أن البشر لمجرد كونهم بشراً – كما أن الأطفال أطفال والثعابين ثعابين – قد تسببوا في تغيّر المناخ، وأحدثوا سادس انقراض جماعي على وجه الأرض. وفي الحقيقة، كانَ البشرُ وما يزالون يُحْدثون التغيّرات في كوكب الأرض منذ نهاية آخر عصر جليدي.[6] فقد أدّى الارتفاع الطفيف في معدل

---

(3) Barnosky et al. 2012, 52.

ملاحظة من المترجمة: شبكة الحياة مصطلح بيئي يشير إلى العلاقات بين مختلف المكونات الحية وغير الحية في نظام حيوي ما والمتمثلة بسلسلة من الروابط المتصلة فيما بينها.

(4) ملاحظة من المترجمة: في كتابه "العلم الجذل"، يذكر نيتشه قصة المجنون الذي كان يجوب الطرقات بحثاً عن الإله، قبل أن يعلن قائلاً: "لقد مات الإله. [...] ونحن الذي قتلناه". ويرى النقاد أن نيتشه يقصد هنا التحذير من العواقب الوخيمة لانعدام الأسس الأخلاقية الراسخة في المجتمع...

(5) N. Klein 2014.

(6) Barnosky et al. 2004.

الصيد، مع انخفاض معدل التكاثر على مدى قرون، بالإضافة إلى المناخ المتقلب والمراعي المتغيّرة، إلى انقراض حيوانات مثل ماموث السهول الكولومبية في أمريكا الشمالية، والقرد الضخم (الاسم العلمي: Gigantopithecus) القريب من السعلاة في شرق آسيا،[7] وكذلك الأيل الإيرلندي العملاق (الاسم العلمي: Megalos giganteus) في أوروبا.[8] حتى أن البشر مسؤولون بشكل جزئي ربما عن تخفيف موجة باردة عصفت بالأرض قبل اثني عشر ألف سنة، وذلك نتيجة لانبعاثات غازات الدفيئة المتصلة بالنشاط الزراعي.[9]

بيد أن صيد الثدييات الضخمة إلى حد انقراضها هو أمرٌ، وسرعة الدمار وحجمه اليوم هو أمر آخر ليس بإمكاننا أن نستنبطه من أوجه النشاط الإنساني لأسلافنا الذين كانوا يجرّون مفاصل أيديهم على الأرض. فالنشاط الإنساني اليوم لا يُبيد حيوانات الماموث عبر قرون من الصيد المفرط. ولكن بعض البشر الآن يقتلون كل شيء، من الحيوانات الضخمة إلى مجهريات البقعة البشرية (المايكروبايوتا)، وذلك بسرعة تفوق معدل انقراضها الطبيعي بمائة مرة.[10] لذا فإننا نعتقد أن ما تغيّر بين الأمس واليوم هو ظهور الرأسمالية، وأن التاريخ الحديث، منذ بداية القرن الخامس عشر، قد تكشّف عن حقبة أفضل ما يمكن تسميتها به هو حقبة الرأسمالوسين.[11] ويعني استخدام هذه التسمية أخذ الرأسمالية على محمل الجد، وفهمها باعتبارها طريقة لتنظيم العلاقات بين البشر وسائر الطبيعة، وليست مجرد نظام اقتصادي فحسب.

نستعرض في هذا الكتاب كيف صُنِع العالم الحديث من خلال سبعة أشياء رخيصة، وهي الطبيعة، والمال، والعمل، والرعاية، والغذاء، والطاقة، وحياة

---

(7) Louys, Curnoe, and Tong 2007.

(8) فرضية: تمكن البشر في إفريقيا من إجبار الحيوانات الضخمة على التكيّف – ولذا لا نجد أدلة على الانقراض هناك. أنظر على سبيل المثال محاكاة Channell and Lomonlino 2000.

(9) Ruddiman et al 2016.

(10) Caballos et al. 2015.

(11) Moore 2016, 78-115; 2017a;2017b.

الأشخاص. وكل كلمة في هذه الجملة هي كلمة صعبة. فكلمة «**رخيص**» تمثّل الوجه الآخر للصفقة الرابحة – والترخيص هو مجموعة من الاستراتيجيات التي تهدف إلى التحكم بشبكة حياة أكبر. أما «الأشياء» فإنها تصبح أشياء على يد جيوش، ورجال دين، ومحاسبين، ومطبوعات. والأهم من هذا وذاك هو أن الإنسان والطبيعة لا يشبهان في وجودهما كرتي بلياردو ضخمتين من القرن السابع عشر تصطدم كل منهما بالأخرى. فالاندفاع في صنع الحياة أمر معقّد، ومثير للجدل، ولكنه من المفترض أن يعود بالنفع على كليهما. ولذا يقدّم هذا الكتاب منظوراً للعلاقات المعقّدة بين البشر وشبكة الحياة يساعدنا في فهم العالم الذي نعيش فيه، ويقترح صورة لما يمكن أن يصبح عليه.

ولكي نقدّم لكم عرضاً تشويقياً لما هو قادم، دعونا نعود بكم إلى عظام الدجاج الموجودة في السجلّ الجيولوجي، والتي تشكّل الدليل الرأسمالي على العلاقة بين الإنسان والطير الأكثر شيوعاً في العالم، والذي يطلق عليه الاسم العلمي Gallus gallus domesticus.[12] إن الدجاج الذي نأكله اليوم مختلف جداً عن الدجاج الذي كان يُستهلك قبل قرن من الزمان. فدجاج اليوم هو حصيلة جهود حثيثة بُذلت بعد الحرب العالمية الثانية للاستفادة من مواد جينية استُخرجت مجاناً من الأدغال الآسيوية، وقرّر البشر تهجينها لإنتاج دواجن أكثر ربحاً.[13] وهي دواجن لا تكاد تقوى على المشي، وتصل إلى مرحلة البلوغ في غضون أسابيع، ولها صدر أكبر من الحجم الطبيعي، وتجري تربيتها وذبحها بكميات مهولة جيولوجياً (أكثر من ستين مليار طير في العام).[14] فلنعتبر ذلك الطبيعة الرخيصة. ومن المتوقع للدجاج – الذي هو اليوم أكثر اللحوم شيوعاً في الولايات المتحدة – أن يصبح أكثر اللحوم شيوعاً للاستهلاك الآدمي في العالم بحلول عام 2020م.[15]

---

(12) Bunge 2015.

(13) Liu et al. 2006.

(14) Evans 2014.

(15) Bunge 2015.

وسيتطلب ذلك عدداً كبيراً من الأيدي العاملة. ويحصل عمال الدواجن على أجر زهيد جداً. ففي الولايات المتحدة يحصل العمّال على سِنتين لكل دولار يُنفق على وجبة دجاج سريعة. وتستخدم بعض شركات الدجاج عمالة السجون، بأجر لا يتجاوز خمسة وعشرين سنتاً في الساعة. فلنعتبر ذلك العمل الرخيص. وفي سوق الدواجن الأمريكية، يعاني 86 بالمائة من العمال الذين يقطعون أجنحة الدجاج من الألم بسبب تكرار عملية فصل الأجنحة وبَرمها على خط الانتاج.[16] ويسخَر بعض أرباب العمل من العمال الذين يبلّغون عن مثل هذه الإصابات، حتى إنه من الشائع رفض مطالبات هذه الإصابات. ونتيجة لذلك يواجه العمال انخفاضاً في الدخل بنسبة 15 بالمائة للسنوات العشر التالية للإصابة.[17] ويعتمد العمال أثناء فترة تعافيهم على عائلاتهم وشبكات الدعم الخاصة بهم، وهو عامل، وإن كان يقع خارج دوائر الإنتاج، إلا أنَّهُ أساسي لاستمرار مشاركة هؤلاء العمال ضمن القوى العاملة. فلنعتبر ذلك الرعاية الرخيصة. أما الغذاء الذي ينتجه هذا السوق فينتهي به المطاف إلى ملء البطون والإبقاء على مستويات الاستياء متدنية من خلال أسعاره المنخفضة عند صناديق الدفع وفي ممرات طلبات السيارات. وتلك هي استراتيجية الغذاء الرخيص. أما الدجاجات بحد ذاتها فهي لا تكاد تُسهم في التغيّر المناخي، فلكلّ منها معدة واحدة، وهي لا تتجشّأ الميثان كما تفعل الأبقار، ولكن تربيتها بأعداد ضخمة تتطلب استخدام كميات كبيرة من الوقود من أجل تدفئتها، الأمر الذي يشكّل أكبر مسبب لبصمة الكربون التي تخلّفها صناعة الدواجن في الولايات المتحدة.[18] إذ لا يمكن الحصول على دجاج بتكلفة منخفضة دون كميات كبيرة من البروبان. ويشكّل ذلك الطاقة الرخيصة. وينطوي البيع التجاري لهذه الطيور المعالَجة على بعض المخاطرة. إلا أنَّ عمليات منح حقوق الامتياز، والدعم المالي الحكومي، وغيرها من الأمور، مثل سهولة الوصول الفعلي

(16) Oxfam America 2015.
(17) Seabury et al. 2014.
(18) Dunkley 2014.

والمالي إلى الأراضي التي يُزرع فيها فول الصويا المستخدم علفاً للدواجن في الصين والبرازيل والولايات المتحدة،[19] وقروض المشاريع الصغيرة، كلّها تساعد في تخفيف هذه المخاطر، عبر الاستفادة من الإنفاق العام من أجل الربح الخاص. وذلك هو أحد أوجه المال الرخيص. وأخيراً، فإن ما جعل كلّاً من هذه الأشياء الستة ممكناً هو الممارسة المستمرة والمتكررة للشوفينية[20] ضد فئات من الحيوانات والبشر – مثل المرأة، والشعوب المستعمَرة، والفقراء، وأصحاب البشرات الملونة، والمهاجرين. ولذا فإن ترسيخ هذا النظام الإيكولوجي يتطلب عنصراً أخيراً، هو السيطرة على حياة الأشخاص الرخيصة. إلا أنَّ البشر في كل خطوة من هذه العملية يقاومون – من الشعوب الأصلية التي كانت أسراب طيورها مصدراً للمادة الجينية التي أنتجت الدواجن، ووصولاً إلى العاملين في الرعاية الذين يطالبون بالاعتراف بهم ومساعدة هؤلاء الذين يحاربون «التغيّر المناخي» وَ«وول ستريت». وهكذا فإن الصراعات الاجتماعية بشأن الطبيعة، والمال، والعمل، والرعاية، والغذاء، والطاقة، وحياة الأشخاص، المصاحبة لعظام الدواجن في حقبة الرأسمالوسين تشكّل أساساً يمكننا من خلاله تبرير حقيقة أن الأيقونة المميِّزة لعصرنا الحديث ليست السيارة ولا الهاتف الذكي، بل قطع دجاج ماكدونالدز.

كل ذلك يذهب طيّ النسيان أثناء عملية غمس منتج الدجاج والصويا في وعاء بلاستيكي من صلصة الباربكيو. ولكن البقايا المتحجرة لتريليونات الطيور ستبقى حتى بعد فناء البشر، شاهدةً على مرورهم بهذا الكوكب. ولذا نقدّم قصة البشر والطبيعة والنظام الذي غيّر الكوكب بمثابة سرد تاريخي موجز، وترياقاً للنسيان. بيد أن هذا الكتاب لا يحمل بين طياته سرداً لتاريخ العالم كله، بل لتاريخ العمليات التي يمكن من خلالها تعليل ما يبدو عليه العالم اليوم. ويتبيّن من خلال قصة هذه الأشياء الرخيصة السبعة كيف اتسعت رقعة الرأسمالية حتى أسفرت عن خرائط

---

(19) 2005. McMichael 1998; Kaimowitz and Smith 2001; Gale, Lohmar, and Tuan

(20) ملاحظة من المترجمة: الشوفينية (Chauvinism) هي إفراط في الوطنية ينتهي إلى معاداة الدول والثقافات الأخرى.

مثل الخريطة أدناه، والتي يتضح فيها مدى ضآلة الجزء من الكرة الأرضية الذي يقع خارج نطاق نفوذ أوروبا الاستعمارية.

سنشرح لاحقاً ما نعنيه بكلمة **الرخيصة** بالتحديد. أوَّلاً علينا أن نبرهن على فكرة مفادها أنَّ ما أوصلنا إلى هذه النقطة ليس مجرد سلوك بشري طبيعي، بل تفاعلاً معيّناً بين البشر والعالم الحيوي والمادي.

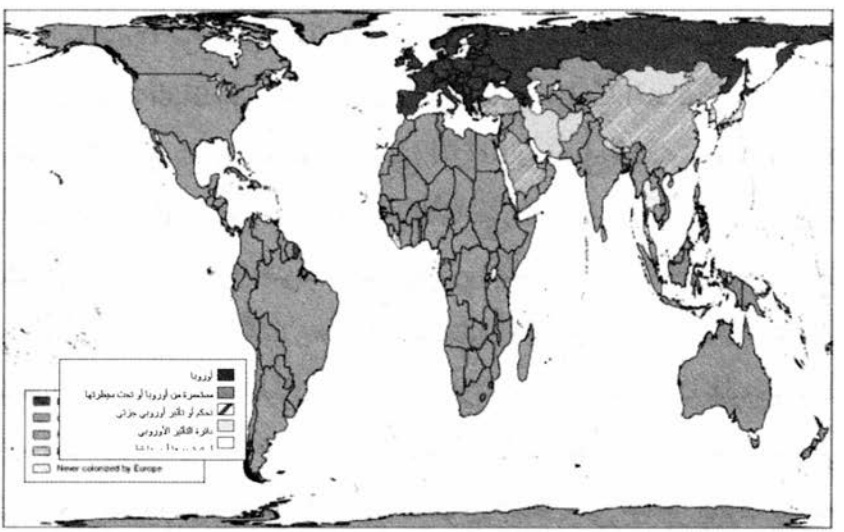

الخريطة 2: أجزاء العالم التي استعمرتها أوروبا.

دليل موجز حول البشر والطبيعة قبل الرأسمالية

يُعدّ التعبير عن الأسى تجاه الطريقة السيئة التي يعامل بها البشر العالم الطبيعي ممارسة قديمة. إذ قام بها أفلاطون في «حوار كريتياس»، عندما وصف زماناً قبل زمانه بتسعة آلاف سنة، حينما كانت المنطقة المحيطة بأثينا شَجيرة، ويرعاها شعب نبيل، يشتركُ أفرادهُ في الممتلكات، ويحبون الطبيعة أكثر مما يحبها معاصرو أفلاطون. ففي الوقت الذي كان يسرد فيه هذا التاريخ، كان أقرانه قد دنّسوا

الطبيعة، وتركوا الهضاب للعراء.[21] والسرد التاريخي لأفلاطون – وإن كان سرداً زائفاً بشكل شبه مؤكد – هو سرد يثير الصور الخيالية المثالية عن المنطقة المحيطة بأثينا.[22] وليس في تحليلنا إشارة إلى افتقار الأمانة في السرد، بل إننا نشير هنا إلى ما حدث صدفة حين مرّت إحدى المناطق الهامشية التابعة للحضارة في غرب آسيا بأزمة مناخية، ومَرَضيّة، واجتماعية. ونبدأ قصتنا قبل مطلع الرأسمالية ببضعة قرون، في مكان كان يتطلع إلى ثروات وحضارات وسط آسيا وشرقها، ولكنه كان أفقر منها بكثير،[23] وفي زمان صنعه الطقس. نبدأ في أوروبا الإقطاعية.

شكّلت الفترة الدافئة في العصور الوسطى شذوذاً مناخياً امتد من عام 950م إلى عام 1250م في شمال المحيط الأطلسي.[24] فكان فصل الشتاء خلالها معتدلاً ومواسم الزراعة طويلة. وامتد استصلاح الأراضي للزراعة باتجاه الشمال والأعلى، فنمَت كروم العنب في جنوب النرويج، وتسلّقت مزارع الحبوب الجبال والمرتفعات من جبال الألب حتى اسكوتلندا.[25] وازدادت أعداد البشر في أوروبا، إلى حوالي سبعين مليون نسمة، أي ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، وذلك خلال خمسة قرون بعد عام 800م.[26] وبلغ التعداد السكاني في إنجلترا ذروته في حوالي عام 1300م، ولم يصل إلى ذلك المستوى مجدداً حتى أواخر القرن السابع عشر.[27] وفاقه في سرعة النمو فائض الإنتاج الزراعي. فنهضت القرى في كل مكان، وبحلول عام 1300م، كان جزء متزايد من السكان – ربما خُمسهم – يشتغلون خارج نطاق الزراعة. وقد أثار هذا الازدهار النسبي شهية التوسّع.

---

(21) Jowett 1914, 383–85. أنظر أيضاً قراءة Glacken (1967) في التاريخ الممتد لأسئلة الإنسان عن الطبيعة: هل هي مخلوقة للبشر؟ هل غيّرت جغرافيتها المادية البشر؟ وهل غيّرها البشر عما كانت عليه في الأصل؟

(22) Chew 2001.

(23) Mielants 2002, 2008.

(24) Lamb 2002; Fagan 2008; Büntgen et al. 2011.

(25) Fagan 2008, 12, 20–21.

(26) Hoffmann 2014, 116.

(27) B. Campbell 2010; Mayhew 2013.

وتُعتبر الحملات الصليبية مثالاً على تلك الشهية. والحملات الصليبية هي عمليات سُوّق لها بشكل كبير جداً، وحُشدت لها التجهيزات العسكرية لتستهدف ثروات شرق حوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك في بداية عام 1095م. وقد صاحبت هذه الحملات حركاتُ غزو أخرى، أثّرت اثنتين منها بشكل كبير في تشكيل العالم الحديث بعد ذلك بأربعة قرون. تمثّلت الحركة الأولى في الحروب المسيحية التي هدفت إلى استرداد شبه جزيرة أيبيريا، حيث تقع البرتغال وإسبانيا اليوم، وذلك حين بدأ القشتالة والأراغون في تقليص الحكم الإسلامي في شبه الجزيرة عبر الموجة الأولى من الحروب الصليبية، حيث استفاد الصليبيون من حروب الاسترداد عبر فرض الإتاوة التي أصبحت فيما بعد إحدى سمات الرأسمالية الاستعمارية. أما الحركة الثانية فقد كانت أقل وضوحاً وأكبر تأثيراً. إذ كانت أهم سِمات النظام الإقطاعي هي قدرته على مواصلة التوسع الاستيطاني الضخم دون الحاجة إلى سلطة مركزية، وذلك من خلال الاعتماد على استصلاح الأراضي للزراعة، والذي يمكن اعتباره أكبر أشكال الغزو على الإطلاق. وبحلول القرن الرابع عشر، شكّلت الزراعة ثلث استخدامات الأراضي في أوروبا، وهي زيادة جذرية بلغت ستة أضعاف ما كانت عليه خلال القرون الخمسة السابقة، وقد تحقق جلّ هذه الزيادة على حساب الغابات.[28]

قادت أوروبا الإقطاعية الفترة الدافئة في القرون الوسطى حتى بلغت ذروتها في حوالي عام 1250م، ثم أصبح المناخ أكثر برودة – وأكثر بللاً. وبعد قرون من الأمن الغذائي النسبي، عادت المجاعة بقوة أكبر بكثير لتضرب حضارة كانت قد اعتادت طقساً مختلفاً تماماً. ففي مايو عام 1315م، هطلت أمطار غزيرة في كافة أرجاء أوروبا، ربما نتيجة لثوران بركان كاهارو في نيوزيلندا.[29] ولم تهدأ الأمطار حتى شهر أغسطس، وذلك عندما انتهت الفيضانات بموجة برد مبكرة مفاجئة. ومع أن حصاد السنة التي قبلها كان ضعيفاً، إلا أنّه في عام 1315م كان كارثياً.

(28) M. Williams 2003, 93 . أنظر أيضاً Wickham 1994 .

(29) Nairn et al. 2004; Dribe, Olsson, and Svensson 2015 .

وكذلك كانت الحال في السنة التالية. وتقلّص عدد سكان أوروبا بنسبة بلغت 20 بالمائة على مدى البضعة سنوات التالية.[30] ولم تنجُ القارة من المجاعة الكبرى – كما يُطلق عليها المؤرخون – حتى عام 1322 م.[31]

ما لم يعلمه معاصرو ذلك الزمن هو أنهم كانوا قد دخلوا عصراً جليدياً صغيراً، في فترة امتدت حتى القرن التاسع عشر. وكشف العصر الجليدي الصغير مواطن الضعف في النظام الإقطاعي. فعلى سبيل المثال، لم ينجح النظام الغذائي الإقطاعي إلا عند اعتدال المناخ. وكان السبب الرئيسي في ذلك هو أن النظام كان يعمل من خلال ترتيب محدد للطبقات الاجتماعية، يتمتع فيه الأسياد بالتحكم الرسمي بالأراضي، بينما يقوم الفلاحون بفلاحتها. وكان الأسياد يشرفون على مجتمع الفلاحين الآخذ في النمو، والذي كان بإمكانه إنتاج فائض زراعي متزايد مقابل عوائد متضائلة. وكانت خصوبة التربة تضعف ببطء قرناً بعد قرن، وهو انخفاض استتر خلف مجتمع متزايد من الفلاحين كان يعتصر ما تبقى من المناطق المستصلحة من الأراضي. وحينما تحوّل المناخ، خلق سلسلة من الإخفاقات التي توغّلت عبر نظام طبقي عزّز استنزاف التربة والمجاعة، وتسبب في مقتل الملايين.

ويتوافق أحد تفسيرات هذه الكارثة الحضارية بشكل جيد مع التحذير الذي ورد في مقال روبرت مالثوس تحت عنوان «مبادئ الكثافة السكانية»، وهو: وجود عدد كبير من الأشخاص، وقدر غير كافٍ من الغذاء. وباستخدام لغة أحدث، فإن ذلك يعني أن التغيّر المناخي أثر في القدرة الاستيعابية لأوروبا، فأدّى إلى تقليل عدد الأشخاص الممكن إعالتهم من الأراضي المتدهورة في ظل النظام الإقطاعي. ولكن الطاقات الاستيعابية تتضخم وتتقلص بحسب الأشخاص الذين يحكمون. فالمسألة – كما كانت آنذاك وكما هي اليوم – تكمن حقيقة في السلطة. وفي الحقيقة، ما يمكن أن يقدّمه مالثوس لهذه القصة أقل مما يمكن أن يقدمه كارل ماركس. فقد كان الأسياد يريدون إمّا المال أو الحبوب التي يمكن تخزينها وتسويقها بسهولة،

(30) Ruiz 1994.

(31) Jordan 1997; Fagan 2008; B. Campbell 2010.

وكانوا يستهلكون الفائض الزراعي المتواضع حتى آخر ما يتبقى في التربة، ويتركون قدراً ضئيلاً يستثمرونه مجدداً في الزراعة.[32] ولولا سلطة الأسياد ومطالبهم، لكان الفلاحون ربما تحوّلوا إلى المحاصيل المتنوعة التي تتضمن الفواكه والخضروات بالإضافة إلى الحبوب، ولربما حلّوا بذلك المشكلة الغذائية. أما بالنسبة إلى عدد الأشخاص، فإن تكوين الأسرة والنمو السكاني لا يتحددان عبر غريزة تناسلية أزلية، بل إنهما يتشكلان عبر مجموعة من الظروف التاريخية المبنية على الثقافة، والطبقة الاجتماعية، وتوفّر الأراضي. وكما يشير غاي بوا في دراسته الكلاسيكية للنظام الإقطاعي النورماندي، فإن التحوّل إلى طرق مختلفة للعمل على الأراضي، مع المزيد من الاستقلالية والسلطة للفلاحين فيما يتعلّق بنوعية المحاصيل وكيفية زراعتها، كان ليسمح لأوروبا في القرون الوسطي بإطعام ثلاثة أضعاف عدد الأشخاص في ذلك الوقت.[33] إلا أن ذلك التحوّل لم يحدث، واستمرت منظومة النظام الإقطاعي في جرّ أذيال الهزيمة حتى تلّقت رصاصة رحمة أخيرة في عام 1347م عندما جاء الموت الأسود.[34]

خرجت أوروبا من الفترة الدافئة في القرون الوسطى بحالة يرثى لها. إذ لم تتمكن الأنظمة التي كانت قد أنتجت الغذاء بشكل كافٍ لتغذية الفلاحين والمدن منذ مطلع الألفية الثانية من مواكبة المناخ الآخذ في التغيّر، ما دفع بشريحة متزايدة من السكان تحت وطأة سوء التغذية.[35] ويُظهر تحليل الجثث التي نبشت من القبور الإنجليزية العائدة إلى القرن الحادي عشر أن صحتها كانت أفضل من تلك العائدة إلى القرن الثالث عشر،[36] ما يدلّ على أن نقص الغذاء في نهاية الفترة الدافئة في القرون الوسطى قد جعل الأجسام الأوروبية عرضة للإصابة

---

(32) Hilton 1951.

(33) Bois 1984, 264. يحاكي ذلك المطالبات في القرن العشرين والحادي والعشرين بالزراعة الإيكولوجية. مثلاً Altieri 1999; Rosset and Martínez-Torres 2012.

(34) Ziegler 2013, 40. المراجع حول الموت الأسود كثيرة. أنظر على سبيل المثال، McNeill 1976; Cantor 2002; Ruddiman 2005; DeWitte 2015.

(35) L. White 1962, 75; Moore 2003b.

(36) DeWitte 2015.

مكتبة
t.me/soramnqraa

بالأمراض. وقد حوّل الموت الأسود ذلك إلى كارثة تشبه نهاية العالم. إذ أباد ما يتراوح بين الثلث إلى النصف من سكان أوروبا، مستغلاً في ذلك العولمة بشكلها المعروف في عالم القرون الوسطى. ففي كل مكان تقريباً آنذاك دفع التحول المدني والتحول التجاري بالمزيد من الأشخاص نحو المدن، والمزيد من المدن نحو شبكات التجارة. كما أدّت طرق التجارة التي كانت تحمل البضائع والأموال من شانغهاي إلى صقلية إلى دمج آسيا وأوروبا في قارة واحدة عظمى شكّلت «بؤرة للأمراض».[37]

بمجرّد أن وصل الموت الأسود إلى أوروبا – تحديداً إلى صقلية بحلول أكتوبر 1347م وإلى جَنوى بعد ذلك بثلاثة أشهر – تفكّك النظام الإقطاعي. ويمكننا أن نستدل من هذا التفكك على أمر هام حول كيفية وقوع الكوارث الكبرى، وكيف بإمكانها أن تعقّد العلاقة بين العوامل المتغيرة كالمناخ وعدد سكّان من جهة والسلطة والاقتصاد من جهة أخرى. وكان النظام الإقطاعي، كالكثير من الحضارات الزراعية، يميل إلى استنزاف علاقاته الزراعية الإيكولوجية. وبينما كان عدد السكان يتزايد تحت منظومة الطبقات الاجتماعية الإقطاعية، أصبحت الفلاحة قائمة بشكل أكبر على الأيدي العاملة، مع وجود عدد أكبر من الأشخاص العاملين في الأرض للحد من الحشرات والنباتات الضارة ورعاية المحاصيل بشكل أكبر. إلا أن الزجّ بالأشخاص في الحقول لم يحل مشكلة الطبقات الاجتماعية في النظام الإقطاعي – بل نجح في تدهورها. وفي إنجلترا، كانت مؤشرات ضعف النظام الإقطاعي واضحة منذ عام 1270م. فقبل المجاعة الكبرى بنصف قرن، تدهور النظام الغذائي للفلاحين بشكل كبير – والذي كان بالأصل نظاماً غذائياً متواضعاً بشكل متزايد. وانخفض محصول الحبوب، وانخفض معه استهلاك الفرد الواحد للحبوب التي كانت تشكّل قوام النظام الغذائي للفلاحين، وذلك

---

(37) McNeill 1976.

بنسبة 14 بالمائة.[38]

لا تنهار الحضارات بجوع الناس فحسب. (منذ عام 1970م، ما يزال عدد الأشخاص الذي يعانون من سوء التغذية فوق ثمانمائة مليون شخص، ولا يكاد أحد يتحدث عن نهاية الحضارة).[39] تحدث التحوّلات التاريخية الكبرى عندما لا تعود «الأعمال الاعتيادية» تجدي نفعاً. فأصحاب النفوذ يميلون إلى التمسّك بالاستراتيجيات التقليدية حتى عندما يكون الواقع في حالة من التغيّر الجذري. وكذلك كانت الحال مع أوروبا الإقطاعية، إذ لم يكن الموت الأسود مجرد كارثة ديموغرافية فحسب، بل تكمنُ أهمِّيَّتهُ في قلبهِ لموازين القوى في المجتمع الأوروبي.

اعتمد النظام الإقطاعي على النمو السكاني المتزايد، ليس من أجل إنتاج الغذاء فحسب، بل أيضاً من أجل تجديد نفوذ الأسياد. فقد أرادت الطبقة الأرستقراطية أن يكون عدد الفلاحين كبيراً نسبياً، من أجل المحافظة على جانبها من المساومة، حيث إن تنافس الكثير من الفلاحين على الأرض أفضل من تنافس الكثير من الأسياد على الفلاحين. غير إنه مع بداية تفشي الموت الأسود، لم تنقل شبكات التجارة والتبادل التجاري المرض فحسب، بل أصبحت نواقل للتمرد الجماعي أيضاً. وبين ليلة وضحاها تقريباً، لم تعد ثورات الفلاحين من الشؤون المحلية، بل غدت تشكّل تهديدات واسعة النطاق للنظام الإقطاعي. وبعد عام 1347م، تزامنت هذه التمردات بعضها مع بعض، لتصبح ردّات فعل على أزمة تاريخية على نطاق المنظومة، وانتكاسة جوهرية في منطق النظام الإقطاعي المتعلق بالسلطة، والإنتاج، والطبيعة.[40]

عجل الموت الأسود في وقوع ضغط هائل على منظومة كانت بالأصل على شفير الانهيار. فقد أصبحت أوروبا بعد الطاعون ساحة لصراع طبقي شديد، من بحر

---

(38) تم حساب النسبة استناداً إلى Broadberry, Campbell, and van Leeuwen 2011. أنظر أيضاً Lappé et al. 2013: وحول تدهور الإنتاج الزراعي. Broadberry et al. 2010, 36.

(39) Levine 2001, 325–400; Hilton 2003, esp. 95–133; Cohn 2007b.

(40) Elvin 2004.

البلطيق إلى شبه جزيرة أيبيريا، ومن لندن إلى فلورنسا.[41] وكانت مطالب الفلاحين المتعلقة بالإعفاء الضريبي واستعادة حقوقهم العرفية مطالب لا يمكن قبولها في النظام الإقطاعي. وإن كان حكام أوروبا، ومصارفها، وأرستقراطياتها لم يتمكنوا من قبول هذه المطالب، فهم أيضاً لم يتمكنوا من إعادة الأمور إلى **وضعها السابق**، على الرغم من بذلهم الجهود الحثيثة. وجاء سن تشريعات قمعية من أجل المحافظة على العمالة رخيصة عبر ضوابط الأجور أو إعادة استعباد الفلاحين بالكامل استجابة للموت الأسود. وكان أحد أول هذه التشريعات في إنجلترا هو (النظام الأساسي وقانون العمال) الذي صدر في مواجهة أول هجمة للطاعون (1349-1351). وباستخدام لغة اليوم، فقد كان الوضع شبيهاً بأن تواجه وباء إيبولا اليوم عبر تصعيب تشكيل النقابات. وكانت تأثيرات التغيّر المناخي على العمالة جلية للطبقة الأرستقراطية في أوروبا، والتي أجهدت نفسها في محاولة الحفاظ على مجريات الأعمال الاعتيادية. ولكنها مُنيت بفشل شبه ذريع. ولم يعد استعباد الفلاحين قائماً في أي مكان في غرب أوروبا ووسطها. وتحسنت أجور الفلاحين وعمال المدن وأوضاعهم المعيشية بشكل ملحوظ، إلى حد كاف لتعويض الانخفاض في حجم الاقتصاد العام. ومع أن ذلك شكّل نعمة لغالبية الناس، إلا أن أغنى أغنياء أوروبا الذين يشكلون 1 بالمائة وجدوا أن حصتهم من الفائض الاقتصادي بدأت تتقلص. وهكذا تَعطّل النظام القديم ولم يعد بالإمكان إصلاحه.

نشأت الرأسمالية من هذا الوضع المتردي. إذ لم تحاول الطبقات الحاكمة استعادة الفائض الاقتصادي فحسب، بل أيضاً توسعته. وكانت مناطق شرق آسيا أكثر ثراءً، ومع أن الحكام هناك مروا أيضاً بصعوبات إيكولوجية اجتماعية، إلا أنَّهم وجدوا سبلاً خاصة بهم لاحتواء الاضطرابات، وإزالة الغابات، ونقص

(41) Cohn 2006, ch. 2.

الموارد.[42] وكانت الطبقة الأرستقراطية في شبه جزيرة أيبيريا – في البرتغال وقشتالة على وجه الخصوص – قد عثرت صدفة على أحد الحلول التي أعادت تشكيل علاقة البشر بشبكة الحياة. فمع نهاية القرن الخامس عشر، كانت هذه الممالك ومجتمعاتها قد شنت حروب الاسترداد، وهي الصراعات التي امتدت لقرون مع القوى الإسلامية في شبه الجزيرة، وكانوا يعتمدون اعتماداً كبيراً على الممولين الإيطاليين من أجل تمويل حملاتهم العسكرية إلى درجة مكنّت البرتغاليين والقشتالة من النهوض مجدداً من خلال الحرب والديون. وأثار هذا المزيج من ديون الحرب ووعود الثراء أولى الهجمات في المحيط الأطلسي – في جزر الكناري وماديرا. فكان حل مشكلة ديون الحرب يكمن في شن المزيد من الحروب التي كان مردودها يتمثل في الربح الاستعماري في تخوم كبرى جديدة.[43]

التخوم الأولى

استغل الاستعمار الحديث في بدايته التخوم بطريقة جديدة تماماً. إذ لطالما أدت زيادة الكثافة السكانية في قلب البلاد في السابق إلى التوسع في الاستيطان، ومن ثم التجارة. إلا أن هذه القاعدة انقلبت رأساً على عقب خلال القرنين التاليين لعام 1492م، إذ غدت التخوم فيما بعد هي المبدأ المنظِّم للثراء المدني. وقلب المنطق الديموغرافي والجغرافي للحضارة الناتجة الأنماط القائمة منذ آلاف السنين بشكل جذري. وكما سنرى في الفصل الثاني، فإن الثراء المالي جعل أعمال الغزو هذه ممكنة. وقد اجتمعت العديد من سمات العالم الحديث لأول مرة في تجربة أجريت في قاعدة استعمارية برتغالية، نتج عنها صناعة أحد أول المنتجات الرأسمالية، وهو السكر.

لاحت أولى بوادر العالم الحديث في جزيرة صغيرة شمال إفريقيا، ظهر فيها نظام جديد لإنتاج الغذاء وتوزيعه، وذلك في ستينيات القرن الخامس عشر. ففي عام

---

(42) كان أسطول الصين في القرن الخامس عشر أكبر وأقوى من الأسطول البرتغالي. إلا أن القوات البحرية الصينية لم تكن مكلفة بتزويد التاج بالعوائد المالية. إن تاريخ العالم الحديث حافل بالصدف، والاستراتيجيات لحل الأزمات بعضها فشل وبعضها الآخر نجح، وكذلك الحلول التي لم تكتشف.

(43) Moore 2009.

1419م، أبصر البحارة البرتغاليون لأول مرة جزيرة صغيرة على بعد لا يتجاوز أربعمائة ميل (644 كيلومتر) غرب الدار البيضاء، وأطلقوا عليها اسم إلها دا مادیرا (بالإسبانية: Ilha da Madeira)، أي «جزيرة الخشب».[44] وذكر الرحالة وتاجر الرقيق ألفيس دا كا دا موستو، (أو كاداموستو اختصاراً)، في عام 1455م أنه «لم توجد مساحة قدم واحد من الأرض إلا وقد غطّتها الأشجار الكبيرة بالكامل».[45] وبحلول ثلاثينيات القرن السادس عشر أصبح من الصعب العثور على أي خشب على الجزيرة إطلاقاً. ومرّت عملية إزالة الأشجار في جزيرة مادیرا بمرحلتين. ففي البداية، كانت الأشجار مربحة عند بيعها أخشاباً لبناء السفن والتشييد. ثم أصبحت الغابة الجرداء مساحة لزراعة القمح وإرساله إلى البرتغال بدءاً من ثلاثينيات القرن الخامس عشر. أما المرحلة الثانية، والتي كانت فيها إزالة الأشجار أكثر فداحة من المرحلة الأولى، فقد تمثلت في استخدام الخشب وقوداً لإنتاج السكر.

يحب البشر، والرئيسيات، وغالبية الثدييات طعم السكر.[46] فمنذ اكتشاف قصب السكر في غينيا الجديدة في عام 6000 قبل الميلاد، أدرك البشر الضروريات البيولوجية للعلاج بالسكر.[47] ويجري حصاد القصب في فترة الذروة، وهو الوقت الذي يكون فيه القصب مكتنزاً بالعصير الحلو، ولكن العشب في ذلك الوقت يكون كثيفاً ويصعب قطعه. وبعد قطع القصب، يُعصر لاستخراج أكبر كمية ممكنة من السكر خلال ثمان وأربعين ساعة فقط.[48] وبعد ذلك تبدأ النبتة بالتعفن.

وهكذا تتطلب الصفات النباتية لقصب السكر سرعة الإنتاج، الأمر الذي

---

(44) Cadamosto (1455) 1937, 9.

(45) Verlinden 1970, 216–17.

(46) تميّز القطط نفسها بعدم اكتراثها للطعم الحلو (Li et al. 2005)، ولكن القطط لطالما كانت غريبة الأطوار.

(47) Van Dillewijn 1952.

(48) Schwartz 2004.

صعّب إنتاج السكر بكميات كبيرة لآلاف السنين. ولهذا يذكر سيدني مينتز أنه «في عام 1226م، طلب الملك هنري الثالث من حاكم ونشيستر أن يجلب له ثلاثة أرطال (1.4 كيلوغرام) من السكر الإسكندراني، في حال كان من الممكن الحصول على هذه الكمية في مرة واحدة من الباعة في سوق ونشيستر الكبير».[49] ولم يكن من السهل زيادة الكمية التي «يمكن الحصول عليها في المرة الواحدة». وللقيام بذلك كان ينبغي للمرء أن يتجاوز الحد الأعلى مما يمكن لعائلة واحدة إنتاجه. وأن يستثمر في طرق وتقنيات جديدة. وكان الفُرس وسكان شمال إفريقيا في الحضارات الإسلامية العظمى، على سبيل المثال، قد اكتشفوا إمكانية استخدام البوتاس (كربونات البوتاسيوم) لإنتاج بلورات سكر أكثر نقاوة، ولذا كان أفضل سكر هو سكر الإسكندرية في مصر، وهكذا فقد اشتهى هنري الثالث هذا النوع بالذات.[50] إلا أن الأمر اقتضى إجراء تجارب جديدة على العمل، والطبيعة، والتجارة، من أجل ابتكار طرق لإنتاج السكر بكميات أكبر من ذلك بكثير.

كان السكر قد وصل إلى أيبيريا مع حلول القرن الرابع عشر، عندما جلبه جيمس الثاني ملك الأراغون (1267-1327)، والذي جلب معه كذلك عبداً مسلماً خبيراً في فن إنتاج السكر. وبحلول عام 1420م، كان السكر يُزرع لأغراض التجارة بتمويل من دور الصرافة الألمانية مثل دار ريفنزبرغر هاندلسغسيلشافت (Ravensburger Handelsgesellschaft)، في مساحات مؤجرة من الأراضي بالقرب من فالنسيا من قبل مجموعة مختلطة من العبيد والعمال المجّانيين معاً.[51] إلا أن السكر ظلّ نادراً – مع وجود سوق مهيّأة له. وفي ستينيات وسبعينيات القرن الخامس عشر، توقف المزارعون في ماديرا عن زراعة القمح، وبدأوا في زراعة السكر حصرياً؛ الكثير والكثير من السكر. واتسعت رقعة تخم السكر الواعد بسرعة كبيرة، إلى الجزر الأخرى في الأطلسي أولاً، ثم على نطاق أوسع إلى العالم

(49) Mintz 1985, 82.

(50) W. Phillips 2004, 29.

(51) المصدر السابق، ص33.

الجديد.[52] ومثل ما تفعل أنظمة المحصول الواحد، كالنخيل والصويا اليوم، فقد أدّت زراعة القصب إلى إزالة الغابات، وضعف خصوبة التربة، وحفّزت انتشار الآفات بسرعة فائقة.[53]

وللوصول إلى هذه السرعة، كان ينبغي إعادة تنظيم الإنتاج، عبر تقسيمه إلى أنشطة أصغر يؤدي كل منها عمال مختلفون. فببساطة لم يكن من الممكن الحصول على عوائد جيدة من العمال المنهكين من قطع القصب ومن ثم قضاء الليل لتكرير السكر. وساعدت الطرق الجديدة للإدارة والتقنيات المستحدثة في نقل تصنيع السكر من آلات الطحن البسيطة (آلات الهاون والمدقة الكبيرة)، ومساحات التخزين الصغيرة، إلى الطواحين ثنائية البكرات، وإنتاج ضخم يعتمد على العبيد في ساو تومي.[54] وقبل أن يسطّر آدم سميث اندهاشه من تقسيم الأيدي العاملة على طول سلسلة الإمداد الخاصة بصناعة دبوس واحد، كانت العلاقة بين البشر، والنباتات، ورأس المال قد صاغت أساسيات التصنيع الحديث، وذلك في حقول القصب. فكانت المزرعة أول مصنع. وفي كل مرة وجدت فيها زراعة السكر تخوماً جديدة، كالبرازيل بعد سان تومي، والكاريبي بعدها، كان ذلك المصنع يُبتكر من جديد، بآلات جديدة وتراكيب جديدة من الزارعة ومطاحن السكر. والأمر الوحيد المفقود في هذه القصة هو البشر الذي قاموا بالعمل. ففي ماديرا كان هؤلاء البشر هم السكان الأصليين من جزر الكناري والعبيد من شمال إفريقيا، وفي بعض الحالات كانوا من عمال المزارع المأجورين من قارة أوروبا.

وكان ريّ المزارع يجري عبر قنوات الليفادا (بالإسبانية: levadas)، وهي قنوات ريّ مصنوعة من الأشجار، والطين، والعرق، والدم. واليوم، ما تزال بعض هذه القنوات التي يصل طولها إلى ألف وثلاثمائة ميل (2100 كيلومتر) موجودة في إحدى الجزر على طول سبعة وثلاثين ميلاً (60 كيلومتر) من أوسع

---

(52) Mintz 1985.

(53) Moore 2007.

(54) Moore 2010e.

نقطة فيها. واستخدم المهندسون المائيون العبيد، بتدليتهم بالحبال في بعض الأحيان، لشق قنوات صغيرة عبر المسطحات الصخرية، إلى مجاري القنوات، وصولاً إلى حقول القصب.[55] ولقي العديد من العمال حتفهم في الانزلاقات الصخرية وانهيارات السدود، إلا أنَّ المهندسين تمكنوا من تحويل مجاري المياه في ماديرا بطريقة فعالة إلى درجة أن أفونسو دي ألبوكيرك، وهو أول دوق في غوا وثاني حكام الهند البرتغالية، طلب إرسال أشخاص من ماديرا من أجل «تغيير مجري نهر النيل».[56] وبتمويل من رأسماليين فلمنديين وإيطاليين، أشرف أرباب عمل من البرتغال على زراعة القصب، وريّه، وحصاده، وتحويله إلى بلورات السكر. واعتمد تحويل سيقان القصب إلى السكر على كميات هائلة من الوقود. إذ كان الأمر يتطلب ما لا يقل عن خمسين رطلاً (23 كيلوغرام) من الخشب من أجل غلي وتقطير ما يكفي من عصير قصب السكر للحصول على رطل واحد (0.45 كيلوغرام) من السكر. ومن أجل تحويل القصب المليء بالسائل إلى الدبس وأقماع السكر، شيّدت المطاحن في أرجاء فانشال، عاصمة ماديرا، والتي كان العبيد ينقلون إليها القصب. وفي أوج مجدها، استخدمت صناعة السكر في ماديرا خمسمائة هكتاراً (1236 فدان) من الغابات كل عام لتغذية المراجل التي كانت تحافظ على تدفق إتاوة السكر إلى البلاطات الملكية في أوروبا. ولكن بعد الازدهار أتى الانتكاس. إذ بلغ المحصول ذروته في العقد الأول من القرن السادس عشر، وتوقفت الأفران عن العمل تدريجياً مع حلول الثلاثينيات، وقد جُرّدت الجزيرة من أشجارها. فتدهور الإنتاج، ووجد المستثمرون أرباحاً أكبر في السكر المزروع بكميات كبيرة باستخدام العبيد، والذي كان وقود تكريره يأتي من غابات العالم الجديد.[57] فأكَل أثرياء أوروبا السكر، وأكل السكر الجزيرة.

---

(55) Ramsey 1920.

(56) Afonso de Albuquerque، مقتبس في Vieira 2004، 45.

(57) انهارت ماديرا في عشرينيات القرن السادس عشر واستولت عليها سان تومي في خمسينيات السادس عشر، والتي انهارت هي بدورها واستولت عليها بيرنامبوكو في تسعينيات القرن السادس عشر، والتي انهارت واستولت عليها باهيا في ثلاثينيات القرن السابع عشر، والتي انهارت واستولت عليها

لم تغادر الرأسمالية ماديرا – بل أعادت صنع نفسها.[58] ومع عدم توفّر وقود ميسور التكلفة (فقد كانت الأشجار الوحيدة المتبقية في الجزيرة داخل الجزيرة ولا يمكن الوصول إليها لقطعها بكميات كافية)، نشأت استراتيجيات جديدة لاعتصار الربح من الجزيرة المنكوبة. وبعد السكر جاء النبيذ الذي زُرع على أنقاض صناعة القصب. وكان العنب يتطلب قدراً أقل من العمل، والماء، والوقود، مما كان يتطلبه القصب. لكن النبيذ كان بحاجة إلى البراميل الخشبية، ولذلك أصبح الخشب الذي تصنع منه براميل ماديرا يُجلب على مدى قرون من أكثر المصادر اقتصاداً، وهي غابات العالم الجديد الرخيصة. وتدفقت السلع بالاتجاه المعاكس أيضاً، إذ كانت ماديرا ممراً لتجارة الرقيق عبر الأطلسي حتى القرن الثامن عشر.[59] ومؤخراً بدأت الجزيرة غي إعادة صنع نفسها، إذ تستخدم اليوم ذلك التاريخ المظلم مصدراً للدخل عبر السياحة.[60] إلا أنه مع نهاية اقتصاد السكر في ماديرا، نشأت اقتصادات جديدة في مكان آخر، وتشكّلت الجزيرة بفعل قوى أقل وضوحاً من اشتهاء المذاق الحلو، وتشكّل معها الكوكب.[61]

التخوم والرُّخص

تعطينا هذه الصورة التي تصف تخماً استعمارياً في ماديرا لمحة حول الطريقة التي كانت الرأسمالية ستعمل بها خارجها. وقبل أن نسهب في تحليل قصة السكر والجزيرة، نحن بحاجة إلى توضيح سبب اقتناعنا بأهمية تحليل التخوم. فعند تصوّر انتشار الرأسمالية، فإن الصورة التي تقفز إلى الذهن عادة هي صورة اصطدام كوكب ما بالأرض، أو انتشار أحد الأمراض، حيث يبدأ الأمر من نقطة الصفر، أو من المريض الأول، ومن ثم يتفشى عبر الكوكب بأسره. أما التخوم الرأسمالية

باربادوس في ثمانينيات القرن السابع عشر، والتي انهارت واستولت عليها جامايكا وهاييتي خلال الفترة من عشرينيات إلى خمسينيات القرن الثامن عشر.

(58) Bulbeck et al. 1998.

(59) Thomas 1997.

(60) Dann and Seaton 2001; Spinola et al. 2002.

(61) Mintz 1985 هو مصدر ممتاز لشرح الكيفية التي حول بها السكر الكوكب.

فتستلزم خيالاً علمياً أكثر تعقيداً. فلو كانت الرأسمالية مرضاً، لكانت من النوع الذي ينهش لحمك، ثم يتربّح من بيع عظامك لاستخدامها في الأسمدة، ومن ثم يستثمر ذلك الربح في حصاد محصول القصب، ثم يبيع ذلك الحصاد للسوّاح الذين يدفعون المال من أجل زيارة ضريحك.[62] وحتى هذه الصورة لا تفي الوصف حقه من الدقة. فالتخم لا يعمل إلا من خلال الاتصال بتخم آخر، ليسد ثغراته عبر امتصاص الحياة من مكان آخر. والتخم مكان تحفّز فيه الأزمات استراتيجيات جديدة للربح. فالتخوم تعتبر تخوماً لأنها مناطق يلتقي فيها رأس المال بكافة أشكال الطبيعة – بما في ذلك البشر. ولذا فهي دائماً تتمحور حول تقليل التكاليف اللازمة للأعمال. وليست التخوم جزءاً من الرأسمالية فحسب، بل إنه لا وجود للرأسمالية إلا **من خلال** التخوم التي تمتد عبرها من مكان إلى آخر، فتحدث التغيّرات في العلاقات الإيكولوجية الاجتماعية، وتنتج المزيد والمزيد من أنواع السلع والخدمات التي تنتشر عبر سلسلة ممتدة من التبادلات. ولكن الأهم من ذلك هو أن التخوم هي أماكن تُمارس فيها السلطة، وهي سلطة لم تقتصر فقط على السلطة الاقتصادية. إذ تمارس الدول والإمبراطوريات من خلال التخوم العنف، وتستخدم الثقافة والمعرفة من أجل تسخير الطبيعة بتكلفة زهيدة. وهذا الترخيص هو ما يرسّخ أهمية التخوم في التاريخ الحديث، ويهيئ لأسواق الرأسمالية المترامية الأطراف. ويعطينا ذلك دليلاً قيّماً على مفهوم الإنتاجية وطريقة ممارستها. وبينما أخذ تاريخ الرأسمالية الدموي والاستبدادي حقه في البحث والمناقشة، إلا أن حقيقة واحدة غابت عن الأذهان، وهي أن الرأسمالية لم تزدهر لأنها عنيفة ومدمِّرة (وهي بالفعل كذلك)، بل لأنها إنتاجيّة بطريقة خاصة.[63] إذ لا تزدهر الرأسمالية بتدمير الطبيعة، بل باستغلالها، بأقل تكلفة ممكنة.

وتستفيد الرأسمالية عبر تخومها من مجموعة كبيرة من علاقات صناعة الحياة وتتحكم بها. وهذه العلاقات أكبر مما يظهر في حسابات الموازنة الخاصة بالربح

(62) Dann and Seaton 2001.

(63) هذا هو الافتراض غير المعلن وراء وصف Schumpeter 1976 للدمار الإبداعي للرأسمالية.

والخسارة. ولا توجد كلمة في اللغة الإنجليزية تصف عملية صناعة الحياة، على الرغم من وجود كلمات مماثلة في مجموعة من اللغات. إذ يستخدم شعب الأنيشينابيغ الذي كانت أراضيه الشاسعة تمتد عبر أمريكا الشمالية كلمة «مينوبيماتيسيوين» (minobimaatisiiwin)، والتي تعني «الحياة الجيدة»، وتعني أيضاً "ولادة جديدة مستمرة" لعلاقات تبادلية ودورية بين الإنسان وأشكال الحياة الأخرى.[64] وفي لغات البانتو في جنوب إفريقيا توجد كلمة «أوبونتو» (ubuntu)، وهي الرضى الإنساني عبر التآزر. أما كلمة «أوكاما» في لغة الشونا، فتعني فكرة أبعد، وهي «الارتباط مع الكون بأكمله»، بما في ذلك العالم الفيزيائي الحيوي.[65] ونجد معان مشابهة في ترجمة مصطلح «شي شي وو آي» (shi-shi wu-ai) في الصينية، وكلمة «ماوري» (mauri) في لغة الماوري.[66] ومع غياب كلمة مناسبة في اللغة الإنجليزية، سنستخدم فكرة «أويكيوس» (oikeios). وتشير كلمة «أويكيوس» إلى الاندفاع الإبداعي في صنع الحياة. وهو اندفاع متعدد المستويات تتدفق من خلاله كل أشكال النشاط الإنساني التي تشكّلها في كل منعطف طبيعة تستمر في التملّص من جهود الإنسان الرامية للتحكم بها. ومن خلال مفهوم «أويكيوس» تنشأ أشكال محددة من الحياة، ومن خلاله تصنع الكائنات البيئات، وتصنع البيئات الكائنات. وبالمثل، فإن اندفاع الحضارة الإنسانية لا يشغل حيزاً من البيئات وحسب، بل ينتجها، وتنتجه هي خلال ذلك أيضاً.[67]

إنّ كلّ ما ينتجه الإنسان من غذاء، ولباس، وبيوت وأماكن عمل، وطرق وسكك حديد ومطارات، وحتى الهواتف والتطبيقات تشارك في إنتاجه سائر الطبيعة. ومن السهل نسبياً فهم كيف تمزج الفلاحة مثلاً بين عمل البشر والتربة،

---

(64) LaDuke 1994.

(65) Le Grange 2012.

(66) Bamhill 2005; L. Williams 2012, 95.

(67) Levins and Lewontin 1985; Moore 2015.

وتمزج أيضاً بين كافة أنواع العمليات الفيزيائية والمعرفة الإنسانية. وكلّما زاد حجم العمليات، كان من الأسهل النظر إلى العمليات «الاجتماعية» و«الطبيعية» وكأنها عمليات مستقلة بعضها عن بعض. فاستيعاب الارتباط المباشر مع التربة وعمل سوق الفلاحين أسهل إلى حد ما من استيعاب الارتباط مع الأسواق المالية العالمية. إلا أن الطبيعة تشترك في صناعة وول ستريت بالقدر ذاته الذي تشترك به في صناعة سوق الفلاحين. وبالفعل، فإن وول ستريت تنخرط في شبكة من العلاقات الإيكولوجية العالمية التي لا يمكن لأي حضارة سابقة تصوّرها، وذلك بفعل العمليات المالية العالمية التي تجريها. فالفصل بين البشر والطبيعة لا يصنع التاريخ، بل إنه يُصنع من خلال الأشكال المتطورة والمتنوعة لكل منهما. والعلاقات «البشرية» المتعلقة بالسلطة والاختلاف، والإنتاج وإعادة الإنتاج، لا تُنتج الطبيعة فحسب؛ بل إنها بحد ذاتها من إنتاج الطبيعة. فعلى سبيل المثال، يوجد نوع من البعوض يُسمّى علمياً (Culex pipiens)، وهو يسكن مترو أنفاق لندن. وقد تكيّف هذا النوع من البعوض مع العالم المظلم للركّاب اليوميين البريطانيين إلى درجة إنه لم يعد بإمكانه التزاوج مع أقرانه العلويين – وهكذا نتج نوع جديد من البعوض يسمى علمياً (Culex pipiens molestus).[68] ويعتبر هذا النوع الجديد من البعوض الذي نشأ بفعل النشاط الإنساني تعويضاً بسيطاً عن أنواع البعوض التي دمّرها العمل الجاري في مدينة لندن، (وهي وول ستريت بالنسخة البريطانية) والذي يقوم به نفس الركاب الذين يتغذى هذا البعوض على دمائهم.

إن العلاقة بين الشبكة الأكبر للحياة والرأسمالية هي موضوع هذا الكتاب. وتترسخ تخوم الرأسمالية دائماً ضمن عالم أكبر بكثير من صنع الحياة. فبالنسبة إلى الرأسمالية، فإن المهم هو أن تكون الأرقام التي تدخل دفاتر الحسابات – لدفع أجور العمال، وتزويد العمال بالغذاء الكافي، وشراء الطاقة والمواد الخام – متدنية قدر الإمكان. ولا تقدّر الرأسمالية قيمة أي شيء سوى ما تتمكن من إحصائه، ولا

(68) Bull and Maron 2016.

يمكن لها إحصاء أي شيء سوى الدولارات. ويريد كل رأسماليّ أن يستثمر أقل ما يمكن ويربح أكثر ما يمكن. وبالنسبة إلى الرأسمالية فإن ذلك يعني أن النظام بكامله يزدهر عندما تتمكن الدول العظمى والرأسماليون من إعادة تنظيم الطبيعة، واستثمار أقل ما يمكنهم، وتلقّي أكبر قدر ممكن من الغذاء، والعمل، والطاقة، والمواد الخام، بأقل تعطيل ممكن.

قد يتمتم الاقتصاديون في هذه المرحلة بمصطلح «العوامل الخارجية»، وهم يتساءلون لماذا لم نقرأ لخبراء الاقتصاد الأوائل في مجال العوامل الخارجية، وهم آرثر سيسيل بيجو وجيمس ميد.[69] ولكننا قمنا بذلك، ولذلك نحن نكتب هذا الكتاب. وفي علم الاقتصاد، يُعرّف العامل الخارجي على أنه تكلفة أو منفعة، خاصة أو اجتماعية، لا تظهر في حسابات الإنتاج. ولكننا هنا نناقش فكرة نشأة العالم الحديث من محاولات ممنهجة لحل الأزمات في التخوم، وهي أزمات ناتجة عن إقحام حياة البشر وغير البشر في تلك الحسابات. ظهر العالم الحديث لأن العوامل الخارجية قامت بهجوم مضاد.[70]

الرأسمالية ليست نظامًا تكون فيه الأموال في كل مكان، بل هي نظام تكون فيه جزر من التبادل المالي موجودة في محيطات من الطبيعة الرخيصة، أو التي من المحتمل أن تكون رخيصة. كما أن إعادة إنتاج الحياة داخل هذه الروابط المالية باهظة الثمن، ويزداد ثمنها مع مرور الزمن. ومن الممكن تجميد أجور العمال، أو حتى إيقافها، ولكن في نهاية الأمر، يُعجِّلُ انعدام المساواة وقوعَ أزمات من النوع الذي يُحدث كما رأينا المظاهرات الشعبية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة. إذ يطالب العمال بالكرامة، فيصبح عملهم باهظ الثمن. وتستمر عمليات الإنتاج في الجزيرة، فلا تعود الطاقة رخيصة. ويتغير المناخ، فلا تعود المحاصيل تنمو بالوفرة التي كانت عليها يومًا ما. كما أنَّ التُّخوم مهمة في هذه العمليات لأنها توفر أماكن يمكن فيها الاستيلاء على أشياء رخيصة جديدة، واستغلال اليد العاملة وغيرها

(69) Pigou 1920; J. E. Meade 1952.

(70) على سبيل المثال، Martinez-Alier 2014.

من أشكال الطبيعة قسرًا.

وهكذا نصل إلى ما نعنيه بكلمة **الرخص**، وهي مجموعة من الاستراتيجيات لإدارة العلاقات بين الرأسمالية وشبكة الحياة عبر الحل المؤقت لأزمات الرأسمالية. والرخيص لا يعني منخفض التكلفة، وإن كان ذلك جزءًا من الأمر. الرخيص يعني استراتيجية، أو ممارسة، أو عنفًا ما من أجل الاستفادة من كافة أشكال العمل – العمل البشري، والحيواني، والنباتي، والجيولوجي – بأقل مقابل ممكن. ونستخدم كلمة **رخيص** لنتحدث عن العملية التي تنقل من خلالها الرأسمالية علاقات صنع الحياة غير محددة القيمة في دوائر الإنتاج والاستهلاك التي يصبح فيها لهذه العلاقات أقل سعر ممكن. ويحدد الترخيص الانتقال من علاقات صناعة الحياة غير المعدودة إلى أقل قيمة ممكنة للدولار. وهي استراتيجية دائما ما تكون قصيرة المدى. ولطالما كان الرخص ساحة للمعارك. ويساعدنا استطلاع هذه الأشياء السبعة الرخيصة في أن نرى أفق الإمكانيات بوضوح. كما يساعدنا على استيعاب التحديات في النزاعات الاجتماعية اليوم، والإصلاحات التي يلزم القيام بها ليكون تضامننا هادفًا. ومن خلال تحليل المال، والعمل، والرعاية، والطاقة، والغذاء، وحياة الأشخاص، والأهم من هذا وذاك الطبيعة، فإننا نضع طريقة جديدة لفهم ما نسميه الإيكولوجيا الرأسمالية، وهي مزيج من العلاقات التي توضِّح كيفية عمل العالم الحديث. لم هذه السبعة بالذات؟ لا يمكننا الحديث عن أقل منها، ومع أن ثمة المزيد، إلا إن كلًّا منها كان حاضرًا في مطلع إيكولوجيا الرأسمالية. وهي بداية جيِّدة لمشروع تفسير العالم وتغييره. والآن حان الوقت لكي نستطلع أهمية كلٍّ منها في ماديرا.

الطبيعة

عندما حلّ المستوطنون بماديرا، أحضروا معهم أنواعًا من الكائنات الحية الدخيلة. ففي إحدى الجزر الأصغر حجمًا، وهي بورتو سانتو (والتي كان أول سيّد فيها هو والد زوجة كولومبوس)، سرعان ما أفلتت الأرانب من أسرها

والتهمت النباتات المحلية. وتلتها العديد من الاجتياحات الأخرى. وكانت أحد أنواع الحلزون التي تعيش في ماديرا (الاسم العلمي: Caseolus bowdichianus) قد انقرضت خلال قرن واحد من الاستعمار. إلا إن السجلات تشير إلى أن غالبية حالات الانقراض في ماديرا حصلت على مدى القرنين الماضيين – ليس خلال الهجمة الاستعمارية الأولى، بل بعدها، حين قضت موجات متتالية من أنواع الكائنات الغريبة والرأسمالية الزراعية على ملايين السنوات من التطور.[71]

لقد عوملت الأشجار، والمياه، والتربة، والحيوانات، والنباتات، في ماديرا ومياه البحر حول الجزيرة وكأنها «هدايا مجانية»، وحوّلت إلى سلسلة من الإسهامات في الإنتاج أو العقبات في طريقه.[72] وفي بحثه المؤثر حول الصيد الجائر للأسماك، «الحيد المرجاني منذ كولومبوس»، يذكر جيرمي جاكسون كيف قضى البشر على الحياة منذ الوقت الذي وصل فيه كولومبوس الشاب إلى ماديرا.[73] وينتهك البشر باسم الرأسمالية الأنظمة الحيوية التي نحن جزء منها، والتي نعتمد عليها. فمثلًا يسرُّ الرأسماليون على اعتبار المحيط مرفقاً لتخزين المأكولات البحرية التي لم نصطدها بعد، وبالوعة لتصريف المخلفات التي ننتجها على اليابسة. وعما قريب سيختل التوازن بين الغذاء والنفايات. ومع حلول عام 2050م، أي بعد استخراج آخر كمية تجارية من صيد السمك، سيكون في البحر بلاستيك أكثر من السمك.[74] والتفسير الواهي هنا هو أنَّ البشر يخلّفون الدمار. ولكن الطبيعة أكثر من مجرد مجموعة من الموارد أو سلة نفايات.[75] وأحد أهم الأسباب التي جعلتنا نبدأ قصتنا في أحد تخوم الإمبراطورية البرتغالية هو أن ماديرا توضح بشكل جلي

---

(71) Goodfriend, Cameron, and Cook 1994.

(72) لطالما اعتبرت الرأسمالية عمل الطبيعة "هدية مجانية" – وهو مصطلح ظهر في تحرير إنغيل لماركس (1967أ، ص745). وفي الحقيقة فإن عمل الطبيعة – بما في ذلك الطبيعة البشرية – ليست "مجانية" ولا "هدية" لرأس المال.

(73) J. Jackson 1997.

(74) Worm et al. 2006 ؛ المنتدى الاقتصادي العالمي 2016.

(75) Moore 2014.

ما يحدث عندما يتحكم طلب الربح في التفاعل الحيوي للبشر في شبكة الحياة.

وإذا ما كان مصير الربح أن يحكم الحياة، فإن ذلك كان يتطلب حدوث تحول في الحالة الفكرية: وهو الانقسام المفاهيمي بين الطبيعة والمجتمع. وكان ذلك تحولًا مصيريًّا، ولكنه بدا باهتًا بجانب نشأة السوق العالمية، وإخضاع الأمريكيتين، وحرمان القرويين من الملكية. إلا أنَّ ما لا يقل أهمية عن ذلك هو التحوّل في كيفية فهم بعض البشر للطبيعة ككل، وطريقة التأثير فيها. ومن المهم أن نوضّح أن ذلك كان شأن **بعض** البشر – المسؤولين عن السيطرة عن عالم لا يعد سوى الدولارات والتسويق له. قد نكون جميعًا في ذات القارب فيما يتعلق بالتغيّر المناخي، إلا أنَّ أغلبنا يبحر في الدرجة الثالثة. وهذا التحديد مهم لسببين رئيسيين. أولهما أن ذلك يساعدنا في تحديد المسؤولية والنظر إلى الطبقات الاجتماعية والعلاقات التي تتربح من هذا الفصل بين الطبيعة والمجتمع. وثانيهما، وهو الأهم، أن «فصل» البشر «عن الطبيعة» قد تشكّل بناء على عملية من الإقصاء الضخم. وقد أعطتنا نشأة الرأسمالية فكرة ليس فقط حول الاستقلالية النسبية للمجتمع عن شبكة الحياة، بل أيضًا أن معظم النساء، والشعوب الأصلية، والعبيد، والشعوب المستعمرة في كل مكان لم يكونوا بشرًا تمامًا، ولذا فإنهم لم يكونوا أعضاء فاعلين في المجتمع. فكان هؤلاء أشخاصًا غير بشريين، أو بالكاد بشرًا. فكانوا جزءًا من الطبيعة، وعوملوا على أنهم منبوذون اجتماعيًّا، فكانوا **مرخّصين**.

وقد مهَّد انفصال الطبيعة عن المجتمع، والهمجيين عن المتحضرين، الطريق لخلق أشيائنا الرخيصة الأخرى، كما سنناقش ذلك في الفصل الأول. وقد أعيدت صناعة الطبيعة، وأعيد ابتكارها، وأعيد التفكير فيها مرات عديدة على مدى القرون الخمسة التالية. وحددت ممارسات الرأسمالية المتعلقة بالطبيعة مَن حياته مهمة، ومَن عمله مهم – ومَن حياته غير مهمة وعمله غير مهم. وحدَّدت أفكار الرأسمالية السائدة، حول الطبيعة والمجتمع، من سيكون لعمله قيمة، ومن سيكون عمله غير مرئي (مثل رعاية الصغار والكبار، ورعاية المرضى وذوي الاحتياجات الخاصة، والعمل الزراعي، وعمل الطبيعة غير البشرية -الحيوانات، والتربة،

والغابات، وأنواع الوقود). وقد حقّقت كل ذلك عبر تداول المال، والذي اعتمدت قيمته على الفتوحات والإخضاع على المستوى العالمي. وقد شهدت عصور متتابعة التحكم في الغذاء لتغذية العمال، والتحكم في الطاقة لجعل العمال أكثر إنتاجية. وهكذا فإن الأشياء الرخيصة ليست أشياء حقاً، بل هي استراتيجيات تبنّتها الرأسمالية لتجاوز الأزمات والتعامل معها، ومناورات هي في ظاهرها كيانات حقيقية ومستقلة بفعل الخطيئة الأولى وهي الطبيعة الرخيصة.[76]

المال

المال هو الوسط الذي تعمل خلاله الرأسمالية، وهو مصدر السلطة لمن استطاع التحكم به. ولا يتعلّق ذلك التحكم بالأشخاص والثروة فحسب، بل إن الأمر يتعلق بتداخل هذا التحكم مع الطبيعة. فإذا كانت الحداثة عبارة عن إيكولوجيا السلطة، فإن المال يربط النظام البيئي بعضه ببعض، ويشكل ذات النظام البيئي هذا المال. ويعتمد المال على الحضارة والقوة ليصبح رأسمال. أي إنه هو ما يربط بين العامل والرأسمالي ويفصل بينهما، وبين المناطق الغنية والمناطق الفقيرة – أي العالم الشمالي والعالم الجنوبي باستخدام مصطلحات اليوم. ويعزّز المال الدول القومية والإمبراطوريات، إذ ينظمها ويعتمد عليها. وإذا ما نظرنا إلى التاريخ بهذه الطريقة فإننا نبتعد عن رؤية العالم الحديث بصفته مجموعة من الدول، ونقترب أكثر من رؤيته بصفته نظامًا عالميًّا من رأس المال، والسلطة، والطبيعة. كما إنه يدفعنا للتفكير في هذه العمليات على مدى قرون – وليس على مدى عقود.[77]

وكان إيمانويل وولارستين أول من قدّم بعض عناصر هذه المقاربة في سبعينيّات القرن العشرين. حيث بيّن أنَّ الرأسمالية نتجت عبر سلسلة متعاقبة من التحوّلات السياسيَّة والاقتصادية التي تشكّل خلالها انقسام جديد وغير متكافئ بشكل صارخ بين القوى العاملة. وكان ضمن تصوراته الرئيسية تصوران لهما صلة خاصة

---

(76) Abulafia 2008.

(77) Wallerstein 1974, 347; Abu-Lughod 1989; McMichael 2000.

بهذا الكتاب. الأول هو أن عدم المساواة على مستوى العالم هو عملية متعلقة بالطبقة الاجتماعية أدت إليها قوى سياسية وقوى متعلقة بالسوق. والثاني هو أن الإنتاج والتراكم كانَا قد خضعَا إلى إعادة تشكيل عبر إعادة صنع الطبيعة بشكل جذري.[78] وإذ كان الباحثون السابقون قد تجاهلوا إصرار وولارستين على أن الرأسمالية هي إيكولوجيا، فإننا نستعين بفكره لنوضِّح كيف تجلّى كلّ من العمل والسلطة في الطبيعة في الكوكب – في تحوُّلات شاملة هي ما يشكّل إيكولوجيا. ولأننا مهتمون في القوى التي تحكم العلاقات الاجتماعية الإيكولوجية عبر المسافات، فيتضح هنا سبب الأهمية الكبيرة للمال.

مكتبة سُر مَن قرأ

إذا ما نظرنا من خلال منظور تاريخي عالمي، فإن التفاصيل التاريخية البسيطة تصبح جوهرية. وأحد الأمثلة على ذلك هو العلاقة بين الصيرفة في جنوى في القرن الخامس عشر، والإيكولوجيا في مادیرا، وأزمة الكوكب اليوم. إذ يحب البشر مذاق السكر. ويحتاج السكر إلى الماء. وكان الري في مادیرا يحتاج عملًا، وكان هذا العمل يحتاج إلى تمويل. إذ لم يكن شراء العبيد، ونقلهم، وإعالتهم بالأمر الرخيص، كما كان الأمر يستغرق موسمًا كاملًا من أجل تغذية القصب بالماء، وحصاد القصب ومعالجته لصنع السكر، وبيعه في أوروبا القارية، واستبدال الفضة به، ومن ثم شراء التوابل من آسيا. وفيما بين ذلك كله كان هنالك ائتمان ودين وتدفق للأموال في السلع، وكانت جنوى، دولة المدينة الإيطالية، مركزًا لكلِّ ذلك.

المال بحد ذاته ليس رأسمال. **رأس المال** هو اختصار صحفي للمال، أو الأسوأ من ذلك، لمخزون من شيء ما يمكن تحويله إلى شيء آخر. وإذا كنتم قد سمعتم بمصطلح **رأس المال الطبيعي** أو **رأس المال الاجتماعي** أو استخدمتم أي منهما، فاعلم أنك كنت جزءًا من التباس كبير.[79] إذ إن المخزون غير المستخدم من الأشجار غير المقطوعة والمهارات التي لم تستغل لا تعتبر رأسمال. وبالنسبة إلى ماركس وإلينا أيضًا، لا ينشأ رأس المال إلا من خلال التحويل الحي للمال إلى سلع،

(78) Wallerstein 1974, 44 . أنظر أيضاً Moore 2003a .

(79) أنظر على سبيل المثال Fine (2001) وهو يسخر من نظرية "رأس المال الاجتماعي" الهرائية.

ومن ثم إلى مال مجدَّدًا. فالمال المدسوس تحت مرتبة السرير معدوم بالنسبة إلى الرأسمالية، حاله في ذلك كحال المرتبة نفسها. فلا تكون الرأسمالية إلا من خلال التداول الحي لهذا المال في العلاقات المحيطة به.

تُحوّل عمليات التبادل والتداول المالَ إلى رأسمال. وفي صلب **رأس المال** الماركسي نموذج بسيط وفعَّال، وهو أن الرأسماليين يجمعون في الإنتاج والتبادل بين القوى العاملة، والآلات، والمواد الخام. ومن ثم يجري بيع السلع الناتجة عن ذلك. وإذا ما جرت الأمور على ما يرام، يكون هنالك ربح، ويلزم بعد ذلك إعادة استثمار هذا الربح في كمية أكبر من القوى العاملة، والآلات، والمواد الخام. ولا تعتبر السلع ولا المال رأسمال. بل إن هذه الدائرة **تصبح** رأسمال عندما يتغلغل المال في إنتاج السلع، في دائرة آخذة في الاتساع أكثر وأكثر. فرأس المال هو عملية يتدفق فيها المال عبر الطبيعة. وتكمن المشكلة هنا في أنَّ رأس المال يفترض الاتساع اللانهائي ضمن شبكة حياة محدودة. وينهر ماركس خبراء الاقتصاد الذين يعتقدون أن مهنتهم تفسر الأسواق من خلال العرض والطلب، في حين أنَّ هذين الأمرين بالأخص يستلزمان الشرح والتوضيح. ويستوجب فهم هذين القوتين استقراء الأسواق من خلال «الكل العضوي» للإنتاج والتبادل.[80] ويسلب ذلك الكل العضوي من العامل حياته، تمامًا كما يُضعف تربة المزارع الرأسمالي.[81]

إن هذه الدورة التي تتضمن تحويل المال إلى سلعة ومن ثم إلى المال مجددًا ليست مجرد وجهة نظر تجاه رأس المال. بل إنها عدسة يمكن من خلالها مشاهدة إسقاطات أكبر من ذلك بكثير في نشأة الإمبراطوريات والقوى العظمى وانهيارها، على المدى البعيد بالأسلوب الفرنسي في دراسة التاريخ (بالفرنسية: longue durée).[82]

---

(80) Marx 1973b, 33.

(81) Marx 1976, 376.

(82) Arrighi and Moore 2001.

ملاحظة من المترجم: الأسلوب الفرنسي في دراسة التاريخ (بالفرنسية: longue durée) هو منظور للتاريخ يمتد في الماضي إلى أبعد من الذاكرة البشرية وسجل الآثار. بحيث يتضمن علم المناخ، والديموغرافيا، والجيولوجيا، وعلم المحيطات، ويستعرض آثار الأحداث التي تحدث ببطء شديد بحيث لا يدركها من

ولنتذكر أن الرأسمالي يربح المال بطبيعة الحال بعد إنتاج السلع وبيعها. وتتطلب الحاجة الدائمة لتحقيق الأرباح أن تدر هذه الأرباح بدورها عوائد مجزية. ويسبب ذلك مشكلة، إذ يميل مقدار رأس المال إلى النمو بوتيرة أسرع من فرص استثماره على نحو مربح. ولذا تتكرر الفقاعات المالية في تاريخ العالم الحديث – والفقاعات المالية هي ما يحدث عندما تتدفق رؤوس أموال كبيرة في قطاع اقتصادي ما، مثل الرهن العقاري للمساكن قبل الأزمة المالية في 2008م. وتساعد الإمبراطوريات في حل هذه المشكلة. فعلى المدى البعيد، تقوم الإمبراطوريات بفتح تخوم جديدة. أما على المدى القصير، فعندما يتباطأ الربح، فإنها تتجه للحروب – وتستدين للقيام بذلك. ويسر المصرفيون بالإقراض لأن الفرص الأخرى لتحقيق الربح تكون ضئيلة نسبياً، بالإضافة إلى أن الدول غالباً ما تكون جيدة في الائتمان. كما أن الدول تمتلك جيوشاً متأهبة للحرب، على حساب الدولة، من أجل الدفاع عن عملة آمنة وذات قيمة. وتؤدي العلاقات بين المصرفيين والحكومات على المدى القصير إلى تكرار الاستثمار، وعلى المدى المتوسط إلى تركيز الثراء والعوائد في القطاع المالي، وعلى المدى الطويل إلى نشأة القوى التجارية المتمركزة في مدينة، أو دولة، أو نظام دولي ما، وكذلك انهيارها.[83]

وفي ذلك المنحنى، يستفيد بعض الأشخاص بشكل كبير، بينما بالكاد يتدبر آخرون أمرهم، أو أسوأ من ذلك. وقد أثارت أفكار توماس بيكيتي بشأن تجاوز عوائد الاستثمار نمو الناتج المحلي الإجمالي في العالم الشمالي اهتماماً كبيراً في الآونة الأخيرة، ولكن هذه الأفكار تنتمي إلى فئة قديمة من التصورات حول كيفية ارتباط القطاع المالي بسائر إيكولوجيا الرأسمالية تحت أنظمة الدول المتعاقبة.[84]

يعيشها، مثل تغيّر طبيعة الكوكب أو الزيادة الثابتة في التعداد السكاني في منطقة ما. (Oxford Reference)

(83) Arrighi 1994.

(84) Piketty 2014; استخدام جداول الرواتب بدلاً من سجلات الضرائب، Galbraith and Hale 2014: باستخدام أسلوب مختلف ونتائج مقاربة، Veblen (1899) 1973.

وليست الرأسمالية مجرد مجموع التعاملات «الاقتصادية» التي تحوّل المال إلى سلع ثمَّ إلى مال مجدداً؛ بل هي جزء لا يتجزأ من الدولة الحديثة، ومن سيادة الحكومات والتغييرات التي تحدثها في الطبيعة، والبشر، وغيرهما. كما أن نوبات التوسع والانهيار في رأس المال جوهرية من أجل فهم كيفية تطوّر الرأسمالية، كما سنناقش في الفصل الثاني. ومن خلال تقدّم المموّلين الذين كان هدفهم تشكيل استثماراتهم والتربح منها، تؤثر إيكولوجيا الرأسمالية اليوم في كل جزء في إيكولوجيا الكوكب.[85] وتبدأ قصة المال وكيف أصبح يحكم حياة البشر وجزءاً كبيراً من حياة الكوكب بغزو ثروات العالم الجديد. إذ حوّل التحالف غير المقدس بين الإمبراطوريات الأوروبية، والغزاة، والمصارف، الطبيعة في العالم الجديد إلى سلع ورساميل. وقد احتاجت إيكولوجيا الرأسمالية في الأساس طرقاً جديدة لإدارة البشر، وأجسادهم، والموارد التي يحتاجونها للبقاء على قيد الحياة. ولأن المال لا يتحوّل إلى سلع من تلقاء نفسه، فمن أجل ذلك نحن بحاجة إلى أيد عاملة.

العمل

في بداية الأمر، قام أصحاب مزارع السكر في ماديرا البرتغاليون، والجنويون، والفلمنكيون، بإحضار شعب الغوانش لفلاحة أراضيهم. وكان الغوانش أحد الشعوب الأصلية في جزر الكناري. وتكشف بعض الوصايا العائدة إلى القرن الخامس عشر أن أصحاب الأراضي كانوا يهبون أبناء الغوانش لورثتهم.[86] ووقع العمال من أبناء الشعب الأصلي ضحية للأمراض والوحشية الأوروبية. ثم جاء مزيج من العمال المأجورين والعبيد من شمال إفريقيا ليحلّوا محلهم ويزيدوا عليهم. وقد كان أسلاف عبيد شمال إفريقيا قبل ذلك بوقت قريب يكسبون لقمة عيشهم من زراعة الكفاف، ولكنهم وصلوا إلى ماديرا نتيجة لاستعبادهم أو إخراجهم من الأراضي التي كانوا يقومون بفلاحتها يوماً ما. وكانت ماديرا موقعاً ميدانياً

(85) Arrighi and Moore 2001.

(86) Vieira 1996.

لاختبار حدود التحمل البشري والقوة البشرية، ولكنها كانت أيضاً مكاناً لتجربة تقنيات جديدة للنظام، والعمليات، والتخصصات، والتي استخدمت فيما بعد – بعد ذلك بقرون – في مصانع إنجلترا. ولا نعرف ما يكفي عن الطريقة التي قاوم بها العمال في ماديرا أسيادهم وأرباب عملهم، سواء كانوا من العبيد أو الأحرار. وقد جرى توثيق القليل عن الطريقة التي حاربوا بها النظام الذي جعلهم يعملون حتى الموت وأضعف التربة التي عملوا عليها.[87] ولكننا نعلم أنهم قاوموا، وأن محاولاتهم للتصدي لظروف استغلالهم قد أثارت ما يكفي من الأزمات لتحظر السلطات على العبيد العيش لوحدهم أو العيش مع الأحرار في عام 1473م.[88]

إن أحداث قصة الأشياء الرخيصة والأزمات التي تلت ترخيصها ليست أحداثاً حتمية. إذ يستطيع البشر أن يقاوموا، وهم يقاومون بالفعل. وبعد ذلك يحاول الرأسماليون التعامل مع هذه المقاومة باستخدام مجموعة من الإصلاحات الرخيصة. وتثير هذه الإصلاحات بشكل حتمي أزماتها الخاصة، وبالتالي، المزيد والمزيد من الآليات المتطورة للتحكم وفرض النظام.[89] وهذه المعاناة الطبقية محرك أساسي للتغيير في الإيكولوجيا الرأسمالية. ومع أننا نعرف القليل عن تمرد العبيد في ماديرا، إلا إننا نعرف أنه مع نهاية طفرة صناعة السكر، جرى تحسين تقنيات العبودية والزراعة، وتصديرها عبر المحيط الأطلسي، إلى ساو تومي أولاً، حيث أضرم عدد من العبيد الهاربين (يطلق عليهم أنغولاريس، بالإسبانية: Angolares) النار في مطاحن السكر في الجزيرة وحاصروا عاصمتها لأسبوعين في عام 1596م.[90] ونعلم أيضاً، كما سنناقش في الفصل الثالث، أن في معارضة

---

(87) Moore 2003a.

يُعرّف الاستغلال الآني للأيدي العاملة والطبيعة وانسلاخ الطبيعة المكملة لإيكولوجيا الرأسمالية بمسمى "الصدع الاستقلابي". أنظر Foster 1999; Wittman 2009; Schneider and McMichael 2010; Moore 2011.

(88) Vieira 1996.

(89) بالمناسبة فإن هذا هو السبب في إن البيان الشيوعي يقول إن كل التاريخ هو تاريخ المعاناة الطبقية – بسبب تكرار المقاومة العمالية والإكراه البرجوازي.

(90) Disney 2009, 114.

العمال لاستغلالهم تمكن بعض أشد التحديات التي تواجهها الرأسمالية.

وتستمر العبودية، وتستمر معها مقاومتها. إذ أن عدد الأشخاص المنخرطين في العمالة القسرية في القرن الحادي والعشرين أكبر من عدد الأشخاص الذي نُقلوا في تجارة العبيد عبر الأطلسي.[91] وكشفت منظمة العمل الدولية عن وجود ما يقارب 21 مليون شخص في العمالة القسرية في عام 2012م، كان منهم 2.2 مليون في العمالة القسرية من الدول (عمالة السجون) أو المجموعات العسكرية المتمردة. كما أن 4.5 مليون من 18.7 مليون المتبقية كانوا تحت وطأة الاستغلال الجنسي التجاري، و14.2 مليون تحت وطأة الاستغلال الاقتصادي القسري.[92] ولغرض المقارنة، نذكر أنه عدد من جرى استعبادهم ونقلهم عبر الممر الأوسط 12.5 مليون أفريقي.

لم تبدأ العبودية في ماديرا، ولكن العبودية **الحديثة** بدأت فيها. ويكمن الفرق الحديث في استخدام العبيد للعمل في الإنتاج الزراعي الضخم وإقصائهم من النطاق الخرافي للمجتمع. ومع أن العبيد لطالما كانوا في قاع النظام الاجتماعي، إلا إنهم طردوا خارج ذلك النظام في القرون التي تلت ازدهار وانهيار ماديرا، وسُلبوا كل ما من شأنه أن يمثل الوطنية. وبالنسبة للعبيد من أبناء الشعوب الأصلية والرقيق من الأفارقة، فقد كانت الحداثة لا تعني الموت الحقيقي فقط، بل «الموت الاجتماعي» أيضاً.[93] وشكّل التعامل مع العبيد وكأنهم جزء من الطبيعة، وليس من المجتمع، خطوة ناجحة بالنسبة إلى المستثمرين. ومن أجل مضاعفة ذلك النجاح، كان من اللازم العثور على المزيد من العمال، والاعتناء بأجسادهم المتكسرة، ودعم مجتمعاتهم عبر العمل غير مدفوع الأجر أبداً. وبمعنى آخر، كان الرأسماليون بحاجة إلى المزيد من العمال، وبحاجة إلى أن يكون هؤلاء العمال متعلّمين ومُعالين بأرخص تكلفة ممكنة. ومن هذه الضرورة نشأ نظام كامل

---

(91) بايلز، وترود، ووليامسون 2009.

(92) بيلسر 2005.

(93) O. Patterson 1982.

للرعاية الرخيصة، وهو نظام أساسي في إيكولوجيا الرأسمالية لدرجة أن تاريخه محي بالكامل تقريباً.

الرعاية

إن أقل جزء نعرف عنه من تاريخ ماديرا القديم، والذي لم يكن لها أن تكون من دونه، هو التاريخ المتعلق بالعمل الذي يطلق عليه علماء الاجتماع التكاثر الاجتماعي.[94] فكل العمل المتعلق بالرعاية، رعاية الصغار والكبار، والضعفاء والمرضى، خلال تعليمهم وخلال تعافيهم هو ما جعل الرأسمالية ممكنة. فمن أين سيأتي البشر إن لم يكن من غيرهم من البشر؟ وكيف كان بالإمكان تنشئتهم اجتماعياً إن لم يكن ضمن مجتمعات خاصة بهم؟ وكيف يمكن رعايتهم وتربيتهم إن لم يكن عبر شبكات الدعم؟ وقد ساعدت ضرورات تأدية هذه الرعاية بتكلفة زهيدة في إحياء المجتمعات الأبوية، وأنتجت فئات حديثة للاختلاف الجنسي والنوع الاجتماعي في إيكولوجيا الرأسمالية.

نعلم أنه مع بداية الاتجار بالعبيد في صناعة السكر البرازيلي، كانت المرأة أرخص من الرجل بنسبة 20 بالمائة.[95] وفي أوروبا، أثر تخفيض عام للأجور في القرنين السادس عشر والسابع عشر في جميع العمال، وفي المرأة خاصة، إذ كانت المرأة تحصل على ثلث «أجر الرجل المخفّض».[96] ورغم ذلك كان من المتوقع من المرأة أن تتولى العمل في المنزل، وكان النطاق المنزلي بالفعل أحد الابتكارات المتعمدة

---

(94) بعد الرحلات الأولى لاستكشاف ماديرا، سافر قادة السفن الاستعمارية مع زوجاتهم، وأسرهم، وحاشيتهم (Boxer 1975). ولا يوجد أي أثر تقريباً في السجل المكتوب عن تلك النساء، باستثناء بعض الوصايا التي سجلت أمنيات النساء الثريات فيما يتعلق بممتلكاتهن من رقيق، وأثاث، وملابس. إلا إنه من الواضح أن عمل المرأة المتعلق بالإنجاب كان مرصوداً. إذ كان مصير الرقيق الذين يمارسون الجنس مع الأحرار من النساء الإعدام. (Vieira 1996).

(95) H. Klein 2004, 225.

(96) Federici 2004, 77.

لبداية الرأسمالية.[97] فوقعت أعباء العمل، والرعاية، ودعم المجتمع على عاتق المرأة على نحو متزايد، وأصبح دورها الاجتماعي خاضعاً للرقابة، حالها في ذلك حال العمال في حقول القصب.[98] وكان حرق الساحرات شكلاً من أشكال التأديب لمن يقاومن احتجازهن في النطاق المنزلي، كما سنناقش في الفصل الرابع. كما أن المجتمع الأبوي ليس ناتجاً ثانوياً لإيكولوجيا الرأسمالية، بل هو أساس لها. فقد كان «عمل المرأة» ضرورياً لقيام الرأسمالية إلى الحد الذي استدعى إعادة تعريفه بشكل جذري بحلول القرن الثامن عشر. ليصبح عمل المرأة «ليس بعمل».[99] أي أنه أصبح غير مرئي بشكل كبير، وهو ما جعل ترخيصه أسهل.

في عام 1995م، قدّر الباحثون عمل المرأة غير المدفوع بالدولار. إذ أشار فريق من الأمم المتحدة إلى أن العمل الإنجابي غير المدفوع يقدّر بستة عشر تريليون دولار لو كان عملاً مدفوعاً. ويمثل أحد عشر تريليون دولار منها عمل المرأة غير المدفوع.[100] وهو ما يشكل ثلث مجموع النشاط الاقتصادي العالمي، وهو رقم كان ليكون أعلى من ذلك لو لم تكن الصيرفة قد استولت على جزء متزايد من الاقتصاد العالمي. وفي المملكة المتحدة، أشارت دراسات أحدث إلى أن قيمة العمل الإنجابي أعلى من ضرائب قطاع الخدمات المالية العظيم في لندن.[101] ومع ذلك فقد زعمت دراسات أخرى أن تقدير الأمم المتحدة منخفض للغاية، وأن «النشاط المنزلي اللاسوقي» يعادل 80 بالمائة من الناتج العالمي الإجمالي: أي ما يقارب ستين تريليون دولار في عام 2015م.[102]

---

(97) للاطلاع على مواضيع متعلقة بعمل المرأة في بداية أوروبا الحديثة وفي أوروبا الحديثة، أنظر Honeyman and Goodman 1991؛ Frader 2004؛ Wiesner-Hanks 2008؛ وأنظر أيضاً الطرح الممتاز والشامل في Meade and Wiesner 2004; Delle, Mrozowski, and Paynter 2000.

(98) كما يشير Federici (2004)، يمثل مصطلحا الساحرة والكاليبان (Caliban) – وهما ظاهرتان آنيتان للرأسمالية - المرأة وأصحاب البشرات الملونة الذيم لم يعرفوا مكانهم في النظام الجديد.

(99) المصدر السابق، ص92.

(100) UNDP 1995.

(101) City of London 2016; Payne 2016.

(102) Safri and Graham 2010, 111.

يعتبر أجر مهام الرعاية متدنياً، إن كان مدفوعاً بالأساس، ويحتاج التكاثر الاجتماعي أكثر من مجرد الأيدي العاملة حتى يكون فعالاً. ومع انتقال عمال الكوكب من المناطق الريفية إلى المدن، تجلّت أهمية أمر واحد أكثر من أي شيء آخر في هذه الروابط المالية الجديدة، وهو القدرة على تأمين مواد غذائية كافية في يوم واحد من أجل العمل في اليوم التالي. وهكذا نشأ نظام الغذاء الرخيص.

الغذاء

في قصة ماديرا، الغذاء الرخيص ليس هو السكر. فقد كان السكر في أوروبا في القرن الخامس عشر لا يزال أحد مظاهر الترف. أما الغذاء الذي كان يجب أن يكون رخيصاً كان الغذاء الذي يأكله العبيد. وكان عمال القصب، كما هو حال العمال اليوم، يسرقون السيقان الزائدة من القصب الناضج ليمضغوها، ليمدهم عصيرها الحلو ببضعة سعرات حرارية إضافية والقليل من العناصر الغذائية. وكان تجار العبيد في بعض الأحيان يعطون عبيدهم المرضى اللحم والبيض من أجل أن تتعافى ممتلكاتهم وتعود للعمل، على الرغم من أن الغذاء كان محسوباً بدقة، بصفته قيداً في دفتر حسابات الربح والخسارة.[103] ليس هنالك سوى بضعة وثائق حول النظام الغذائي للعبيد خلال فترة حكم البرتغاليين في ماديرا، إلا أنه من المرجح أنهم جلبوا معهم الأرز، والدخن، والذرة البيضاء التي كانوا قد زرعوها في إفريقيا، والتي وضعها أبناؤهم في جيوبهم أثناء عبورهم القاسي نحو العالم الجديد.[104] ومهما كان شكل قائمة الطعام، فإن القاعدة السائدة في الرأسمالية هي ضرورة أن يكون الغذاء متوفراً بتكلفة زهيدة للاستهلاك العمالي، وذلك من أجل المحافظة على الأرباح وعلى النظام الاجتماعي، وهو ما سنناقشه في الفصل الخامس.[105]

أدرك سلالة من الحكام أن الطريق الأمثل للحصول على استجابة العمال والفقراء هي عبر بطونهم. فقد رأى الفيلسوف ومالك الأراضي الإغريقي

---

(103) Schwartz 1985.

(104) Carney 2001.

(105) Patel 2013; Patel and McMichael 2009.

شيشرون مجموعة من الجوعى يهاجمون منزله، وبعد ذلك بقرن من الزمان، رُشق الإمبراطور كلاوديوس بكسرات الخبز الفاسدة في ثورة غذائية أخرى.[106] وكان الغذاء الرخيص أساسياً في الحفاظ على النظام على مدى آلاف السنين. وفي إيكولوجيا الرأسمالية، جرى الحفاظ على ذلك النظام عبر تقليص تكاليف تغذية العمال لأنفسهم وأسرهم. وقد يبدو هذا الأمر تافهاً اليوم، إذ تشكّل تكلفة المواصلات والإسكان جزءاً أكبر من تكلفة الغذاء في مدخول المنزل الواحد. ولكن انعدام أهمية الغذاء بشكل نسبي هو أمر دخيل على التاريخ – إذ إنَّ الغذاء رخيص لأنه جُعل كذلك بشكل متعمد. فخلال الفترة من عام 1453م إلى عام 1913م، انخفض معدل ما ينفقه عمال البناء في إنجلترا من أجورهم على الغذاء من 80 بالمائة إلى 77.5 بالمائة.[107] كما أن انخفاض معدل استهلاك الغذاء من الصرف المنزلي في بريطانيا إلى 8.6 بالمائة هو ظاهرة حديثة للغاية (وذلك في عام 2014م. وكانت النسبة في الولايات المتحدة 6.6 بالمائة، وفي إيطاليا 14.2 بالمائة، وفي الصين 25.5 بالمائة، وفي نيجيريا 56.6 بالمائة).[108] وتجري المحافظة على هذه الأرقام منخفضة عبر استراتيجيات تعزز استهلاك شطائر اللحم التي تكلف دولاراً واحداً وسطول الدجاج الرخيص في الولايات المتحدة على سبيل المثال، والتي بدأنا بها الكتاب.

إن المفارقة في مثال مادیرا تكمن في أن السكر منذ ذلك الوقت أصبح محصولاً سلعياً رخيصاً من خلال العلاقات التي بدأت في مادیرا بالتحديد. وارتفع استهلاك السكر في إنجلترا، بعد أن كان طعاماً يستهلك من حين إلى حين، إلى أربعة أضعاف مع نهاية القرن السابع عشر، وتضاعف مجدداً في القرن الثامن عشر، إذ بلغ معدل استهلاك السكر مع نهاية القرن ما يقارب 13 رطلاً للشخص

(106) Holt-Gimenez and Patel 2009; Aldrete 2013. وبشكل عام أنظر De Ste Croix 1981.

(107) De Vries 1993; Brown and Hopkins 1956.

(108) USDA 2017a, "Percent of Consumer Expenditures Spent on Food, Alcoholic Beverages, and Tobacco That Were Consumed at Home, by Selected Countries, 2015".

الواحد. ويبلغ استهلاك المحليات في الولايات المتحدة اليوم 76 رطلاً للشخص الواحد في السنة، منها 41 رطلاً من السكر المكرر و25 رطلاً من شراب الذرة عالي الفركتوز.[109] ومن عام 2005م وحتى عام 2010م بلغ معدل السعرات الحرارية اليومية من السكر المضاف 335 سعرة حرارية للرجال، و239 للنساء، في الولايات المتحدة، وهو ما يعادل 13 بالمائة من مجموع السعرات الحرارية اليومية (وتشير دراسة حديثة إلى أن معدل الاستهلاك الذي يتجاوز 2-3 بالمائة له آثر سلبي على الصحة).[110] ولكن السكر ليس مصدر الطاقة الوحيد للبشر. فالسلعة الأخرى التي جرى الحفاظ على أسعارها منخفضة من أجل بقاء الطبقة العاملة في الولايات المتحدة هي ثاني أكبر أوجه الصرف بالنسبة إلى عمال البناء الإنجليز على مدى سبعة قرون، وهي الوقود.

الطاقة

لم تكن غابات الغار شبه الاستوائية في ماديرا، «جزيرة الخشب»، وقوداً في الأساس. إذ استخدمت في بداية الأمر حطباً – وهو المادة التي نحت منها الأسطول البرتغالي، واستخدمت في مشاريع المنشآت في مدينة لشبونة الكبرى.[111] ولكن استخدام الخشب لمنع الماء يتوقف عندما يصبح الخشب أكثر قيمة عند حرقه لإشعال المراجل التي تصنع السكر.[112] لم تكن تلك الأشجار وقوداً بطبيعة الحال بل أصبحت كذلك تحت ظروف معينة.

تمكنت معظم الحضارات الأخرى من تسخير النار ووجدت المواد للمحافظة على اللهب متقداً. إلا أنَّ منحنى الازدهار والانهيار في ماديرا، والذي امتد لسبعين سنة فقط، كان محدوداً بعدد الأشجار في الجزيرة. وبمعنى آخر، فإن سرعة

---

(109) USDA 2017b, tables 51-53.

(110) Ervin and Ogden 2013; Sheiham and James 2014. أنظر أيضاً أعمال رابطة التغذية والصحة العامة العالمية بشكل عام.

(111) Verlinden 1970.

(112) وهكذا فإن هذا الخشب يشكل أحد أول الأمثلة على "المحاصيل المرنة" (Borras et al. 2014).

استهلاك الوقود وحجمه في ظل الرأسمالية ليس طبيعياً. وكان رخص الخشب في ماديرا السبب والنتيجة في نهضة صناعة السكر هناك وانهيارها، وقد سارع في الأزمة نضوب المخزون المحدود من المادة القابلة للاحتراق. وللوقود ثلاث وظائف في ظل الرأسمالية. فهو لا يشكل صناعة بحد ذاتها، وقوة لرفع الإنتاج في الصناعات الأخرى فحسب، بل إنه يشكّل بديلاً للقوى العاملة وعاملاً لإبقاء العمالة زهيدة ومنتجة. الوقود الرخيص هو عدو العمال الذين أصبحوا عاطلين عن العمل بسبب الآلات التي تعمل على الخشب، والفحم، والزيت، وغيرها من مصادر الطاقة، وهو في الوقت ذاته عامل ضروري من أجل الرعاية الرخيصة للعامل، وأساس للمحافظة على النظام، كما سنناقش في الفصل السادس.

ولا داعي أن نخبركم كيف إننا نعيش تداعيات حضارة قامت على الطاقة الرخيصة، وهي حقيقة يشهد عليها التغيّر المناخي. لم يتسبب الاقتصاد السياسي العالمي الخاص بالوقود الرخيص بمعاناة إنسانية بالغة في استخراجه فحسب، بل إنه بالطبع أعاد تشكيل إيكولوجيا الكوكب. إلا أنَّ تأثيرات التغير المناخي لم توّزع بالتساوي على الكوكب. وثمة حسبة معينة تسمح لنا أن نحدد أين دفنت الأجساد الأكثر تأثراً بالتغير المناخي في الماضي، وأين سيكون الضحايا المستقبليون في الغالب. ولكي نرى تلك الخريطة، علينا أن نفهم أولاً آخر استراتيجية في إيكولوجيا الرأسمالية: حياة الأشخاص الرخيصة.

حياة الأشخاص

ولد كريستوفر كولومبوس في جنوى، في عام 1451م. وأقام لبعض الوقت في بورتو سانتو الواقعة على مسافة بعيدة من ماديرا الجزيرة الرئيسية. وقد وصل إليها في عام 1476م، وفي عام 1478م كُلّف بالاتجار بالسكر وجلبه إلى جنوى لحساب لودوفيكو سينتوريوني، وهو سليل إحدى الأسر ذات رأس المال في جنوى.[113] وعندما وصل كولومبوس إلى ماديرا، رأى العبيد، وعلِم كيف يتعامل القانون

(113) Boyle 2008, 57.

معهم. وكان الرقيق بحكم القانون مختلفين عن غيرهم من البشر. ففي المحاكم، لم يكن يحق لهم أن يكونوا شهوداً أو ضحايا – إنما سُمح لهم فقط بأن يكونوا مدعى عليهم، بحيث يُتهموا بالجرائم ولا يمكنهم رؤيتها أو الوقوع ضحيتها البتة.[114] وقد تشبعت فترة تلمذة كولومبوس الاستعمارية بهذه الفلسفة القانونية. وما بين مغادرته ماديرا في عام 1478م لخدمة التاج الإسباني، وعودته إلى فونشال لستة أيام في عام 1498م بصفته نائب الملك على جزر الهند، دشّن كولومبوس إبادة جماعية في بحر الكاريبي أدت فيما بعد إلى مقتل الكثير ممن عاشوا هناك من البشر والحضارات.[115]

بعد ولادة كولومبوس بقرن من الزمان، قض حجم الإبادة في ظل الأسرة الحاكمة الإسبانية والصليب الكاثوليكي مضاجع منفذي تلك الإبادة إلى درجة أنهم تكبدوا عناء إضفاء أسس فكرية متينة على الاستعباد والمعاملة الوحشية تجاه البشر الآخرين. ووضعت الحدود بين المدنية والوحشية في «مناظرة فايادوليد» (بالإسبانية: Valladolid) في عام 1550م. إذ تناقش الطرفان على مدى بضعة أسابيع في فايادوليد، إسبانيا، حول طريقة التعامل مع البشر عبر الأطلسي. فمن جهة جلس بارتولومي دي لاس كاساس، وهو راهب كاثوليكي دومينيكي كانت أطروحته «سرد موجز حول دمار جزر الهند» شاهداً على ما شهده من عنف في العالم الجديد. وعلى الناحية الأخرى، كان خوان خينيز دي سيبولفيدا، وهو أرثودوكسي مدافع عن حقِّ إسبانيا في الغزو. وفي فايادوليد، تجادل الطرفان بشأن ما إذا كان السكان الأصليين بشراً أم وحوشاً. وكان نظام الإنكوميينديا (بالإسبانية: encomienda) على المحك، وهو آلية لتملك الأراضي الاستعمارية يوزع مجاميع الشعوب الأصلية على ملاك الأراضي، الذي كانوا «يقونهم بمثابة وديعة» لمدة جيلين، جيل أبناء الشعب الأصلي الموضوعين في الوديعة، وجيل أبنائهم. واتفق ملاك الأراضي على العناية بتلك الودائع عبر توفير صفوف اللغة

(114) Vieira 1996.

(115) Dussel 2008.

الإسبانية والتعليم الكاثوليكي، ودفع الضرائب للدولة لاكتساب الحق في تملّك هذا المخزون من اليد العاملة.[116] وفي نهاية المناظرة، بعدما طالب لاس كاساس بالإنسانية العالمية واستشهد سيبولفيدا بأرسطو في دفاعه عن فكرة أن الهنود هم «عبيد بالفطرة، غير متمدنين، وبربريين، وغير بشريين»،[117] ادّعى كلا الطرفين النجاح. غير إنه بينما أصبح نظام الإنكوميندا مقيداً بعد ذلك بقوانين أكثر صرامة بقليل، استمرت الغزوات واستمر خفض قيمة حياة الهنود. وأحرزت ممارسات سيبولفيدا قصب السبق.

فلم كانت المناظرة إذن؟ كان الخلاف الفلسفي حول إنسانية الشعب الأصلي يتعلق بمكانتهم في عالم يقع في الفج بين الطبيعة والمجتمع، وبكيفية التحكم بهم. وبمعنى آخر، فقد كانت تلك مناظرة حول **حياة الأشخاص الرخيصة**، وهو مصطلح نستخدمه هنا للإشارة إلى الطريقة التي جرى من خلالها السيطرة على نظام الأشياء الرخيصة الأخرى – لا سيما اليد العاملة والرعاية – والحفاظ عليها من خلال استخدام القوة والإيديولوجية. ونعترف أن استخدام كلمة **رخيص** هنا مختلف قليلاً عن استخدامها في الفصول الأخرى. ونناقش ضرورتها في الفصل السابع لأنه من دون سلطة اتخاذ القرار بشأن أهمية حياة الآخرين من عدمها، لم يكن بالإمكان قمع الشعوب الأصلية أو أبناء الديانات والدول المنافسة، والاستيلاء على معرفتهم، ومواردهم، وقوتهم العاملة.

وتكثر أوجه التشابه الحديثة في المناقشات الحالية حول مواضيع مثل الأمن، ووضع المهاجرين واللاجئين، وإصرار الدول على النظام مع السماح باستخراج الموارد الطبيعية التي تعيش عليها الكثير من الشعوب الأصلية بشكل غير مناسب لهذه الدول، بالإضافة إلى حروب النفط، و«المخاطر الوجودية» للإرهاب الحديث.[118] ومرة أخرى، فإن حاجة البشر لإيجاد الأمن والمأوى بعيداً عن

---

(116) Parise 2008.

(117) Dussel 2008, 12.

(118) Buzan, Wrever, and Wilde 1998.

الأخطار ليس بالأمر الجديد. ولكن بما أن الرأسمالية تنمو عبر تخومها، فإن الاستخدام المحلي والدولي للقوة عبر الطبيعة لتأمين المال، والعمل، والرعاية، والغذاء، والوقود، يترافق مع إيديولوجيات متعلقة بالأعراق، والدول، والأمم، بالإضافة إلى عمليات الاستيلاء وخفض القيمة التي ينطوي عليها هذا الاستخدام للقوة. وتُصنع حياة الأشخاص الرخيصة من خلال هيكلة النظام الاجتماعي الحديث. وهي ضرورية للغاية في إيكولوجيا الرأسمالية. ولقوة قصص المجتمعات البشرية وإقصائها أهمية بارزة اليوم، كما تشير محاولات أمريكا دونالد ترامب، وروسيا فلاديمير بوتين، وتركيا رجب طيب أردوغان، وهند ناريندرا مودي.

مدخل إلى إيكولوجيا العالم

إن وجهة نظرنا المتعلقة بالرأسمالية، وصنع الحياة، والأشياء الرخيصة السبعة هي جزء من منظور نسميه إيكولوجيا العالم.[119] ونشأت إيكولوجيا العالم في السنوات الأخيرة بمثابة طريقة للتفكير ملياً في تاريخ الإنسان في شبكة الحياة. فعوضاً عن أن نبدأ من مسألة فصل الإنسان عن شبكة الحياة، فإننا سنبدأ بطرح الأسئلة بشأن مكان البشر – وأنظمة البشر المتعلقة بالسلطة والعنف، والعمل، وعدم المساواة – **ضمن إطار** الطبيعة. الرأسمالية ليست جزءاً من إيكولوجيا ما، بل إنها إيكولوجيا بحد ذاتها – أي إنها مجموعة من العلاقات التي تجمع ما بين السلطة، ورأس المال، والطبيعة. ولذا فإننا حين نذكر كلمتي إيكولوجيا والعالم في مصطلح واحد هو **إيكولوجيا العالم**، فإننا نستند إلى الاصطلاح القديم في تعريف «أنظمة العالم» لنشير إلى أن الرأسمالية تخلق إيكولوجيا تمتد في أرجاء الكوكب من خلال تخومها، تدفعها في ذلك قوى آخذة في التراكم. ولا نقصد بمصطلح **إيكولوجيا العالم** «الإيكولوجيا الخاصة بالعالم» بحد ذاتها، بل إننا نطرح تحليلاً

(119) Moore 2015. وأنظر أيضاً Moore 2016؛ Moore et al. 2007؛ C. Campbell and Niblett 2016. ويمكن الاطلاع على الدراسات المتزايدة حول إيكولوجيا العالم على الموقع الإلكتروني www.academia.edu/Documents/in/World-Ecology.

نوضح من خلاله كيفية عمل علاقات السلطة، والإنتاج، وإعادة الإنتاج عبر شبكة الحياة. وتسمح لنا فكرة إيكولوجيا العالم أن نرى مدى تأصل علاقات العالم الحديث المتعلقة بالعنف والاستغلال في التاريخ عبر خمسة قرون من الرأسمالية، وأيضاً كيف أن هذه الأساليب غير العادلة - وحتى تلك التي تبدو أزلية وضرورية اليوم - هي أساليب عارضة استحدثت وسط أزمة غير مسبوقة.

تقدم إيكولوجيا العالم إذن أمراً أكبر بكثير من مجرد وجهة نظر مختلفة حول الرأسمالية، والطبيعة، وتصورات مختلفة عن المستقبل. فهي تقدّم طريقة نرى بها كيف يصنع البشر البيئات، وكيف تصنع البيئات البشر على مدى التاريخ الحديث الطويل. ويفتح ذلك المجال لنا لنعيد النظر فيما تعلمناه من طرق للتفكير بالتغيير - الإيكولوجي، والاقتصادي، وسائر التغيرات الأخرى - والتي هي بحد ذاتها مرتبطة بأزمات اليوم. وذلك مجال مهم للغاية إذا ما أردنا فهم العلاقة بين تسميتنا للعالم والتصرف به. ولطالما أصرت حركات العدالة الاجتماعية منذ زمن طويل على «تسمية النظام» لأن العلاقات فيما بين الفكر، واللغة، وتحرير العبيد هي علاقات جوهرية وأساسية بالنسبة إلى السلطة. وتسمح لنا إيكولوجيا العالم بأن نرى كيف أن المفاهيم التي نعتبرها من المسلمات - مثل الطبيعة والمجتمع - هي مشكلات ليس لأنها منبثقة من عنف الممارسات الاستعمارية والرأسمالية وحسب. وولدت المفاهيم الحديثة لكل من الطبيعة والمجتمع، كما سنرى في الفصل الأول، في أوروبا في القرن السادس عشر. ولم تكن هذه المفاهيم الرئيسية قد تشكلّت في ارتباط وثيق مع نزع الملكية من الفلاحين في المستعمرات وفي أوروبا، بل إنها استخدمت بحد ذاتها أدواتاً لنزع الملكية والإبادة. وكان الفصل بين الطبيعة والمجتمع أساسياً لنشوء علم كونيات جديد وحديث، يكون فيه الفضاء مسطحاً، والزمن خطياً، والطبيعة خارجية. وكوننا غير مدركين في العادة لهذا التاريخ الدموي – وهو تاريخ يتضمن أولى عمليات الطرد لغالبية النساء، والشعوب الأصلية، والأفارقة من الإنسانية في التاريخ الحديث – فإن ذلك يقف شاهداً على قدرة الحداثة العجيبة في جعلنا ننسى.

ولذلك لا تقتضي إيكولوجيا العالم إعادة التفكير فحسب، بل التذكّر أيضاً. فكثيراً ما نعزو الخراب الذي أتت به الرأسمالية على الحياة والبيئات إلى الجشع الاقتصادي وحده، بينما لا يمكن اختزال جزء كبير من الرأسمالية في الأمور الاقتصادية. فعلى عكس هراء الليبرالية الجديدة، فإن الأعمال التجارية والأسواق عاجزة عن القيام بمعظم الأمور التي تعمل عليها الرأسمالية. ويجب على الحضارات، والدول، والمجاميع العلمية أن تعمل من أجل المحافظة على خضوع البشر لمقاييس النوع الاجتماعي، والعرق، والطبقة الاجتماعية. كما ينبغي أن يجري تعيين مواقع الموارد الجديدة على خريطة العالم وتأمينها، وسداد الديون المتصاعدة، والدفاع عن العملات. وتقدم إيكولوجيا العالم طريقة لإدراك ذلك، لنتذكر – ونرى من جديد – حياة وعمل البشر وغيرهم من أشكال الطبيعة في شبكة الحياة.

ما بعد الأشياء الرخيصة

هنالك أمل يلتمع في إيكولوجيا العالم. إذ إن إدراك شبكات صنع الحياة التي تستند إليها الرأسمالية ينطوي أيضاً على إيجاد أدوات مفاهيمية جديدة نواجه بها حقبة الرأسمالوسين. وبينما تطوّر حركات العدالة استراتيجيات لمواجهة أزمة الكوكب – وبدائل لطريقتنا الحالية في تنظيم الطبيعة – نحن بحاجة للتفكير بشأن تكاثر الأشكال الديمقراطية للحياة بشكل مبتكر وتوسعي. ولذا نختم هذه المقدمة، وهذا الكتاب، بأفكار يمكنها أن تساعدنا في خوض غمار تحول الحالة الوشيك.

من غير المحتمل أن تُحدث الحماية الضعيفة للبيئة التغيير إذا ما استندت نظريتها الأساسية على فكرة خاسرة تاريخياً، وهي فكرة الفصل غير القابل للتغيير للبشر عن الطبيعة. ولسوء الحظ، فإن معظم العمليات السياسية اليوم تعتبر تحويل العالم إلى أشياء رخيصة من المسلمات. فلنعد بالذاكرة إلى آخر أزمة مالية، والتي أدت إليها إزالة الحد بين صيرفة التجزئة والصيرفة التجارية في الولايات المتحدة. وكان قانون الكساد الكبير المسمى غلاس-ستيغال قد وضع ذلك الحد لمنع عقد

الصفقات بالشكل الذي كان مفهوماً في ذلك الوقت أنه قد أطاح بالاقتصادي العالمي في ثلاثينيات القرن العشرين. وكان الاشتراكيون والشيوعيون في الولايات المتحدة يطالبون بتأميم المصارف، وقدم أنصار الصفقة الجديدة التابعون للرئيس الأمريكي روزفلت القانون بصفته ضمانة تسوية.[120] وعندما طالب المتظاهرون الليبراليون في القرن الحادي والعشرين بعودة قانون غلاس-ستيغال، كانوا يطلبون تسوية ما، ليس عما جرى التنازل عنه للمالية الرخيصة، وهو الإسكان.

وبالمثل، عندما تطالب النقابات العمالية بخمسة عشر دولاراً مقابل العمل في الولايات المتحدة - وهي مطالبة ندعمها – نجد أن الصورة الأكبر لمستقبل العمل غائبة، فلماذا يجب أن يكون مستقبل العاملين في الرعاية وخدمات الغذاء هو الحصول على زيادة إضافية على الراتب بالكاد تكفي أن يتعيّشوا منها؟ ولماذا يجب أن ترتبط الأفكار المتعلقة بكرامة الإنسان بالعمل الدؤوب؟ أليس هنالك مجال للمطالبة ليس بالكدح في العمل فقط، بل أيضاً بالفرصة للمساهمة في جعل العالم أفضل؟[121]

ومع أن رقعة دولة الرخاء قد اتسعت، فأصبحت الجزء الأسرع نمواً في دخل الأسرة في الولايات المتحدة، والتي تعادل 20 بالمائة من دخل الأسرة في عام 2000م،[122] إلا إنَّ تحولاتها لم تنه مشقة عمل المرأة. وبالطبع فإن المطالب السياسة بتقليل الأعمال المنزلية، ومكافأتها، وإعادة توزيعها، هي الهدف الأكبر.

نرى الحاجة إلى أن نحلم بتغيير أكثر جذرية مما تقدمه السياسة المعاصرة. فعلي سبيل المثال مرة أخرى، يحظى الوقود الأحفوري الرخيص بمناصرين في المراكز الفكرية اليمينية من الهند إلى الولايات المتحدة. وفي حين يقترح الليبراليون مستقبلاً فولطاضوئي، فإنه يمكنهم بسهولة من نسيان المعاناة التي تنطوي عليها البنية التحتية المعدنية التي يعتمد عليها بديلهم. وظلت حركة الغذاء ملائمة لهؤلاء

(120) Edwards 2009.
(121) Timmermann and Felix 2015.
(122) Livingston 2016.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الذين كانوا إما يرفعون سعر الغذاء ويتجاهلون الفقر أو يستحدثون البدائل عن غذاء يسمح باستمرار الفقر وإن كان مع فيتامينات مضافة.[123] وبالطبع يمكننا أن نجد ديمومة سياسة حياة الأشخاص الرخيصة في عودة التفوق العرقي – من روسيا وجنوب إفريقيا إلى الولايات المتحدة والصين – باسم «حماية الأمة». ولسنا متفائلين بالمستقبل أيضاً، نظراً إلى بيانات استفتاء الرأي الصادرة من مركز أبحاث الرأي الوطني في جامعة شيكاغو والتي تشير إلى أن 35 بالمائة من أبناء جيل طفرة المواليد يشعرون أن السود أكثر كسلاً / أقل اجتهاداً من البيض، وأن 31 بالمائة من أبناء جيل الألفية يشعرون بالمثل.[124]

وفي حين نحتفظ بقدر معقول من التشاؤم الفكري، نجد بعضاً من التفاؤل في الإرادة عبر العمل الذي تقوم به المنظمات التي ترى قدراً أكبر بكثير من قابلية التحول في العلاقات الاجتماعية. والكثير من هذه المجموعات تتناول فعلاً مسألة الأشياء الرخيصة. إذ تريد النقابات أجراً أعلى. ويريد نشطاء التغير المناخي أن نعيد تقييم علاقتنا بالطاقة، وسيدرك من قرأ مؤلفات ناعومي كلاين أنه لا بد من تغيير الكثير بعد.[125] كما يريد أصحاب الحملات الغذائية تغيير ما نأكل وكيفية زراعة ما نأكل حتى يتسنى للجميع أن يتغذى جيداً. وتريد منظمات العمالة المنزلية أن يدرك المجتمع العمل الذي تقوم به العمالة في البيوت ومرافق الرعاية. وتريد حركة أوكيوباي إلغاء الدَّين والسماح لهؤلاء المهددين بالحجز العقاري والاستبعاد بالبقاء في منازلهم. أما علماء البيئة الراديكاليون فيريدون تغيير الطريقة التي نفكر بها في الحياة على الأرض. ويريد أصحاب الحركات المناصرة لحياة السود، ومجموعات الشعوب الأصلية، ونشطاء حقوق المهاجرين العدالة وتلافي انعدام العدالة عبر التاريخ.

ويمكن لكل من هذه الحركات أن تثير أزمة ما. ولطالما كانت الرأسمالية تتميز

---

(123) Patel et al. 2014.

(124) أنظر الاستطلاع الاجتماعي العام الذي أجراه المركز عبر زيارة الموقع: http://gss.norc.orgl.

(125) N. Klein 2014.

بالمقاومة – من ثورات العبيد إلى الإضرابات الجماعية، ومن الانتفاضات المناهضة للاستعمار عبر إبطال العُبودية، إلى المنظمات الحقوقية المناصرة للمرأة والشعوب الأصلية – ولكنها كانت تتمكن من البقاء رغم ذلك. إلا إن حركات اليوم مرتبط بعضها ببعض، ومعاً تقدم ترياقاً للتشاؤم. ويمكن أن تساعد إيكولوجيا العالم في ربط الأمور بعضها ببعض.

لسنا بصدد تقديم حلول تعود بنا إلى الوراء. إذ إننا نتفق مع أليس ووكر حين قالت إن «النشاطية هي الأجر الذي أدفعه مقابل العيش على هذا الكوكب»،[126] وإذا ما كان هنالك أي حياة بعد الرأسمالية، فإنها ستأتي من خلال كفاح الأشخاص الذي يناضلون من أجل قضاياهم. ولا ننكر أنه إذا ما كانت السياسات لتتغير، فإنه لا بد لها أن تبدأ من حيث يجد الناس أنفسهم اليوم. غير أننا لا نستطيع أن ننتهي بذات الأفكار المجردة التي صنعتها الرأسمالية، والمتعلقة بالطبيعة، والمجتمع، والاقتصاد. وعلينا أن نجد اللغة والسياسة من أجل الحضارات الجديدة، ونجد سبلاً للعيش خلال تحول الحالة التي شكلتها إيكولوجيا الرأسمالية. ولهذا نطرح في خاتمتنا سلسلة من الأفكار التي تساعدنا في إدراك مكان الإنسان وتوجيهه ضمن الطبيعة عبر مناقشة ترميم الوضع. ويمكن للتمعّن في حالات انعدام العدالة عبر قرون من الاستغلال أن يعيد قدسية العلاقات البشرية ضمن شبكة الحياة. كما يمكن لإعادة توزيع الرعاية، والأراضي، والعمل، بشكل يعطي الجميع فرصة للمساهمة في تحسين حياتهم، والإيكولوجيا حولهم، أن يبطل عنف التجريد الذي دفعتنا الرأسمالية لممارسته بشكل يومي. ونطلق على هذه الرؤية اصطلاحاً «إيكولوجيا الترميم»،[127] ونطرحها بمثابة طريقة نرى بها التاريخ والمستقبل في آن معاً، وممارسة والتزاماً تجاه المساواة وإعادة تصور العلاقات الخاصة بالبشر في شبكة الحياة.

---

(126) Walker: Beauty in Truth Garrett and Jackson 2015, 288, quoting Walker in Alice .2013) (directed by Pratibha Parmar,

(127) بالاستناد إلى Peet and Watts 1983; Watts 2004.

الفصل الأول

الطبيعة الرخيصة

لم يستغرق الأمر سوى يوم واحد فقط منذ ارتكابها الجريمة حتى إعدامها. ومع ذلك لم يُذكر اسمها في وثائق المحكمة. كانت تعيش في تلاكسكالا، في إسبانيا الجديدة، وفي يوم الأحد، الثامن عشر من يوليو، من عام 1599م، قامت بكسر صلبان في كنيسة، وحرضت هنود التشيتشيميكا على التمرد ضد الإسبان، وقتلت أحد هنود التراسكا باستخدام السحر. فاعتقلت في اليوم التالي. وشهد ضدها ستة شهود. ومع غروب الشمس، سُمح لها أن تتحدث للدفاع عن نفسها. وبحسب سجلات المحكمة فقد سردت الأفعال التي قامت بها، ثم سردت حلماً رأت فيه:

غزالين، قالا لها ألا ترحل، وإنهما كانا يبحثان عنها، وإنهما لم يكونا يريدان الظهور لأحد سواها، لأنها كانت مريضة وكانا يريدان رؤيتها، وقالت إنها كانت كبيرة في السن حين رأت الغزالين، وهي الآن شابة وتتمتع بصحة جيدة، وقد أزالا بعض الماء الأبيض الذي كان في عينيها، ثم دخل هذان الغزالان في كهف معها، وأعطياها جواداً تحتفظ به في قرية تلاكسكالا المذكورة، وإن أحدهما كان غزالاً يركب جواداً، وكان الغزال الآخر ممسكاً باللجام، وكانت آنذاك مشلولة، وبعد رؤية الغزالين أصبحت بحال جيدة.[128]

من بين كل الجرائم التي ارتكبتها، كان حلمها هو الأسوأ. فلربما تكون قد أججت العصيان، ودنست الكنيسة، وتدخلت في تدفق الفضة من أراضي التشيتشيميكا، ولكن الأخطر من هذا وذاك هو أنها طرحت رؤية للنظام والطبيعة

(128) Behar 1987, 127.

تخالف رؤية المستعمر. إذ لم يكن الرجل الإسباني ممتطياً الجواد في حلمها، بل كان الغزال، وهو رمز شعب التشيتشيميكا: أي لم يكن الرجل الأبيض على صهوة الطبيعة، بل كانت الحياة المحلية فوق حياة المستعمر. وهكذا كانت صاحبة الرؤيا مذنبة لأنها دعت ليس إلى التمرد السياسي فحسب، بل إلى التمرد الكوني أيضاً. فأثارت الفتن بحلمها بنظام العالم. وأُعدمت شنقاً في وقت لاحق من مساء ذلك اليوم باعتبارها ساحرة.

من الصعب التحدث عن هذه المرأة دون معرفة اسمها. فقد سمّاها قتلتها ساحرة. وهو اسم كانت لتستخدمه ربما لنفسها، وإن كان من دون النقمة الاستعمارية المصاحبة له. ومع أن اسمها لم يكن له قيمة تسمح بتدوينه في وثائق المستعمر، إلا أنَّ سرد قصتها بحد ذاته هو فعل مضاد للنسيان. لقد كان لا بد من قتل صاحبة هذه الرؤيا التي كانت تحمل إيكولوجيا مختلفة جذرياً. حيث إن السماح لها بالعيش كان ليجيز بديلاً عن إيكولوجيا العالم التي فرضتها الرأسمالية.

قتلت امرأتنا التشيتشيميكية على يد مجتمع متحضر لأن همجيتها الفطرية انتهكت قوانينه. وكان هذا الانتهاك، أو الجريمة، فكرة جديدة نسبياً. إذ إنه لوقت ليس ببعيد، حتى عام 1330م، كانت كلمة **همجي** (بالإنجليزية: savage) تعني في الإنجليزية «شجاع، لا يقهر، باسل».[129] وقد تلاشى هذا المعنى الإيجابي مع نهاية القرن الخامس عشر، واستبدل به المعنى الحديث، وهو: «في حالة من الطبيعة، وحشي».[130] ولم يكن الأمر مجرد مصادفة. ففي الوقت الذي أُعدمت فيه الساحرة التشيتشيميكية، كان مصطلحا **الطبيعة** و**المجتمع** في طور الاستحداث.

في اللحظة التي كان فيها لاس كاساس وسيبولفيدا يتجادلان بشأن مصير الشعوب الأصلية – هل هم عبيد «طبيعيون»؟ – كانت تغييرات هائلة تطرأ على

---

(129) بستخدم *The Oxford English Dictionary* (Simpson and Weiner 1989) على سبيل المثال هذا المثال:

"c1330 *Arthur & Merlin* (Auch.) (1973) l. 8270 Þe v was Dedinet Þe saueage".

(130) مثال لاحق في Simpson and Weiner 1989 يوضح هذا الاستخدام من مقال John Locke «مقال حول إدراك الإنسان: "ما هو أكثر من وحشية لبعض الأمم الهمجية والبربرية".

معنى كلمة **مجتمع** المستخدمة بشكل يومي. فمع حلول منتصف القرن السادس عشر، لم تعد كلمة **مجتمع** تعني الرفقة التي حولنا فحسب، بل تعدتها لتشمل الصورة الأكبر التي يعتبر الأفراد جزءاً منها.[131] ولم تكن فكرة كون الأفراد جزءاً من وحدات جماعية أكبر منهم بالجديدة – إذ لطالما قام البشر بتسمية حدود ووضعها حول مجموعات في المجتمع، كأن تكون جزءاً من الدولة المدينية، أو المدينة، أو المملكة الوسطى، أو العالم المسيحي، أو الشعب المختار، وهلّم جراً. غير أن **المجتمع** الحديث له ضد تاريخي فريد من نوعه، وهو **الطبيعة**. فعلى الجهة الأخرى من «المجتمع» لا يوجد بشر آخرون، بل البرية. فقبل أن تصبح الأمة مجتمعاً، وقبل أن يبدأ الدفاع عن المجتمع، كان لا بد من اختراع المجتمع أولاً.[132] وقد جاء هذا الاختراع عبر فرض الرقابة على حدود صارمة بينه وبين الطبيعة.

في اللغة الإنجليزية، لم تكتسب كلمتا الطبيعة (nature) والمجتمع (society) معناهما المعروف إلى ما بعد عام 1550م، على مدى القرن السادس عشر «الطويل» (حوالي 1450م–1640م).[133] وقد كانت تلك الفترة، كما سنرى لاحقاً، فترة حاسمة في تاريخ أوروبا الرأسمالي والاستعماري. إذ شهدت قيام الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية، ووضعهما لأنظمة الإنتاج الضخمة في العالم الجديد، والتي أُرغمت على العمل فيها الأيدي العاملة من الشعوب الأصلية والأفارقة. وشكّلت تلك التحولات عوامل رئيسية في تحول المركز العالمي للسلطة والإنتاج من قارة آسيا إلى شمال الأطلسي، وهو تحول طال كوكب الأرض بأسره. ولم يحدث ذلك التحول بسرعة. فقد كانت أوروبا تفتقر للتكنولوجيا والاقتصاد في ذلك الوقت مقارنة بحضارات الجانب الآخر من آسيا، ولم يتغيّر الحال إلا بعد عام 1800م.[134] وكانت الصين قبل ذلك تمتلك الطباعة،[135] وقوة بحرية

---

(131) R. Williams 1976, 292.

(132) Foucault 2003.

(133) Braudel 1953; Wallerstein 1974; Moore 2016.

(134) Pomeranz 2000.

(135) Gunaratne 2001.

قوية،[136] والبارود، ومدناً حيوية،[137] وكانت تتميز بثرواتها وأزماتها البيئية معاً.[138] أما الرأسمالية الأوروبية فقد كان ازدهارها يكمن في قدرتها على تحويل الطبيعة إلى كيان إنتاجي، وتحويل تلك الإنتاجية إلى ثروة. وقد اعتمدت تلك القدرة على مزيج خاص من القوة، والتجارة، والتكنولوجيا، وأمر آخر أيضاً – وهو ثورة فكرية دعمتها فكرة جديدة: الطبيعة بصفتها ضدًّا للمجتمع. وقد جذبت هذه الفكرة أكثر من مجرد عقول الفلاسفة. وأصبحت أساساً منطقياً للغزو والسلب باعتبارهما أسلوباً للحياة. فنجد أكبر الأمثلة على تناقضات الطبيعة الملطخة بالدماء في تخوم الرأسمالية، التي أُسّست على العنف والتمرد، كما يتضح من قتل الساحرة.

إننا نسلم بفكرة أن بعض أجزاء العالم اجتماعية، وبعضها الآخر طبيعية. فالعنف القائم على العنصرية، والبطالة الجماعية، والحبس، وحضارات الاستهلاك، كلها أمور متعلقة بمشكلات المجتمع والظلم المجتمعي. أما المناخ، والتنوع الحيوي، واستنزاف الموارد، فهي أمور تتعلق بمشكلات الطبيعة، والأزمة البيئية الحيوية. وليس الأمر أننا نفكر في العالم بهذه الطريقة فحسب، بل إننا أيضاً **نجعله** كذلك، حيث نتصرف وكأن المجتمع والطبيعة نطاقان مستقل كل منهما عن الآخر، وكأن علاقات السلطة البشرية في منأى عن تأثير شبكة الحياة بشكل ما.

نستخدم في هذا الكتاب هاتين الكلمتين – **الطبيعة والمجتمع** – بشكل مختلف عن استخدامهما الاعتيادي. إذ نعتبرهما مفهومين لا يصفان العالم فحسب، بل يساعداننا في تنظيمه وتنظيم أنفسنا. ويطلق الباحثون على مثل هذه المفاهيم مسمى «المجردات الحقيقية».[139] ونستعين بهذه المجردات لصياغة الأنطولوجيا – **ما هو؟** – وصياغة الأبستمولوجيا – **كيف نعرف ما هو؟** وتصف المجردات الحقيقية

---

(136) Lo 1955.

(137) Broadberry and Gupta 2006.

(138) Elvin 2004.

(139) Sohn-Rethel 1978; Jameson 1998; Toscano 2008; Schneider and McMichael 2010; La Berge 2014; Toscano 2016.

العالم وتصنعه في آن معاً. ولذلك تكون المجردات الحقيقية في الغالب خفية، ولذلك نستخدم أفكاراً من إيكولوجيا العالم لنشجع القرّاء على التفكير بالطبيعة والمجتمع باعتبارهما أشكالاً خفية للعنف. فهما كلمتان لم تنفجرا بعد. والمجردات الحقيقية ليست بريئة: فهي تعكس مصالح أصحاب النفوذ، وتُجيز لهم تنظيم العالم.

ولذا نبدأ نقاشنا عن الأشياء الرخيصة بالطبيعة. والطبيعة ليست شيئاً، بل هي طريقة لتنظيم الحياة – وترخيصها. ومن خلال المجردات الحقيقية فقط – وهي الأفكار المتعلقة بالحضارة، والسياسة، والاقتصاد، في آن معاً – يصبح نشاط الطبيعة عبارة عن مجموعة من الأشياء. فلم تعد شبكة الحياة رخيصة بذاتها، بقدر ما هي ليست مراوغة أو جيدة أو يمكن تحميلها. وتلك سمات وضعتها الرأسمالية لبعض علاقات شبكة الحياة. إلا أنَّه جرى **ترخيصها**، وجرّها نحو عمليات التبادل والربح، وتقييمها بالمال والتحكم بها. وقد ناقشنا في المقدمة أن الرأسمالية لم تكن لتنشأ لولا استرخاص الطبيعة، وفي هذا الفصل نستعرض آليات هذه الاستراتيجية وتأثيراتها.

بداية الاستعمار والطبيعة

أن تعيش يعني أن تحدث التغييرات في بيئتك. جرى تطوّر البشراناوية عبر سلسلة من التحولات البيولوجية – لا سيّما تلك التي أحدثها اكتشاف النار، والتي قللت الطاقة اللازمة لعملية الهضم ووسعت بشكل جذري من قدرات الإنسان لصنع العالم. وفي حين أن البشر كائنات صانعة للبيئة، إلا أنَّ تنظيماتنا ضعيفة. فعلى مر التاريخ الطويل، نشأت الحضارات وتوسعت بمساعدة ليست ببسيطة من سائر الطبيعة، وعندما تسلب منها تلك المساعدة فإنها تنهار. فقد ازدهرت روما في القرون التي تلت مطلع المناخ الروماني المثالي (حوالي 300 ق.م. – 300م).[140] وقد مدّت الفترة الدافئة في العصور الوسطى يد العون لقيام دول جديدة عبر

(140) Wang, Surge and Walker 2013.

أوراسيا، من كمبوديا إلى فرنسا.[141] كما استمدت أوروبا الإقطاعية العون من شذوذ مناخي، وأسهم تحول مناخي آخر في أزمتها – وتحولها في نهاية الأمر إلى الرأسمالية.

أسهم العصر الجليدي الصغير في حل النظام الإقطاعي الأوروبي، ولكن المناخ لم يكن هو المسبب الوحيد. فقد كانت أوروبا الإقطاعية حيوية بشكل كبير. ومع أن الطقس غير المناسب لمحاصيل الحبوب شكّل مشكلة، إلا أنَّ النظام الإقطاعي كان يمتلك تقنيات زراعية متطورة. ووصلت الإنتاجية الزراعية منذ القرن التاسع إلى مستويات عالية جداً، وضمت الأراضي الزراعية من الغابات، وازدادت أعداد البشر والحيوانات بسرعة كبيرة. وبلغت الكثافة السكانية مستويات مرتفعة مع حلول القرن الرابع عشر، إلا إن الضعف العام الذي ألمّ بالنظام الإقطاعي لكم يكن أمراً بسيطاً ببساطة استنزاف التربة. فقد انهار النظام الإقطاعي بسبب عدم قدرة الفلاحين على إنتاج فائض اقتصادي أكبر لأسيادهم. ولو كان الأمر متروكاً لهم، لربما تحول الفلاحون من أنظمة زراعة المحصول الواحد مثل الشيلم والقمح إلى خليط متنوع من المحاصيل التي تشمل الخضروات والفواكه. وكان ذلك ليزيد من إنتاج الغذاء في أوروبا الشرقية إلى الضعفين أو الثلاثة أضعاف.[142] ولكن هذا التحول كان مستحيلاً نظراً لمطالبة الأسياد بالمحاصيل **القابلة للتسويق**، والتي يمكن تحويلها بسهولة إلى مال. وفي مقارنة لما يحصل اليوم، فقد أعاد الأسياد الإقطاعيون صناعة نظام زراعي يفضل الربح على المدى القصير على إجراء تعديلات هادفة كانت لتقلل من دخلهم، ولكنها كانت ستدعم استمرار الحياة. وبدأت الطبيعة والمجتمع تتبلوران في خضم الأزمة الإقطاعية ومطلع الرأسمالية.[143]

أدى رفض الأسياد لإصلاح الوضع إلى تعجيل وقوع أزمة تاريخية. وكما رأينا

---

(141) Crumley 1994; Lieverman 2009.

(142) Bois 1984.

(143) Merchant 1980; Moore 2015.

في المقدمة، لم تؤد المشاكل الإيكولوجية الزراعية التي فاقمتها هيمنة الأسياد، بالإضافة إلى التغير المناخي والكارثة الديموغرافية إلى الموت فحسب، بل أيضاً إلى مقاومة هائلة من الفلاحين. وحاولت الطبقات الاجتماعية الحاكمة استعباد الفلاحين من جديد في أوروبا الشرقية، إلا إن محاولاتها باءت بالفشل. غير أن الأزمة كانت أكبر من مجرد طبقة اجتماعية. فقد كانت هي اللحظة التي توقفت فيها إيكولوجيا النظام الإقطاعي القائمة على السلطة والثراء والطبيعة. وكان ذلك يعني أمراً كان كفيلاً لصنع حقبة زمنية جديدة: وهو إنه كان على الدول، والأسياد، والتجار أن يسارعوا في إيجاد الحلول غير المألوفة لاستعادة ثرائهم.(144)

ومن أهم تلك الحلول غير المألوفة كان غزو العالم، ليس بالسلاح فحسب، بل أيضاً عبر إنشاء التخوم الجديدة؛ التخوم الثقافية والجغرافية في آن معاً. وأصبحت الحياة والأرض فيما بين المال والأسواق سبيلاً لمعاجلة الأزمة وحلّها على مدى إيكولوجيا الرأسمالية. ووُجد في قلب هذه العلاقة مع الطبيعة الربح، ووجد معه عرابها كريستوفر كولومبوس، الذي يأتي ذكره مع كل فصل باعتباره أحد أول الممارسين لكل استراتيجية من استراتيجيات الأشياء الرخيصة. وجاء كولومبوس إلى الكاريبي يحمل معه نظرة الغازي وعين المثمّن لقيمة الأشياء، وهي مهارة كانت قد صقلتها المغامرات الاستعمار البرتغالية قبالة سواحل شمال إفريقيا. فبدأ استعمار الطبيعة استعماراً نقدياً بقدر ما كان استعماراً غير مألوف. وكانت الامبراطوريات الأوروبية، وفي مقدمتها الإمبراطوريات الإسبانية والبرتغالية، مهووسة بجمع وطلب الأغراض الطبيعية – بما في ذلك جثث البشر «الهمجيين» بهدف تحسين الثراء والسلطة. وكان وضع كولومبوس لتصنيف للطبيعة بغرض تقييمها (وتسعيرها) مؤشراً مبكراً على إدراكه لما آلت إليه الطبيعة في ظل بداية الرأسمالية الحديثة.(145)

طبق كولومبوس استراتيجية الطبيعة الرخيصة منذ اللحظة الأولى تقريباً التي

---

(144) Wallerstein 1974; Moore 2003b.

(145) Mumford 1934; Kicza 1992; Sued-Badillo 1992; Abulafia 2008; Bleichmar 2009.

وقعت فيها عينه على العالم الجديد.[146] إذ اكتشف في اليوم الثامن من رحلته في الكاريبي رأساً بحرياً أطلق عليه اسم «الرأس الجميل» (بالإسبانية: Capo Hermoso)، لأنه كان بالفعل كذلك. وكتب قائلاً: «لا تمل عيني البتة من النظر إلى ذلك الغطاء النباتي الساحر المختلف جداً عما لدينا. وأظن أنه توجد الكثير من الأعشاب والكثير من الأشجار ذات القيمة الكبيرة في أوروبا من أجل صناعة الأصباغ والأدوية، ولكنني لا أعرفها، وذلك يشعرني بحزن شديد».[147] فكان منذ البدء يثمن قيمة الأشياء بما امتلكه من حس قوي تجاه الرخص والسلطة، وقدرته على إلقاء نظرة على الطبيعة والشعور بالإحباط لعدم قدرته على رؤية المالك فيها بشكل مباشر.

ولكن الأرباح لم تكن تأتي من التجارة فقط، إذ كان لا بد من استغلال الطبيعة. وظهر أول استغلال عملي للفجوة بين الطبيعة والمجتمع في إعادة استحداث الاستعمار لنظام الإنكوميندا (بالإسبانية: encomienda)، والذي كان في الأصل يقتصر على استملاك الأراضي. إلا أنَّه أصبح استراتيجية لإعادة تصنيف بعض البشر ضمن الطبيعة حتى يتمكنوا من فلاحة الأرض بتكلفة أرخص. واتخذ التاج الإسباني خلال معاركه للضفر بالأراضي في أيبيريا من نظام الإنكوميندا وسيلة لإدارة الغنائم. وذلك بأن يمنح المَلِك الأراضي بصورة مؤقتة لأفراد من الطبقة الأرستقراطية ليحققوا المكاسب من الأراضي التي كان يقطنها الموريون.[148] أما في الكاريبي فقد تحول نظام الإنكوميندا من مجرد منح الأراضي في القرون الوسطى إلى منح اليد العاملة بمفهومها الحديث، ما سمح باستملاك الأراضي

---

(146) Modest 2012, 86. ولنكون عادلين، لم يكن كولومبوس أول شخص وقعت عيناه على العالم الجديد. فقد أهدى سترة حريرية ضيقة للشخص الذي رأى اليابسة أولاً، بالإضافة إلى 10 آلاف مرابطي (عملة قديمة) في السنة أمر بها ملك وملكة إسبانيا لمن ير الأنديز أولاً. وكان بحار اسمه رودريغو دي تريانا قد لمح اليابسة في الساعة الواحدة صباحاً في 12 أكتوبر 1492م (Columbus 2003). ولكن كولومبوس احتفظ بالمكافأة، والتي صرفت له حتى موته. وكان تمويلها يأتي من الضرائب المفروضة على اللحامين في إشبيلية.

(147) Columbus 2003, 123.

(148) Elliott 1963, 68-69.

والعبودية الفعلية للشعب الأصلي الذي يصادف وجوده فيها. فأصبح حق السيادة لا يشمل الأرض فحسب، بل أيضا النباتات والحيوانات، وأصبح الشعب الأصلي جزءاً من الأخيرة. كما أصبح نظام الإنكوميندا مع مرور الزمن متضمناً لتنظيمات متنوعة لليد العاملة تضم العمل بالإكراه القانوني والعمل مقابل الأجر.[149] وكان ذلك يعني أن نطاق الطبيعة كان يشتمل فعلياً على كافة الشعوب ذات البشرة الملونة، وغالبية النساء، وغالبية الأشخاص ذوي البشرة البيضاء الذين كانوا يعيشون في المناطق شبه المستعمرة (مثل إيرلندا وبولندا).[150] ولذا كان القشتالة يطلقون على الشعوب الأصلية في الأنديز مسمى **الطبيعيون** (بالإسبانية: naturales).[151]

استحداث الطبيعة والمجتمع

أدرك البشر منذ البداية اختلافهم عن سائر الطبيعة.[152] ولم تخترع الرأسمالية هذا الفرق. ولكن بدعتها كانت في تحويل هذا الفرق إلى انقسام واضح المعالم، وإلى مبدأ منظّم. وكانت تلك مهمة أسهم فيها المفكرون من كلا جانبي المحيط الأطلسي. إذ تعلم رينيه ديكارت (1596–1660)، الذي سنذكر عنه المزيد لاحقاً، أصول الحجة الفلسفية من دراسته للفيلسوف المكسيكي أنطونيو روبيو (1548–1615) كما ظهرت في الأمريكيتين أكثر أشكال النتاج الفكري المسيحي المناهض للاستعمار تطوراً في القرن السادس عشر، حسبما ذكر إنريكي دوسيل.[153] وكان الإنجليز في ذات الوقت يطوّرون الأفكار المتعلقة بمفهوم «الهمجيين والمتحضرين» في إيرلندا، وهي أول تخومهم الاستعمارية. وليس الأمر

---

(149) Elliot 1984, 312.

(150) Werlhof 1988; Rai 1993.

(151) Stavig 2000. مر هذا الاستخدام للكلمة الإسبانية natural، مثل الكلمتين الإنجليزيتين nature وsociety بتحوّل في هذه الحقبة كذلك، من معنى "أحد سكان مدينة معينة" إلى الدلالة إلى شي أكثر قرباً لمعنى "جزء من الطبيعة".

(152) D. Arnold 1996.

(153) Dussel 2008.

مصادفة أن حكم الإنجليز لإيرلندا قد ازداد قوة بعد عام 1541م، أي في اللحظة ذاتها التي بدأت فيها الطبيعة والمجتمع باتخاذ معناهما الحديث المتعارف عليه. فقد كانت قوى إنجلترا الاستعمارية متمركزة في تلك البقعة من الأرض على الساحل الشرقي لإيرلندا بالقرب من دبلن. وعرفت أول منطقة واقعة ضمن النشاط الاستعماري الإنجليزي باسم السياج (بالإنجليزية: The Pale). واعتبر كل من هو خارج نطاقها «همجياً».

شارك في استحداث معنى الطبيعة كل من الفلاسفة، والغزاة، والانتهازيين. ففي عام 1641م، طرح ديكارت ما أصبح لاحقاً أول قانونين لإيكولوجيا الرأسمالية. وكان الأول في ظاهره بريئاً. إذ فرّق ديكارت بين العقل والجسد باستخدام كلمتي res cogitans وres extensa من اللاتينية للإشارة إلى كل منهما. وبحسب هذا المنظور فإن الواقع يتكون من «أشياء مفكرة» و«أشياء ممتدة»، وكل منهما منفصل عن الآخر. وكان البشر (إنما ليس كل البشر) أشياء مفكرة. وكانت الطبيعة مليئة بالأشياء الممتدة. وكانت الطبقات الاجتماعية الحاكمة في ذلك العصر ترى أن أغلب البشر – النساء، والشعوب ذات البشرات الملونة، والشعوب الأصلية – هي كائنات ممتدة وليست مفكرة. وهذا يعني أن المجردات الفلسفية لديكارت كانت أدوات عملية لفرض السيادة، فكانت مجردات حقيقية لها قوة مادية هائلة. ويقودنا ذلك إلى قانون ديكارت الثاني للإيكولوجيا الرأسمالية: يجب أن تصبح الحضارة الأوروبية (أو كما يشير إليها ديكارت «نحن») «أسياد الطبيعة ومالكيها».[154] ولم تكن الطبيعة والمجتمع منفصلتين وجودياً فحسب، بل إن الطبيعة كانت شيئاً يتحكم به المجتمع ويهيمن عليه. وبعبارة أخرى فقد شكل المنهج الديكارتي المنطق الحديث للسلطة والفكر.

ومع أن ديكارت يُعتبر في الغالب فرنسياً، إلا إنه يمكن بسهولة اعتبار منظوره إنجليزياً وهولندياً أيضاً. فقد ولد في فرنسا وتعلم فيها، ولكنه كتب غالبية أهم

(154) Descartes 1985, 142-43.

أعماله في الجمهورية الهولندية بين عامي 1629م و1649م، في الفترة التي كانت فيها الجمهورية الهولندية أعظم قوة في العصر، ومعقل الرأسمالية في أكثر صورها حيوية. كما شهدت تلك العقود ذروة ثورة إيكولوجية عالمية كانت قد بدأت قبل ذلك بقرنين من الزمن تقريباً، ودمرت الغابات من البرازيل إلى بولندا وجزر التوابل، وأزالت الأراضي الرطبة من روسيا إلى إنجلترا. وقامت بتنقيب الأرض من الأنديز إلى السويد.[155] وكانت هذه التحولات البيئية جوهرية للغاية، إذ أدت إلى بعض أشكال الطبيعة الرخيصة، حيث تجاوز عدد السلع المتداولة في بورصة أمستردام – أول سوق أسهم حديثة – خمسمائة سلعة مع حلول خمسينيات القرن السابع عشر. فكانت فلسفة ديكارت المادية متوافقة بشكل كبير مع تلك الفترة الزمنية.

لم يكن ديكارت قد عثر على فلسفته الثورية بمفرده تماماً. إذ يعود الفضل في وضع الكثير مما تضمنه القانون الثاني للإيكولوجيا الرأسمالية، وهو الهيمنة على الطبيعة، إلى فرنسيس بيكون (1561–1626)، وهو فيلسوف يعتبر على نطاق واسع أب العلم الحديث. (وسيكون استخدام هذه اللغة الجنسانية مفهوماً بعد قليل). وكان بيكون كذلك عضواً بارزاً في المؤسسة السياسية في إنجلترا، حيث كان في فترات مختلفة عضواً في البرلمان، والمدعي العام في إنجلترا وويلز. وقد ذكر أنه «يجب على العلم أن ينتزع أسرار الطبيعة منها».[156] كما قال إنه على «إمبراطورية الإنسان» أن تخترق «رحم الطبيعة» وتهيمن عليها. وأيضاً، إنه على العلم أن «يطارد الطبيعة خلال تجولاتها، وستتمكن لاحقاً، إن رغبت، من قيادتها واقتيادها إلى ذات المكان مرة أخرى... ولا يجدر بالإنسان أيضاً أن يتورع عن دخول هذه التجاويف والزوايا، في حين أن البحث عن الحقيقة هو جل

(155) De vries and Van der Woude 1997; Moore 2010a, 2010b.

(156) Amrine 2010.

غايته».[157]

كان بيكون شخصية سياسية مهمة في فترة كانت حياة المرأة الأوروبية خلالها مهددة بالخطر، وخاضعة للرقابة، وواقعة تحت السيطرة، بطرق جديدة – وحديثة بكل معنى الكلمة. وكان استحداث الطبيعة والمجتمع جنسانياً أينما اتجهت والتفت. فانصهرت ثنائيات الرجل والمرأة، والطبيعة والمجتمع، في البوتقة ذاتها. وكانت الطبيعة، وحدودها مع المجتمع، «إيكولوجيا أنثوية» منذ البداية.[158] ومن خلال هذه الطريقة الجديدة لتنظيم الحياة والفكر، لم تصبح الطبيعة شيئاً فحسب، بل استراتيجية أجازت ترخيص الحياة أخلاقياً واقتصادياً. وكانت الثنائية الديكارتية، وما تزال، أكثر بكثير من مجرد بيان وصفي، بل إنها بيان معياري لأفضل طريقة يمكن من خلالها تنظيم السلطة والتسلسل الهرمي، والبشرية والطبيعة، والرجل والمرأة، والمستعمِر والمستعمَر.

ومع إن الكثيرين يتشاركون الفضل (واللوم)، إلا إنه من المنطقي تسمية هذه الحركة بالثورة الديكارتية. فقد كانت حركة فكرية لم تشكّل طرق التفكير وحسب، بل أيضاً طرق الغزو، والتسليع، والعيش. وحققت الثورة الديكارتية أربعة تحولات رئيسية، تشكّل كل منها نظرتنا تجاه الطبيعة والمجتمع حتى يومنا هذا. أولاً، حلّت الثنائية القائمة على مبدأ (إما... أو) محل البدائل القائمة على (كِلا... وَ). ثانياً، ميّزت الثورة الديكارتية التفكير بالمواد، أو الأشياء، عن التفكير بالعلاقات بين هذه المواد. ثالثاً، أنها رسّخت الهيمنة على الطبيعة عبر العلم باعتبارها منفعة اجتماعية.

أخيراً، جعلت الثورة الديكارتية من المشروع الاستعماري لرسم الخرائط والهيمنة أمراً وارداً وقابلاً للتحقيق. وإذ يسلّط دوسيل الضوء على الكاتب فيليبي

---

(157) Bacon 1861, 296. للاطلاع على نقد نسوي أنظر Merchant 1980; Harding 1991. وهناك الكثير من المدافعين عن بيكون – أنظر Soble 1995; Vickers 2008; إلا إن الاتهامات التي طالته، والتي نجدها بكثرة في Merchant 2013، هي ما يقنعنا أكثر من أي شيء آخر.

(158) Daly 1990.

غوامان بوما دي أيالا (1535؟-1616؟)، وهو كاتب من شعب الكويشوا ومناهض للاستعمار، يتأمل كيف «يكتشف» غوامان، مستبقاً ديكارت، «العملية التي تمر من خلالها **الذات المهيمنة** (باللاتينية: ego conquiro) (أنا أهيمن / أنا أُخضع) – تلك الذات الممتدة الأنانية – فتتجاوز كل الحدود بتعجرفها، حتى تبلغ ذروتها في **الذات المفكرة** (باللاتينية: ego cogito) (أنا أفكر) القائمة على الرب بذاته، باعتبارها الوسط الذي من خلاله يعيد بناء العالم تحت سيطرته، وفي خدمته، ومن أجل تسخيره، ومن بين ذلك سكان الجنوب».[159]

كانت وجهة نظر غوامان أكثر من مجرد وجهة نظر بلاغية. فالمنطق الديكارتي يستند إلى الفارق بين الواقع الداخلي للعقل والواقع الخارجي للأشياء، ولا يمكن إدخال الثاني في الأول إلا عبر نظرة محايدة منفصلة عن الجسد وواقعة خارج الزمان والمكان. وكانت تلك النظرة ملكاً للمستعمر الأوروبي المستنير – وللإمبراطوريات التي تقف خلفه. وقد دمجت **الذات المفكرة** الديكارتية الرؤية والفكر في رؤية العالم من منظور المشاهد، وهي نظرة جعلت الأوجه الناشئة للحداثة مرئية وقابلة للقياس، وجعلت من المشاهد مشاهداً بلا جسد وبلا مكان. وحلت محل منظور القرون الوسطى المتعدد في الفن والأدب، عين أحادية، منفصلة، جامعة ومحيطة بكل شيء.[160] في علم الهندسة، وفن عصر النهضة، ولا سيما في علم الخرائط، كان أسلوب التفكير الجديد يمثل الواقع وكأن المرء يقف خارجه. وكما أشار الناقد لويس مامفورد، فإن منظور النهضة «حوّل العلاقة الرمزية للأشياء إلى علاقة بصرية: وأصبحت العلاقة البصرية بدورها علاقة كمية. وفي صورة العالم، لم يكن الحجم يعني أمراً بشرياً أو إلهياً، بل المسافة».[161] وكان بالإمكان قياس هذه المسافة، وفهرستها، وتصنيفها، وتخطيطها، وامتلاكها.[162]

---

(159) Dussel 2014, 44. أنظر أيضاً Grosfoguel and Mielants 2006.

(160) Cobarrusbias 1934, 20.

(161) Mumford 1934, 20.

(162) Ingold 1993; Brotton 1997; Wintle 1999.

إن الخريطة الحديثة لم تصف العالم فحسب، بل إنها شكّلت تقنية لغزوه. إذ لا يمكن فهم كرة كانتينو المسطحة، وهي إحدى أول الخرائط الباقية للتوسع البرتغالي في العالم، إلا من منظور الطموحات الضخمة لذلك البلد الصغير. إذ بدأت البرتغال منذ عام 1503م سلسلة من الهجمات على عالم المحيط الهندي، فاستولت على مدى العقد التالي على المحاور الرئيسية للتجارة المربحة للمحيط: مضيق هرمز في الخليج العربي، وغوا في الهند الغربية، وملقا في جنوب شرق آسيا.[163]

وسرعان ما تنحّت خرائط القرن السادس عشر مثل الكرة المسطحة وخرائط بورتولان التي استخدمها البحارة لتترك المجال لتقنية رسم الخرائط الأكثر شهرة في العالم الحديث – والأكثر استخداماً حتى الآن – وهي إسقاط مركاتور. وقد عاش جيرارد ميركاتور، والذي يعني اسم عائلته (الذي تم ابتداعه) التاجر، معظم حياته في فلمنكة، أي بلجيكا اليوم، وكانت إحدى أكثر المناطق الحيوية تجارياً في عصره. وباعتباره أعظم جغرافي في أوروبا، فقد عمل في بيع الكرات الأرضية لا الخرائط – وذلك في بداية زمان كان من الممكن فيه التفكير بالكوكب على أنه كرة.[164] وكان مشروع مركاتور ثورياً من حيث دمجه بين رسم الخرائط الحديث ومتطلبات التوسع التجاري العسكري الجشع. وكما يذكرنا جيري بروتون:

الخريطة 3: مجهول، كرة كانتينو المسطحة، 1502م. مكتبة جامعة استنسي، مودينا، إيطاليا.

(163) Chaudhuri 1985; Pearson 1987.

(164) Ingold 1993; Taylor 2004.

كانت أهمية ابتكار ميركاتور جلية من حيث الممارسة الملاحية الدقيقة والربح التجاري. فعوضاً عن رسم اتجاهات غير ملائمة وغير دقيقة على ظهر السفينة على سطح كرة أرضية أو خريطة بورتلان، فقد أتاح إسقاطه الجديد رسم خط الملاحة بدقة على سطح خريطة مستوية، لتتضح بجلاء منفعتها في فن الملاحة... وإذ وضع ميركاتور نصب عينيه الطيارين والملاحين، شرع في رسم العملية الرياضية التي سمحت له بتوظيف شبكة دقيقة من الخطوط المستقيمة عبر خريطته، مع الحفاظ في ذات الوقت على الدقة الجغرافية النسبية لطبوغرافية الكرة الأرضية.[165]

وبمعنى آخر، ليتمكن المرء من غزو الحياة في العالم وترخيصها، كان لا بد له أن يتمكن من رسم خريطتها.

الطبيعة، والملكية الخاصة، واليد العاملة

لم يكن هدف الفلسفة المادية الحديثة في بدايتها تفسير العالم فحسب، بل السيطرة عليه أيضاً. فعندما طرح ديكارت فكرة أن «نجعل من أنفسنا أسياد الأرض ومالكيها»،[166] فإنه منح (بعض) العقول البشرية إعلاناً رسمياً لفرض سيطرتها على طبيعة كانت تضم آنذاك غالبية البشر. وقد ترافقت مع الثورة الديكارتية عمليتان أخريان كانت لهما أهمية تاريخية، وكانت إحداهما سلسلة من التدخلات التي جعلت عدداً متزايداً من البشر يعتمدون على رابطة المال من أجل البقاء. ويطلق علماء الاجتماع على ذلك مسمى «البروليتارية»[167] (بالإنجليزية: Proletarianization)، وهي عملية تحويل النشاط البشري إلى شيء يمكن تبادله في نظام السلع – وهو ما نطلق عليه اليوم سوق العمل.[168] ولم تكن البروليتارية

---

(165) Brotton 1997, 166.

(166) Decartes 1985, 142-43.

(167) ملاحظة من المترجمة: البروليتارية هي عملية تحويل القوة العاملة إلى سلعة. وقد استخدمت عبر التاريخ أيضاً للإشارة إلى طبقة اجتماعية ظهرت في القرن التاسع عشر من العمال الذين لم يكونوا يملكون وسائل إنتاج، فاضطروا إلى بيع عملهم إلى من يملك وسائل الإنتاج.

(168) البلترة متحيزة في أغلب الأحيان تقريباً: وقد يكون المصطلح الأكثر دقة هو " شبه البلترة". أنظر Wallerstein 1983.

قط اقتصادية بالمعنى الدقيق، بل إنها كانت نتاج عملية تاريخية ثانية، هي خلق أشكال جديدة من السلطة الإقليمية التي ظهرت بعد عام 1450م. وكانت السلطة الإقليمية القديمة – والتي شملت السلطات المتداخلة والسلطة ذات الطابع الشخصي – قد انهارت خلال الأزمة الإقطاعية الطويلة (حولي 1315م-1453م). وقد فتح المجال للإمبراطوريات الجديدة والتحولات الداخلية في البلدان المنخفضة وإنجلترا بفضل سلطة من نوع جديد، كان في صميمها تعميم الملكية الخاصة.

ومع أن البرتغال قادت الطريق نحو إيكولوجيا رأسمالية، إلا أنَّ القصة الإنجليزية ترسم لنا صورة أوضح لكيف حوّلت الرأسمالية الأرض واليد العاملة. ومع ركود أسعار الحبوب – وازدياد تكاليف اليد العاملة – على مدى القرن الخامس عشر، استغل أصحاب الأراضي الإنجليز الانهيار الديموغرافي للاستيلاء على مزارع الفلاحين بعد إخلائها. وفي عملية تسارعت بعد عام 1500م، جرت إزالة جزء متزايد من الأراضي من الاستخدام العرفي، حيث كانت قدرة أصحاب الأراضي على زيادة رسوم الإيجار محدودة، إلى قطاع العقارات المؤجرة حيث أمكن تعديل الإيجار حسب قوى السوق.[169] وحيث لم تكن هذه الوسائل السلمية نسبياً للاستيلاء على الأراضي ممكنة، تمكن أصحاب الأراضي من الاستيلاء بموجب ثغرة قانونية في الأنظمة الإقطاعية: إذ كان بإمكانهم فرض «غرامات دخول» بالوراثة.[170] فإذا ورث قروي ما -الابن الأكبر غالباً – الأرض ولم يتمكن من دفع هذه الغرامات، لم تعد الأرض ملكه. وقد انتشرت هذه الثغرة القانونية وغيرها، وازداد فرض الإيجارات التنافسية بحسب العرض والطلب، ولم يعد من اللازم أن تكون أسعار الإيجار معقولة كما كانت الحال في السابق.[171]

---

(169) Brenner 1976, 61-62.

(170) المصدر السابق، ص44.

(171) Whittle 1998, 56.

لم يكن أصحاب الأراضي يستولون على الأراضي فحسب، بل إنهم كانوا يحولون الطريقة التي يشعر بها الآخرون تجاه الطبيعة. إذ قلّل إدراج الأراضي العرفية ضمن نظام الإيجارات التنافسية من الأراضي المشاعة – وهي المناطق التي كان الفلاحون يمارسون فيها بعضاً من الاستقلالية. وينطوي نظام الأراضي المشاعة على إتاحة الأراضي غير المملوكة من طرف شخص ما، وتغطي مجموعة واسعة من الحقوق، مثل تلك المتعلقة برعي الحيوانات، وجمع الحطب ومواد البناء من غابة ما، وكذلك اللقاط. وجاءت مع هذه الحقوق مسؤوليات أيضاً: مثل التقتير: وهو الامتناع عن جمع الخشب، على سبيل المثال، بغرض عدم الإضرار بالقدرة على جمع الخشب مستقبلاً. وكانت تلك الحقوق والمسؤوليات ضرورية من أجل بقاء الفلاحين، إذ سمحت لهم بتعويض الفارق بين محصول الموسم، وما كانوا بحاجة إليه من أجل سد حاجة عائلاتهم. ومع انحسار الأراضي المشاعة وازدياد صعوبة الوصول إلى ما تبقى منها، كان لا بد للفلاحين من أن يسدوا الثغرة بطريقة أخرى. ولم تقدم الكنائس وغيرها من مؤسسات الدعم الاجتماعي إلا القليل. لذا أُجبر الفلاحون على ترك الأرض أو تقديم الشيء الوحيد الذي كان لديهم لبيعه: يدهم العاملة. ومن هذا المنطلق كان عملهم «مجانياً» ولم يجبرهم على بيعه إلا الفقر، وعقوبة السجن بسبب التشرد. ولم يمتلك القرويون خياراً سوى بيع عملهم من أجل البقاء.[172]

وكان بإمكان القرويين أن يقاوموا، وقد فعلوا ذلك.[173] وشهد النصف الأول من القرن السادس عشر سلسلة من الاضطرابات زراعية والحضرية، بلغت ذروتها مع التمرد المسمى تمرد كيت عام 1549م، عندما استولى 16 ألف متمرد على نورويتش، ثاني أكبر مدن إنجلترا آنذاك.[174] ولم يكن غضب المتمردين مُنصبًّا على تضييق الأراضي المشاعة والهجوم المستمر على حقوقهم العرفية، بل كان أيضاً

(172) Brenner 1976, 2001, 1993.

(173) J. C. Scott 1985; Kain and Baigent 1992.

(174) Wood 2007.

يستهدف فكرة الإيجار التنافسي، والتي كانت فكرة جديدة وفظيعة نسبياً في آن معاً في القرن التالي لعام 1450م.[175]

وسرعان ما أصبح الأمر الفظيع عادياً، ولم تكن تلك آخر مرة. فقد مارس مالكو الأراضي في إنجلترا بالفلاحة من أجل المال، أو تأجير أراضيهم للفلاحين. وقد أحدث ذلك ثورة في الإنتاج – بشكل مختلف عن مزارع السكر في ماديرا والعالم الجديد، إنما لا يقل عنه أهمية. وقد حوّلت إعادة تشكيل الملكية الإنجليزية العلاقة بين البشر والأرض من تحتهم. ونتيجة لذلك، ارتفعت الإنتاجية الزراعية الإنجليزية ارتفاعاً هائلاً، وازداد معها عدد السكان غير الزراعيين في البلاد. وارتفعت أيضاً إنتاجية العمال في المزارع الإنجليزية بنسبة 75 بالمائة بين عامي 1600م و1700م، عندما أصبح أكثر من نصف سكان إنجلترا يعملون خارج قطاع الزراعة.[176]

كانت نهضة الملكية الخاصة مسألة مادية، وسياسية، ورمزية، في آن معاً. فقد شكّلت المسوح العقارية وعلاقات الملكية البرجوازية الذي رعته الدولة محل صراع بين الطبقات الاجتماعية وبين سبل تنظيم البشر وسائر الطبيعة. أما بالنسبة إلى الإنجليز في إيرلندا في القرن السادس عشر، فقد كان مسح الأراضي «عاملاً» مهماً «في انتصار التحضّر على الهمجية».[177] وكانت الخرائط طريقة لمعرفة الطبيعة والسيطرة عليها. واعتبرت الأشكال البديلة لمعرفة الطبيعة محرّضة على الفتنة. ولذا شكّلت أعمال الشعوذة والمعرفة لدى الشعوب الأصلية تهديداً وجودياً للرأسمالية وتحدياً لنظرية المعرفة الخاصة بها وأنطولوجياتها. وكانت تجارب شعوب الإنكا في الزراعة، وتقدّم أمريكا الوسطى في تخصيب التربة، والطب الصيني، أشكالاً من المعرفة التي كان لا بد من تقييدها ضمن حدود الفلكلور، أو حتى إبادتها

---

(175) Wallerstein 1974, 255.

(176) R. Allen 2000, 8.

(177) Moantaño 2011, 157.

بالكامل.[178] وأصبحت المعرفة مقيدة أيضاً. وإذا كان لا بد من معرفة أي شيء عن الطبيعة والعالم، كان الأوروبيون هم من يؤلفونه ويجيزونه.

وكما رأينا فقد كان تقييد المعرفة جوهرياً بالنسبة إلى الثورة الثقافية التي وضعت بشكل صريح الشعوب المستعمرة – وكل النساء تقريباً – ضمن تصنيف الطبيعة، من أجل ضبطها وإدارتها. وبينما كانت إنجلترا تحكم قبضتها على إيرلندا بعد عام 1541م، كانت سياسة الإمبراطورية تعطي الأولوية لنقل «الإيرلنديين المتوحشين الذين يعيشون مشتتين في الغابات» إلى القرى ذات الطراز الإنجليزي.[179] ومارس الإسبان برنامجاً مشابهاً على نطاق أكبر في مستعمرتهم في البيرو بعد عام 1571م، إذ أعادت توطين شعب الأنديز – **الطبيعيون** – في قرى زراعية قائمة على النموذج الإسباني. وقام الهولنديون بالمثل في جنوب شرق آسيا بعد عام 1620م.[180] ولم تكن تلك المبادرات الوحيدة من هذا النوع في قرون نشأة الرأسمالية. فقد وضع حجر الأساس لمشروع استعماري طويل أصر على نبذ المستعمَرين من المجتمع المتحضر، وعلى الضرورة الأخلاقية لوجود الإمبراطورية باعتبارها مدرسة للشعوب «الرجعية»، حسب ما أشار إليه المؤرخ أولريخ بي فيليبس في بداية القرن العشرين.[181]

العجز عن تقدير حقبة الرأسمالوسين

شكّلت عمليات الفصل الثقافي الثلاث عبر التنوير، والبروليتارية، وخصخصة

---

(178) مع تحوّل مركز ثقل الرأسمالية نحو آسيا، من المدهش أن نرى انخفاض قيمة أنواع محددة من المعرفة التقليدية. ولم تكن جائزة نوبل للفيسيولوجيا أو الطب في عام 2015م للأعمال القائمة على الطب الصيني لتكون واردة في بداية تأسيس الجائزة.

(179) إيرل نورثهامتون، أحد مستشاري الملك هنري الثامن، اقتباس في Lustick 1985, 23. أنظر أيضاً Ohlmeyer 2016. كان أحد ردات فعل الإيرلنديين تجاه التسييج هو نظام الراندیل، وهو نظام ملكية زراعية جماعية وإدارة جماعية قدمت بديلاً للقانون الإنجليزي، بيد إنه في النهاية – لا سيما مع التقييدات على توسعة الأراضي – سمح بجمع العمال في مجموعات رحلت إلى إسكتلندا لإيجاد العمل. Yager 2002; Gannon 2015.

(180) Moore 2017a.

(181) U Phillips 1929.

الملكيات أهم العمليات في استراتيجية الطبيعة الرخيصة للرأسمالية، وهي استراتيجية حولت عمل البشر وغير البشر إلى أشياء رخيصة. وليس هنالك أفضل من أزمة إيكولوجية تذكّر الحضارة بأن الطبيعة ليست رخيصة على الإطلاق. إذ يستحيل مع التغير المناخي تجاهل التغير العالمي في حياتنا اليومية. فشدة «الأحوال المناخية القاسية» وتكرارها في السنوات الأخيرة بات أمراً واضحاً لا مفر منه. فقد دمر الجفاف الزراعة في كاليفورنيا، وشهد سكان البصرة في العراق درجات حرارة تصل إلى 54 درجة مئوية في يوليو 2016م، بينما وصل مؤشر الحرارة في مناطق في إيران إلى 60 درجة مئوية في ذات الشهر.[182] وتقلّص اقتصاد العراق بمقدار الخمس تقريباً خلال موجة حر صيف عام 2016م.[183] وبالفعل، فإنه من المرجح أن يجعل الإجهاد الحراري – مع كل آثاره القاتلة على الأطفال وكبار السن – مناطق من الشرق الأوسط غير صالحة للسكن مع حلول نهاية القرن.[184] كما هزّت حرائق الغابات غير المسبوقة أركان غربي كندا. وأودت موجات الحر بحياة الآلاف في الهند.[185] وكان آخر استمرار غير محتمل احصائياً للطقس القاسي بالنسبة إلى الأمريكيين، فيضانات لويزيانا في أغسطس عام 2016م، والتي شرّدت 30 ألف شخص من منازلهم. وكانت تلك العاصفة عاصفة لا تقع إلا مرة في كل خمسمائة عام، بحسب الإدارة الوطنية للمحيطات والغلاف الجوي. وكانت الخمسة عشر شهراً السابقة لفيضان لويزيانا قد شهدت ثمانية أعاصير مشابهة.[186]

هكذا هو العيش في حقبة الرأسمالوسين. وبالتأكيد، فإن الحضارات الإنسانية السابقة قد حوّلت بيئاتها أيضاً. إلا أن أياً منها لم تقدها وتتحكم بها استراتيجية الطبيعة الرخيصة، والتي سمحت بتحويل الكوكب إلى طبيعة ومجتمع عبر اخضاع

---

(182) Naylor 2016.

(183) *Aljazeera 2016*.

(184) Sherwood and Huber 2010; Pal and Eltahir 2016.

(185) Inani 2015.

(186) Bromwich 2016. هنالك ارتباط وثيق على المدى البعيد بين تكرار الفيضانات وشدتها والتغيرات الصغيرة نسبياً في المناخ (Knox 1993).

حياة البشر وغير البشر. وقد واجه أولئك الذين عارضوا هذا التحوّل، مثل ساحرة التشيتشيميك في بداية هذا الفصل، الموت. وتستمر الشعوب الأصلية في المقاومة، وتستمر مواجهتهم للقتل – مع أن لغة الرأسماليين تخبرنا أن هذا الشعب لا تباد. وبل إنها تخضع **للتطوير**.

لقد أدى تدوير الطبيعة إلى المال، ثم إلى رأس المال، بنا إلى هذه اللحظة في التاريخ الجيولوجي. لذا نحن بحاجة إلى استعراض الأمر الذي أراد كولومبوس بشدة أن يراه عندما نظر إلى الطبيعة في العالم الجديد، والذي ظلّ في خلفية سردنا حتى الآن، والذي من دونهِ ما كانت فكرة الرأسمالية الحديثة لتكون واردة: المال الرخيص.

الفصل الثاني

المال الرخيص

Poderoso caballero es Don Dinero:
nace en las Indias honrado,
donde el mundo le acompaña,
viene a morir en España,
y es en Génova enterrado.

السيد مال فارس مغوار:

وُلد كريماً في الأنديز،
حيث تبعه العالم أجمع،
وجاء ليموت في إسبانيا،
وفي جنوى سيُدفن.

ـ فرانسيسكو دي كيفيدو إي فيجيغاس، «السيد مال فارس مغوار»

وحينما سأل]غواينا كاباك من الإنكا[الإسباني]كانديا، أول من وصل إلى البيرو من الإسبان[ماذا يأكل؛ أجابه بالإسبانية وباستخدام إيماءات أشار إلى أنّه يأكل الذهب والفضة. فأعطاه]كاباك[كميات كبيرة من غبار الذهب وأطباق الفضة والذهب.

ـ فيليبي غوامان بوما دي أيالا، *أول سجّل جديد وحكومة جيدة*

فهم كولومبوس المال، كالكثير من البشر، فِهم الأُلفة لا الخبرة. نعلم ذلك لأنه كان قد عُهد إليه في عام 1478م إحضار حمولة سفينة من السكر من ماديرا إلى

جنوى، فأخفق في عملية النقل بشكل ذريع إلى درجة أنه اضطر للمثول أمام المحكمة.[187] حيث دفع لودوفيكو سينتريوني، وهو أحد أغنى المصرفيين في جنوى، إلى تاجر، وهو باولو دي نيغرو، 1290 عملة ذهبية، فقام دي نيغرو بتعيين القبطان كولومبوس لنقل 22680 كيلوغرام من السكر، وأعطاه 103 عملة ذهبية، وحاوية شحن مليئة بالصوف.[188] ولم يكن هنالك من يشتري الصوف في مادیرا. فعاد كولومبوس بحمولة صغيرة من السكر إلى جنوى، فأُجبر على الإقرار بفشله التجاري أمام المحكمة، وهو في سن السابعة والعشرين «أو نحو ذلك».[189] وسرعان ما اختفى كولومبوس عن المدينة، ولم يعد إليها مجدداً.[190] إلا أنَّ الشؤون المالية في جنوى تبعته لبقية حياته.

توجه كولومبوس إلى جزيرة أيبيريا، حيث كانت إسبانيا – الجديدة وبالكاد موحّدة – تشنُّ أولى أهم حملاتها العسكرية الثلاث. ففي عام 1478م، أرسل الملك فيرديناند الثاني والملكة إيزابيلا جنوداً إلى المناطق البرتغالية في غران كناريا، أكبر جزر الكناري. إلا إنَّ نقودهم نفدت، ولذا موّل فرانسيسكو بينيلو من جنوى، أربع رحلات استكشافية إسبانية أخرى على مدى ثلاث سنوات، وذلك بدءاً من عام 1480م. ومع حلول عام 1483م، تم إخضاع غران كناريا، وكان لا بد من إرضاء الدائنين.[191] ولكن كانت هنالك مشكلة. فكما أشارت هيلين نادر، «كانت العوائد المباشرة الوحيدة هي العدد غير المسبوق من أسرى الحرب. فأصبح الدائنون الملكيّون]من جنوى أكثر من غيرها[... تجار الرقيق الملكيين».[192] وسرعان ما تكرّر ذلك النمط. وشُنَّت الحملة العسكرية الكبيرة الثانية في عام 1482م، وشكّلت المرحلة الأخيرة من حملات الاسترداد في

---

(187) Harrisse 1888. تزوج كولومبوس كذلك من عائلة غنية، ولكن هذا الغنى تحول إلى دين مع هوسه بالعبور عبر الأطلسي، وذلك بحلول عام 1484م (Mohawk 1992, 26).

(188) كان لعائلة سينتوريوني أيضاً حصص في تعدين الشب، وهو عنصر أساسي في معالجة الصوف.

(189) Catz 1993, 22-23.

(190) Boyle 2008, 54-55.

(191) Kicza 1992.

(192) Nader 2002, 402.

الأراضي الأيبيرية، وقد مولتها جنوى مجدداً. ومرة أخرى، كانت الغنيمة الوحيدة ذات القيمة هي الأسرى. وعندما سقط ميناء ملقا في عام 1487م – وهو حدث شهده كولومبوس – استُعبد سكانها من اليهود والمسلمين. وكان أهم «رجال الأعمال في ملقا، قبل سقوطها وبعده»، هم عائلة سينتوريوني من جنوى.[193]

أما الثالثة، فقد موّلها عدد كبير من الرجال الذين موّلوا حملات الكناري وأيبيريا. وكانت الحملة الثالثة تعتزم العبور إلى آسيا عبر المحيط الأطلسي. وفي عام 1490م، أصبح بينيلو أمين خزينة مشترك لقوات الأخوة المقدسة (بالإسبانية: Santa Hermandad)، وهي قوة شرطة عالية التسليح كُلفت بقمع المعارضة الداخلية المحتجة على جهود قشتالة الواهية لبناء الدولة.[194] والأخوة المقدسة كانت هي المسؤولة عن طرد اليهود من إسبانيا بحلول 31 يوليو من عام 1492م، وذلك قبل ثلاثة أيام فقط من إبحار كولومبوس نحو الأمريكيتين. وكان أمين الخزينة المشترك **الآخر** للأخوة المقدسة هو لويس دي سانتانخل.[195] وكان قد تولى أيضاً، منذ عام 1418م، منصب كاتب حصص الإعاشة (بالإسبانية: escribano de racion) لمملكة آراغون، أي إنه كان مسؤول الشؤون المالية الملكية. وكان سانتانخل هو من أقنع إيزابيلا بالعدول عن رأيها بعد أن كانت رافضة لطلبات كولومبوس. وعلى الرغم من أن القصة المشهورة تقول إنَّ فرديناند وإيزابيلا هما من موّلا رحلة كولومبوس، إلا أنَّ تلك هي نصف الحقيقة. إذ لم تكن مملكتا فيرديناند وإيزابيلا (الآراغون وقشتالة) مملكتان مموِّلتان، بقدر ما كانتا ضامنتين، أي إنهما كانتا تضمنان سلفة مالية كانت تأتي في معظمها من الأخوة المقدسة.[196]

توجد في صميم نشأة إيكولوجيا الرأسمالية دورة تتجاوز دورة تحويل المال إلى

---

(193) Thomas 2013, 48.

(194) McCarthy 1915; Sued-Badillo 1992.

(195) Majid 2009, 31; Kaplan 2010; Thomas 2013, 48.

(196) McCarthy 1915.

سلعة ومن ثم إلى مال مجدداً. وهي دورة سحرية فريدة وحديثة جداً. فقد أرادت الدول الغنائم، ولكنها كانت تحتاج المال لتدفع لجنودها. ومن دون الحروب لم يكن باستطاعتها أن تحصل على الثروات التي كانت بحاجة إلى جزء منها لتغطية تكاليف الحرب التي سبقتها. الحرب، فالمال، فالحرب. كان المصرفيون بحاجة للحكومات للسداد، وكانت الحكومات بحاجة للمصرفين للتمويل. الأمر الجديد في الرأسمالية ليس سعيها وراء الربح، بل وراء العلاقات فيما بين هذا السعي، وتمويله، والحكومات. وهذه العلاقات أعادت فيما بعد صناعة الكوكب، وهي موضوع هذا الفصل.

الشؤون المالية باعتبارها إيكولوجيا

فعّلت الحياة على الكوكب على مدى ستة قرون ماضية قوة المال.[197] وليس أي نوع من المال، بل رأس المال، باعتباره قوة تتحكم في الحياة، والعمل، والموارد. ويُتداول رأس المال لسببين. الأول، هو السوق العالمية الحديثة، والتي تشكّلت في عصر كولومبوس. أما الآخر، فهو الإمبريالية الحديثة، والتي نشأت في ذات الوقت، ليس من باب الصدفة. ولم يكن بالإمكان إقامة سوق عالمية أو إنشاء قوة عالمية دون أموال، فلا غنى للطموح الإمبراطوري والتبادل السلعي عنها، ولا تستقيم هي من دونهما.

يسهّل المال إجراء المعاملات ويلزم الأعمال عبر المسافات. واعتمدت استخدامات المال الأوَّليَّة، في الهلال الخصيب، على المعادن النفيسة لتسهيل عمليات التبادل الزراعي، وحتى إدارة أزمة الديون في عام 1788 قبل الميلاد.[198] ونلاحظ هنا خطوات صنع العملة: أولاً، أنت بحاجة إلى الحصول على مادة نادرة، غالباً ما تكون معدناً من الأرض. ثم تأخذ هذه المادة إلى دار سك العملة، وهي أداة لمؤسسة قوية يمكنها أن تضمن النقاء المعدني، فتطوّق سلطتها

(197) يقدم الفصل الأول في Neal 2015 موجزاً جيداً عن ما قبل المال.
(198) المصدر السابق، ص16.

حرفياً على سطح العملة المعدنية. وتحت مظلة الرأسمالية، يستبدل بهذا المال المسكوك بعد ذلك القوة العاملة، والآلات، والمواد الخام التي تصبح فيما بعد سلعاً يمكن أن يستبدل بها المال مجدداً.

المال العالمي، والطبيعة العالمية، والسلطة العالمية، تشكّل فيما بينها الثالوث الفريد لصنع البيئة التي شكلت الرأسمالية منذ غزو الأمريكيتين وحتى كارثة الاحتباس الحراري الجارية في القرن الحادي والعشرين. ففي العالم الحديث، يشكل المال علاقة إيكولوجية. إذ أصبح، في حقبة الرأسمالية، علاقة تشكل ظروف الوجود ليس بالنسبة إلى البشر فحسب، بل لكل أشكال الحياة.

ولذا فإنه من المنطقي القول بأنَّ وول ستريت هي طريقة لتنظيم الطبيعة. وسندفع في هذا الفصل بفكرة حاجة إيكولوجيا العالم الرأسمالية إلى المال الرخيص، وهو عملة آمنة للتبادل يمكن الاستناد إليها لتسهيل التجارة، والتحكّم بها بطريقة تفي باحتياجات الكتلة الحاكمة في ذلك الوقت. ويتضمن ترخيص المال بُعدين أساسيين. أحدهما هو استملاك السلعة الأولية الأساسية (الفضة، الذهب، النفط)، وتنظيمها للإبقاء على معدلات الفائدة – سعر المال – منخفضة. أما الآخر فهو السيطرة على الاقتصاد النقدي الأكبر، والذي لا تقدمه سوى الدول (المدن، الأمم، وأخيراً الإمبراطوريات). وحسب تعبير فيرناند برودل، فإن رأس المال «لا ينتصر إلا عندما يصبح مرتبطاً بالدولة» – وهو تصريح له صلة خاصة بزمننا الذي يعامل فيه غولدمان ساكس البيت الأبيض وكأنه مكتب فرعي تابع له.[199] وفي القرن السادس عشر، اكتشف المستعمرون الأوروبيون أنه باستطاعتهم توسيع نطاق هيمنة الفضة حول العالم. وعبر الروابط التي لحقت ذلك، حقق المستعمرون نتيجة مستمرة حتى يومنا هذا – مع بضع وقفات – وهو نظام المال الرخيص الذي يسهل إنشاء التخوم، ويحميها، ويوسعها، في إيكولوجيا الرأسمالية.[200]

---

(199) Braudel 1977, 64-65.

(200) أنظر Hills, Thomas, and Dimsdale 2010 للمزيد عن الاتجاهات السائدة على المدى البعيد في معدلات الفائدة والحرب.

المال الرخيص يعني في المقام الأول الفائدة المنخفضة. فحتى في عالم اليوم المليء بسفن الحاويات السريعة وتجارة الأسهم عالية التواتر، يعتبر الائتمان شريان الحياة بالنسبة إلى الرأسمالية. فإذا كان العمل الرخيص، والغذاء الرخيص، والطاقة الرخيصة، والمواد الخام الرخيصة شروطاً ضرورية لازدهار الرأسمالية، فإن الائتمان الرخيص يجعلها كلها ممكنة.[201] وعلى مدى التاريخ، كانت هنالك دورة فعالة للمال الرخيص والتخوم الجديدة. فعندما تقلصت فرص الربح في مناطق الإنتاج والاستخراج القائمة، أخذ الرأسماليون أرباحهم ووضعوها في التعاملات المالية. وكان ذلك أحد الأسباب التي أدت إلى وجود عملية يطلق عليها الخبراء الأمْوَلة، وذلك بعد كل ازدهار كبير في عالم الرأسمالية – في منتصف القرن السابع عشر للهولنديين، ومنتصف القرن التاسع عشر للبريطانيين، والعصر الذهبي ما بعد الحرب لأمريكا). وكان الرأسماليون خلال هذه الفترات يعيدون توجهاتهم من الممارسات الصناعية والتجارية القديمة والأقل ربحاً، إلى الأشكال المختلفة للتعاملات المالية. وبدلاً من توظيف العمال المثيرين للمشاكل، وبناء المصانع المكلفة، وشراء المواد الخام، وصنع شيء ما، فقد توجّه عدد متزايد من الرأسماليين إلى أمر أكثر بساطة و(بشكل مؤقت) أكثر جاذبية، وهو إقراض المال والرهان على المستقبل. وتشكل الأمولة بهذا المعنى مقامرة على ثورة صناعية مستقبلية أكثر ربحاً.[202] إننا الآن نعيش في زمن مشابه، والسرد التاريخي ليس مطمئناً بشأن النتيجة المتوقعة: فمثل هذه الدورات من التراكم غالباً ما تنتهي بالحرب، مع نشأة قوى مالية جديدة، كما سنرى لاحقاً.

هنالك حركتان جعلتا من الأمولة أمراً جاذباً، وحتى نافعاً للرأسمالي إذا ما توقفت كعكة الاقتصاد العالمي عن النمو. إحداها ميل القوى العظمى إلى خوض الحروب، أو على الأقل حشد قدراتها الحربية. وهذا هو ما حدث بعد الركود الاقتصادي في سبعينيات القرن الماضي، عندما أطلقت الولايات المتحدة أكبر

(201) Moore 2015.

(202) Arrighi 1994; Arrighi and Silver 1999.

تعزيزات عسكرية في التاريخ السلمي. وكما سنرى لاحقاً، فإنه من النادر أن تمول الدول الحديثة حروبها بنفسها. إذ لا بد لها من الاقتراض تماماً كما الآخرين. أما الأمر الآخر الذي يدفع بالتوسع الاقتصادي فهو أن يبدأ رأس المال في قلب النظام بالتدفق نحو التخوم. ففي نهاية القرن التاسع عشر، على سبيل المثال، تدفقت مبالغ مهولة من رأس المال البريطاني، على شكل قروض، خارج لندن باتجاه سائر أرجاء العالم، بالأخص من أجل بناء سكك الحديد – والتي كانت بدورها أساسية للترخيص الهائل للغذاء والمواد الخام في القرن التالي.[203] وقد نجح رهان الأمولة على المستقبل عبر التاريخ شريطة وجود تخوم وفيرة، حيث يمكن استغلال البشر وسائر الطبيعة – أو استخراجها – بتكلفة منخفضة. وفي السبعينيات، حين توقفت فترة الازدهار الطويلة التي كانت جزءاً من نجاحها شبكة السكك الحديدية العالمية، بدأ عصر جديد من الأمولة. ومع أن حقبة الليبرالية الجديدة نشأت من أزمة غلاء المال (صدمة فولكر) في عام 1979م، والتي وصلت معدلات الفائدة خلالها إلى 20 بالمائة في محاولة للسيطرة على التضخم، فقد تبعتها حقبة ممتدة من المال الرخيص. وكما يوضح أنور شيخ، فإن «الازدهار» الليبرالي الجديد الذي بدأ في الثمانينيات كان مدفوعاً بهبوط حاد في معدلات الفائدة... كما سهل هبوط معدلات الفائدة انتشار رأس المال حول العالم، والذي عززه ارتفاع هائل في دين المستهلك، فأدى إلى فقاعات دولية في الأموال والعقارات.[204] يكمن الفرق اليوم في قلة تخوم الطبيعة الرخيصة وارتفاع أكوام العملات النقدية على طاولات الكازينوهات العالمية. وفي القرن العشرين يغطي المال مشكلات الأزمة الإيكولوجية الاجتماعية الكامنة ويؤجلها، أما بالنسبة إلى غالبية البشر والحياة على الكوكب، فإن الدولارات الرخيصة لم يعد بإمكانها تغطية هذه المشكلات. ويعطينا التاريخ بعض الدروس حول ما يمكن أن يكون عليه الوضع عندما يمتزج الاضطراب النقدي والبيولوجي والمناخي والاجتماعي.

---

(203) Headrick 1988; Stone 1999.

(204) Shaikh 2011, 45.

المنشأ المالي للعالم الحديث

أثار الموت الأسود (1347-1353) أزمة مالية. وكانت إحدى نتائجه أن انخفض عدد الأشخاص القادرين على التعدين، وبالتالي فقد تسبب ذلك في نقص الوقود. وكان الأرستقراطيون الأوروبيون يريدون التوابل من ملقا، والحرائر من بلاد فارس، والبورسلان من الصين، وكانت الصناعة الأوروبية بحاجة إلى المواد الخام، القطن من مصر، والشب من سوريا، وقد كان الأوروبيون يدفعون بالنقود المسكوكة بمعادن نادرة من المناجم الواقعة تحت سيطرتهم. ولهذا السبب تدفقت الفضة والذهب من أوروبا (القليل الذي كان موجوداً) بسرعة شرقاً وغرباً. ومع أن التوازن التجاري قد عوضته قليلاً الحيوانات والبضائع الجاهزة للبيع إلا أن جون داي يشير إلى أن «قوة شد هذا العجز كانت لا تقاوم. فقد استنزف الفضة من بوهيميا وساردينيا بسرعة تعادل سرعة تعدينه. وكانت له حصة الأسد في ذهب المجر والسودان منذ اللحظة التي دخل فيها دائرة البحر الأبيض المتوسط، كما أسهم في - إن لم يكن قد خلق - استمرار مشاكل المدفوعات حتى إنجلترا وفلمنكة».[205]

شكل العصر الجليدي الصغير مشكلة عالمية، في الصين أكثر من غيرها، باعتبار أنها كانت أحد مراكز التجارة المزدهرة عالمياً. ومع أن المناخ كان قد تسبب في كساد وأزمة مالية في السابق، إلا أنَّ العواقب كانت مختلفة هذه المرة.[206] فقد اجتمع الاضطراب المناخي في الصين في منتصف القرن الخامس عشر مع الاضطرابات الداخلية في البلاط الإمبراطوري واستجابة لذلك فقد أغلقت سلالة منغ الحاكمة دور سك العملات فيها، والذي أسهم بدوره في شح الفضة عالمياً. كما تراجعت دولة منغ عن «تدخلها غير المسبوق في الشؤون الدولية،]و[لم تكن أي حكومة أخرى في العالم قادرة على تولي دور]الصين[باعتبارها محرك النمو الاقتصادي. وفي الفترة ما بين مطلع أربعينيات القرن الخامس عشر ومنتصف ستينياته،

(205) Day 1978, 12.

(206) Wei, Fang, and Su 2014.

وجدت المجتمعات من طرفي أوراسيا أنفسها في ورطة اقتصادية وسياسية كبيرة».[207]

كانت إحدى النتائج تفاقم الارتياب الشعبي الصيني تجاه العملة الورقية. وبدأت العملات النقدية من الذهب والفضة، والتي كانت محط ثقة الناس باعتبارها خزينة ذات قيمة، بالاختفاء من التداول.[208] وأخرج المال الورقي السيء المال المعدني الجيد. وفي ملقا، في النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الماليزية، كانت العملة شحيحة جداً إلى درجة أن التجار المحليين لجأوا إلى صنع العملات النقدية من الصفيح.[209] كما بدأ تداول الكمبيالات الجنوية والفلورنسية في أوروبا باعتبارها من وسائل التبادل القليلة الموثوقة، إلا إنه من دون الخزائن المكتنزة بالذهب والفضة لم تكن لهذه العملات الورقية جدوى تذكر في حل المشكلة.

الفضة الأوروبية

بالنسبة إلى الأوروبيين في القرون الوسطى، كانت إمكانية أن يتخذ المال شكلاً آخر غير القطعة النقدية فكرة غير واردة. وأشار المستكشف البندقي ماركو بولو في القرن الثالث عشر إلى أنه «من بين كل الأعراف الغريبة، لم تدهشه أي منها أكثر من قوة الدولة في الإجبار على [استخدام المال الورقي] عبر أرجاء الإمبراطورية».[210] غير إنه لم تكن في أوروبا إمبراطوريات عظيمة كالذي يذكرها بولو – بل كانت هنالك بضعة دول متوسطة ومئات الدويلات، وكانت كلها تقريباً على علم بانخفاض قيمة العملات المسكوكة. فعندما أوهنت الأزمات الطبقية، والمناخية، والوبائية، في القرن الرابع عشر النظام الإقطاعي، انتقل النظام النقدي في أوروبا من سيء إلى أسوأ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(207) Atwell 2002, 97.

(208) McNally 2014.

(209) Atwell 2002, 97.

(210) Weatherford 2009, 126.

أصبحت الثقة شبه معدومة بين مستخدمي المال، إذ لم يعد الأطراف متيقنين من عدم زيف القطع النقدية التي يستلمونها. وكان كل من الذهب والفضة – السبائك – سبيلاً لاتقاء خفض قيمة العملة وانعدام الثقة.[211] إلا أنَّ المناجم الأوروبية فاضت، وتقلصت كمية المال المتداول – بنحو الثلثين، أو ربما أكثر، في القرن الذي تلا عام 1350م.[212] وبينما شحت الثقة المتبادلة، شحت أكثر منها الفضة.

كان التجار الأوروبيين بحاجة ماسة إلى المال الجدير بالثقة. وليس مجرد معادن من الأرض، بل شبكات يمكن للمعدن من خلالها أن يصبح مالاً، وأن يكون معتمداً من سلطة ما يمكنها أن تضمن تداوله لتلبية الطلب في التخوم الآخذة في الاتساع. ووجد أول حل في جنوبي ألمانيا، في أوغسبيرغ، حيث شهدت عائلة فاغر ولادة المال بشكله الحديث.[213] إذ لم تهيمن العائلة على عالم الأموال في أوروبا لقرابة قرن من الزمان فحسب، بل إنها شكلت أول صناعة أساسية للرأسمالية، وهي التعدين. وقد تدفقت المواد التي صنع منها المال الحديث في بداية الأمر، من جبال الخام، الغنية بالفضة والنحاس، والتي تقع اليوم بين التشيك وألمانيا تقريباً. وفي الواقع فإن كلمة **دولار** بالإنجليزية مشتقة من العملة المسكوكة (الثالر) المستخرجة من مناجم يواخمهستال (في الوقت الحاضر ياخيموف)، وهي أكثر مدن ذلك العصر ازدهاراً.

وبدأ نقص الفضة في التعافي بعد عام 1450م. إذ لم تكن أي من المناجم الأوروبية في ذلك العام تنتج أكثر من 10 آلاف مارك من الفضة (2.5 طن). غير أنه مع حلول عام 1458م، كانت ثمانية مناجم تنتج أكثر من 50 ألف مارك (12.5 طن) في العام.[214] وشكلت الفضة الأوروبية، وكذلك الذهب الإفريقي بدرجة أقل،[215] الأساس المادي اللازم للنمو الهائل في سوق تبادل السلع بدءاً

---

(211) Wallerstein 1974.

(212) Patterson 1972, 230. وللاطلاع على إنجلترا، أنظر M. Allen 2001.

(213) Ehrenberg 1985; Häberlein 2012; Steinmetz 2016.

(214) Nef 1941.

(215) Vilar and White 1976.

من نهاية القرن الخامس عشر.[216] وقد أدى هذا الازدهار الحديث الأول للفضة إلى أمرين، إذ إنه «إما قد أتاح للتجار في المراكز النائية أن يطمئنوا لدفع الأموال من أجل النشاط التجاري لمعرفتهم بأن الكمبيالات في هذه الأسواق يمكن دفعها عند استحقاقها، أو إنه أتاح الأموال الطائلة لهؤلاء الذين كانوا يعرضون الكمبيالات من أجل تمويل تجارتهم». وفي مثل هذه الحالات فقد اجتذبت أسواق المال التي يمكن فيها تمويل القروض التجارية بمعدلات فائدة منخفضة نسبياً التجارة نحوها، وأدت إلى إعادة مواءمة النشاط التجاري... ليتماشى مع... نشاط التعدين في أوروبا الوسطى».[217]

لم يكن المال هو النتيجة الوحيدة لطفرة الفضة، بل إنها أيضاً أنشأت أحد أول أشكال الطبقة العاملة الحديثة، ودمرت المسطحات الخضراء، وأثارت أول ثورة كبرى للعمال والفلاحين في عصر الحداثة، وهي حرب الفلاحين الألمان في عام 1525م. وكان يوجد في ذلك الوقت مائة ألف عامل في أوروبا الوسطى منخرطين في أعمال التنقيب والتعدين – بالإضافة إلى عدد لا يحصر من العمال في الحرف المساعدة.[218] فكانت التداعيات البيئية سريعة ومدمرة. وذكر جورجيوس أغريكولا، وهو أول جيولوجي بالمعنى الحديث، أن «الغابات والأجمات قد قطعت، بسبب الحاجة إلى كميات لا تحصى من الخشب من أجل الحطب، والآلات، وصهر المعادن. وعندما قطعت الغابات والأجمات، وأبيدت الحيوانات البرية والطيور، والتي يشكل الكثير منها غذاء شهياً وطيباً للإنسان. وعندما تغسل المعادن الخام، فإن ماءها يسمم الجداول ومجاري المياه، فتنفق الأسماك أو تبتعد».[219]

---

(216) Day 1978, 47; Ruggiero 2015. وبالفعل بإن الارتفاع الشديد في سرعة التبادل في شمال غرب أوروبا انعكس بشكل بارز في إعادة مسار تدفق الفضة نحو أنتويرب وبعيداً عن فينيسيا ودانزيق (غدانسك الآن) – أنظر see Munro 2003, 11.

(217) Blanchard 2001, 110-11.

(218) Holborn 1982, 72.

(219) Agricola (1556) 1950, 8.

التهمت الفضة – بالإضافة إلى النحاس والحديد – الغابات وهددت معيشة الفلاحين. وكما رأينا في الفصل السابق، فقد كانت الغابات تعتبر من المشاعات بشكل كبير قبل القرن السادس عشر. وكانت أساسية في بقائهم، أو كانت حسب تعبير جاك وستوبي «معطف الفقير».[220] وقد حارب الفلاحون تسييج الغابات، إلا أنَّه مع اندلاع حرب الفلاحين الألمان[221] كان الوصول إلى المشاعات محدوداً جدّاً وانخفضت مساحة الغابات بشكل كبير. وفي مواجهة تحديات الأراضي المشاعة، طالب الفلاحون في القرن السادس عشر باسترداد حق الوصول إلى الغابات، وذلك في بيانهم الرسمي ذي الاثني عشر بنداً.[222] وقد استنكر رجل الدين المتطرف توماس منزر (والذي يعني اسمه الأخير بالألمانية «سكاك النقود» أو «ضارب العملة») في عام 1524م تسييج الغابات، والذي أدى إلى «تحويل كل كائن حي فيها إلى ملكية ما: السمك في الماء، والطير في الهواء، والنبات في الأرض. حتى المخلوقات أيضاً يجب أن تكون حرة».[223] وعطلت ثورة العمال وافلاحين التي أفنى فيها حياته الشؤون المالية في أوروبا، وربما كانت لتثير المزيد من الثورات لولا قيام المستثمرين في دولة مدينة إيطالية صغيرة بتمويل حل استعماري.

الصيرفة الجنوية

مع حلول منتصف القرن الخامس عشر، كانت أوروبا قد بدأت تتعافى من تداعيات قرن ونصف من الأمراض، والحروب، والمجاعات، التي أهلكت الحياة في القارة منذ عام 1315م. وفي عام 1453م، كانت نهاية الإمبراطورية الرومانية الشرقية القديمة، حينما استولى العثمانيون الأتراك على القسطنطينية، وكذلك نهاية حرب المائة عام بين إنجلترا وفرنسا. وكانت خمسينيات القرن الخامس عشر حافلة بالأحداث من جوانب أخرى أيضاً. إذ ولد كولومبوس ورعاته المستقبليون

(220) Westoby 1989, 56. أنظر أيضاً Birrell 1987.

(221) Blickle 1981.

(222) المصدر السابق، ص198-199.

(223) Münzer 1524، مقتبس في Marx 2000, 68.

إيزابيلا وفيرديناند (1451-1452)، وبدأ تداول الكتاب المقدس من مطبعة جوهانز غوتنبيرغ، وحُصد أول محصول سكر في ماديرا. كما تضمن ذلك العقد من الزمان نهاية «حرب المائة عام الإيطالية»، بموجب سلام لودي (1454م). وهو صراع دام نحو قرن بين أربعة «قوى عظمى» في شمالي إيطاليا: البندقية، وجنوى، وفلورنسا، وميلان.[224]

وكانت جمهورية جنوى الأضعف من بين هذه القوى بفارق كبير. وفي الواقع، فقد كانت أشبه بشركة قابضة عالمية أكثر منها إمبراطورية.[225] ولكن ذلك لا يعني أنها كانت ذات دور ثانوي – فقد كانت عائدات الضرائب فيها في عام 1298م أعلى بكثير من فرنسا، وكان عدد سكانها أكبر من عدد سكان لندن.[226] ولكنها كانت مكاناً انعدم فيه الاستقرار. إذ دمرتها في القرون الوسطى الثورات الاجتماعية، حيث إنه بين عامي 1413م و1453م، قلبت 14 ثورة المدينة رأساً على عقب.[227] فقد كان «الطابع الرئيسي» في تاريخ جنوى هو «الصراع، الذي كان يشن في الغالب بشدة انتحارية، بين الطبقة الأرستقراطية، والطبقة المتوسطة الميسورة».[228] وهو بمثابة معركة بين ما يبلغ 1 بالمائة و0.1 بالمائة من السكان. واستمر ذلك حتى عام 1528م، عندما ختم الأرستقراطي أندريا دوريا نصر الـ 0.1 بالمائة عبر إعادة كتابة دستور الجمهورية.

كانت أراضي جنوى في الخارج تدار من قبل عامة الشعب، أي البلدية بحد ذاتها. وازدادت ديون البلدية مع سقوط أراضيها الأجنبية خلال توسع الدولة العثمانية ومنافسة البندقية لها في الشرق. وأسست مجموعة من المقرضين الأرستقراطيين من عامة الشعب دار سانت جورج (بالإيطالية: Casa di San

(224) Braudel 1972, 339, 388-389.

(225) Epstein 1996.

(226) Lopez 1964.

(227) Braudel 1972, 339.

(228) Coles 1957, 18.

Giorgio) – التي تحولت فيما بعد إلى بنك سانت جورج في عام 1407م.[229] وخلال عام، كان هذا المصرف قد اتفق على السيطرة على الأراضي من البلدية بحيث يتمكن الأرستقراطيون من استرداد ديونهم من المدينة، ومن طبقة التجار على وجه الخصوص. وهكذا تنازلت المدينة عن حقوق أصولها (أراضيها) باعتبارها مدفوعات فائدة وضمانات سداد على مدى القرن الخامس عشر: «ليريسي في عام 1497م، وكورسيكا في عام 1482م، وسارزانا في عام 1484م».[230] وخلال سلسلة من الأزمات الائتمانية المتتالية، التهمت فئة الـ 0.1 بالمائة الموارد والجزر في البحر الأبيض المتوسط من طبقة التجار الأثرياء، واحتفظت بالعائدات في مصرفها، واحتفظت بحساباتها الخاصة.[231] وبقي هذا التوتر بين المصارف والدول التي تعتمد عليها لفترة قبل أن يزول.

ونقّب التجار الجنويون عن السبل لكي تدفع جنوى لدائنيها. وفي عام 1417م، وضعت البلدية نظام يانصيب للدولة بجائزة كبرى «تعادل الراتب السنوي لعشرة رؤساء».[232] فقاموا ببيع ودائعهم. وهكذا أصبح مصطلح الكأس المقدس (بالإنجليزية: Holy Grail) أداة مالية. إذ أحضر غوغليلمو امبرياكو («ويليام السكران») الكأس الذي يزعم أن المسيح قد شرب منه في العشاء الأخير إلى جنوى بعد غزوه لقيصرية (التي تقع اليوم في فلسطين). وفي عام 1319م، رهنت المدينة الكأس لدى الكاردينال نيكولو فيتشي من أجل الدفع للمصرف. وقد سميت الأداة المالية الناتجة عن ذلك (compera cardinalis).[233] ونقلت المدينة

---

(229) Heers 1961; Dotson and Agosto 1998, 11.

(230) Coles 1957, 19.

(231) من أجل تتبع الشؤون المالية العامة، كان تقييد الحسابات المضاعف ضرورياً. وكانت دفاتر حسابات الدار الأولى والتي تعود إلى عام 1340م، بهذا الشكل. ومع أن هذا النظام كان قد نشأ بشكل مستقل في كوريا (O. Miller 2007) بناء على أفكار وضعت في الشرق الأوسط (Zaid 2004)، وولم يكن الأمر عابراً أنها كانت تقنية رائجة في المالية الحديثة. ولم يكن الأمر صدفة كذلك أن المحاسبين هم المنفذون الحقيقيون للضرورة المالية (والاقتصاديون هم كتابهم المسرحيون ذوو الأجر الأكبر من اللازم).

(232) Felloni and Laura 2014, 65.

(233) Spence 1870.

الرعب أيضاً، عبر المتاجرة بالعبيد من الغزوات الأيبيرية، ومن الغارات على غربي آسيا وشمالي إفريقيا أيضاً. «و[تشير] العقود التي قام أصحاب العبيد بموجبها بتأجير عبيدهم مقابل المال إلى أن معدل الربح كان يتراوح بين 7–10 بالمائة من رأس المال المستثمر. وكان هذا الربح أعلى مما كان يدفعه مصرف سان جورجيو في الأسهم. وهكذا قام الجنويون بالاستثمار في لحم البشر».[234] وكان واحد من كل عشرين شخص من سكان المدينة من العبيد في القرن الخامس عشر. ومن هذا التاريخ، يأتي اشتقاق كلمة التحية والوداع الإيطالية (Ciao) من عبارة «(Vostro Schiavo) أي (عبدك)».[235]

كانت الدار قوة اقتصادية وسياسية جبارة، وأصبحت بالنسبة إلى البلدية المصدر الوحيد للائتمان، وفي بعض الأحيان كانت تعمل بمثابة مصرف مركزي حصري في جنوى. ولكنها لم تكن دائماً تمسك بزمام الأمور. إذ تسببت حالات التمرد من التجار ثم البوليتاريين في إرخاء قبضة المصرف على العامة. وحاولت البلدية مقاومة الدائنين، مطالبة بتخفيض سداد مدفوعات سنداتها – وهو الأمر الذي دفع لنشأة سوق ثانوية في السندات – وأدت إلى إصدار البابا كاليكتس الثالث مرسوماً لتشريع ذلك في عام 1456م. وفي السرد التاريخي للائتمان ورأس المال والدولة، من الجدير بالذكر أن رأس المال لم يكن هو الرابح على الدوام.

أغفل السرد التاريخي المالي الحديث دار سان جورجيو بسبب صعوبة مخطوطاتها من جهة، ولأن الجنويين لم يكونوا متباهين بإنجازاتهم كما كان البندقيون.[236] إلا أنَّ سهولة تعاملهم مع خطوط الائتمان وصلاتهم مع الأرستقراطيين الأوروبيين أدت إلى وصولهم إلى المال بأدنى معدلات الفائدة الممكنة حتى القرن الثامن عشر.[237] فكانوا أسياد المال الرخيص، وهي خبرة وصلوا إليها عبر تحويل مآثر

---

(234) Epstein 1996, 281.

(235) Epstein 2001, xi.

(236) أنظر مثلاً Gleeson-White 2012. Boland 2009يشرح ما غاب في Ferguson 2009 بعبارات أكثر ابتذالاً.

(237) Neal 2015, 50-51.

إسبانيا الاستعمارية وحصد العوائد منها. لم يكن الجنويون هم الوحيدين في مجال تقديم خدمات دفع الائتمان، فقد تبعت مؤسسات مصرفية أخرى خطاهم في وقت لاحق في أمستردام، ومن ثم في لندن والولايات المتحدة. إلَّا أنَّ الفضة الجنوية مهمة لأنها تضم الكثير من أهم عناصر المال الرخيص: الحاجة إلى الربح، والقدرة على تمويل المستعمرات، والموقف المترتب على ذلك تجاه الطبيعة. كما كانت هنالك، كما ذكرنا في بداية الفصل، صلة عبر كولومبوس بالعنف في تخوم العالم الجديد.

كان الممولون في جنوى في حاجة إلى العالم الجديد. إذ كان اقتصادها متذبذباً في بداية القرن الخامس عشر، نتيجة للكساد والهزيمة العسكرية على مدى القرن السابق، عندما طرد البندقيون والأتراك تجار المدينة من مواقعهم المربحة في شرقي حوض البحر الأبيض المتوسط.[238] وقد تعرضت أراضي جنوى الداخلية ذات المساحة الضيقة إلى إزالة الغابات بشكل كبير، ما أجبر بناة السفن على الاعتماد على الحطب المستورد.[239] وقد دفعت الهزيمة والحاجة الجغرافية جنوى نحو الغرب – باتجاه إسبانيا والبرتغال. وبذلك فقد عوضت ما خسرته في شرقي البحر الأبيض المتوسط وأكثر في المحيط الأطلسي.

وبعد عام 1450م، اخترقت قوة جنوى المالية المناطق الإسبانية في جنوبي إيطاليا حتى العالم الجديد. وإذ استقر التجار الجنويون في قرطبة، وكاديس، وإشبيلية، انخرطوا على ما يبدو في كل خط تجارة مربح: الحرير، والسكر، وزيت الزيتون، والقمح، والأصباغ.[240] وإذ نجحوا في التغلب على الكتالونيين، سرعان ما سيطروا على التجارة الرابحة في الصوف، وهو أكبر صادرات قشتالة.[241] ولكن مع أن الجنويين كانوا تجاراً أذكياء إلا أنَّهم لم يغيروا العالم إلا عبر تمويلهم للحرب.

---

(238) Lopez 1964; Abu-Lughod 1989; Epstein 1996, 273.

(239) Lopez 1964.

(240) Thomas 2013, 48.

(241) Elliott 1963, ch. 3.

النشأة المالية للعسكرية

لطالما كان تمويل الحرب أمراً صعباً. إذ كانت الضرائب شحيحة في تدفقها، تنخفض وترتفع حسب سوء المحاصيل وجودتها. أما صناعة الحرب فهي تتطلب السرعة والسيولة. إذ ينبغي تسليح الجنود، ومدهم بالغذاء والسكن، والأهم من ذلك كله، دفع أجورهم بسرعة كبيرة نسبياً. وقد تعلمت قرطاج ذلك الدرس بطريقة قاسية عندما نهب مرتزقتها (الذين لم يدفع لهم آنذاك) مدينة التجار العظيمة في عام 241 قبل الميلاد.[242] وتعلم الدرس أيضاً ملك إسبانيا فيليب الثاني عندما قام مرتزقته (الذين لم يدفع لهم أيضاً) بنهب أنتويرب التي كانت حينها جزءاً من الإمبراطورية الإسبانية في عام 1576م. وكانت الحرب آنذاك – والآن – تمول عن طريق الائتمان. وربما تكون الحكومات سعيدة بموازنة ميزانيتها على ظهور الفقراء، ولكن عندما يكون العمال مسلحين ومنظمين، كما هو حال الجنود المدربين، فإن الموازين تنقلب. ادفع للجنود، وكن مديناً للمصرف، لأن الجنود مسلحون. كانت تلك إشارة لما هو آت.

في أواخر القرن الخامس عشر، مرت الحروب الأوروبية بتحول جوهري: «الثورة العسكرية».[243] ازداد حجم الجيوش – بقدر كبير – وسرعة كبيرة. في عام 1470م، كان لدى إسبانيا ما يقارب 20 ألف جندي تحت السلاح، وبعد قرن من الزمان، كان لديها عشرة أضعاف ذلك العدد.[244] وإذا كانت إسبانيا سابقة لأونها، فإنها لم تكن سابقة له بكثير. فقد تضاعفت الجيوش الأوروبية عشرة أضعاف بين عامي 1530م و1710م.[245] كما أن تكاليف الحرب ارتفعت بسرعة أكبر.[246] وكانت تكلفة صناعة المدافع الجديدة مرتفعة، وتكلفة استخدامها أعلى: فمع حلول القرن السابع عشر، كانت طلقة المدفع الواحدة «تساوي تقريباً... أجر

---

(242) Bagnall 1999.

(243) Parker 1996; Eltis 1998.

(244) Tilly 1992, 79.

(245) Parker 1976.

(246) 't Hart, Brandon, and Goossens 2008; Tallett 2010, 169-173.

جندي مشاة لشهر واحد».[247] كما أن معركة رئيسية واحدة – مثل حصار القوات الإنجليزية للفرنسيين في بولون لخمسة وخمسين يوم في عام 1544م – قد تتطلب استخدام 150 ألف قنبلة مدفعية. كما كانت التحصينات والدفاعات عبر أوروبا تُجَدَّد بتكلفة ضخمة. وعلى سبيل المثال، أنفقت الملكة إليزابيث 13 ألف باوند – أي نصف عوائد التاج السنوية – لتحديث حصن (Darwick-upon-Tweed) على الحدود الإنجليزية الإسكوتلندية.[248]

وإذ تعتمد الحروب الحديثة على قدرة الدولة في الاقتراض، فإن الرصيد الائتماني لإمبراطورية ما يحدد إلى حد كبير قدرتها على الفوز في أرض المعركة. وللإمبراطوريات المفلسة طريقة في السقوط، كما كان حال الاتحاد السوفييتي حينما أفلس في الثمانينيات بعد الخوض في سباق الأسلحة. وفي القرن السادس عشر، كانت عادة الملوك في اقتراض المال من أجل تمويل الحرب متأصلة، إلا أنَّ حجم دين الحرب الجديد كان له تداعيات جديدة. ومرة أخرى، فإن للصلة الإسبانية أهمية كبيرة. وكان تشارلز الخامس (1500–1558) – أحد أحفاد إيزابيلا وفيرديناند، وملك إسبانيا، كارلوس الأول منذ عام 1516م – من الرواد. ومع حلول عام 1519م كان هو أيضاً الإمبراطور الروماني المقدس، فحكم في عموم أوروبا الممتدة من بحر الشمال حتى الكاريبي، وكانت فترة حكمه حافلة بالصراعات. وقد اتجه من عائلتي فاغر وويسلر في وسط أوروبا إلى الجنويين من أجل تمويل حروبه.[249] ولتقديم القروض لتشارلز، طالب الجنويون بضمانة هي الحق الأول في الفضة الأمريكية – وهو أمر لم يكن دوماً ملتزماً به. وبناء على الإبادة الجماعية والوحشية الاستعمارية، فقد أسست هذه الاتفاقية لعلاقة راسخة وحديثة جداً: وهي القروض باعتبارها طريقة لتنظيم الطبيعة العالمية، والسلطة العالمية، والعمل العالمي. وعلى مدى نحو قرنين من الزمان كانت العائلات المصرفية في

---

(247). Tallett 2010, 170

(248). Black 1991, 30; Tallett 2010, 169

(249). Dauverd 2014, 60

جنوى – ذات الأسماء مثل سنتريوني، وبالافيتشينو، وسبينولا، وغريمالدي – منخرطة بشكل كبير في «أهم القرارات السياسية والعسكرية للملوك الإسبان» والمتعلقة تقريباً «بكافة أوجه الحياة الاقتصادية الإسبانية».[250] وبالفعل، كان فرانسيسكو بينيلو هو من قام في عام 1503م بتنظيم وقيادة وزارة التجارة الخارجية الإسبانية.[251] ولا عجب أنه في عام 1617م تحسر كريستوبال سواريز دي فيغيوريا على أن إسبانيا قد أصبحت «أنديز الجنويين».[252]

لم يتعلم تشارلز ذلك الدرس وحده، فالقوة العسكرية في الإيكولوجية الرأسمالية هي شكل محدود من أشكال السلطة العالمية. فأنفق المال بإسراف، وشهد على ذلك الدم والدَّين. وعندما حاصرت جيوشه ميتز في شمال شرقي فرنسا في عام 1552م، أنفق مليونين ونصف دوكات – أي ما يعادل حصة التاج في الفضة والذهب الأمريكي لعقد من الزمان.[253] واقترض عشرات الملايين من الدوكات، فخلف من بعده ابنه فيليب الثاني غارقاً في الديون عند توليه مقاليد الحكم في عام 1556م. وأعلن فيليب إفلاسه في العام التالي، ليقترض مجدداً مبلغاً كبيراً، وهو دين يعادل 30 مليون دوكات في 1556م، وتضاعف إلى 60 مليون دوكات مع حلول 1575م، وبلغ 100 مليون بحلول 1598م.[254] وبحلول القرن السابع عشر، كان ثلثا ميزانية إسبانيا – وفي بعض السنوات أكثر من ذلك – مخصصاً للإنفاق العسكري.[255] وقد مكنت جحافل جباة الضرائب من صناعة جيوش الموت التابعة لإسبانيا. وفي الحقبة التي كان فيها النمو الاقتصادي يقاس بأجزاء من النقطة المئوية، ارتفعت واردات الضرائب في إسبانيا بنحو 12 بالمائة في

---

(250) المصدر السابق.

(251) Barrera-Osorio 2010.

(252) Suárez de Figueroa (1617) 1914, 20, مقتبس في Elliott 1992, 96.

(253) Lynch 1964, 61-62.

(254) Tallett 2010, 175.

(255) Palmer 1974, 561. ولم يكن ذلك استثنائياً: إذ بلغ إنفاق فرنسا على الحرب وخدمات الدين 75 بالمائة في عام 1788م، في عشية الثورة (Michael Duffy 1980, 7). أنظر أيضاً P. Anderson 1975, 32-33.

العام خلال العقود الثلاثة التي تلت عام 1447م، من 900 ألف إلى 26 مليون ريال إسباني.[256] وتضاعفت العائدات مرة أخرى فعلياً من عشرينيات حتى خمسينيات القرن السادس عشر.[257] وكما كتب بنجامين فرانكلين في عام 1789م، فعلى الرغم من أنه «في هذا العالم لا يمكن لشيء أن يعتبر مؤكداً، باستثناء الموت والضرائب»، إلا أنَّ المال الرخيص يربط بينهما.[258]

أصبح فن الحرب الحديث سبيلاً لتحويل الذهب والدم إلى رأسمال. فقد أرادت الدول أراضي ممتدة وسلطة واسعة النطاق ولكنها كانت بحاجة إلى المال لتأمين الاثنين. ومع ارتفاع كلفة الحرب، اقترضت المزيد من المال وجبت الضرائب وفقاً لذلك – وإذا كان حجم الجيوش قد ازداد عشرة أضعاف في القرن السادس عشر، فإن كلفة تجنيدها ازدادت على الأرجح عشرين ضعفاً. وفي الفترة ما بين عامي 1500م و1700م، استمرت حروب كبرى على مدى تلك الفترة فيما عدا 28 عاماً فقط.[259] ومهما كانت النتيجة في ذلك الوقت، فقد كانت الحرب مربحة للممولين.

تحول المال المقرض للدول إلى رأسمال. وكان الأمر ينطوي على مخاطر عدة، ففي بعض الأحيان كان المصرفيون يفلسون. إلا أنَّ التيار السائد كان واضحاً. ففي عالم حديث ذو نظام مالي واحد والكثير من الدول التي تتسابق من أجل السلطة، كانت الدول مستمرة في القتال، ومستمرة في الاقتراض. وحاولت إسبانيا الغارقة في الديون – والتي كانت في وقت ما أغنى من منافسيها وأقوى من الناحية العسكرية – التغلب على الجمهورية الهولندية خلال معظم السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر ومطلع القرن السابع عشر، ولكنها فشلت في ذلك. لم تتمتع الجمهورية الهولندية بثروات العالم الجديد ولا الموارد الطبيعية الوفيرة، ولا عدداً

---

(256) Elliott 1963, 90.

(257) P. Anderson 1975, 70. بلغت العائدات ثلاثة أضعافها بالقيمة الإسمية؛ وانكمشت التقديرات بحسب تضخم الأسعار.

(258) Franklin 1950, 69.

(259) P. Anderson 1975, 33.

كبيراً من السكان. ولكنها كانت تمتلك أمرين لم تمتلكهما إسبانيا: الصناعة القوية والاقتصاد التجاري، وكل الثروات التي تأتي معهما. وكان الإسبان يمتلكون سبائك الذهب والفضة، وكان الهولنديون يمتلكون **رأس المال**. وهكذا أصبحت الجمهورية الهولندية قوة عظمى في القرن السابع عشر، إذ استخدمت القوة المالية بحد ذاتها بمثابة سلاح تجاري لشن الحرب بوسائل أخرى،[260] بينما بدأت إسبانيا حالة من الكساد امتدت طويلاً، وتموضعت بانزعاج في الصفوف المتوسطة للقوى الأوروبية.

إيكولوجيا الرأسمالية: قصة عالمية

لقد ناقشنا حتى الآن السلطة المناطقية من الجانب الجغرافي البحت. إلا إن التحول من القوة العسكرية إلى القوة المالية اقترن بميزة أخرى: وهي الاستعمار الحديث. فبينما كانت دول أوروبا تتقاتل فيما بينها حد الجمود عبر أوروبا في بداية القرون الحديثة، كانت في ذات الوقت تصنع إمبراطوريات عالمية. فقد كانت هنالك إمبراطوريات ضخمة قبل الرأسمالية – مثل الرومان والمغول – ولكن لم تكن أي منها على مدى تاريخ العالم إمبراطوريات عابرة للمحيط مشطت الكرة الأرضية بحثاً عن فرص الربح.

لو كان الأمر ينطوي ببساطة على مجرد فكرة أن الدول صنعت رأس المال وصنع رأس المال الدول، لكانت دورة صناعة الحروب وتكديس رأس المال قد تعطلت سريعاً: إذ إن شن الحرب على منافسين أقوياء هو وضع خاسر للطرفين. إلا أنَّ أوائل الإمبراطوريات الحديثة كانت منظمة ليس لتقاتل الإمبراطوريات الأخرى فحسب، بل لتستولي على العمل دون مقابل من البشر وغيرهم من سائر أشكال الطبيعة. وإذا كانت وحشية بداية الإمبريالية الإسبانية تشير إلى الاستيلاء باعتباره نهباً وسفكاً للدماء، فإن هذا النهب كان بالضرورة قصير الأجل، وكان على الإسبان إيجاد طرق لتحويل مستعمراتهم إلى تيارات منتظمة من الثروة – على هيئة

(260) Langley 2002.

فضة بالدرجة الأولى – من ثم تحويلها إلى مال، بمساعدة من الجنويين وغيرهم من المصرفيين.

تربع نقص العملة النقدية السليمة القوية في القرن الخامس عشر على أزمة في التعدين خلال القرون الوسطى. وبينما كان الانتعاش الاقتصادي يكتسب زخماً بعد عام 1450م، إلا أنَّ التقدم التقني والتنظيم الجديد للأعمال تصادفا لجعل المناجم القديمة مربحة مجدداً. وإذ كنا معتادين على التفكير بهذه الحقبة باعتبارها حقبة التجار والمصرفيين، فمن الجدير بالذكر أن التوسع الخماسي في إنتاج الفضة، والنحاس، وتحديداً في النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان صناعياً إلى درجة كبيرة. وازداد ثراء عائلة فاغر التي موّلت تشارلز الخامس بسبب التعدين والعدانة اللتان امتازتا بالتقنية الأكثر تقدماً على سبيل المثال تقنية (Saigerprozess) – القادرة على استخراج الفضة من المواد الخام ذي الجودة المنخفضة – وهو ما يشبه المؤسسة الحديثة. ولكن من بين كافة تلك المعادن – كانت الفضة تتطلب الطاقة الأكبر لسبكها. وقد أراد جميع ملوك أوروبا، ودوقاتها، وأمراؤها، حصة من الأرباح، وأصبح الوصول إلى الغابات في كل الدول الألمانية تقريباً منظماً بشكل محكم خلال القرن السادس عشر. وكما شاهدنا فقد كانت الغابات مسيجة وضعيفة وأصبح وصول الفلاحين لما تبقى منها محدوداً جداً. ومع حلول عشرينيات القرن السادس عشر، قوبلت «معركة الخشب» بشكاوى طبقة العمال الآخذة بالتوسع بشكل كبير، والتي كان أفرادها يعملون في المناجم ومصانع الصهر. وأدت حرب الفلاحين الألمان عام 1525م وغيرها من أشكال الاضطرابات العمالية إلى رفع الأجور في المناجم. ومعاً، فإن المقاومة والاستنزاف كان معناهما الربح لأصحاب المناجم في أوروبا. وكان الوقت مؤاتياً تماماً حينها «لاكتشاف» الفضة في بوتوسي (ثم البيرو، واليوم في بوليفيا).[261]

وكانت الفضة الأمريكية مهمة جداً لمصالح إسبانيا الاستراتيجية حتى إن

(261). Fernow 1911; Westermann 1996; Moore 2007, ch. 2

فيليب الثاني أرسل الأرستقراطي فرانسيسكو دي توليدو في عام 1568م من أجل إنعاش الإنتاج المتعثر للفضة في ولاية البيرو التابعة لإسبانيا. وكان من أوائل تدخلاته إعادة استخدام نظام العمال من الشعب الأصلي (بالإسبانية: mita). وألزم هؤلاء الرجال والذين يطلق عليهم مسمة الميتايوس (بالإسبانية: mitayos) بالعمل من الفجر حتى غروب الشمس.[262] وقد أعفوا من هذا القانون الذي أجبروا عليه بالعنف أيام الأحد والعطل المسيحية. وقد كان توليدو في فايادوليد عندما تناظر لاس كاساس وسيبولفيدا بشأن صفة الشعوب الأصلية في العالم الجديد (أنظر المقدمة)، وواجبات رعاية الأرواح وغرس المسيحية كانت إحدى سمات مسودة نظام العمل. كان يعلم أن الشعوب الأصلية كانت ضمن نطاق الطبيعة، ولكن كان بالإمكان تخليص أرواح من ينتمون إليها عبر العمل.

لم تتضمن المطالب على الميتايوس استملاك الأراضي مباشرة. وفي حين كان أجرهم زهيداً، كانوا ملزمين أيضاً أن ينظموا بأنفسهم الرحلة إلى بوتوسي، وأجبروا على شراء أدواتهم وغذائهم بأنفسهم. وكان نظام العمل هذا يتطلب استثمار رأس مال أقل بكثير من الاستعباد، الذي كان رواده يتحملون ثمن شراء العبيد وتكلفة رعايتهم. ولأن نظام الميتا فرض تكاليف العمل الإنجابي على مجتمعات الميتايوس المحلية، فقد كان على هذه المجموعات المتاجرة مع الإسبان للوصول إلى التمويلات والغذاء للسماح بعمالهم المهاجرين بالبقاء حال عملهم وعدمه. وكان لهذا النظام أثراً كارثياً على العمال من الشعوب الأصلية، إذ تشير بعض التقديرات إلى انخفاض بنسبة 85 بالمائة في عدد السكان بين عامي 1560م و1590م.[263]

وقابلت هذه الكارثة الإنسانية كارثة أخرى في الغابة. ففي البداية، كانت الفضة المستخرجة من الجبل الغني (بالإسبانية: Cerro Rico) تصهر في أفران تعمل على حرق الخشب. وعلى سفح الجبل كانت آلاف الأفران الصغيرة التي تعمل بالريح

---

(262) Von der Heydt-Coca 2005.

(263) المصدر السابق.

وتسمى بالإسبانية hurayas تشعل مع غروب الشمس، «فتحول الليل إلى نهار»، بحسب شاهد عيان، حتى يتسنى لشعب الأنديز الأصلي سك بعض فضة الجبل لمعيشتهم.[264] ولكن الأفران الصغيرة لم تكن كافية للإسبان. فكان التدخل الآخر لنائب الملك توليدو في هذا التخم هو استحداث تقنية جديدة موفرة للوقود لاستخراج الفضة، وهي ملغمة الزئبق (بالإنجليزية: mercury amalgamation). وعملت هذه التقنية بحجم ضاءل من إنتاج الأفران الصغيرة، في أحواض كانت تضم 5 آلاف باوند (2268 كيلوغرام) من الخام المكسّر. واعتمد نجاحها، كما كانت الحال مع صناعة السكر في مادیرا، على إنجازات الهندسة الهيدروليكية – في هذه الحالة بناء نحو ثلاثين سداً، كانت كثيراً ما تنفجر فتودي بحياة مئات من الميتايوس في المرة الواحدة، وتلوّث المياه التي كان يستخدمها من تبقى منهم. ومع إنها كانت تعتبر عملية «باردة» مقارنة بالصهر، إلا إن ملغمة الزئبق **رفعت** من معدلات إزالة الغابات. فقد كانت التقنية تستهلك كمية أقل من الوقود لكل باوند من الفضة، إلا إن حجم الإنتاج الكلي – وزيادة بنسبة 600 بالمائة بين عامي 1575م و1590م – زادت من استهلاك الوقود بشكل كبير جداً.[265] وكان الجمع بين الأفران الصغيرة وملغمة الفضة ضارياً إلى درجة أنه مع حلول عام 1590م كان الخشب يُجلب من على بعد حوالي 300 ميل (500 كيلومتر). ومع مطلع القرن السادس عشر لم يعد هنالك أي مؤشر على أن جبل بوتوسي كان موطناً لأية أشجار – أو أي حضارة أصلية حيوية.[266]

ومرة أخرى يمكننا أن نشهد عملية الترخيص. فقد تحولت حياة الأشخاص الرخيصة إلى عمالة رخيصة تعتمد على رعاية رخيصة وغذاء رخيص في المجتمعات المحلية، والتي كانت تتطلب وقوداً رخيصاً لجمع ومعالجة طبيعة رخيصة لإنتاج مال رخيص – بكميات كبيرة. وكانت بوتوسي مصدر الفضة الوحيد والأهم في

(264) Studnicki-Gizbert and Schecter 2010, 96. أنظر أيضاً Moore 2010d.

(265) Bakewell 1987, 242; Moore 2007.

(266) Moore 2007; Studnicki-Gizbert and Schecter 2010, 96.

العالم الجديد، وشكّلت فضة العالم الجديد 74 بالمائة من إنتاج الفضة في العالم في القرن السادس عشر.[267] ومع أن الفضة لا تصنع التجارة، ولكن يمكن تتبع أثر التجارة العالمية من مناجم بوتوسي. ولو لم تكن الفضة تشكل جزءاً من دورات التبادل التجاري، لكانت مجرد وسخ لامع. فذلك فإن المزج ما بين إنتاج السلع وتبادلها هو ما يحولها إلى رأسمال. ولهذا أشار بعض النقاد إلى أن عام 1571 ميلادية كان العام الذي ولدت فيه تجارة العالم وذلك عندما تأسّست مدينة مانيلا.[268] ولم تبق فضة العالم الجديد في أوروبا، بل إنها سيّرت على مدى طرق التوابل، وعبر المحيط الهادي بعد ذلك. وقد تدفقت الفضة اليابانية إلى الصين من عام 1540م إلى 1620م كجزء من شبكة معقدة من التبادل والموازنة.[269] ومن دون صلات استبدال السلع الآسيوية بالفضة، لم يكن في وسع المال أن يتدفق من العالم الجديد إلى شرق آسيا. ولأن البرتغاليين، ومن بعدهم الهولنديين، سيطروا على تدفقات الفضة البحرية عبر أوروبا إلى آسيا، فقد أعاق الإسبان ذلك التدفق عبر إرسال ذات مقدار الفضة سنوياً (50 طن) عبر الهادي ومن خلال مانيلا كما فعلوا عبر الأطلسي من خلال إشبيلية.[270] كما وجدت كميات مشابهة من الفضة طريقها إلى البلطيق. وفي أوروبا الشرقية، اجتمعت الفضة مع الائتمان، وأصحاب الأراضي شبه الإقطاعيين، واليد العاملة المستعبدة، من أجل إيصال الحطب الرخيص، والغذاء الرخيص، والمواد الخام الأساسية إلى الجمهورية الهولندية. وفي استذكار ذلك إصرار على أنه على الرغم من حضور أوروبا في قصة الرأسمالية إلا أنَّها قصة لا تتمحور حول أوروبا وحدها، إذ مزج قيام الرأسمالية الحياة والسلطة من بوتوسي إلى مانيلا، ومن غوا إلى أمستردام.

ومع انتشار إيكولوجيا الرأسمالية عبر التجارة الدولية، انتشر معها المسافرون

---

(267) Moore 2010d.

(268) Flynn and Giráldez 1995, 2002.

(269) Flynn and Giráldez 2002.

(270) Flynn and Giráldez 1995, 205. أنظر أيضاً Flynn 1984.

خلسة. فإذا ما ضقت ذرعاً يوماً ما بالنمل الناري، فيمكنك إلقاء اللوم في ذلك على تجارة السبائك الدولية – إذ كان النمل الناري أول المسافرين خلسة المصاحبين لنقل الفضة. ومن جنوب شرق المكسيك عبر أوروبا أو أكابولكو أو مانيلا إلى تايوان، ومع تدفق العملة المسكوكة تدفقت أيضاً أنواع الكائنات.[271] وأخذت إيكولوجيا عالمية جديدة في التشكّل.

أسباب حاجة المصرفيين للحكومات

حتى قبل الرأسمالية، واجه المصرفيون مشكلة مستمرة حتى يومنا هذا. فمع أنه من الواضح أن الحكومات تحتاج المصرفيين لتمويل الحرب، فإن المصرفيين بحاجة إلى الحكومات أيضاً. فأصحاب الأموال هم بالضرورة ضعفاء تجاه أصحاب الأسلحة – أو في حقب أخرى السيوف والرماح – إذ كان التجار قبل العصر الحديث معرضين للمصادرة السياسية. وحتى مع نهضة الرأسمالية، كان المصرفيون ما يزالون ضعفاء. ومع ازدياد الصراع فيما بين البلدان الأوروبية – ومع ازدياد الجيوش والأموال لتجهيزها بسرعة أكبر – حول الجنويون وغيرهم ذلك الضعف إلى قوة. وازداد الطلب على الائتمان بسرعة أكبر من قدرة الدول على التخويف ومصادرة التمويلات.

وكان عكس هذه المشكلة هو أنه في حين كان للرأسماليين سلطة على الدول، لم يملكوا السلطة لأداء إحدى أهم مهام الدول في العالم الحديث: وهي تحديد الطبيعة الرخيصة، ورسمها على الخريطة، وتأمينها. وقد أشار جوزيف شومبتر أنه «من دون حماية مجموعة غير برجوازية نوعاً ما»، فإن الرأسماليين «لا حيلة لهم من الناحية السياسية».[272] فعندما تكون ظروف ملكية الأراضي مستقرة، والسكان تحت السيطرة، والغطاءان النباتي والحيواني على الخارطة، يبلي الرأسماليون جيداً. ولكن ذلك كله يعتمد على الائتمان والجيوش التي كان يمكن شراؤها به، ويجدر

(271) Gotzek et al. 2015.

(272) Schumpeter 1961, 138.

التأكيد على الاختلاف بين الصيرفة وغيرها من أنواع الأنشطة الرأسمالية.

وقدّم المؤرخ فيرناند بروديل شرحاً لديناميكيات التغيير بين المالية والتجارة: «كما إنني أدفع بأنه في الماضي – في جنوى وامستردام مثلاً – بعد موجة من النمو في الرأسمالية التجارية وتراكم رأس المال بحجم أكبر من القنوات العادية للاستثمار، كانت الرأسمالية في موقف يسمح لها بالاستيلاء والهيمنة لوقت مؤقت على الأقل، على كافة أنشطة عالم الأعمال».[273] وفي حين يعتبر المال، والائتمان، والمضاربة المالية في الغالب عمليات «اقتصادية»، إلا أنَّ الحقيقة هي أن المال الحديث يتدفق بسبب حماية مؤسسات الدولة لعمليات التبادل ودفاعها عن النظام الكامن في الطبيعة الرخيصة ضد البشر المتمردين وغيرهم من سائر أشكال الطبيعة.

كان الممولون بحاجة إلى الحماية النظامية التي يقدمها ملوك أوروبا، بالإضافة إلى شيء آخر: الصلاحية والتغطية من الحكومة لخلق طرق جديدة للدفع. تصنع المصارف الائتمان. فتأخذ أحد الأصول – مثل معدن، أو نفط، أو منزل، أو الكأس المقدّس – وتحوله إلى المزيد من المال. وطالما كانت تلك الطرق الجديدة للدفع متداولة وغير نقدية، فستكون مصادر محتملة للربح الصافي. ولكن بغض النظر فإن بعض السلطة ضرورية لتشجيعها، هي والأرباح التابعة لها. ومن هنا يأتي دور «المقرض الأخير» – مصرف وطني، أو مؤخراً صندوق النقد الدولي – أي مؤسسة يمكنها من خلال عملة صعبة وعلاقات عسكرية أن تضمن نظاماً مهيمناً.

إن هذا النظام متجدد. وكما ذكرنا في بداية هذا الفصل، فإن إيقاعات المال العالمي والسلطة العالمية متداخلة بعضها ببعض بشكل كبير. فبعد الطفرة الأولية للنشاط الإنتاجي في التخوم الجديدة، «بدأت العوائد الآخذة في الانخفاض، واشتدت الضغوطات المتنافسة على هيئات النظام الحكومية والتجارية، وتهيأت الساحة لتغير في المرحلة من التوسع المادي إلى الأمولة».[274] كما يعتقد جيوفاني

(273) Braudel 1984, 604.

(274) Arrighi and Moore 2001, 61.

أريغي. وبعد أن ولّدت دورة تراكم امتدت قرابة قرن من الزمان الأرباح والمزيد من السيولة النقدية تحولت موازين القوى خلال الأزمة بعيداً عن الرأسماليين الذين نظموا التراكم نحو أيدي المصرفيين. وقد حدث ذلك في امبراطوريات جنوى، وهولندا، وبريطانيا، وهو يحدث الآن في الولايات المتحدة. ولكن هنالك أمر مختلف جدًّا في حقبة الأمولة التي بدأت في ثمانينيات القرن العشرين. فقد كان بإمكان كافة عمليات الأمولة السابقة الاعتماد على الإمبريالية للتوسع في فرص صنع الأرباح عبر تخوم جديدة هامة للطبيعة الرخيصة. كما أن الموجات الأخيرة من «الاستحواذ على الأراضي» ومصادرة الأراضي العامة، وأراضي الفلاحين والسكان الأصليين وخصخصتها،[275] قد ترافقت مع الاستحواذ على المحيطات[276] وحتى سباق جديد نحو الفضاء.[277] كما أن التقلبات غير العادية التي تشهدها الأسواق المالية لا تشير إلى هيمنة رأس المال فحسب، بل أيضاً إلى ضعفه. وفي مرحلة ما، لا بد أن تؤتي الرهانات على المستقبل ثمارها. وهذا بالضبط ما مهدت إليه تخوم العمل، والغذاء، والطاقة، والمواد الخام على مدى القرون الماضية. واليوم، أصبحت هذه التخوم أصغر من أي وقت مضى، وأصبح حجم رأس المال الذي يبحث عن استثمارات جديدة أكبر من أي وقت مضى. ويفسر هذا الوضع غير المسبوق شيئاً من الاقتران غير العادي بين التفاوت الجذري في الثروة وعدم الاستقرار المالي الذي يشكل عالمنا الآن. وتنساب الحروب وأعمال العنف من هذا الاقتران، ولكن هذه المرة لا يوجد وعد حقيقي بالتدمير الإبداعي – بل التدمير فقط.

إن ذلك لا يفسر لمَ يمكن لمجموعة غولدمان ساكس أن تحكم سيطرتها على كل شيء فحسب، بل أيضاً لمَ هو أمر حتمي في هذا الوقت أن تكون مجموعة غولدمان ساكس في كل مكان. فمن شتات المولين الجنويين في القرن الخامس عشر ونهاية

---

275. Ruth Hall et al. 2015

276. Bennett, Govan, and Satterfield 2015

277. Cahan, Marboe, and Roedel 2016

القرن السادس عشر، إلى مجتمعات أمستردام المصرفية التي جنت ثمار الاستعمار الهولندي، إلى المصارف التجارية البريطانية التي استثمرت في الاستغلال في البلاد وخارجها، وحتى النخبة المالية العالمية اليوم، أدت العلاقات بين الدول، والممولين، وغيرهم من الرأسماليين إلى قيام دورات التراكم وانهيارها.

موضوعات معاصرة

إذ نتسلح بتاريخ المال الرخيص في إيكولوجيا العالم، يمكننا وضع الرأسمالية المالية المعاصرة في السياق الأكبر. إذ لا يظهر التطور المتزايد في الهندسة المالية باعتباره «تزايداً في الكميات»، بل نتيجة لقرون من التراكم، كل منها بطرق متميزة في تنظيم رأس المال، والسلطة، والطبيعة. وما التداول الفوري، والقدرة على صنع الملايين من قرارات تجارية متخذة في أجزاء من الثانية، إلا امتداد للمحاسب الجنوي الأول الذي سجل وقوع عملية تجارية صباحاً عوضاً عن بعد الظهيرة. كما تبدو الشراكات بين القطاعين العام والخاص، ورهن موارد الدولة للبائعين من الداخل، في ظاهرها مرة أخرى مثل بيع الكأس المقدسة للمشتري الصحيح.[278]

إن التحليل الذي يمتد حتى القرن الخامس عشر هو تحليل عملي أكثر من أي شيء آخر. ومؤخراً – وليس للمرة الأولى – عانت اليونان من تبعات قوى خارج نطاق حدودها. ولأسباب وثقت جيداً في مكان آخر، اضطرت البلاد في عام 2015م لاتخاذ سلسلة من الإجراءات بشروط أدت إلى استنزاف ثرواتها بشكل منهجي، وضمنت عدم تمكنها من دفع ديونها.[279] ولم تكن تلك سياسة ليبرالية جديدة بالمعنى التقليدي.[280] وبالفعل، فقد أوصى صندوق النقد الدولي تخفيف الدين «بقدر أكبر بكثير مما [كانت] أوروبا مستعدة للنظر في إمكانيته حتى الآن» باسم استخراج المال من اليونان بسرعة لا تدمر اقتصاده بشكل تام.[281]

---

(278) Hildyard 2016. وسع انتشار "المالية المصغرة" الرقعة التي يستخرج منها رأس المال، وشمل بالأخص في الجنوب العالمي المرأة (Keating, Rasmussen, and Rishi 2010; Roy 2010).

(279) Varoufakis 2016.

(280) Harvey 2005.

(281) IMF 2015.

وكان صندوق النقد الدولي قد أشار إلى أن المصارف الكبيرة من الناحية التنظيمية – أي المصارف «الكبيرة جداً بحيث لا يمكنها الإخفاق – تملك دعم الحكومات المطلق. كما أشار إلى أن الشعب يدفع من أجل قيوم تنظيمية أكثر تراخياً، الأمر الذي سمح للمصارف بإيجاد طرق جديدة لبيع الائتمان والاتكال على تأمين الحكومة المركزية عندما تتسبب هذه المضاربات بتوقف النظام».[282] إلا أنَّ حاجة ألمانيا لتحقيق الهيمنة المالية على أوروبا كانت أهم من الدرس الاقتصادي الذي طرحه صندوق النقد الدولي. فالسلطة أهم من الوصايا. فضرورات صناعة الإمبراطورية والشؤون المالية في القرن الخامس عشر لا تزال معنا اليوم في القرن العشرين.

وحتماً، فإن الدفع للمصارف يحدث عبر استغلال العمال واستملاك سائر عمل الطبيعة بأكبر قدر ممكن. وفي اليونان، سُدِّدت الديون عبر تكثيف بيع الأصول الطبيعية، على الرغم من ترويج الحكومة الحاكمة لاعتماداتها البيئية.[283] وما يزال بإمكانك بالطبع رؤية «الطبيعة» اليونانية، ولكنها مسيجة، يمكن الوصول إليها عبر المنتجعات والمجمعات السكنية بحيث يمكن للسائحين طالما كان لديهم مال مقبول لدى الدائنين أن يستمتعوا بالريف والبحر باعتبارهما سلعتين، ويقايضوا باليورو الخدمات المختلفة. ويعمل اليونانيون في مختلف اقتصاداتهم ساعات أطول من الألمان، إلا أنَّهم يوصمون بالكسل، على عكس نظرائهم الألمان.[284] وليس هنالك خلل في التعبير – بل هو أمر يظهر كيف تم الاستيلاء على عمل بعض الأشخاص بشكل مختلف عن غيرهم. ولنفهم كيف حدث ذلك وكيف يستمر إلى الآن، علينا أن نستعرض بشكل أكبر الطرق التي يحول فيها وقت البشر وجهدهم الطبيعة إلى مال. وستكون كيفية عمل العمل موضوع الفصل التالي.

---

(282) IMF 2014.

(283) Apostolopoulou and Adams 2015.

(284) EU 2017.

الفصل الثالث

العمل الرخيص

شعر كولومبوس أثناء إبحاره في الكاريبي بالأسف لجهله بالعائدات التجارية المحتملة للنباتات والحيوانات غير المألوفة في الكاريبي. إلا أنّه تمكّن من تقدير ثمن مكوّن واحد من مكونات الغطاء الحيواني هناك بشكل جيد، وهو البشر. فعرف كيف يتحكم بأسراه من الشعب الأصلي، وجازف بتخمين قدرتهم على العمل، وفي نهاية المطاف شجّع على تصديرهم إلى أوروبا. فكتب إلى فيرديناند وإيزابيلا بعد رحلته الثانية قائلاً: «دعونا باسم الثالوث المقدس نرسل كل ما يمكن بيعه من العبيد».[285] وكيف عرف قيمتهم؟[286] لأن العبيد كانوا جزءاً من تكوين حياته في أوروبا. إذ وضعته طفولته في جنوى على مقربة من العبيد، والنخّاسين، والمتاجرين في الاستعباد البشري. كما انخرط في رحلات إسبانيا والبرتغال ذات السجل الطويل الحافل بالاستغلال البشري، إذ تمتد معرفتها بالعبودية لقرون: في مادیرا، استخدم البرتغاليون في بداية الأمر الرقيق من جزر الكناري لإنتاج السكر.[287] وكان الأيبيريون قد حصلوا على هذه القوى العاملة عبر الغزو الاستعماري والاحتيال القانوني. وسيكون لنا علة في الفصل السابع للتعريج على تشريع البؤس والعرق البشري عندما نتحدث عن حياة الأشخاص الرخيصة. أما

(285) Columbus، مقتبس في Koning 1976, 82.

(286) Epstein (2001) كان يتساءل عن ذلك أيضاً.

(287) W. Phillips 2013.

الآن، فإننا بحاجة إلى أن نثبت العلاقة بين العمل، والطبيعة، والموارد المالية.

خلال الحروب الصليبية، كانت قواعد الاشتباك العسكري تسمح بأسر السراسنة (المسلمين) واستعبادهم باعتبارهم مقاتلين في صفوف العدو. واعتبر البشر من غنائم الحرب، يمكن الاستيلاء عليهم خلال بسط السيطرة على الأراضي، واستخدموا لسداد الديون المستحقة لمصرفيي الحرب المقدسة.[288] إلا أنَّهُ لم يكن هنالك أي مسلمين في جزر الكناري، ومع ذلك كان لزاماً أن يعود الربح من الاستعمار. ولذا طلب التاج البرتغالي الإذن من روما للسماح لرعاياه بأسر واستعباد أي إفريقي يصادفونه في شمال القارة أو غربها خلال مغامرتهم الاستعمارية. وكان من المعروف على نطاق واسع آنذاك أن الكثير من السكان الأفارقة من شمال القارة وغربها لم يكونوا مسلمين، وبالتالي لم يكونوا أعداء للمسيحية بالمعنى الاعتقادي اللازم، إلا أنَّ البابا نيكولاس الخامس كتب إلى ملك البرتغال ألفونسو الخامس في عام 1452م ليمنحه الإذن على أية حال:

إذ نرغب حقاً في أن يتعاظم في أرواح المؤمنين الأخيار كل ما هو متعلق بسلامة العقيدة ونشرها، وهي العقيدة التي بذل ربنا المسيح دمه من أجلها... نمنحكم بموجب هذه الوثائق وسلطة الرسل الموكلة إلينا، مطلق الحرية والسلطة في غزو المسلمين والوثنيين، والبحث عنهم، والقبض عليهم، وإخضاعهم، هم وغيرهم من أعداء المسيح حيثما كانوا، وكذلك الممالك، والدوقات، والمقاطعات، والإمارات، وغيرها من الأراضي، *وتقليل منزلتهم إلى العبودية الخالدة، وتخصيص وتحويل الممالك، والدوقات، والأراضي والممتلكات وغيرها من السلع للاستخدام والانتفاع من قبلكم، ومن قبل خلفائكم* من بعدكم، ملوك البرتغال، إلى الأبد.[289]

وأصبحت مثل هذه الوثائق البابوية ضرورية من أجل حشد القوى العاملة في العالم الجديد. وبما أنَّه كان من الصعب الدفع بأن سكان الأمريكيتين كانوا

(288) Stevens-Arroyo 1993.

(289) Maxwell 1975, 53.

يضمرون عداوة حقيقية تجاه المسيحية، فقد ظهر معيار جديد: الجهل. فأصبح ما يعرفه البشر وما لا يعرفونه هو المكيال المناسب للدولة للحصول على القوى العاملة وإدارتها.[290] وكان الشعب الأصلي الذي لم يكن يعرف أي شيء عن المسيح بحاجة أولاً إلى إخباره عنه، وعن ممثله في الأرض. فإذا ما رفض تقبل ذلك، ولم يفتح ذراعيه لملوكه الجدد في أيبيريا والبابا في روما، كان يمكن لأحكام الحرب المشابهة لأحكام الحروب الصليبية أن تعاقبه بالاستعباد. وكتبت وثيقة تسمى بالإسبانية Roquerimiento في تسع فقرات قرأت بصوت عال بالإسبانية، لإخبار الشعب الأصلي بخياراته. وتبدأ الوثيقة بمقدمة عن المسيحية وعن الأشخاص الذين جاؤوا إلى العالم الجديد قبل المطالبة بقبول سيادة إسبانيا والبابا وإلا:

أفيدكم أننا بعون الرب سوف ندخل [بلدكم] بالقوة، ونشن الحرب عليكم بكل الطرق والوسائل التي نقدر عليها، وسنخضعكم لطاعة كنيسة أصحاب الجلالة، وسوف نأخذ شعبكم وزوجاتكم وأطفالكم، وسوف نجعلهم عبيداً، وسوف نبيعهم ونتخلص منهم تبعاً لأوامر أصحاب الجلالة، كما سنأخذ سلعكم، وسوف نحدث كل الشر والأذى الذي نستطيعه، وبالنسبة لمن يقاوم أو يرفض استقبال سيده ويعارضه فإن الوفيات والخسائر القادم ستكون من صنعكم وليست ذنب أصحاب الجلالة، ولا ذنبنا نحن، ولا ذنب من جاء معنا.[291]

كان سمع وقع هذه الكلمات، تقرأ من قبل غرباء محصنين بالمعادن في الحرارة الاستوائية بمثابة سماع الحكم عليك بلغة قد لا تفهمها أبداً. كان حكماً بالإعدام عملاً. وقد نجحت هذه الوثيقة وبروتوكولاتها في تحقيق الغرض منها، حيث وفرت العمالة الوافرة وبدأت كارثة حقيقية في الشعب الأصلي.[292] وقد تنامت

---

(290) لاحظ أن هذا يمكن أن يكون بداية الرقابة على المعرفة في إيكولوجيا الرأسمالية، قبل السياسة الحيوية للمعرفة بكثير والتي ظهرت على رادار فوكو كما سنناقش في الفصل الرابع.

(291) Zorrilla 2006, 253-254. الترجمة الإنجليزية هي ترجمة المؤلف.

(292) Reséndez 2016.

الأصوات المثيرة للقلق حول شرعية تلك العملية برمتها، حتى إن تشارلز الخامس كان قد علّق الأنشطة الاستعمارية مؤقتاً في ربيع عام 1551م حتى يتسنى للجنة من 14 قاضياً بت مسألة العدل في شن الحرب ضد الهنود. فإذا كان الهنود غير مذنبين وجهلة، فإن الأراضي التي استولت عليها الغزوات الإسبانية والعمالة من الشعب الأصلي كانت غير شرعية.[293] وكان ذلك الأمر على المحك في مناظرة فايادوليد، والتي ناقشناها في المقدمة. وفي مناظرته ضد سيبولفيدا أمام اللجنة، أقر لاس كاساس بوجود تسلسل هرمي في الحياة، وأن بعض أنواع البشر هم أعلى من آخرين. وكان موضع الخلاف هو مكان الشعب الأصلي في هذا التسلسل الهرمي، وواجبات الغزاة المسيحيين تجاههم. وفي النهاية، تقرر أنه على الرغم من أن الشعب الأصلي ليس جزءاً من المجتمع، إلا إنه بإمكانهم التخلص من مكانتهم في الطبيعة عبر أجيال من العمل.

ولنلحظ هنا الكيمياء السامة بين الجشع والتديّن.[294] فإذا ما كان الاستعمار ليستمر، كان لابد للرب أن يكون راضياً عنه. وفي نهاية المطاف، كان واجب رعاية أرواح الشعب الأصلي هو ما أعطى الرخصة في استملاك أراضيهم ويدهم العاملة لفلاحة تلك الأراضي. وقد نجحت مناظرة فايادوليد ليس في رسم الحد الفاصل بين البشر الأوروبيين والهمجيين «الطبيعيين» فيما سوى أوروبا، بل أيضاً في ترسيخ شرعية ذلك الخط الفاصل لأغراض العمل. فكان يمكن للشعب الأصلي من خلال العمل والتديّن أن يتخلص من قيود وثيقة Requerimiento. وخلال ذلك الوقت، سيجري تعليمهم عن المسيح، وعن القيمة المناسبة لتقسيم البشرية والطبيعة عبر العمل، بينما يحصد الإسبان الفضة وحياة هؤلاء البشر.

وهنا تكمن إحدى أخبث حيل الرأسمالية في المحاسبة. فمن خلال وضع غالبية البشر ضمن تصنيف الطبيعة بدلاً من المجتمع، أصبح بالإمكان إجراء حسابات التخم بكل جرأة. وتم احتساب رواتب الجنود، والإداريين، والبحارة ودفعها من

(293) Roper and Brockington 1984.

(294) Quirk 1954; Roper and Brockington 1984; Parise 2008.

خلال الرابط النقدي. إلا أنَّ حجم العمل من خلال الرابط النقدي كان يعتمد على قدر أكبر بكثير من تدفقات العمل خارج الرابط – ولكنه كان في متناول السلطة الرأسمالية. فاستملاك العمل غير مدفوع الأجر – وهو في حقيقة الأمر نوع من السرقة المستمرة – من «النساء، والطبيعة، والمستعمرات» هو شرط أساسي في استغلال القوى العاملة في نظام السلع. فلا يمكن الحصول على أحدهما دون الآخر.[295] ولذا حين نتحدث عن العمل الرخيص، فإننا نقصد بذلك الطرق التي تؤثر بها الرأسمالية ليس على عمل البشر، والزراعة، والموارد فحسب، بل أيضاً على كيفية ارتباط كلٍّ منها بالآخر، والعلاقات التي تربط عمل البشر وغير البشر في كل منعطف.

لماذا يعتبر فرض هذه الحدود ضرورياً للرأسمالية؟ ببسيط العبارة، لأن العمال مدفوعي الأجر مكلفون وتزداد كلفتهم مع مرور الزمن. ويحدث ذلك لأسباب عديدة. يكافح العمال وينضمون للنقابات، ومع تطوّرها، تقضي الرأسمالية على مصادر الدخل والرعاية البديلة. وإذ تحمل العمال مدفوعو الأجر بهذا المعنى الفضفاض التكاليف – بشكل مرعب في الغالب – في حال العمال غير الرسميين الذين يفوق عددهم المليار شخص، والذين يسميهم مايك ديفيس «البشرية الفائضة»[296] – فكذلك يجب على الرأسماليين تحمل التكاليف أيضاً. ويعتمد كل فعل من أجل انتاج فائض القيمة على فعل أكبر لاستملاك الحياة البشرية وغير البشرية خارج الرابط النقدي. وطبق هذا المنطق ليس على العمال في العالم الجديد فحسب، بل في أوروبا أيضاً بشكل متزايد. ويدور هذا الفصل حول انتشار هذا المنطق، وهو استراتيجيات العمل الرخيص والاستراتيجيات المضادة له.

الإيكولوجيا الوقتية للعمل مدفوع الأجر

لم يكن الهدف من العمل يوماً المتعة. خذ مثلاً أصل كلمة «travail» بالفرنسية

(295) Mies 1986, 77. أنظر أيضاً Moore 2015.

(296) M. Davis 2004, 13.

و«trabajo» بالإسبانية، وكلاهما تترجمان بمعنى الاسم الإنجليزي «work» أي العمل. وهما كلمتان مشتقتان من الجذر اللاتيني «trapaliare» بمعنى «يعذّب، يلحق الألم والأسى».[297] لكن الطريقة التي يجري بها العمل، والطريقة التي يؤثر بها على الطبيعة قد تغيرت. ومنذ آلاف السنين نجا غالبية البشر من خلال علاقتهم الحميمة مع الأرض والبحر إلى حد ما. وحتى هؤلاء الذين لم ينجوا كانوا مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بمهام العمل ولوازمه. واعتمد بقاء البشر على المعرفة الشاملة، وليست المجزأة: فالصيادون، والبدو، والمزارعون، والمعالجون، والطباخون، والكثيرون غيرهم عاشوا عملهم ومارسوه بطريقة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بشبكة الحياة. فكان لا بد للمزارعين على سبيل المثال معرفة أنواع التربة، وأنماط الطقس، والبذور – أي باختصار كل شيء عن الزراعة حتى الحصاد. ولم يعنِ ذلك أن العمل كان ممتعاً. إذ عومل العبيد في كثير من الأحيان بوحشية، وإن كانت ليست بذات الاستهتار المؤدي إلى الإبادة الجماعية والتي اتسمت به الحياة والموت في الأمريكيتين في عام 1492م.[298] كما إنه لا يعني أن علاقات العمل كانت عادلة: فقد استغل رئيس الحرفيين العمال المهرة، واستغل الأسياد عبيد الفلاحة، واستغل الرجال النساء، واستغل الكبار الصغار. إلا أنَّ العمل كان مبنياً على معنى شمولي للإنتاج وارتبط بعوالم أكبر للحياة والمجتمع.[299]

وكانت الطبيعة، كما العمل، جزءاً لا يتجزأ من الحياة. وكانت فكرة أوروبا عن الطبيعة في القرون الوسطى ذات اعتماد متبادل، كما شاهدنا من قبل. ولم يعنِ ذلك انعدام التمييز بين البشر وسائر الطبيعة – بل فقط الشمولية في فهم هذين التصنيفين وعيشهما. فقد أدرك البشر منذ وقت طويل اختلافهم عن سائر العالم.[300] ولكن ذلك الاختلاف كان علامة فارقة – وليس مبدأً منظماً كما أصبح

---

(297) Seabrook 2003.

(298) De Ste. Croix 1981; O. Patterson 1982.

(299) AppleBaum 1992; Boissonnade and Power 2011.

(300) Cicero (45 BCE) 1993; D. Arnold 1996.

بعد كولومبوس.

نشأ عالما العمل والطبيعة الحديثين في آن معاً على أنقاض النظام الإقطاعي الأوروبي في القرن الرابع عشر الطويل (حوالي 1315-1453). وفي حين كانت الزراعة الإقطاعية متنوعة بشكل هائل، إلا أنها كانت عبارة عن مزيج من الاستدامة وتجريف التربة.[301] وهدد استنزاف التربة ثراء الأسياد ومعيشة الفلاحين، إلا أنَّ العلاقة بين السيد والفلاح حدّت من الفائض الذي كان بالإمكان إعادة استثماره في الإنتاجية الزراعية. وفي تلك الأثناء، أخفت الكثافة السكانية المتزايدة تداعي خصوبة التربة – إذ كان بإمكان المزيد من اليد العاملة أن تعوّض التربة المتعبة على أية حال، وكان الأسياد الإقطاعيون منشغلون بحجم المحصول أكثر من العمال الذين يزرعونه ويحصدونه.

بدأ ذلك بالتغيّر في القرن السادس عشر عندما أصبح القلق بشأن إنتاجية **الأراضي** أقل إلحاحاً وربحاً من الإنتاجية **العمالية**. إذ كان المزارع التجاري الهولندي أو الإنجليزي – وزارع السكر في ماديرا ثم البرازيل – مرتبطين بشكل متزايد بالأسواق العالمية للسلعة المصنعة، وكانوا بالتالي مهتمين أكثر بالعلاقة بين وقت العمل والحصاد. وكما شاهدنا في الفصل الأول، فقد دُمجت الأراضي في إنجلترا عبر التسييج، الذي «حرّر» في ذات الوقت جزءاً متزايداً من سكان الأرياف من المشاعات التي كانوا يرعونها، ويدعمونها، ويعتاشون عليها. وكان هؤلاء الفلاحون المشردون حديثاً حرّين في إيجاد عمل آخر، وحرّين في التضوّر جوعاً، أو مواجهة السجن في حال إخفاقهم. وهكذا نشأت اليد العاملة والعلاقات الجديدة بالأرض في آن معاً. وفي القرنين السابع عشر والثامن عشر، أدت مخاوف النخبة من الفقراء المتنقلين إلى سنِّ قوانين قاسية ضد التسكّع، وظهور الجمعيات الخيرية لتخفيف أسوأ آثار العوز القسري.[302] وشكّلت التهديدات بالسجن المدعومة من قبل الحكومة استراتيجية لدفع الفقراء إلى العمل مدفوع

---

(301) Moore 2003b.

(302) وهذا هو أصل نشأة مصرف الغذاء الحديث.

الأجر، وهو نشاط سلب ذكاء البشر وقوتهم وبراعتهم، ودرّبهم على العمل الإنتاجي باستخدام ابتكار حديث آخر: طريقة جديدة لقياس الوقت.

إذا كانت ممارسة العمل وليس إنتاجية الأرض هي ما يشكل إيكولوجيا الرأسمالية، فإن آلتها التي لا غنى عنها هي الساعة الميكانيكية.[303] فقد ظهرت الساعة – وليس المال – لتكون تقنية لقياس قيمة العمل. وهذا الاختلاف أساسي، إذ من السهل الاعتقاد بأن العمل مدفوع الأجر هو سمة في الرأسمالية. ولكنه ليس كذلك، إذ كان ثلث السكان الناشطين اقتصادياً في إنجلترا في القرن الثالث عشر يعتمدون على الأجور من أجل البقاء.[304] أما كون الأجور طريقة حاسمة لتنظيم الحياة، والمساحات، والطبيعة، فإن ذلك يعود بالكامل إلى نموذج جديد للوقت.

بحلول القرن الرابع عشر، كان النموذج الزمني الجديد يشكّل النشاط الصناعي. فقد وجد العمال في صناعة النسيج في القرى مثل إبريس، الواقعة اليوم في بلجيكا، أنفسهم منظمّين لا حسب سير العمل أو المواسم، بل حسب نوع جديد من الزمن، وقت تجريدي، خطي، ومتكرر. في إبريس كان وقت العمل يقاس بأجراس القرية، التي كانت تقرع في بداية ونهاية كل نوبة عمل. وبحلول القرن السادس عشر، أصبح الوقت يقاس بدقات مطردة من الدقائق والثواني.[305] وأصبح هذا الوقت التجريدي يشكّل كل شيء – العمل واللهو، والنوم واليقظة، الائتمان والمال، الزراعة والصناعة، وحتى الصلاة. ومع نهاية القرن السادس عشر، كانت أغلب أبرشيات إنجلترا تمتلك ساعة ميكانيكية.[306] وفي القرن العشرين، بينما كانت خطوط التجميع في ديترويت تصنع سيارة هنري فورد من طراز T، كان «المدراء العلميون» يقيسون وحدات العمل التي كانت تسمى ثيلبريغ (بالإنجليزية: therbligs) – وهو لفظ مقلوب للاسم الأخير لمخترعي هذه

---

(303) Mumford (1934) 2010.

(304) Wickham 2008, 10.

(305) Dohrn-van Rossum 1996, 283.

(306) Thompson 1967, 63.

الوحدة: Gilbreth): وتبلغ كل منها مجرد جزء واحد من ألف من الثانية.[307]

ولذا فقد انطوى غزو الأمريكيتين على تلقين سكانها مفهوماً جديداً للزمان والمكان أيضاً. وأينما توغلت الإمبراطوريات الأوروبية، ظهرت صورة السكان المحليين «الكسالى»، الذين يجهلون تعاليم المسيح والساعة. وكان ضبط الوقت جوهرياً في إيكولوجيا الرأسمالية.[308] وبدأ التاج الإسباني منذ عام 1553م بتركيب «ساعة عامة واحدة على الأقل» في أهم المدن المستعمرة التابعة له.[309] وفي حين كانت لدى الحضارات الأخرى قواعد زمنية متطورة خاصة بهم، إلا أنَّ أنظمة العمل الجديدة حلّت محل وتيرة الشعوب الأصلية وعلاقاتها مع غيرها من أشكال الحياة غير البشرية. فتقويم شعب المايا عبارة عن تسلسل معقد من الأوقات والقراءات السماوية، ويقدّم مجموعة متنوعة من تنظيمات البشر ضمن الكون.[310] واقتصر احترام الغزاة الإسبانيين لهذا التقويم على مزامنة اعتداءاتهم الاستعمارية مع الأوقات المقدسة في التقويم.[311]

وكما يذكر إدوارد تومسون، فإن حوكمة الوقت تتبع منطقاً معيناً: «المجتمع الرأسمالي مكتمل النمو يجب استهلاك الوقت، وتسويقه، واستغلاله؛ ويعتبر مجرد «تمضية الوقت» أمراً مسيئاً بالنسبة إلى القوة العاملة».[312] ولم يسمح ارتباط بعض الأنشطة بالأهداف الإنتاجية الأكبر باستراق الوقت، وفرض انضباط الساعة عبر العالم من خلال العنف.[313]

كان تعليم الرعايا الجدد قيمة الوقت الرأسمالي وبنيته جزءاً هاماً في المؤسسة الرأسمالية. وأشار أحد المستوطنين في عام 1859م إلى أن الأستراليين الأصليين «قد اكتسبوا الآن طريقة التأريخ المتبعة من المستوطنين لتحديد وقت جز الصوف

---

(307) Price 1992, 64, 60.

(308) Nguyen 1992.

(309) Kinsbruner 2005, 142.

(310) Spinden 1920.

(311) G. Jones 1989.

(312) Thompson 1967, 90-91.

(313) Alatas 1977; Schwartz 1978; Tinker 1993.

سنوياً بشكل منتظم، الأمر الذي منحهم طريقة لعد السنوات لم يكونوا قد اتبعوها في السابق، فقد كانوا يكتفون بعد الأشهر القمرية فقط».[314] إلا أنَّ تنظيم الوقت كان أيضاً من الأشياء التي تركزت عليها المقاومة. وكتب مستوطن آخر في مذكراته: «كان هنالك تجمع كروبري كبير هذا المساء [كروبري: تجمع احتفالي، ربما يكون روحانياً]. فحاولت أن أردعهم بأن قلت لهم إنَّ اليوم هو الأحد، ولكنهم قالوا: "الرجل الأسود ليس لديه يوم أحد"».[315] لمَ المقاومة؟ لأنهم كانوا يعلمون تماماً أن يدهم العاملة كانت محل سرقة؛ وأن المستعمرين كانوا يستولون على عملهم.[316] فقبل الرأسمالية، كان بإمكان الأستراليين الأصليين، كغيرهم من كثيرين ينتمون إلى المجتمعات المعتمدة على الصيد والزراعة، إيجاد ما يكفي من غذاء لأنفسهم في أقل من ست ساعات، وهو وقت أقل بكثير من الاثني عشر ساعة في يوم العمل الذي فرضته الرأسمالية للوصول إلى النتيجة ذاتها.[317] واعتبرت مقاومة النظام الجديد «كسلاً» على أساس عنصري، وما زال هذا الاعتقاد سائداً: ففي الولايات المتحدة يعتقد أكثر من 30 بالمائة من الأشخاص البيض أن الأشخاص السود أكسل من البيض.[318]

لم يكن الأستراليون الأصليون الوحيدين الذين عانوا من ممارسة الحكم الاستعماري على الناس من خلال «عمل يوم جيد»، وهو تطبيق العمل والوقت لاستغلال اليد العاملة من أجل الربح. إذ عمل الشعب الأصلي، والعبيد الأفارقة، والمزارعون المستأجرون، والأجيرون تحت أنظمة متنوعة، خضع كل منها لمراجعة مستمرة استجابة للتمردات، واتباعاً لآليات فعالة أكثر وأكثر لإرغام العمال على العمل. في أوروبا في نهاية القرون الوسطى، فشل الحكام في إعادة النظام الإقطاعي

---

(314) F. R. Godfrey، مقتبس في Selected Committee of the Legislative Council on the Aborigines 1859, 71، في Nanni 2011, 12.

(315) Dredge 1839-43، مقتبس في Nanni 2011, 23.

(316) أنظر أيضاً، للمزيد حول كاليفورنيا القرن التاسع عشر Hurtado 1988, ch2.

(317) Sahlins 1972, 24; Harris 1978. أنظر أيضاً Minge-Klevana et al. 1980; Fischer-Kowalski et al. 2010. أنظر J. C. Scott 1985.

(318) Pew Research Center 2010.

لأن العمال والفلاحين لم يسمحوا بذلك. وفي العالم الجديد، حارب الشعب الأصلي العبودية، ولكنهم استسلموا للمرض الأوروبي.[319] وشملت التجارب العمالية الأولى على العمل القسري مدفوع الأجر (الميتا في الأنديز)، والعمل لقضاء الدين، والخدمة بعقد طويل الأجل.[320] واستمرت أشكال العمل هذه حتى وقت طويل من القرن العشرين عبر منظومات الإلزام بسداد الديون في القرى الصناعية وكذلك المُزارَعة[321]، وهي منظومات فرضت بسبب الديون، وكانت قائمة بشكل كبير على العنصرية.

وتوصف بعض أشكال العمل هذه على أنها تعود إلى عصر ما قبل الحداثة، إلا أن التفكير ملياً في الأمر يشير إلى خلاف ذلك. فعلى سبيل المثال، من السهل اعتبار مزرعة سكر في البرازيل في ثلاثينيات القرن السابع عشر على أنها عملية صناعية جديدة في صناعة النسيج البنغلاديشية مثلاً.[322] وتشير سيندي منتز إلى أن «التخصص حسب المهارة والوظيفة، وتقسيم القوى العاملة حسب العمر، والجنس، و]العرق[، والظروف، إلى طواقم، ونوبات عمل، و«جماعات»، بالإضافة إلى التشديد على دقة المواعيد والالتزام، هي مظاهر مرتبطة بالصناعة أكثر منها بالزراعة» – لا سيما قبل الثورة الصناعية.[323] لم تكن مزارع السكر الأولى تلك ميكانيكية إلى حد كبير فحسب، بمراجلها كثيفة الوقود وطاحوناتها اللفافة ذات التشغيل الثقيل لاستخراج عصير القصب من السقان، ولكنها أيضاً حفزت بشكل كبير «التبسيط»: أي تبسيط إجراءات سير العمل، عبر إعطاء العمال (العبيد) مهامَّ مبسطة، وتبسيط الأرض بحد ذاتها أيضاً، إذ اختزلت لتكون مخصصة لزراعة محصول واحد، هو القصب. تماماً كما يقوم عمال السيارات على

---

(319) Reséndez 2016.

(320) Moore 2010d.

(321) ملاحظة من المترجمة: المُزارعة هي نظام يقوم صاحب الأرض من خلاله بالسماح لمستأجر ما باستخدام أرضه الزراعية مقابل حصة من المحاصيل.

(322) Paul-Majumder and Begum 2000.

(323) Mintz 1985, 47.

خط الإنتاج بتجميع قطع مبسطة قابلة للتبديل، ويقوم عمال الوجبات السريعة بإعداد شطائر برغر موحدة، فقد عمل العبيد الأفارقة في وظائف تخصصية في مزارع مبسطة ذات محصول واحد.

يعطينا الرابط فيما بين العمل، والطبيعة، ومنطق التبسيط الحديث طريقة لفهم استمرارية أطول. فقد كانت تخوم السلع الكبرى في بداية الرأسمالية – تخوم السكر، والفضة، والنحاس، والحديد، ومنتجات الغابات، وصيد السمك، وحتى زراعة الحبوب – مناطق تجارب لاستراتيجيات ضبط العمل في أوروبا ومستعمراتها، وكانت دائماً ساحات للصراع. وشكلت كل مقاومة من العمال سبباً جديداً لجلب الآلات للعمل على الطبيعة غير السلعية أو السلعية بحد أدنى. ونشأت أنظمة العمل الحديثة وتقنياتهِ من بوتقة التجارب على أوائل العمال الحديثين، والاستراتيجيات التي طبقت عليهم، ومقاومتهم أيضاً. ومع حلول القرن السابع عشر، نجد طواحين السكر المسلحة في حقول القصب في البرازيل، ومعامل نشر الخشب في الغابات الكثيفة في النرويج، والمجمع الوحشي الضخم للإنتاج الهيدروليكي للفضة والزئبق في الأنديز. وبالإضافة إلى أشكال المقاومة اليومية من الفلاحين، نجد أيضاً التمرد، ومحاولات بحث العمال عن البدائل،[324] وكان أكبرها تمرد العبيد في مزارع السكر في سانت دومينغ، التي أصبحت لاحقاً هاييتي.[325]

مقابل كل مصنع عالمي مزرعة عالمية

لنتذكر أن الرأسمالية تشتق مسماها من «القيمة المتحركة»[326]، أي تحويل المال إلى سلعة، ثم إلى مال مجدداً. ولنتناول هذا التبادل عن كثب. القيمة هي بلورة خاصة لـ«المصادر الأصلية لكل أشكال الثراء»: وهي عمل البشر وغير

(324) Linebaugh and Rediker 2000; Hart 1991; J. C. Scott 1985.

(325) Stein 1984; Renda 2001; Macdonald 2010; Santiago-Valles 2005.

(326) Marx 1967b, 133.

البشر.[327] ويمكننا الاستعانة بماركس هنا لأنه كان دائماً ما يذكرنا أن النشاط الإنساني هو جزء من الطبيعة – وقوة المال هي ما يحول بيننا وبين «معرفة» سائر الطبيعة بشكل مباشر. تماماً كما تكون غالبية أشكال العمل تحت مظلة الرأسمالية، فإننا ندرك الطبيعة بشكل منسلخ عنها إلى حد كبير. (تصبح الطبيعة مكاناً نزوره، وليس مكاناً نعيش فيه). فقد أُعطينا العمل والطبيعة باعتبارهما نطاقين منفصلين من الواقع، وهو تصور شكل السياسات الخاصة بالبيئة والعمل. وكانت نقطة ماركس الرئيسية هي أن الفلاحين والحرفيين وغيرهم يفقدون اتصالهم المباشر بـ«وسائل الإنتاج» تحت الرأسمالية: «إذ يمتلك شخص آخر الأدوات، والمعامل، والأراضي، والمحلات، ويدفع الرأسماليون للعمال للقيام بعملهم على هذه الوسائل. وأراد ماركس أن يوضح أن الرأسمالية ترى الواقع عبر ثنائية العمل والطبيعة، وفي ذات الوقت، يذكرنا أن هذا الفصل غير ممكن: ما يحدث للعمال يؤثر في «الطبيعة الخارجية»، والعكس صحيح. وفي عام 1875م، أنكر ماركس على الاشتراكيين الألمان تغافلهم عن نقطة أساسية: «أن العمل ليس مصدر كل أشكال الثراء». فالطبيعة هي أيضاً مصدر لقيمة الاستخدام (وهي بالتأكيد جزء من تكوين الثراء المادي!) كما هو العمل والذي هو بحد ذاته تجسيد لقوة الطبيعة، قوة اليد العاملة البشرية».[328]

إن هذا التصور للعمل البشري باعتباره «قوة للطبيعة»، وبالتالي، أن شبكة الحياة تؤدي عملاً نافعاً وضرورياً يتيح لنا منظوراً جديداً نفهم من خلاله كيف جرى الفصل بين نشطاء البيئة ونشطاء العمل في نطاقين مختلفين، وأخفيت معالم الأساس المشترك بينهما. فاعتبار «الوظائف» و«البيئة» صراعاً لا ربح فيه لا خسارة هو أمر غير صحيح من الناحية التحليلية.[329] ففي عام 1875م، حذر ماركس من أن الاشتراكيين الألمان قد أخطأوا عندما اعتبروا العمل المصدر الوحيد للثراء.

---

(327). Marx 1976, 638

(328). Marx 1973a, 13

(329). James O'Connor 1988

واعتقد أنهم أسندوا «القوى الخارقة» للعمل. وقد يميل المرء إلى الإشارة إلى نقطة مماثلة فيما يتعلق بنشطاء البيئة في القرن العشرين: وهو أنهم نسبوا للطبيعة قوى خارقة – أهمها القوة الخارقة في صنع الحضارة أو هدمها.

إذا ما أدركنا أنَّ كلًّا من الوظائف والبيئات تشكلت من خلال الرأسمالية فإن ذلك سيساعدنا في إيجاد مبررات للتضامن وفرصة لحركات كل من نشطاء البيئة ونشطاء العمل لإعادة النظر في أهم افتراضاتهم. إذ يستمر الميل الكبير إلى الاعتقاد بأن عالم العمل الحديث مستقل إلى حد ما عن الريف، إلا أنَّ الفضل في وجود كل أشكال العمل يعود، وما يزال، إلى هذه الأرياف. وقد أبرمت كل حقبة عظيمة للرأسمالية علاقة مع الزراعة دفعت بملايين الأشخاص – ومئات الملايين منذ سبعينيات القرن العشرين – خارج المزارع.

لِنُلقِ نظرة على الثورات الزراعية في الولايات المتحدة ما بين أربعينيات وسبعينيات القرن العشرين، والتي سنناقشها في الفصل السادس، وأيضاً الثورات الزراعية في القرن التاسع عشر. كانت كلها تستند إلى الوقود الأحفوري والعمل الصناعي. إذ كانت مزارع الجنوب تضخ القطن الرخيص في مصانع النسيج البريطانية – والتي كانت خاضعة لنظام عمل وحشي – من نباتات اشتركت في إنتاجها العمالة الرخيصة من دلتا المسيسيبي والتربة الخصبة. وتضاعفت أعداد العبيد في ولايات التخوم الجديدة مثل ألاباما وميسيسبي إلى أكثر من عشرين ضعفاً من عام 1790 إلى عام 1860م، وبلغ عدد العبيد ما يقارب 4 ملايين في جنوب أمريكا بحلول عام 1860م.[330] كان العمال المستعبدون إنتاجيون بشكل ضخم، لا سيما وأن دلتا المسيسيبي كانت قد بنيت فوق تخم آخر من العمل الرخيص: التربة الغرينية الغنية.[331] وكانت العبودية هي ثمن القطن الرخيص، والذي هبطت أسعاره هبوطاً حاداً بمعدل تجاوز 70 بالمائة بين عامي 1785م

---

(330) USBC 1909, 132 (متاح على
.(www2.census.gov/prod2/decennial/documents/00165897ch14.pdf

(331) Johnson 2013.

و1835م.[332] وارتكزت المؤسسة التجارية للقطن في الجنوب على إخلاء الشعوب الأصلية وإبادتها، والتي تم إلقاؤها ضمن نطاق الطبيعة، تماماً مثل عبيد المسيسيبي. فقد مهد إقصاء الزراعة الأمريكية وما لحقها من صادرات القطن والغذاء الطريق للتحول الصناعي البريطاني. وبحلول عام 1870م، كان ستة من كل سبعة عمال إنجليز يعملون خارج القطاع الزراعي. وكان من اللازم إطعامهم – بتكلفة رخيصة – فكانت الزراعة الأمريكية متأهبة لفعل ذلك تماماً. وارتفعت الصادرات الأمريكية من الحبوب إلى بريطانيا إلى 40 ضعفاً في العقود الثلاثة التي تلت عام 1846م.[333] واعتمدت تلك الزيادة الهائلة على التحول الصناعي الزراعي: تجهيزات بمعدات ميكانيكية في المزارع والتي بدأت بشكل متواضع بآلات الحصد وغيرها من آلات المزرعة البسيطة في أربعينيات القرن التاسع عشر، ثم تزايدت بشكل متسارع في العقود التالية. وبحلول عام 1870م، كان ربع إنتاج الآلات الأمريكية مخصص للآلات الزراعية.[334] وفي ذلك العقد من الزمان، لم تغذ الحبوب الأمريكية العمال الإنجليز فحسب، بل إنها مهدت الطريق لعالم جديد من العمل عندما عاثت فساداً في مجتمعات الفلاحين الأوروبيين في أوروبا الجنوبية والشرقية. ومع الارتفاع الهائل في صادرات الحبوب الأمريكية، انهارت أسعار الحبوب – بانخفاضها إلى النصف بين عامي 1882م و1896م.[335] وتجعل الزراعة الصناعية الغذاء رخيصاً عندما تستبدل رأس المال بالفلاحين. وكانت ردة فعل الفلاحين – آنذاك واليوم – تجاه فصلهم من العمل أن هاجروا، وسوف نتناول (اتفاق التجارة الحرة لأمريكا الشمالية) في الفصل التالي. وانتقل الكثيرون منهم إلى الولايات المتحدة حيث عملوا في الصناعات الجيدة للثورة الصناعية الثانية.[336]

---

(332) Solar 2012.

(333) محسوبة من Atkin 1992, 17-18.

(334) Page and Walker 1991, 294.

(335) Friedmann 1978, 546.

(336) Wolf 1982.

أصبحنا نطلق على النظام الصناعي الذي تمخضت عنه المصانع في نهاية القرن التاسع عشر «النظام الفوردي»، نسبة إلى صنع السيارات هنري فورد. ولكنَّنا نغفل في كثير من الأحيان عن نقطة أساسية: وهي أن النظام الفوردي نشأ من المزرعة. فقد استمد هذا النظام ابتكاراته بشكل مباشر من التحول الصناعي للمزرعة العائلية في القرن التاسع عشر، وعمليات الاستبدال التي مهد لها هذا النوع من الفلاحة، والتقنيات التي طورت في صناعاته النهائية لتصنيع الأغذية – ربما الأهم من ذلك كله «خطوط التفكيك» لتعبئة اللحوم.[337]

كان نظام الغذاء أشبه بمختبر لتجربة مختلف ممارسات إدارة العمال، بدءاً من العبودية ووصولاً إلى العمل النقابي مدفوع الأجر. ولكنه أيضاً طرح فرصة للعمال لتصوّر السياسة بشكل مختلف. فعلى هذه الخطوط، كما كتب أبتون سينكلير في كتابة «الأدغال»، انضم العمال المهاجرون في نقابات بشكل حسَّن ظروف العمل وأنشأ طرقاً جديدة للتحكم بالعالم. وعلى الرغم من أن كتاب «الأدغال» يستذكر اليوم في الولايات المتحدة باعتباره قصة باعثة على الاشمئزاز حول المعاملة الوحشية للحيوانات والعمال، إلا أنَّ الكاتب اختتمه بخطاب لأحد منظمي المظاهرات في الشارع:

انظموا للنقابة! انظموا للنقابة! انظموا للنقابة! خمسون ألف صوت اشتراكي ستعني أن الديمقراطية ستكون في يد البلدية في الربيع! ثم سيخدعون الناخبين مرة أخرى، وستكتسح كل قوى النهب والفساد مجدداً! ومهما كان ما سيقومون به عندما يصلون إلى مناصبهم، فإن الشيء الوحيد الذي لن يقوموا به هو الشيء الذي انتخبوا من أجله! لن يعطوا ملكية البلدية لأهالي مدينتنا – لن ينووا فعل ذلك، ولن يحاولوا القيام به. كل ما سيقومون به هو إعطاء حزبنا في شيكاغو أكبر فرصة سنحت له الاشتراكية في أمريكا! سنجعل الإصلاحيين المزيفين يسفِّهون حجتهم بأنفسهم، ويدينون أنفسهم بأنفسهم! سنجعل الديمقراطية المتطرفة خالية من

(337) Page and Walker 1991, 308.

الأكاذيب التي تغطي عريها! ستكون شيكاغو لنا! ستكون شيكاغو لنا![338]

ما يزال السياسيون في شيكاغو إصلاحيين زائفين، وما يزال لدى المدينة متسع قبل أن تتحول إلى الاشتراكية. والسبب وراء ذلك هو إلى حد كبير أنه بينما تخيّل العمال عالماً لا يمكن فيه ترخيص عملهم، كان لرؤسائهم أفكار مختلفة.[339] إن المناورات التي استخدمها الرأسماليون للإبقاء على العمل رخيصاً، وإحباط الحلول الجذرية التي تظاهر من أجلها العمال نشأت لأول مرة في الزراعة. فقد ظهرت في صناعة القطن على سبيل المثال عدد من التكتيكات البارزة. وحلّت محلّ عمال القطن الذين كانوا يطالبون بامتيازات أكثر مما ينبغي تقنيات قلّلت بشكل منهجي الحاجة إلى عملهم على جانبي الأطلسي (وكان بعض المسلحين من عمال القطن الصناعي هم أنفسهم عمال نسيج يدوي قد استبدلوا بذات الطريقة في السابق).[340] وحرض العمال في منطقة من العالم على عمال منطقة أخرى، مع فتح طرق جديدة للتجارة مصادر أرخص للقطن (وفرت الوقت، والمال، والأراضي لاستخدامها في مآرب أخرى).[341] وأنفقت الموارد لتطوير ألياف بديلة (كما حل القطن محل الصوف، وهددت الأنسجة الجديدة قوة المفاوضة لعمال القطن). وسحقت قوة النقابة مباشرة، من خلال شرطة خاصة لتفرقة الاضرابات وعبر تشريع يهدف إلى إبقاء العمال المهتاجون في أماكنهم.

كانت صناعة القطن ساحة لبعض أول الإضرابات العمالية على جانبي المحيط الأطلسي. في كتابه «إمبراطورية القطن» يذكر سفين بيكرت مظاهرات عمال القطن في عام 1792م، والتماس عمال النسيج اليدوي لتحديد الحد الأدنى من الأجور عام 1807م والمدعومة بمائة وثلاثين ألف توقيع.[342] وقادت النساء أول إضراب

---

(338) Sinclair 1906, 412-13.

(339) إن المعاناة بشأن التصورات المختلفة لما يمكن أن يكون عليه العالم هي معاناة دولية، ويقدم Silver 2003 جداول لإيقاعات الاضطرابات العمالية.

(340) Robert Hall 1989.

(341) Hornborg 2006.

(342) Beckert 2014, 192.

في الولايات المتحدة في عام 1824م عندما رحلن عن مصنع غزل القطن في رود آيلاند. ولم يكن الأمر مصادفة أنه في الطرف الآخر من هذه الصناعة، في الحقول التي كانت مادته الخام تستخرج منها، تمرد العبيد.[343] ومرة أخرى، كانت تلك ظاهرة عالمية تحدث في كل الصناعات، في مزارع القطن والسكر، وفي كل مكان من الولايات المتحدة، عبر مارتينيك، إلى باهيا، إلى البرازيل، التي شهدت انتفاضة العبيد المسلمين في عام 1835م.[344] وبعبارة أخرى، ففي ذات الوقت الذي كان فيه البروليتاريون يعبّرون عن مطالبهم، كان العبيد يحاولون فعل الأمر ذاته، مرتبطين فيما بينهم بالسلع ذاتها، وفي بعض الأحيان بروابط التضافر المباشرة فيما بين شعوب الأطلسي المُستعمَرة: وهم العبيد، والإيرلنديون، والعموم من كافة الأطياف.[345]

لم ترتبط الاضطرابات العمالية وتمردات العبيد بعضها ببعض بسبب تعبيرهم عن المقاومة فحسب، بل لأنها عبرت عن معارضة لإيكولوجيا الرأسمالية. إذ يحتاج كل مصنع عالمي مزرعة عالمية؛ وتعتمد المؤسسات التجارية الصناعية، والخدماتية، والتقنية على ازدهار مخرجات العمل الرخيص والطبيعة الرخيصة، والتي بالكاد تؤخذ في الاعتبار. فالتطبيقات التي تجدها على هاتفكَ الآيفون، كتبت شفراتها في كوبرتينو، كاليفورنيا من قبل مهندسي برمجيات مستقلين، وهي تعتمد على رقاقات تجمع في مقرات عمل وحشية في الصين، وتعمل على معادن مستخرجة من صراعات دموية في جمهورية الكونغو الديمقراطية. ويعتمد التصنيع الحديث على أنظمة عمل طبقية، وآنية، ومختلفة، في الطبيعة. ومع كل مقاومة لها، تنقل الرأسمالية تخوم العمل مرة أخرى.

التحكم بالعمل في الطبيعة

إن تقنيات سلطة أصحاب العمل في بيئة العمل واسعة الانتشار حتى إنها

---

(343) Aptheker 1943.

(344) Genovese 1992; Tomich 1990; Wish 1937; Reis 1993.

(345) Linebaugh and Rediker 2000.

ظهرت في آخر مكان قد نتوقع وجودها فيه: الاتحاد السوفييتي، حيث كان العمال ذاتهم – على الورق على الأقل – يتحكمون بظروف عملهم. ومع أن هنالك تركيز كبير على اختلاف السوفيتيين عن الغرب الرأسمالي، إلا أنَّ السلسلة المتصلة بينهما تفوق الاختلافات. فقد كان النموذج السوفييتي مقيداً بعلاقات العمل والطبيعة ذاتها. وكان منطق شيوعية الدولة في القرن العشرين عالقاً في إيكولوجيا القرن السادس عشر.[346] وفي الحقيقة، كان السوفيتيون حريصون إلى حد كبير على أخذ كافة أنواع الأفكار من منافسيهم الرأسماليين، بما في ذلك أفكار خبير الزمن والحركة الأمريكي فريدريك وينزلو تايلور، والتي كانت محط ترحيب – واعتراض – في الصناعة السوفيتية. وقد أكد لينين، الذي استنكر في وقت سابق «استعباد الآلة للإنسان» تحت مظلة التايلورية، في إبريل 1918م على أنه «علينا بالتأكيد أن نتحدث عن إدخال نظام تايلور... ومن دون ذلك، سيكون من المستحيل رفع الإنتاجية، ودون ذلك لن نتمكن من إدخال الاشتراكية».[347] وفي الزراعة أيضاً، أدخل التحول الصناعي بكل حماسة، وقد أمضى حوالي ألفا خبير زراعي أمريكي وقتاً في الاتحاد السوفيتي بين عامي 1927م و1932م، كما زار السوفيتيون المزارع الصناعية في الولايات المتحدة. وإذا ما كانت المنهجيات السوفيتية الأمريكية قد اختلفت فيما يتعلق بمزج التخطيط والسوق، إلا أنَّها تقاربت فيما يتعلق بنظرتها للطبيعة.[348] وبالنسبة إلى ستالين (كما هي الحال بالنسبة إلى الأمريكيين)، كانت الطبيعة «غرضاً يجب استخدامه، [و] عدواً يجب إخضاعه».[349]

ذهبت الشيوعية الصينية إلى أبعد من ذلك في تحويل علاقات العمل عبر الملكية الجماعية، ولكن غلب عليها الطابع الابتكاري. فضمن جهود ماو في تحرير الصين

(346) على الرغم من أنه من الحمق التقليل من شأن الابداع الفكري الهائل للروس – الشيوعيين وغيرهم – في العشرينيات.

(347) Lenin 1965, 152. أنظر أيضاً Bailes 1977.

(348) Kagarlitsky 2008 . Fitzgerald 2003, 157-83: Nove 1992.

(349) Josephson 2013, 74.

من المجاعة، أعلن الحرب على الحيوانات الآكلة للحبوب الصينية في عام 1958م، ظناً منه أن ذبحها خلال يومين سيضمن الازدهار الأبدي لسكان الصين. فكان يتعين على البشر قتل الآفات الأربع الرئيسية بمجرد رؤيتها، وهي البراغيث، والذباب، والفئران، والعصافير الدورية. ومع أن عدد البراغيث كان لا يحصى، إلا أنَّ الحكومة صنفت «48695.49 كيلو من الذباب، و930486 من الفئران، و1367440 عصفور دوري».[350] ومن دون وجود العصافير الدورية التي تقتات عليها، تزايدت أعداد اللافقاريات بشكل سريع. فأكلت الحشرات الحبوب بلا رادع، فساهمت في المجاعة الصينية الكبرى بين عامي 1959م و1961م.

بالنسبة إلى الرأسماليين القلقين، لم تكن الوفيات الصينية الهائلة باعثة على القلق بقدر خطر إمكانية استيلاء الفلاحين على ملكية الأراضي. وبشكل عام، تسبب خطر القوة العمالية – تحت مسميات متطرفة متنوعة – في تغيير الرأسماليين لاستراتيجياتهم. فلنأخذ صناعة السيارات على سبيل المثال. ففي ثلاثينيات القرن العشرين، أثبتت الاعتصامات في الولايات المتحدة فعاليتها الكبيرة في توظيف العمال في النضال، وبالتالي، إجبار الإدارة على الجلوس إلى طاولة المفاوضات. وفي فلينت، ميتشيغان، تمكن (عمال السيارات المتحدين) من الحصول على عقد مع جنرال موتورز على مدى ثلاثة أشهر في مطلع عام 1937م. وقد أوقف دخول الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية تشكيل النقابات بصورة مؤقتة، إلا أنَّ الإضرابات عادت إلى مستويات عام 1937م بحلول عام 1944م، وارتفعت مجدداً بعد السلام في عام 1945م.[351] وحاول صناع السيارات في اليابان بعد الحرب تجنب الاضطرابات العمالية التي تميزت بها التجربة الأمريكية. ومع عدم قدرتهم على القضاء على النقابات بشكل تام، اختاروا إعادة التنظيم الإداري: فبدلاً عن مصنع واحد معرض للخطر، أنشأوا سلسلة تعاقبية من المتعاقدين من الباطن لإنتاج وتجميع كافة أجزاء السيارة، يمكن من خلالها إبطال النضال العمالي

---

(350) Dunn 2017, 57.

(351) Lichtenstein 2002, 234.

والحصول على التنازلات من العمال بسهولة جراء منافسة بعضهم بعضاً.[352]

عندما تعذّر احتواء مطالب العمال جرت تلبيتها، حتى مع قضاء موجة الماكارثية في أمريكا والممارسات المقابلة لها في الأماكن الأخرى المناهضة للشيوعية على التطلعات للتحولات الاقتصادية والاجتماعية على النطاق الأوسع[353] – لا سيما تطلعات الشيوعيين والاشتراكين الأمريكيين. وفي مقر العمل العالمي، كانت تلك التلبية تعني قيام النقابوية، وهي ما أطلق عليه مايكل بوراوي التحول من أنظمة المصانع «الاستبدادية» إلى «المهيمنة».[354] وتعلم مشغلو المصانع الدرس بعضهم من بعض، ولكن العمال تعلموا الدرس أيضاً، مع ازدياد عدد الإضرابات في صناعة السيارات عالمياً. ومع حلول تسعينيات القرن العشرين، تمكنت الإضرابات من جذب الدعم الشعبي في كوريا الجنوبية عبر تمثيل المصالح العمالية، وأيضاً مصالح كتلة اجتماعية أوسع: وهم المواطنون من خارج المصانع والذين يتوقون إلى المزيد من الديمقراطية من دولة غير مستعدة لمنحها.[355] ونقلت شركات السيارات الإنتاج إلى الصين، التي كانت تعد بالتخلص من الاضطرابات العمالية، إلا أنَّ عدم الرضى والمظاهرات العمالية يستمر في الصين وحول العالم حتى يومنا هذا.[356]

باختصار، نشأ العمل بشكله الحديث في أوروبا عبر تسييج الغابات، وهي عملية تعددية حوّلت علاقات البشر مع سائر الطبيعة ومع طريقة قضاء اليوم في أوروبا – وحتى مع طريقة فهمنا للوقت. في المستعمرات، جرى استملاك الطبيعة وتصنيف القوى العاملة من الشعوب الأصلية ثم العبيد الأفارقة بشكل قاطع ضمن نطاق الطبيعة. ولطالما أجرت الرأسمالية التجارب على كل نوع من أنواع الأنظمة العمالية في آن معاً. وهكذا تستمر العبودية حتى يومنا هذا، والتي تنطوي

---

(352) Silver 2003, 68-69.

(353) M. Davis 1986.

(354) Burawoy 1983.

(355) Sonn 1997, كما ناقشها Silver 2003, 64.

(356) Butollo and ten Brink 2012.

على عدد أكبر من الأشخاص أثناء كتابة ها الكتاب مما جرى نقله عبر الأطلسي من عبيد[357] – وكذلك استمرار مخيمات العمل في زمن الحرب في جمهورية الكونغو الديمقراطية على سبيل المثال، بالإضافة إلى أنواع جديدة من العمل في «الاقتصاد التشاركي». وفي كل حالة من هذه الحالات، تنظر الإدارة إلى أبعد من أفق الممارسة العمالية الحالية لإعادة تصور وابتكار كيفية ارتباط حياة العمال بعضها ببعض وبالطبيعة من بعدهم.

غير أن الرأسمالية لم تتمكن من البقاء يوماً دون مرحلة ثالثة من العمل: استملاك عمل البشر الإنجابي، والذي جرى بازدياد خارج الرابطة النقدية. ويعتمد كل من المصنع العالمي والمزرعة العالمية على أسرة ما، وعلى مجتمع ما يقدم الرعاية. لذا يتعين على أي سياسة ثورية في مجال الاستدامة أن تدرك الانقسام الثلاثي للعمل تحت مظلة الرأسمالية، وأن تحشد جهودها عبر تناقضات هذا الانقسام: القوة العاملة، عمل الرعاية غير المدفوع، وعمل الطبيعة ككل. ويرتبط استغلال العمال باستملاك الطبيعة غير البشرية، وعمل الرعاية غير المدفوع. كما ارتبط قيام الرأسمالية كما شاهدنا ارتباطاً وثيقاً بنبذ المرأة من المجتمع وزجها في نطاق الطبيعة الرخيصة -والمرخصة.[358] وحان الوقت الآن لاستعراض الحد بين العمل مدفوع الأجر، والعمل الذي كان يُعتبر "هدية مجانية" منحتها الطبيعة للاقتصاد.

(357) ILO 2014.

(358) Mies 1986; Werlhof 1988; Federici 2004; Moore 2015; Habermann 2016.

الفصل الرابع

الرعاية الرخيصة

لا نعرف شيئاً عن زوجة كريستوفر كولومبوس، فيليبا مونيز بيريستيلو. ولكننا نعرف أن الأمير البرتغالي هنري الملاح كان قد منح والدها، بارتولوميو، بورتوسانتو، الواقعة على سواحل ماديرا.[359] ومع أن ثروتها كانت قد أنفقت سلفاً، إلا أنَّها جلبت مكانة أسرتها معها حين تزوجت. كانت في التاسعة عشر حين تزوجت كولومبوس، في عام 1457م أو 1458م.[360] وكان قد التقى بها في قداس في لشبونة، في كنيسة تديرها راهبات من أخوية فرسان سانتياغو، وهي أخوية خاضت الحروب الصليبية.[361] وقد أنجب بيريستيلو ابناً في عام 1479م أو 1480م، ولكنه توفي في عام 1484م، وما غير ذلك غير مؤكد.[362] ونعرف أن كولومبوس اتخذ عشيقة (والتي ترك قريبها للموت في العالم الجديد). وحالما رأى كولومبوس مستضيفيه من الشعب الأصلي، لاحظ أنهم «يمشون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، وكذلك النساء، مع إنني لم أر سوى فتاة صغيرة».[363] وبعد ذلك بشهر، اختطف بضعة نساء/ معتقداً أن الرجال الذين كان قد اختطفهم قبل ذلك سيكونون أكثر خنوعاً برفقة النساء.

رافق كولومبوس في رحلته الثانية، وكان حينها قد أصبح القائد المركزي للأسطول، أرستقراطي إيطالي، يُدعى ميشيل دي كونيو وقد كتب قائلاً:

---

(359) O'Connell 2004.

(360) Catz 1993, 33.

(361) وعلى الرغم من ميراثها، لم يتمكن كولومبوس من تمويل رحلته عبر الأطلسي. واضطر إلى انتظار علاقاته الجنوية لتمويل رحلته.

(362) Barreto 1992, O'Connell 2004 ، وغيرهم يطرحون نقاشاً مطولاً عن كولومبوس وبيريستيلو.

(363) Columbus 2003, 111.

عندما كنت في القارب، لمحت امرأة كاريبية فائقة الجمال، فأعطاها لي القائد المركزي للأسطول. وإذ أخذتها إلى مقصورتي، وكانت عارية حسب عاداتهم، راودتني رغبة في أن أستمتع بها. فرغبت في أن أحقق رغبتي، ولكنها لم ترد ذلك، وتعاملت معي بأظفارها بطريقة تمنيت معها لو أنني لم أقدم على هذا الفعل. ولكنني حين رأيت ذلك منها... أخذت حبلاً، فجلدتها به، فأطلقت صرخات لم تكن أذنك لتصدقها. وفي نهاية المطاف أصبحنا على وفاق تام يجعلني أخبرك أنها بدت معه وكأنها نشأت في مدرسة للعاهرات.(364)

مع أن ذكر النساء لا يظهر بوضوح في مذكرات كولومبوس، إلا أنَّها كانت تحوي الكثير عن التمييز الجنسي – كيف كان اختلاف الجنس يلعب دوراً هاماً في تنظيم الأمور، وكيفية إدارة العمال، وكيفية استملاك النساء. وقد ظهرت لغة الجنس والجنسانية في رحلة كولومبوس الثالثة عندما كتب إلى الملوك الإسبان أن العالم ليس كرويًّا، بل يشبه مفاتن النساء، وأن النعيم على ذروتها.(365) كولومبوس الذي أبحر حول العالم، وأذعنت له الموارد والشعوب في «العالم الآخر»، استولى على جزر لم يمسسها أحد من أجل ملكه وملكته. ولم يكن هنالك سبب يدعو لأن تكون لغة الجنس هي اللغة التي يجري من خلالها الحصول على مناجم الفضة.(366) إلَّا أنَّ البشر خلال تنقلهم عبر سطح الكوكب، وضمهم الكوكب ضمن حكم الممتلكات، كانوا قد طوقوه مثلما يفعل المرء في مغامراته الجنسية. وشكّل حكم الطبيعة الرخيصة والعمل الرخيص، منذ البداية، تحولاً ليس في ماهية ما يتملكه البشر وكيفية تملكه، بل أيضاً في من يمكنهم التملك والعمل، وكيف سيجري إنجابهم، وكيف ستجري رعايتهم.

سبقت أعمال الطبخ، والتعليم، والتربية، والعلاج، والتنظيم، والتقديس، عهد الرأسمالية. وقد نتجت أولى التحولات الإيكولوجية واسعة النطاق للبشر في

---

(364) Michele de Cuneo, in Morison 1963, 212, مقتبس في Keller 1994, 59.

(365) المصدر السابق.

(366) على الرغم مما ذكر في مناقشة الطبيعة والعلم في الفصل الثاني.

العصر الحديث عن أعمال الرعاية، وبالأخص بعد اكتشاف النار.[367] ولكن أنشطة الرعاية في التخم الرأسمالي مرت بتغيرات جذرية، تعكس الفكر المسيحي في بداية الحداثة، وتعززه فيما يتعلق بالجنس والسلطة. فمنذ البداية تقريباً، كان الجنس مهماً في المواجهة الاستعمارية. وكان كولومبوس يستخدم كلمة «مانسيبو» (mancebo) عند وصف رجال الأراواك، إشارة إلى المراهقة وما قبل مرحلة النشاط الجنسي. وكان الرجال الأصليين مخصيين في نظر كولومبوس، ووصفت الحروب الاستعمارية اللاحقة أنَّ هزيمة المحاربين الأصليين من قبل الإسبان قد شملت إخضاعهم العسكري والجنسي في آن معاً.[368] وعلى سبيل المثال، اقترح مجلس فيراكروز في رسالة إلى ملك إسبانيا تشارلز الخامس أخذ الإذن من البابا لمعاقبة الشعب الأصلي لأن «هذا العقاب]ربما[يشكّل تحذيراً وترهيباً إضافياً لهؤلاء الذين ما زالوا يتمردون، وهكذا نعدلهم عن الشرور التي يقومون بها في سبيل الشيطان. إذ إنهم بالإضافة إلى قتلهم الأطفال، والرجال، والنساء، وتقديمهم قرابين، فقد علمنا وتنامى إلى علمنا أنهم بلا شك جميعاً لوطيون، ويرتكبون ذنبا شنيعاً».[369]

صدم النشاط الجنسي لشعب المايا في يوكاتان المستعمرين الإسبان. ولم يكن ذلك بسبب احتفالات مجتمع المايا الجنسية. بل على العكس من لك، كان الجنس خاضعاً لتسلسل هرمي محكم، ومحدد بطرق كان يمكن للمستعمرين الإسبان أن يدركوها لولا أن أعمتهم غرابتها. فعوضاً عن شعور آدم وحواء بالخزي تجاه عريهم، كانت آلهة المايا تضعن أعضاءها التناسلية. وبدلاً من وضع الويفر المقدر في أفواههم، كان نبلاء المايا يضعون الحبال خلال ألسنتهم المثقوبة. ولم ير المستعمرون الإسبان في معتقد المايا بإمكانية التعرف على الآلهة عبر الجسد إلا نذائر

---

(367) Berna et al. 2012: .Bowman et al. 2009. وانظر أيضاً Balée 2006. نسعى للمساهمة في مجال الإيكولوجيا التاريخية فيما يتعلق بتحليل نوع الجنس.

(368) Zamora 1990. ولمناقشة أطول أنظر Trexler 1995.

(369) Trexler 1995, 1.

التمرد والعار.[370]

وقد استخدم بعض أفراد المايا في يوكاتان فرط احتشام المستعمر ضده. وكشف بيت سيغال في كتابه غير المسبوق عن قصص تحكي عن ذلك، مثل قصة اتهام شخص مجهول من السكان المحليين أربعة كهنة بممارسة الجنس في الكنيسة:

الأب دياز، لديه امرأة من بولونتشن تُدعى أنطونيا ألفارادو، يقوم بممارسة الرذيلة معها أمام الرعية مراراً وتكراراً. والأب غرانادو يمارس الرذيلة مع مانويلا باتشكو طوال الليل... ولو أن أحداً من العامة قام بذلك، لعاقبه الكاهن على الفور. ولكن أنظروا إلى تمادي الكهنة في الرذيلة، وهم يضعون أياديهم على عورات العاهرات، حتى إنهم يلقون خطبهم وهم كذلك. ولعل الإنجليز عندما يأتون ألا يكونوا زناة مثل هؤلاء الكهنة الذين لا ينقصهم سوى أن يمارسوا اللواط. عسى أن يغطي الجدري أعضاءهم. آمين.[371]

شكّلت الأمور العادية حسب المعتقد الديني للمايا أموراً مخزية في السياق الإمبراطوري، ولذا كانت تتطلب إجراءات سريعة من قبل الإسبان. وربما قد تم نقل هؤلاء الكهنة إلى مكان آخر نتيجة لذلك، ولكن أعمال المقاومة والتخريب تلك لم تتمكن من وقف الرقابة على أجساد الناس وما يفعلونه بها. وتشير آن ستولر في دراساتها حول التاريخ الاستعماري إلى خط طويل من الخيالات والمخاوف الاستعمارية الأوروبية حول النشاط الجنسي للشعب الأصلي، والذي تربع على بعض الأفكار المتصلبة حول النظام والسلطة: «من تزوج بمن، ومن مارس الجنس مع من، في مستعمرات فرنسا وإنجلترا، وهولندا، وأيبيريا، لم تكن تلك أمور متروكة للصدفة».[372] وتشير آخر الاكتشافات الأثرية إلى مدى أهمية الرقابة على النشاط الجنسي وعلى الأجساد في المشروع الإمبراطوري. وكما تشير باربرا فوس فإن «القمع العنيف للنشاط الجنسي بين روحين أو بين فردين من ذات الجنس كان

---

(370) Sigal 2000, ch. 4.

(371) المصدر السابق، ص 65.

(372) Stoler 2010, 47. أنظر أيضاً Lugones 2007.

جزءاً فقط من برنامج ضبط النشاط الجنسي الذي طبّقه مسؤولو القوات التبشيرية والعسكرية. ومع الدعم العسكري، استهدف المبشرون أيضاً الجنس قبل الزواج، والجنس خارج إطار الزواج، والتعدد، واستخدام وسائل منع الحمل. واستخدم ما بلغ 25 بالمائة من ميزانية البعثة السنوية للكاليفورنين لشراء الملابس لتغطية «انعدام الحشمة» في الكاليفورنيين الأصليين».[373]

ما علاقة ذلك بإيكولوجيا العالم؟ كل شيء.[374] فقد كانت أنظمة الشعوب الأصلية المتعلقة النوع الجنسي واسعة وشمولية إلى حد أكبر بكثير من الأنظمة التي جُلبت من أوروبا، ولكنها لم تكن متوافقة مع إيكولوجيا الرأسمالية.[375] ولكي ينشأ نظاما الطبيعة الرخيصة والعمل الرخيص كان لا بد من وجود أعمال أخرى غير مدفوعة الأجر إطلاقاً – وعلى رأسها، إنشاء وإدارة الأجساد التي ستقوم بذلك العمل.[376] ويتناول هذا الفصل العمل الإنجابي، وهو العمل المتعلق برعاية المجتمعات البشرية، وتربيتها، وتنشِئتها. وهذا العمل غير مدفوع الأجر بالكامل لأنه هو ما يسمح بوجود كامل نظام العمل مدفوع الأجر. ومن دون العمل غير مدفوع الأجر، لا سيما أعمال الرعاية، سيكون العمل مدفوع الأجر ببساطة ملكفاً جداً.

في مطلع الرأسمالية، كانت الاستراتيجيات التي طبّقت سابقاً لتطويق الشعوب الأصلية في حظيرة الطبيعة هي ذاتها التي استخدمت لإنشاء وإدارة فئة من البشر للقيام بأعمال الرعاية غير مدفوعة الأجر: وهم النساء. وأجبرت أجساد البشر، بتدخّل طبي في بعض الأحيان وقانوني في جميع الأحوال، لتكون ضمن تصنيفين لا مفر منهما: الرجل والمرأة. وقد تركت لنا الثنائيات المتشابكة الناتجة عن ذلك: المجتمع – الطبيعة، الرجل – المرأة، العمل مدفوع الأجر – العمل غير مدفوع

---

(373) Voss 2008, 196.

(374) Mies 1986; Dunaway 2015.

(375) McClintock 1995 يقدم موجزاً عن ذلك.

(376) Federici 2004, 8.

الأجر، طريقة تفكير خصصت البشر في إيكولوجيا العالم للرأسمالية للقيام بأعمال الرقابة الهائلة: إذ نستمر في الاعتقاد بأن «العمل الحقيقي» هو فقط العمل مدفوع الأجر، وونسى أعمال الرعاية التي جعلت كل ذلك ممكناً. ومن الجدير ملاحظة أن ذلك لا يقصد منه أن كافة النساء يقمن بأعمال الرعاية، ولا أن أعمال الرعاية لا يقوم بها إلا النساء فقط. بل إن الهدف هو تسليط الضوء على تاريخ محاولة إيكولوجيا العالم الرأسمالية جعل هذه التراكيب تبدو طبيعية. فكتابة تاريخ العمل دون أعمال الرعاية ستكون أشبه بكتابة إيكولوجيا السمك دون ذكر الماء. وسيكون ذلك ممكناً، بأسلوب محدود، ولكنك إذا ما أدركت ما تم التغاضي عنه فسيصعب عليك الاستمرار. ومنذ البداية، كان اهتمام إيكولوجيا الرأسمالية منصباً على الجنس، والسلطة، والتناسل – وما يدل على أهمية ذلك الاهتمام هو أن المعرفة به وبتاريخه قد قمعت إلى حد كبير وسهل نسيانه. وقد بدأت مؤخراً إعادة اكتشاف هذا التاريخ.[377]

الاستئناس الكبير

ليست هنالك طريقة محددة واحدة لرعاية البشر أحدهم بالآخر.[378] وخير دليل على ذلك هو التنوع الهائل في أشكال المجتمعات والمتغيرات السكانية في التاريخ الإنساني.[379] غير أنَّه في كل منعطف من هذا التاريخ كانت أنظمة رعاية البشر والاعتناء بهم وتناسلهم مرتبطة بالطبيعة غير البشرية. ولا يشتمل هذا الرابط الوجودي على الروابط المادية والبيولوجية فحسب، بل يمتد إلى أنظمة معتقداتنا وطرق تفكيرنا. ويشير كل طقس انتقالي، وكل طقس لخصوبة الأرض في الربيع، من سارية مايو حتى إراقة الدماء، إلى تفاوت الطرق التي تشكّل من خلالها حياة الأشخاص والحياة غير البشرية بعضها من خلال بعض. ولكننا حين نتحدث عن العمل الإنجابي تحت مظلة الرأسمالية، فإننا نشير إلى مجموعة محددة

(377) J. W. Scott 1999.

(378) أخذنا عنوان هذا الجزء من Bayly 2004، ص 49. ونطور الفكرة بشكل أكبر هنا.

(379) Seccombe 1992; Coontz and Henderson 2016.

للغاية من الترتيبات، والتي جرت إعادة ترتيبها عبر إيكولوجيا العالم، وهي مستمرة حتى وقتنا الحاضر.[380] وبموجب هذه الترتيبات، جرى تقييد بعض البشر في وحدات سياسية، واجتماعية، وإيكولوجية جديدة – أسر معيشية – لينخرطوا بشكل أفضل في أعمال الرعاية في إيكولوجيا الرأسمالية. ولنطلق على ذلك مسمى الاستئناس الكبير.

لنتناول مجموعة من الملاحظات التي تبدو في ظاهرها مستقلة تماماً بعضها عن بعض. بين عامي 2014م و2010م، استقبل «الاستطلاع العالمي حول القيم»، ومقره فيينا، مجموعة من الردود حول الجملة «عندما تشح الوظائف، يجب أن يكون للرجال حق أكبر في الوظيفة من النساء». في أيسلندا، اتفق 3.6 بالمائة من الأشخاص مع تلك الجملة، ولكن في مصر كان معدل الاتفاق 99.6 بالمائة.[381] لماذا الاختلاف؟ الأسباب البسيطة هي الثقافة، والدين، والعادات، ومستوى الدخل. إلا أنَّ دراسة في المجلة المرموقة (Quarlterly Journal of Economics) لا تشير إلى أي من هذه الأسباب. فحسب تحليل بيانات المائتي سنة الماضية، مع ضبط كل شيء من الدين إلى الحرب، إلى وجود النفط، وجد الباحثون أنه بطريقة ما، في مجموعة من الدول، كان أحد أهم العوامل المرتبطة بانعدام المساواة بين الجنسين هو استحداث تقنية زراعية معينة: هي المحراث.[382] إذ يبدو أن الأفراد الذين نشأوا في مجتمع معتاد على استخدام المحراث هم عرضة أكثر من غيرهم لعدم المساواة بين الجنسين بشكل دائم داخل محيط المنزل – بل إن ذلك يظل معهم حتى عندما يهاجرون. وليس لدى الباحثين أدنى فكرة عن السبب الذي يقفُ خلفَ ذلك، مثلهم في ذلك مثل الاقتصاديين الجيدين. ومن الواضح أن المشكلات المتعلقة بنوع الجنس، وعدم المساواة، والتمييز لن تختفي إذا ما قمنا الآن باستبدال

---

(380) لنكون واضحين. نحن لسنا مهتمين في إعادة تاريخ يميني للأبوية. ويذكرنا كتاب مارثا هاويل أنه في حين أن الكثير من أسس الرأسمالية وضعت بين عامي 1300م و1600م. فإن قراءتها باعتبارها تقود بشكل مباشر ومقصود إلى عالمنا الحديث هو بمثابة تقزيم لعالمنا وعالم أجدادنا.

(381) أنظر أنظر WorldValuesSurvey.org للبيانات الكاملة.

(382) Alesina, Giuliano, and Nunn 2013.

تقنية زراعية أخرى بالمحراث. ولا يكمن التحدي الأكبر في مجرد فهم كيف يمكن لأسلوب الفلاحة هذا بالذات أن يجعل الفجوة بين الرجال والنساء طبيعية فحسب، بل فيما يمكن القيام به للمضي قدماً في المساواة.

إذن ما الذي يمكن أن يجعل أداة فلاحة قديمة ما يكفي لتكون مرسومة باللغة الهيروغليفية المصرية في عام 2600 قبل الميلاد مسؤولة عن الشوفينية في القرن الحادي والعشرين؟[383] في التخم الواقع فيما يعرف اليوم بالبيرو في القرن السادس عشر، ذكر المؤرخ إنكا غارسيلاسو دي لا فيغا أمراً ربما يحل معضلة المحراث والتمييز بين الجنسين.[384] وهو أن غالبية الشعب الأصلي كان يعتبر استئناس الثيران ومن ثم تسخيرها سلوكاً غريباً، لكونه يتدخل في نظام الطبيعة، ولما يخبر به هذا السلوك عن المستأنسين أنفسهم. وكان تفسير الشعب الأصلي لذلك هو أن الإسبان كانوا أكسل من أن يفلحوا الأرض بأنفسهم، وكان لا بد لهم من تدريب الحيوانات للقيام بذلك بينما هم يجلسون ويلتقطون الطعام من بين أسنانهم. كما اعتبر الإسبان غريبي الأطوار بسبب الأراضي التي اختاروا فلاحتها، والطريقة التي احتلوها بها. إذ كان المستعمرون يفضلون السهول المنبسطة نسبياً لإنشاء مزارعهم، بينما تبنى الشعب الأصلي تقنيات المصاطب التي لا يزال بالإمكان رؤيتها في كوسكو وضواحيها.[385] ولا يمكنك حراثة تلة شديدة الانحدار يمتلكها الجميع – وكانت الفيزياء والأعراف الاجتماعية تمارس قوة شديدة ضد ذلك. فكان من الأسهل حراثة المزارع كبيرة الحجم المتجاورة، والمملوكة ملكية خاصة. وبعبارة أخرى، لم يكن الأمر المستغرب مقتصراً على المحراث، بل مجموعة التحولات في العمل، والعلاقات مع الحياة غير البشرية، والملكية التي كان المحراث جزءاً منها. وفي قلب تلك الأفكار كانت أفكار جديدة متعلقة باستئناس الحيوان والإنسان.

---

(383) Breasted 1919, 424.

(384) La Vega 1688, 378.

(385) Donkin and Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research 1979, 5.

يمكن تتبع أصل نشأة الأسرة المعيشية وأفرادها في التغييرات الإيكولوجية في الرأسمالية الأوروبية. وتناقش أليس كلارك في كتابها (الحياة العملية للمرأة في القرن السابع عشر) أن الأسرة النواتية المؤلفة من زوج وزوجة وأبناء نشأت عبر تحولات في الجغرافيا الاقتصادية للرعاية والإنتاج في المشاعات.[386] ونستذكر أن عمل المرأة في المشاعات تضمن جمع الوقود والتقاطه وهو ما كان يجعل الإعاشة ممكنة، وفي بعض الأحيان كان يمكن توفير فائض يمكن بيعه. وإذا ما ساءت الأمور، كان التأمين الاجتماعي يأتي من شبكات الدعم الديني، والشخصي، والاجتماعي – عبر المجتمع. ولم تكن هذه الترتيبات متوافقة مع الابتكار الزراعي من النوع الذي أحدث استخدامًا واسع النطاق للمحراث: وهي ملكيات الأراضي المسيجة المتزايدة في الحجم، ومزارع المحصول الواحد، والترتيبات الحصرية للملكية الخاصة، وإنشاء قوة عمالية يحفزها خطر المجاعة والسجن.

استحال مع التسييج عيش الفلاحين في أراضيهم المتضائلة الحجم. فعمل الفلاحون أجيرين مجبرين على بيع عملهم حتى يعتاشوا. وكما زج ذلك بالنساء والرجال في المنافسة في سوق العمل. فقبل ذلك، مع وجود المشاعات، كانت المرأة تشارك في الزراعة من خلال صناعة الألبان، فتُؤمِّن قوت العائلة من مبيعات الحليب ومشتقاته. أما مع غياب المشاعات، لم يعد رعي الماشية ممكناً. وأصبح سوق مهارات صناعة الألبان شحيحاً. وكان صوف الخراف مربحاً أكثر بكثير من حليب الأبقار، ولكن جز الصوف كان مهنة مقتصرة على الرجال. ولم يكن هنالك طلب على النساء إلا لأعمال حلب وتوليد الأبقار في الربيع، وكان عملهن هذا مدفوع الأجر. أما أعمال الحراثة في الربيع، وجمع المحاصيل في الخريف، فكانت تتطلب أعمالاً شاقَّة أكثر، ولذا فكانت في الغالب للرجال. وأدى هذا الانقسام في الأعمال إلى اختلاف أسعار تشغيل الرجال عن النساء. وهكذا كانت المزارع هي الأصل في الفجوة العالمية في الأجور اليوم، وهي ظاهرة كانت العلاقات مع

(386) A. Clark 1919.

الطبيعة جزءاً منها منذ البداية.

لم تكن الجوانب الاقتصادية وحدها كافية لترسيخ النوذج الحديث للأسرة المعيشية. بل كان من اللازم تدريب وضبط الرجل والمرأة كل ضمن مسؤولياته في الأسرة المعيشية. وكان بإمكان الأوروبيين في بداية العصر الحديث أن يتفقوا على فكرة أن الأنموذج الأولي لكافة العلاقات الاجتماعية للبشر هو علاقة الرب بالإنسان. إذ جسد الملوك حكم الرب على رعيتهم، أما في الأسرة، فقد تولى الأزواج دوراً مماثلاً.[387] وليس من المفاجئ أنه حالما تراجعت السلطة الباباوية خلال حركة الإصلاح، شهدت أوروبا في القرنين الخامس والسادس عشر طفرة في الكتابات حول الكنيسة وسيادة الملوك تزامناً مع نشر عدد من الأدلة العملية حول فن التدبير المنزلي. وقدّمت تلك الأدلة العملية التعليمات لمن أربكه النظام الاجتماعي الجديد الذي شجعه التمدن والتحول الصناعي. ومن بين أكثرها تأثيراً كان كتاب ويليام غوغ «الواجبات المنزلية»، والذي يبدأ باقتباس من أفسيس 5:21: «أذعنوا بعضكم لبعض مخافة الرب».[388] ويحث الكتاب على خضوع المرأة في المنزل عبر استعراض موضوع غضب الرب في العهد القديم والذي يخف بالرحمة في العهد الجديد. ففي المنزل، كان يجب على المرأة أن تخضع للرجل، وتخدم سيدها، وكان يجب على الرجل أن يتبع نموذج السلطوية التي قدمها الأب السماوي.

لم تنشأ الهيمنة في الأسرة المعيشية الحديثة من خلال الأدلة العملية فقط. بل نشأت كذلك بالقوة. فكما كانت الحال مع العمل الرخيص، كانت أجساد أنواع محددة من البشر بحاجة إلى التدريب على استراتيجية الرعاية الرخيصة حتى تؤدي عملها. واقتضى تحويل جسد المرأة إلى آلة مطيعة للإنجاب القوة والخوف والرقابة الاجتماعية.[389] وتضمنت مؤسسات تلك الرقابة السجن، والمدرسة، والعيادة،

---

(387) Amussen 1988, ch. 1.

(388) Gouge 1622, 1.

(389) Federici 2004; Mies 1986. أنظر أيضاً Ariel Salleh (مهم).

ودار المجانين، وإدارة النشاط الجنسي العام والخاص والجنسانية عبر العنف والوصم بالعار.[390] واتهمت هراطقة النساء بأنهن خارقات للطبيعة، وفوق النظام الذي فرض مكانهن في الطبيعة. وتعرضت الساحرات، اللاتي قاومن النظام الجديد، للتعذيب الشنيع علناً، والذي كان يمارس بمثابة الموعظة، وإلقاء المحاضرات في أساليب السلوك الجديدة لتلك النساء اللاتي كن خارج الطبقة البرجوازية ولم يكن باستطاعتهن قراءة الأدلة العملية، واللاتي كان من الممكن أن ينقدن وراء المقاومة.[391] وكما تذكر سيلفيا فيديريتشي فإن أشكال العنف التي كانت محل اهتمام ميشيل فوكولت – أي ضبط أجساد معينة للعمل والإنجاب والتصرّف وفق طرق محددة – تظهر في المشهد التاريخي فقط باعتبارها جزءاً من الاحتياجات الاستراتيجية لبداية الرأسمالية.[392]

ولنعد بذلك إلى لغة إيكولوجيا العالم، كان الاكتشاف الثنائي للبشرية والطبيعة يتمحور حول الرجل أكثر من على الإنسان – حسب كيت راورث.[393] إذ فرض التعليم العنيف في المنزل من خلال القانون، ولا سيما قانون الممتلكات، ومع إنه من الأفضل تأجيل هذا النقاش إلى أن نتناول حياة الأشخاص الرخيصة في الفصل السابع، إلا أنَّ الأمر جدير بالذكر من الآن مع مقتطف من أولى نصوص الملكية الرأسمالية الحديثة: وهو كتاب جون لوك «رسالة حول الحكومة»، والذي كان أول إصدار له في عام 1689م. ويحدد هذا المستند ما يمكن تملُّكه ومن يمكنه التملك. ويتضمن نطاقات الدولة الرأسمالية الجديدة من أنواع أخرى من التسلسلات الهرمية البشرية. وهكذا تنص الفقرة الثانية من الرسالة الثانية على أنه «يمكن تمييز سلطة الحاكم على الرعاية عن سلطة الأب على أبنائه، والسيد على خادمه، والزوج على زوجته والسيد على عبده».[394] ويرسخ هذا الفرق بين حيز عام يمكن لبعض

---

(390) Foucault 1973, 1979, 1980, 2008.

(391) Segato 2014.

(392) Federici 2004, 15-16.

(393) Raworth 2014. أنظر أيضاً Merchant 1980; Federici 2004.

(394) Locke 2003, 101.

الرجال المشاركة فيه باعتبارهم مواطنين أحرارًا ومتساوين، وحيز خاص يمكن للعبودية، والأبوية، وتمثيل الرجل القانوني لامرأته أن تسود. وبعبارة أخرى، ولد المواطن الحر رجلاً. ونشأ من خلال العنف، وانتشار نوع معيّن من أنظمة الإنتاج، كان امتداداً لأنظمة الزراعة الرأسمالية التي أستحدثت أوجهاً جديدة لواقع الحياة تفصل بين ما يمكن اعتباره ضمن الطبيعة، وما يمكن اعتباره ضمن المجتمع.

من الصعب تصوّر الاضطرابات الاجتماعية التي بثها هذا الأمر، ولكنه في بعض الأماكن كان يشبه كثيراً المشهد أدناه. كانت هذه اللوحة في يوم ما تعتبر مشهداً جميلاً للريف. إلا أنَّ تحليلات النقاد اللاحقين كشف أكثر من ذلك.[395] فقد صوّر توماس غينزبورو في لوحته (السيد والسيدة أندروز) والمعلقة الآن في المعرض الوطني في لندن، مشهداً من إيكولوجيا العالم للرأسمالية. لنبدأ من اليسار، حيث الشخص الأكثر راحة: روبرت أندروز. فهو ينتمي إلى الواحد بالمائة، ولكن لباسه غير متكلف كما يظهر بها في العلن – إذ يلبس السيد أندروز ما يقابله في يومنا الحاضر مئزر «قبّل الطاهي»[396] ولكن في خمسينيات القرن الثامن عشر. وكان يملك كل شيء يمكن رؤيته في اللوحة – مزرعة أوبيريز، وهي مزرعة عائلته في سدبيري، إسيكس، كما يمكن مشاهدتها من «بعد 100 ياردة من الجنوب الشرقي للمنزل باتجاه غابة كورنارد على جانب سفوليك من وادي ستور».[397]

كانت هذه العزبة نتيجة للميراث والاستثمار. فقد كان والد روبرت أندروز، والذي يدعى روبرت أندروز أيضاً، صائغ فضة، ومصرفيًّا ناجحًا جداً. وكان ضمن المدينين الكثر لأندروز الأب، والأكبر ديناً فيهم، هو فريدريك، أمير ويلز، والذي منحه أندروز قرضاً بقيمة 30 ألف جنيه إسترليني (ما يعادل اليوم 604 مليون دولار).[398] وتشكل لوحة غينسبورو لمحة عن علاقات المال الرخيص،

---

(395) Gold 1984; Prince 1988; Rose 1993; Berger 2008.

(396) ملاحظة من المترجم: مئزر «قبّل الطاهي» كناية عن الغلو في اللبس.

(397) Belsey 2013.

(398) Corri 1983.

وتحول النقد إلى حرب، ومن ثم إلى نقد مجدداً، ولذا فهي لوحة تصور الملكية، التي تم شراؤها من غنائم بوتوسي المستخرجة من الأرض قبل ذلك بقرن من الزمان. وكانت عزبة أوبريز تضم أراضي عائلة أندروز وعائلة زوجته، فرانسيس كارتر. وفي الوقت الذي جلس فيه غينسبورو ليرسم لوحته، لم تأت عمولاته من النبلاء فحسب، بل أيضاً من طبقة جديدة من سكان المدينة الأثرياء، والذين لا علاقة لهم بالأرستقراطية، والذين بُنِيَت ثرواتهم عبر دورات جديدة من التراكم والنهب والتي بدأت منذ ثلاثة قرون فحسب.

صورة 2. توماس غينسبورو، السيد والسيدة أندروز، حوالي 1750م. المعرض الوطني، لندن.

ويذهب بعض المعلِّقين إلى أن اللوحة غير اعتيادية، فهيَ تشكل دراسة لعائلة أندروز وأراضيها. فهي تصوّر مزرعة في تخم للتقنية الزراعية. وكان أندروز خبيراً زراعيًّا له كتابات في مجلة Annals of Agriculture، تحت عناوين مثل «حول ربح الفلاحة» و«حول السخام في القمح».[399] كما أن الحبوب هنا مرتبة في خطوط

(399) Belsey 2013.

مستقيمة. فقد تكون قد زرعت باستخدام بذارة الحبوب،[400] التي اخترعها جيثرو تول في 1700م مع إنها لم تشتهر إلا في منتصف القرن التاسع عشر. وتعمل هذه التقنية في حل مشكلات تظهر عندما تبدو الزراعة في الأرياف شبيهة بالصناعة في المدينة: في محاولة تحقيق أمثل توازن فيما بين العمل، والآلات، والمدخلات، والأسواق.

يطرح غينسبورو فكرة أخرى في ما يتعلق بالعلاقة بين روبرت وزوجته فرانسيس. ففي حين أنه يمتلك كل ما يستعرضه في اللوحة، يقف مسترخياً إلى شجرة، وبندقيته مسندة إلى جانبه، تجلس هي في وضع مستقيم، يداها في حجرها على جزء غير مكتمل من اللوحة. وقد أشار البعض إلى أن غينسبورو كان يعتزم أن يضم في اللوحة صورة فلاح مرميٍّ برصاص السيد أندروز، يسترجعه كلبه.[401] بينما خمن آخرون أن هذا المكان كان لأندروز الرضيع الذي كان سيضيفه لاحقاً.[402] وفي كلا الحالتين، كانت فرانسيس أندروز شبيهة بجزء من الممتلكات، مسيجة كما الأرض التي يمتلكها زوجها، ومستأنسة كما الكلب بجانب زوجها.

عرف غينسبورو روبرت أندروز الابن إذ عاش في المنطقة ذاتها ، ومن المرجح أنهما التحقا بنفس مدرسة النحو في ذات الفترة. وعلى الأرجح أنه كان يدرك حجم ثروة أندروز الأب، وربما حاز على دعمه أيضاً، بحكم معرفته بأن هذا القدر من الثراء الفاحش بعيد عن متناوله.[403] وربما لهذا السبب يرى بعض المعلقين في تصويره للسيدة أندروز ازدراء في نظرتها للمشاهد، والتي تخبرنا، وإن كانت جزءاً من الممتلكات، أننا دون مستواها.[404]

تلك هي علاقات السلطة التي ترافق عادات وتقنيات مزارع المحصول الواحد القائمة على القمح، وهي علامات الاسئناس الكبير. لا تقدم لوحة غينسبورو

---

(400)Belsey (2013) لا يوافق. مع إن الحقيقة هي أن أندروز كان مزارعاً ناجحاً ومثابراً.

(401). Postle 2002, 16

(402). Rose 1993

(403). Corri 1983

(404). Stoneman 2015

درساً تاريخيّاً فحسب، بل خبراً معاصراً: فهي وصف للتغيرات الاجتماعية التي يجري فرضها، ومعارضتها حول العالم اليوم. وذكر الاقتصادي الهولندي، إستر بوزراب، إذ يُناقش العلاقات الاجتماعية التي نشأت في ذلك الوقت، اقتباساً إسلامياً «منسوب إلى النبي بذاته أن المحراث لا يدخل مزرعة إلا دخلتها العبودية أيضاً».[405][406] فإذا ما أدركنا الدمار الذي لحق المشاعات بسبب التسييج، وفهمت العلاقات الجديدة بين إنتاج البشر وإنجابهم، فسيمكننا حينها حل أحجية المحراث الكاره للنساء.[407] وليس علينا إلا أن نعود بالزمن إلى الوراء، لا إلى ما قبل مائتي عام، بل قبل ذلك بكثير حتى نكتشف كيف أصبحت الحراثة تقليداً في بداية الأمر، تغذيها عظام الأنظمة الاجتماعية التي دمرتها.

الأمولة وميراث المرأة

وضعت تقاليد التحكم الجديدة المرأة في موقف صعب، لا سيما في إنجلترا. إذ ينص القانون هنالك على الولاية – وهي وضع المرأة المتزوجة بشخصها وممتلكاتها تحت سلطة زوجها. ففي حين أن الغالبية العظمى في أوروبا كانت تعترف بثلاثة أنواع للمتلكات في الزواج – ميراث، وميراثها، والممتلكات التي تُحَصَّل أثناء فترة الزواج – كان القانون الإنجليزي يعترف بنوعين فقط: ميراثها من الأرض ذات الملكية الحرة، وميراثها كل شيء آخر، والذي يمكن للأرملة أن ترث منه الثلث فقط. واستمرت الولاية على المرأة من العصور الوسطى حتى القرن التاسع عشر. وكانت للولاية سلطة قوية في حرمان المرأة من حقوقها وهويتها حتى إن الناشطين ضد هذا القانون كان يسمونه «الموت المدني». ومن هذه المؤسسة نشأت فكرة اتخاذ

---

(405) Boserup 1970, 34.

(406) ملاحظة من المترجمة: ربَّما المقصود هو هذا الحديث: عن أبي أمامة الباهلي، قال: ورأى سكة وشيئا من آلة الحرث، فقال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يدخل هذا بيت قوم إلا أدخله الله الذل».

(407) McKeon 1995. أنظر أيضاً Snell 1987 والذي يشير ماكيون إلى أن بياناته تأتي حصرياً من جنوب إنجلترا.

المرأة اسم زوجها لقباً لها. وصحيح أن الزوجات في الطبقة الوسطى كانت لهن سلطة على من يعمل في منازلهن وغيرهم من أشكال الحياة. (كان أحد الشعارات في كتيبات للتدبير المنزلي في القرن السابع عشر هي «إنجلترا هي جنة المرأة، وسجن الخادم، وجحيم الخيل»).[408] وعلى الرغم من ذلك كان أهل بنات البرجوازية يشعرون بالقلق. فما الذي كان سيحدث للثراء وأسلوب الحياة التي عودوا عليها بناتهم بعد تزويجهن؟ ماذا لو كان أزواجهن عديمي الفائدة؟ وماذا سيحدث إذا ما كان الأزواج لائقين ولكنهم ماتوا في شبابهم؟

تتجه الإجابات عن هذه الأسئلة نحو تفسير الأوساط المالية الحديثة، كما يشير تحليل فعّال للكاتبة أيمي لويس إيريكسون.[409] ففي زمن مطاردة الساحرات، كان التمرد العلني ضد الولاية أمراً ينطوي على المخاطرة. ومن أجل البقاء والمقاومة بشكل أقل مجاهرة، تأقلم الإنجليز مع قوانين التعاقد التي سمحت للمرأة بالاستعداد لتأمين نفسها مادياً، وللأطفال تحت الولاية من الحصول على الدخل للأسر التي كان لا بد لها من دعم الأرامل كي تضمن عودة ثروتها. ومع أن هذه الترتيبات لم تكن مالية بحد ذاتها، إلا أنَّ إريكسون تدفع بأنها «ساعدت في خلق مناخ يكون فيه مفهوم التأمين القانوني للمفاهيم النَّظرية للملكية بديهياً».[410] وكان ذلك أمراً أساسياً بشكل خاص للمرأة البرجوازية غير المتزوجة – إذ مكَّنتها قدرتها على الحصول على المال من المشاركة في عمليات المضاربة التي أنشأتها الرأسمالية. كما تشير الأدلة إلى أنَّهُ في الوقت الذي كان فيهِ الرجال يفلسون في الفقاعة المالية في بحر الجنوب، تصدرت النساء اللاتي انضممن إلى هذه المضاربات الحامية.[411] ولئن كانَ من الأهمية بمكان عدم تضخيم هذا الأمر – إذ إن سوق الأسهم لم يكن كبيراً للغاية – فمن الجدير بالذكر أن البنية التحتية

---

(408) Platter 1937, 181-82، مقتبس في Amussen 1988, 48.

(409) Erickson 2005.

(410) المصدر السابق، ص5.

(411) Carlos, Maguire, and Neal 2006.

القانونية والثقافية للأدوات المالية اليوم، ولخيارات القيمة والمشتقات المالية، قد أنشأت لتقييد خسارات المرأة البرجوازية عبر الأسرة المعيشية. إذ لم يكن هدف الأسرة النواتية الجديدة مشاركة المرأة غير المتزوجة في الأسواق المالية بالطبع. ولكننا نستعرضها مثالاً على عدم إمكانية اختزال الطبقة الاجتماعية في أحد الجنسين، ونستعرضها أيضاً باعتبارها مثالاً آخر على أهمية الصُدف التاريخية الغريبة في تشكيل الرأسمالية الحديثة.(412)

أما بالنسبة إلى النساء اللاتي لم يكنّ ليصبحن جزءاً من الطبقة المستثمرة، فقد قدم لهن الزواج احتمالات أخرى. فمع تزايد البطالة في القرن السابع عشر، تزايدت حوافز المرأة للزواج لتجنب الفقر.(413) بيد أنه حتى مع تزايد الضرورات الاقتصادية التي تدفع المرأة لاختيار الزواج تزايدت أيضاً الفلسفة المصاحبة لها والتي تصف هذا الخيار بأنه **غير مكره**. ويعكس هذا الأمر بالطبع علاقات العمال تحت مظلة الرأسمالية، والذين كانوا بحاجة إلى أن يبدوا أحراراً حتى وإن تقلصت حريتهم إلى مجرد اختيار العمل مقابل أجر زهيد، أو الموت جوعاً، أو الخدمة في سجن دائنيهم. وكان أحد أهم المنظرين في هذا العالم الجديد بالطبع هو آدم سميث، إذ كانت لديه هو أيضاً أفكار حول الأسر والزواج، حتى وإن كانت خبرته العملية محدودة. إذ لم ينجب سميث الأبناء ولم يتزوج. وعاش مع والدته، مارغريت دوغلاس، التي رعته معظم حياته البالغة بصفته هو من يعيلها. وكان والد سميث قد توفي قبل ولادته، فورث دوغلاس ثلث أملاكه فقط. وجاء سميث إلى مزرعة أبيه وهو في الثانية من عمره. وتفسر قوانين الولاية السبب في أن دوغلاس كانت تعتمد مالياً على طفلها بعد موت زوجها.(414)

وفي كتابه «نظرية المشاعر الأخلاقية» الذي صدرت في نسخته الأولى في عام 1759م استند سميث إلى معرفته بطبيعة الزواج لدى الشعب الأصلي في أمريكا

---

(412) Eisenstein 1979.

(413) Hill 1989.

(414) Rae 1895; Marçal 2015.

الشمالية، والذي كان عبارة عن عقد يقوم كبار العائلة بترتيبه بدلاً من أن يبرمه الزوج والزوجة فيما بينهما طوعاً. ولماذا لم يكن أفراد العائلة الشعب الأصلي يتزوجون طوعاً؟ كان السبب، حسب سميث الذي ردّ صدى لغة كولومبوس القائمة على التمييز الجنسي هو «أن ضعف الحب... يعتبر في أوساط الهمجيين أكثر أنواع التخنث التي لا تغتفر».[415] وذلك منطق مستغرب، ولكنه ساعد في توضيح مراده: أن أفضل أنواع الزواج هو النوع الذي كان يحدث في بريطانيا، حيث يختار كل من الرجل والمرأة الآخر باعتباره مساوٍ له في المحبة. ولا عجب أن الرجل الذي يعتبر في كثير من الأحيان حجر الأساس لحرية السوق الحرة كان قد احتفى بالحرية في الحب الخاص، أو أنه كان يبرر ذلك النموذج عبر دونية الهمج، والحضارات الطبيعية. ولكن الأمر لا يزال مثيراً للتهكم بعض الشيء أن أكثر علاقة حب كانت في حياته هي علاقته بوالدته.

اختراع المرأة

حتى يزدهر النظام الرأسمالي الجديد، كان لا بد من استئصال النظام القديم. بذلكَ دُمِّرت شبكات القرابة التي كانت تدعم النساء، والرجال، والأطفال، خارج الأسرة النواتية، تماماً كما دُمِّرت المشاعات.[416] وتم تحويل الأسرة والعلاقات التي كان بإمكانها توفير قوت أسر بأكملها وإضفاء الطابع المهني عليها. فبدلاً من أن تؤدي النساء عمل التعليم في المدارس، جرى تطويقهن في حضانات الأطفال. وحل الجراحون – الذكور – محل القابلات.[417] واقتصر النشاط الاقتصادي للمرأة – بقدر ما كان مسموحاً به – على الحيز المنزلي، وهو نطاق كان محظوراً على السياسة. قاومت المرأة. وقد بدأت الثورة الفرنسية بالنساء اللاتي تظاهرن من أجل الخبز على سبيل المثال. إلا أنَّ منطق إيكولوجيا الرأسمالية استلتزمت تقليص وإخراس تاريخ المرأة، ونشاطها، ومقاومتها. وحكم الرجال

---

(415) A. Smith (1759) 1976, 240-41.

(416) D. Smith 1993.

(417) Bloch 1978.

المناول، وحكم المواطنون النطاق العام – ولكي تكون مواطناً كان لا بد أن تكون رجلاً أبيضَ صاحب أملاك.[418]

ولكي ينجح هذا النظام، تنامى لدى الدولة اهتمام بالغ بفرض تصنيفي الرجل والمرأة. وكان التدخل الجراحي كفيلاً بأن يحول الأجساد التي لم تتلاءم تماماً مع أحد التصنيفين.[419] وحيث لم يوجد هذين التصنيفين، كان لا بدَّ من ابتكارهما. فعلى سبيل المثال، كان الأمر أساسياً في الاستعمار البريطاني لنيجيريا أن يجري تحويل الترتيبات المنزلية، وخلق الحيز المنزلي، وابتكار التصنيف القانوني للمرأة. ورغمَ الأهمية البالغة لقرابة الدم في المجتمع النيجيري والكثير من المجتمعات الأخرى وما يترافق معه من تسلسلات هرمية خاصة به، والتي ترفع المرأة في كثير من الأحيان إلى منزلة أعلى مما ستكون عليه في أسرة نواتية – إلا أنَّ القرابة التي لها أهمية في القانون للمواطنين الأحرار هي الزواج.[420] وكما يشير أويرونكي أويومي، «لم تكن هنالك نساء في مجتمع يوروبا حتى وقت قريب. بل كانت هنالك بالطبع الأنثى obìnrin، والتي لم يعطها تكوينها الجسدي، تماماً مثل الذكر، الامتياز في تبوّء أي منزلة اجتماعية، وبالمثل لم يعرّض نيلها لأي منزلة للحظر».[421] ويسترتسل أويومي قائلاً:

«كان خلق تصنيف «المرأة» أحد أول إنجازات الدولة الاستعمارية... ولذا ليس من المفاجئ أن يكون الأمر مستحيلاً بالنسبة إلى الحكومة الاستعمارية أن تعترف بالقائدات في أوساط الشعوب التي استعمرتها، مثل شعب يوروبا... وقد تحقق تحويل سلطة الدولة إلى سلطة ذكورية عبر إقصاء المرأة من الهياكل التنظيمية للدولة. كان ذلك مناقضاً تماماً لتنظيم الدولة في يوروبا والتي لم تكن السلطة فيها قائمة على جنس واحد».[422]

---

(418) Connell 1990, 511.

(419) أنظر على سبيل المثال Barbin 1980; Herdt 1994.

(420) Sudarkasa 1986; Mamdani 1996.

(421) Oyěwùmí 1997, 78.

(422) المصدر السابق، ص 124-25.

ومثلما قيد المستعمرون الإسبان المغامرات الجنسية لشعب المايا، طالب المستعمرون البريطانيون بالولاء والطاعة لنموذجهم الخاص من النظام الجنسي والسلطة، وهو نموذج أنشأ تصنيفاً قانونياً للمرأة ووضعها في المنزل الذي كان بمثابة معمل لإنجاب اليد العاملة.[423] بيد أن استخدام مصطلح «المعمل» يعطي صورة مشوهة عن النظرة تجاه الأعمال المنزلية. إذ اعتبرت الأعمال المنزلية تماماً خارج نطاق العمل مدفوع الأجر، وهي خدمة صنعتها المرأة للرجل، مثل الهدايا المجانية التي قدمتها الطبيعة للمؤسسات التجارية.

نشأت الأساسيات الثقافية لهذا المنظور حول المرأة من الاستعباد عبر الأطلسي للمرأة الإفريقية، وذلك حسب ما وثقته جنيفر مورغان وغيرها.[424] إذ اتبع النخاسون والمستكشفون منطق سرد دي كونيو عن رحلة كولومبوس الثانية، والتي صورت المرأة من الشعب الأصلي وكأنها جنسانية بشكل خارق للطبيعة، وأنها تنتمي إلى مجتمعٍ خارج حدود المجتمع السليم – أي أنها كانت أقرب إلى الطبيعة. وفي محور هذه الفكرة نجد الخصوبة الوحشية. وقد ذكر جون أتكنز، وكان من مناهضي العبودية، عن النساء الغينيات أنهن كن منخرطات في البهيمية، وكانت لهن أثداء كبيرة حتى إن «المرء يمكنه الرضاعة من وراء ظهورهن».[425] كما ذكر غيره من المستعمرين نساءً كان بإمكانهن الولادة دون ألم. ومع العبودية، اختلط الاندهاش بضرورات جديدة – مثل إنتاج المزيد من العبيد. وهكذا أصبح العبيد من النساء أداة مالية ليس فقط من أجل سداد الديون فحسب، بل أيضاً لتوليد الربح: وقد خصصت بعض النساء في باربادوس في خمسينيات القرن السابع عشر ليكن «مزيّدات»، أي أجسادًا يمكن من خلالها إنتاج المزيد من العبيد، وهكذا يتم تعويض الحمل المالي المترتب على إعالتهن. بالإضافة إلى ذلك، قدمت هذه الخصوبة بشكل طبيعي استعداداً مسبقاً لتربية الأطفال، وهي مهارة وجدت

---

(423) Connell 1990, 521.

(424) Morgan 1997. أنظر أيضاً K. Hall 1996a.

(425) Atkins (1735) 1970, 50, مقتبس في Morgan 1997, 188.

طريقها إلى الكثير من إعلانات العبيد الذين تم بيعهم للأسر البرجوازية البيضاء التي كانت تبحث عن عمالة منزلية.[426]

كان احتمال المقاومة موجوداً دائماً. ففي بداية المشروع الاستيطاني للمستعمر في أمريكا الشمالية، هيمنت النساء من الشعب الأصلي على تخوم تجارة الفراء الكندية – فعملن في الوساطة اللامباشرة، واستبدلن بأزواجهن الذين كانوا قد دفعوا إليهم مهورهن أزواجاً جدداً، وأفلتن من محاولات شركات تجارة الفراء تنظيم هذه التجارة.[427] ولم تكن أسرهن المعيشية لتتوافق مع النموذج الثنائي الأبوي الذي يمتلك في الرجال النساء، وتبقى النساء في المنزل. وعلى نحو مماثل، كانت هنالك مساحات للمرأة في الولايات المتحدة للانخراط في النشاطات التجارية – باستقبال المستأجرين على سبيل المثال – شريطة أن يكون ذلك في مصلحة الأسرة المعيشية، تحت السلطة المطلقة لرجل ما في مكان ما.[428] وفي أوروبا، أصبحت النساء الهولنديات من المناطق الريفية عاملات منزليات في المدن، وشكلن المجالس، والنقابات.[429] لكن هذه المقاومة كانت تحدث في سياق كفاحات أخرى. وعندما حارب القوميون الناشئون في دول الجنوب العالمي الإمبراطوريات الأوروبية في القرنين التاسع عشر والعشرين، فرضوا حدوداً للسياسة الجنسية بحماس متزايد. وقد نشأت مفاهيم العرق، والطبقة الاجتماعية، والنوع الاجتماعي، في آن معاً في هذه التخوم، بطرق أثّرت على كل من الرجل والمرأة.[430] وتماماص كما هي حال الأبحاث المتعلقة بالعرق الأبيض، ما تزال الدراسات المتعلقة بالذكورة ومتجانساتها القانونية جديدة نسبياً، ولكنها في نمو متزايد، وثمة الكثير مما يمكن معرفته بشأن التحولات وأشكال المقاومة المحيطة

---

(426) Morgan 2004.

(427) Van Kirk 1983.

(428) Ulrich 1991; Folbre 2006.

(429) Lutz 2002.

(430) Stoler 1989.

بعلاقات القرابة تحت مظلة الذكورة المسيطرة.[431]

ما بعد المحراث

ما الذي يمكننا قوله لمن يصر على أن المحراث لم يكن هو ما حدّد مصير أعمال الرعاية؟ أنه يمكن لأي مجتمع أن يتعافى من آثار التحول إلى الرأسمالية، وفي ظروف معينة، يمكنه أن يشهد ازدهار نوع من المساواة. وقد اختصر صندوق النقد الدولي وجهة النظر هذه في تقرير صدر في عام 2016م، والذي يوضح أن مصير المرأة في طور التحسن حول العالم، وذلك حسب مجموعة من المؤشرات، بما في ذلك الصحة، والمشاركة الاقتصادية والبرلمانية، والتعليم.[432] ويربط صندوق النقد الدولي تزايد المساواة بين الجنسين بازدياد الدخل الوطني ويظل بعض التخوف قائماً تجاه ما إذا كان الثراء يؤدي إلى تحرير المرأة.

غير أن الحكاية بالكاد مباشرة. فلننظر على سبيل المثال إلى الدول التي تمتلك النفط في الشرق الأوسط وغيره لنستدل على أن نمو الدخل يكبح حقوق المرأة.[433] ولننظر أيضاً إلى بلد مثل الهند، حيث انعدام المساواة بشكل صارخ ومستمر على الرغم من زيادة بلغت 500 بالمائة في دخل الفرد الفعلي على مدى الأربعين سنة الماضية. وبالتأكيد، فقد ساعد ازدياد الوصول إلى الماء النظيف والرعاية الصحية النساء،[434] ولكن النساء والفتيات ما يزلن يعملن أكثر من الرجال، بأجر أقل وطعام أقل.[435] إذ انخفض مقدار السعرات الحرارية المستهلكة في اليوم الواحد للهنود في الأرياف بمعدل 500 سعرة حرارية على مدى الأربعين سنة الماضية، مع ازدياد معدل الإصابة بفقر الدم في الفتيات على مدى العشر سنوات الماضية.[436] وإحدى الطرائق التي يمكن من خلالها تفصيل ذلك

---

(431) Connell 1995; Strasser and Tinsman 2010.

(432) Stotsky et al. 2016, 39.

(433) Inglehart and Norris 2003.

(434) Bhattacharya 2006.

(435) Safri and Graham 2010.

(436) National Nutrition Monitoring Bureau 2012; Planning Commission 2012.

هي عبر استقصاءات استخدام الوقت. إذ تكشف استقصاءات استخدام الوقت في الهند إلى أن النساء والفتيات يقومون بعمل أكثر بكثير مما يظهر في النظام الوطني للحسابات، إذ تقضي المرأة ست ساعات أكثر من الرجل في جمْعِ الغذاء والحطب والتدبير لمنزلي. وفي حين يعمل الرجال والنساء من ذوي الدخل المتدني في عدة وظائف غالباً ما تكون ذات أجر متدني، إلا أن المرأة تظل الأقل أجراً، والأقل نوماً، والأقل في أوقات الفراغ، لا سيما إذا كانت تعيش في المناطق الريفية.[437] ولا يكمنُ السبب في كونهم «لو كانوا أكثر ثراء لكانوا أفضل حالاً». فالبلاد أكثر ثراء بالفعل، ولكن الطبقات الفقيرة والعاملة فيها أكثر جوعاً، والمرأة فيها معرضة أكثر من الرجل للسمنة ونقص الوزن.[438]

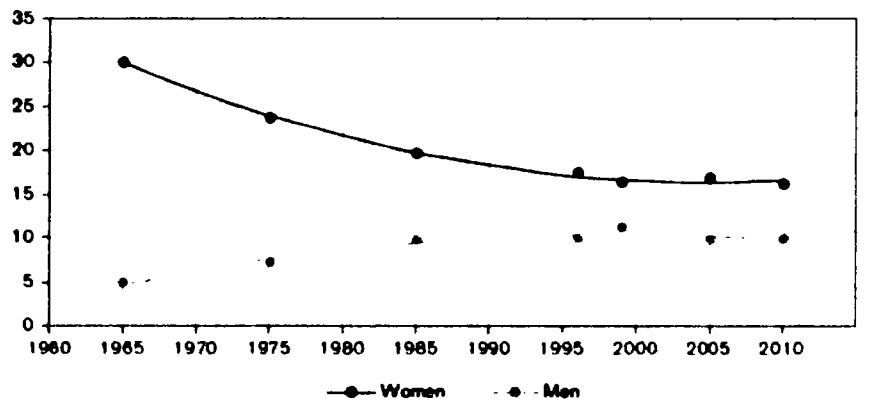

الصورة 3 . الاتجاهات السائدة في معدل ساعات العمل المنزلي الأسبوعية في الولايات المتحدة بحسب نوع الجنس للأفراد ما بين 25-64 سنة: بيانتشي وآخرون 2012، ص57-58.

في الولايات المتحدة، أشار الباحثون بشأن العمل الإنجابي إلى اتجاهات سائدة إيجابية بشكل عام في القرن العشرين، كما توضح الصورة أعلاه. إذ يساعد المزيد

(437) Hirway and Jose 2011.

(438) F. Arnold et al. 2009.

من الرجال في العمل المنزلي غير مدفوع الأجر أكثر مما كانوا يفعلون في الماضي – وإن كان السقف عشر ساعات في الأسبوع. ورغمَ أنَّهُ غالبًا ما يُعتقد أنَّ الأجهزة الموفرة للجهد مثل غسالات الملابس وغسالات الصحون كانت أجهزة خففت الحمل على المرأة، إلا إن الأمور لم تسر على ذلك النحو. فقد رفعت هذه الأجهزة من توقعات الرجل حول عدد المرات التي يجب فيها غسل الملابس من قبل المرأة.[439] وقد تطلب الأمر من حركة المرأة في الولايات المتحدة تحويل التوقعات بشأن التقسيم المنزلي للعمل، وحتى عندئذ، كما تشير روث شوارتز في كتابها «عمل أكثر للأم»، فإن العمل الذي قام به الرجال في نهاية المطاف كان هو تماماً العمل الذي جرت مكننته. في حين أن عمل المرأة استمر في كونه متطلباً أكثر من الناحية الذهنية، مع ازدياد حدة العمل متعدد المهام أكثر من عمل الرجل في المنزل، وإن كان العملان على مدى الفترة الزمنية ذاتها.[440]

عندما ناقشنا العمل الرخيص في الفصل السابق، كنا قد ربطنا الاقتصادات الريفية بالمدينة في الصلة بين المزارع العالمية والمصانع العالمية. ولم يكن العمل البروليتاري ليكون ممكناً إلا بسبب تحويل عمل الرعاية إلى عمل غير مدفوع الأجر، ومتاح باعتباره إحدى «الهدايا المجانية» للطبيعة – والتي كما رأينا سابقاً ليست هدايا وليست مجانية. ولا تستمر الرأسمالية في التسليم بعمل الرعاية فحسب، بل إنها تتوقع أيضاً أن تكون المهارات الخاصة بهذا العمل متاحة للبيع في عالم إنتاج السلع. ولذا فإن الأفكار القائمة على التمييز بين الجنسين تقود إلى أن تكون المرأة مطلوبة – ومرخصة – لبراعة أصابعها، واهتمامها برعاية الآخرين، وسجيتها المساندة (على سبيل المثال) من قبل هؤلاء الذين يرغبون في توظيف عملات رخيصات من أجل مصانع التجميع، ومراكز الاتصال، وصناعة رعاية التمريض، إذ جرى تدريب تلك العاملات عبر عمر من الرعاية الرخيصة، ومن

(439) Kenyon 2010 . Cowan 1983; Bittman, Rice, and Wajcman 2004.

(440) S. Offer and Schneider 2011 .

المتوقع منهن امتلاك مهارات معينة «لأنهن نساء».[441]

لا تقتصر التوقعات القائمة على الاختلاف الجنسي على المهارات المكتسبة من أعمال الرعاية فحسب، بل تشمل أيضاً التوقعات المتعلقة بالمرونة. وقد يبدو الأمر وكأن طبقة البركاريا - وهم العمال الذي يفتقرون إلى الأمان الوظيفي، والرواتب التقاعدية، والجهات التنظيمية المرتبطة عادة بالعمال الصناعيين في منتصف القرن العشرين في دول الشمال – تخوض أمراً جديداً.[442] غير أنه لطالما كانت قابلية التنقل، والمرونة، والوجود الدائم من السمات المتأصلة في أعمال الرعاية، ويكمن أصل الأعمال غير الثابتة في التقدم الذي اتسمت به بيئة العمل الرأسمالية من الناحية اللوجستية وفي الأنظمة السابقة للرعاية غير مدفوعة الأجر. كما يمكن تفسير اقتصاد الأعمال الحرة باعتباره امتداداً لمجالات عمل الرعاية المنتشرة في كل العالم العملي.

يبقي النمو في اقتصاد الرعاية أعمال الرعاية رخيصة بشكل هيكلي – وهو نمو يقدر بسبعين بالمائة بين عامي 2012م و2022م في الولايات المتحدة وباتجاهات عالمية مشابهة.[443] ولكن اقتصاد الرعاية الأمريكية لم يكن ليبدو بهذا الشكل لولا حركات العاملين في الرعاية في أجزاء أخرى من العالم. ويشكّل اقتصاد الرعاية في أمريكا إيكولوجيا عالمية وممتدة، قائمة على التمييز العرقي، بدءاً من بيع النساء للعمل مرضعات، ووصولاً إلى هجرات العاملين في الرعاية الرخيصة من دول الجنوب إلى دول الشمال العالمي في الوقت الحاضر.[444] وفي بعض الحالات يكون هذا العمل إنجابياً بالمعنى الحرفي. وقد أدّى التقدم في مجال تقنيات الخصوبة إلى طفرة في الطلب على تأجير الأرحام. وتعتبر الهند أكبر سوق للأرحام، حيث أن الخدمة التي قد تكلف 80 ألف – 100 ألف دولار في دول الشمال، يمكن إجراؤها بمبلغ يتراوح بين 35 ألف – 40 ألف. في صناعة من المتوقع أن تحصد أرباحاً تتجاوز 2 مليار دولار في الهند

(441) Tsing 2015, 66; Wright 2006.

(442) Standing 2016.

(443) Yeates 2005; ILO 2015; Maybud 2015.

(444) Glenn 1992.

فقط.[445] وقد ازداد تخم الرعاية الرخيصة عمقاً واتساعاً مع نشأة شبكات دولية ضخمة من مقدمي خدمات الرعاية تقوم بتحويل الأموال عبر الحدود للمساعدة في إعالة الأسر في مكان آخر. ولطالما قامت الأسرة المعيشية العالمية بالعمل الذي مكّن إنشاء المصنع العالمي والمزرعة العالمية.

تضمنت إحدى ردات الفعل المتطرفة تجاه انخفاض القيمة الأساسي لأعمال الرعاية حركة لتسعير المصارعة اليابانية (الجوجيتسو)، ومطالبة لجعل الأعمال المنزلية مدعومة الأجر. وكما أكدت حملة الأجور للأعمال المنزلية في السبعينيات فإن «استعباد خط التجميع لا يعد تحريراً من استعباد مغسلة المطبخ. وإنكار ذلك يعني إنكار استعباد خط التجميع بحد ذاته، وهو ما يثبت مرة أخرى أن الجهل باستغلال المرأة يمنع حقاً معرفة استغلال الرجل».[446] وتكمن المفارقة هنا بالتأكيد في وجود تاريخ طويل لنساء كان يدفع إليهنَّ القليل، إن كان يدفع إليهنَّ أصلاً، مقابل عمالتهنَّ المنزلية: وهن النساء العاملات في ظل العبودية. ولا يتكرر هذا الأمر في الولايات المتحدة وحدها فقط، حيث يعاني مقدمو الرعاية من مختلف الطبقات، والطوائف، والأمم أيضاً، من الاستغلال على نطاق واسع في بلدان أخرى أيضاً.[447] وحتى لو كان الأجر سبيلاً للاعتراف بهنَّ، ما زال هنالك كثيرات يسعينَ إلى نيلِ كرامتهنَّ. وحسب أنجيلا ديفيس فإن «التحرر النفسي لا يمكن بلوغه بسهولة بمجرد دفع الأجور لربات المنازل».[448] بيد أنَّه لا بد من عدم نسيان أمر الأجور. إذ إن مطالبة الرأسمالية بدفع الأجور مقابل الرعاية هو بمثابة المطالبة بإنهاء الرأسمالية.

إذا كان إدخال المال في هذه العلاقة الإيكولوجية لا يضمن النجاح، فلربما تكون المنهجيات الأكثر جماعية ناجحة. ومع أن الدول كانت موجودة منذ نشأة الأسرة المعيشية الحديثة، إلا أنَّ دورها في إدارة الرعاية ازداد بشكل كبير بعد الحرب العالمية الثانية والنضال من أجل إنشاء دولة الرخاء.[449] وقد قدمت دولة الرخاء تلك – لا

---

(445) Rudrappa 2015.

(446) Dalla Costa and James 1973, 40.

(447) Yeates 2009.

(448) A. Davis 1983, 373.

(449) Piven 1990.

سيما في أوروبا الغربية – مكتسبات ملموسة للطبقات العاملة في الرعاية الصحية، والتعليم، والتقاعد. بيد أنَّ إدارة الدولة لعمل الرعاية ليس مساوياً للتحرير من هذا العمل.[450] وكما أشار غويندولين مينك، فإن النضال من أجل حقوق المرأة بدأ من حيز الأمومة، وأن ال«الانتصارات» المصاحبة «جعلت الأمومة حالة اجتماعية بدلاً من المواطنة».[451] كما أشارت كارين أورين إلى أن قانون العمل بشكل عام وعمل الرعاية بشكل خاص هما مجالات من «الإقطاعية المتأخرة».[452] وعلى سبيل المثال، في عام 2015، حصل عمال الرعاية في الولايات المتحدة على الاعتراف بهم باعتبارهم عمالاً بموجب قانون معايير العمل العادل لعام 1938م، وهو نتيجة للنقابة والتعاون.[453] وبعبارة أخرى، فإن أحد متطلبات إخراج إيكولوجيا المحراث من إيكولوجيا الرأسمالية هو الالتزام تجاه المشاركة في النضال السياسي، وليس انتظار ارتفاع المدخول كما يأمل صندوق النقد الدولي.[454]

إن النضال من أجل الاعتراف بأعمال الرعاية، ودعمها ماديا، وتقليلها في ظل الليبرالية الجديدة يصبح أصعب بكثير في ظل القومية الاقتصادية اليمينية. ففي عدد من بلدان شمال العالم – ليس في الولايات المتحدة فقط – أدت صعوبات إيجاد العمل الآمن في ظل برامج التقشف إلى عيش الأبناء البالغين مع أهاليهم حتى الثلاثينيات من العمر. ولا يجبر التقشف النساء على رعاية أبنائهن البالغين فحسب، بل رعاية والديهم الكبار في السن بشكل متزايد. وكما تشير إيفيلين ناكانو، فإن النساء الأمريكيات الآن، يقضين وقتاً من حياتهن في رعاية والديهم من كبار السن أكبر من الوقت الذي يقضينه في رعاية أبنائهن (17–18 سنة).[455] وقد اشتدت وطأة علاقات الرعاية التي يتحملنها بسبب انخفاض القيمة الحقيقية للمعاشات التقاعدية، والتي تتزامن مع استنزاف الأصول في دولة الرخاء. ودائماً ما تأتي القومية،

---

(450) Wakeman 1868, 29.

(451) Mink 1990, 93.

(452) Orren 1991.

(453) Rolf 2016.

(454) Rosen 2000; Fraser 2012; Goldberg 2014. أنظر Schlozman, Burns, and Verba 1999.

(455) Glenn 2010.

كما سنرى في الفصل السابع، مع منطق مرافق لها متعلق بالحياة العائلية والتدبير المنزلي. ومن المفهوم بشكل تام للأسف أن المكتسبات التي ظفر بها العاملون في الرعاية على مدى السبعين سنة الماضية قد تنقلب سريعاً على مدى العقد القادم.

ومع ذلك تستمر معاناة التحرر والمقاومة – والتي تقودها جماعات من نقابات عمال الجنس إلى جماعات الرعاية المنزلية – ضد أشكال الهيمنة التي تشبه بشكل مخيف تلك الأشكال التي كانت سائدة في مطلع إيكولوجيا الرأسمالية. وتشير الدراسات حول الاتجاهات السائدة في النمو المهني الدولي في مطلع آخر ركود اقتصادي إلى ارتفاع مهول في العمل القائم على التمييز بين الجنسين – في نقلة باتجاه عالم يخصص التجنيد للرجل والتمريض للمرأة.[456] ويجري هذا العمل تحت ظروف يستمر فيها استخدام العنف بمثابة تعليم بالقسوة. وكما تشهد بذلك الارتفاعات الأخيرة في الوحشية ضد النساء.[457]

إذا ما نجح الكفاح من أجل الاعتراف بأعمال الرعاية، وتوزيعها بشكل عادل، وتقليلها، وتعويضها ماديا، فإن ذلك سيشكل إشارة باعثة على التفاؤل على نهاية الطبيعة الرخيصة – وتحولاً باتجاه تقديرات قائمة على أعمال الرعاية، وليس الاستغلال. إذ أن تصوّر عالم يسوده العدل في قطاع أعمال الرعاية لا يعني عالماً ينشأ بعد نهاية الرأسمالية. ولكن في الوقت الذي تستمر فيهِ الرأسمالية، نجدُ أنَّ رخص العمل الإنجابي قائم بالتالي على غيره من الأشياء الرخيصة. وكما تتطلب إيكولوجيا الرأسمالية الرعاية الرخيصة لتضمن العمل الرخيص، فإنها أيضاً تتطلب الوقود من أجل أجساد العمال، للمحافظة على النظام الاجتماعي. ولذا ننتقل للحديث عن الغذاء الرخيص.

(456) Falquet 2006.

(457) Segato 2014; Federici 2008.

الفصل الخامس

الغذاء الرخيص

في رحلته الأولى إلى العالم الجديد، أعار كولومبوس اهتماماً للعوائد المحتملة من بيع النباتات الجديدة أكثر بكثير من الطعام الذي كان يتناوله. فعلى متن السفن نينيا، وبينتا، وسانتا ماريا، كان النظام الغذائي يتبع بروتوكولاً صارماً للغاية إلى درجة أنه لا يرد ذكره في سجلات السفينة لأول شهرين من الرحلة.[458] وظهر موضوع الغذاء بعد يومين من الاتصال الأول بالجزيرة عندما كتب كولومبوس عن رجل عجوز جاء على متن السفينة، وصرخ منادياً رفقاءه على الشاطئ لكي يحضروا الطعام والشراب للبحارة. وسمح كولومبوس لنفسه بالقيام بقوس السياحة الغذائية بعد ذلك بشهر، في الخامس من نوفمبر، عام 1492م، عندما قام بتجربة بعض الطعام المحلي، فذكر أن لدى الشعب الأصلي، «ثمار تشبه الجزر ومذاقها مثل الكستناء؛ كما أن لديهم فاصوليا وبقول بأنواع لا تشبه ما لدينا». بيد أن كولومبوس لم يكن هناك لتجربة الطعام. ويبدو الجزء الأكبر من ملاحظاته كالآتي: «هنالك ألف نوع آخر من الفاكهة، والتي يستعصي علي أن أكتب عنها، ولا بد أنها جميعها مربحة».[459]

لم تكن حصصه الغذائية اليومية (البسكويت المصنوع من القمح والمخبوز مرتين) ومجموعة من اللحوم المعالجة والأجبان – مهمة بشكل كافٍ ليضمنها في مذكراته. غير أنَّه في طريق العودة للبلاد، في 25 يناير 1493م، ذكر أن «البحارة قتلوا دلفيناً، وسمكة قرش كبيرة جداً، وكان أمراً جيداً للغاية حيث لم يكن معهم

(458) Mariana-Costantini and Ligabue 1992.

(459) Columbus 2003, 139.

سوى الخبز والنبيذ، وبعض البطاطا من الأنديز».[460]

هذا النوع من الغذاء الذي يقوي الأجسام البشرية العاملة هو محور نقاشنا في هذا الفصل. كانت ثورة السكر في ماديرا أمراً أساسياً وجزءاً أولياً في إيكولوجيا الرأسمالية، وكان كولومبوس هو من أحضر النبتة معه للعالم الجديد، بحيث أنَّها بحلول عام 1506م كانت واسعة الانتشار ومزروعة بشكل كبير في جزيرة إسبانيولا.[461] ولكن الغذاء المهم في تلك القصة ليس السكر المكرر الذي نقله كولومبوس وغيره من ماديرا إلى جنوى، بل غذاء البحارة والأسر المستعبدة، والقوت الذي سمح بانتزاع العمل الرخيص.[462]

تشكّل أنواع المحاصيل أهمية بالنسبة إلى التربة وإيكولوجيا البشر. لا يمكننا الحديث عن الغذاء بشكل عام، ولكننا في حاجة إلى أن ندرك خصائصه وكيف شكلت المحاصيل المختلفة الإيكولوجيا الخاصة بها. إذ أدت محاصيل الرز، والذرة، والقمح - «نباتات الحضارة» بحسب فيرناند بروديل[463] – إلى أشكال مختلفة جداً من السلطة، والعمل، وفن الأكل والطبيعة:

اختارت أوروبا القمح، الذي يلتهم التربة ويجبرها على الراحة بانتظام؛ وقد سمح هذا النظام بتربية الماشية. من يمكنه الآن تصور تاريخ أوروبا من دون الثيران، والخيول، والمحاريث، والعربات؟ ونتيجة لهذا الاختيار، لطالما جمعت أوروبا بين الزراعة وتربية الحيوانات. أمَّا الأرز فقد تطور نتيجة لشكل من أشكال البستنة، وهي زراعة مكثفة لم يدع الإنسان معها أي مجال للحيوانات. وهذا يفسر كون اللحوم جزءاً ضئيلاً من النظام الغذائي للمناطق التي يُزرع فيها الأرز. وبالطبع فإن زراعة الذرة هي الطريقة الأبسط والأنسب لحصول المرء على «الخبز اليومي». إذ تنمو بشكل سريع، وتتطلب الحد الأدنى من العناية. وقد ترك اختيار

---

(460) المصدر السابق، ص 232-33.

(461) Ratekin 1954.

(462) Solow 1987, 718.

(463) Braudel 1981, 256.

الذرة محصولاً زراعياً ووقت فراغ كبير أدَّى إلى إجبارِ الفلاحين على العملِ بالإكراه، كما تركَ صروحاً هائلة للأمريكيين الهنود. وحصل المجتمع على قوة عاملة فَلَحت الأرض بشكل متقطع فقط.[464]

ورغمَ ارتباطِ الرأسمالية في معظم الأحيان بثورات الفحم والوقود، إلا أنَّ التحولات في نظام الغذاء جاءت أوَّلاً. فمن دون فائض الغذاء، لن يكون هنالك عمل خارج نطاق الزراعة. وكانت كل الحضارات المعروفة – السومريون، والمصريون، وسلالة هانز، والرومانيون، والمايا، والإنكا – قد نشأت وازدهرت من خلال الثورات التي سمحت لعدد أقل من الأشخاص بإنتاج كمية أكبر من الغذاء. إن تنوع علاقات الغذاء على مدى التاريخ البشري من ثورة العصر الحجري الحديث إلى مطلع القرن السادس عشر أمر مثير.[465] إلا أنَّ جميعها تشترك في خاصيتين اثنتين: نظام للإنتاج الزراعي قائم على الأرض وليس القوة العاملة، ونظام للتحكم بفائض الغذاء عبر السياسة وليس السوق.

أحدثت الزراعة الرأسمالية تحوُّلاً في الكوكب. فقد أصبح جزء من الأراضي حكراً على أنواع معينة من المحاصيل وأنظمتها: وهي الزراعات الأحادية المصممة بهدف در المال. أما الجزء الآخر من الأراضي فقد خصص لإيواء هؤلاء الأشخاص الذين طردوا من العمل في زراعة تلك الأراضي، فذهبوا للعيش بقرب بعضهم بعضاً في أماكن قد يكون الأجر فيها مقابل عملهم أفضل – وهي المدن. وكانت المدن والحقول مرتبطة بعضها ببعض منذ وقت طويل، تربطها ضرورة أبدية أخرى: الغذاء الرخيص للفقراء في المدن. وقد أدرك الجميع، من شيشرون إلى الصين الإمبراطورية أهمية الحرص على توفير الغذاء الرخيص الكافي لسكان المدن لتجنب السخط فيها.[466] ولكن الأمر المختلف بالنسبة إلى إيكولوجيا الزراعة المالية فهو التركيز المطلق على الربح والاندفاع في توفير الغذاء الرخيص

---

(464) Braudel 1977, 11-12.

(465) تمتد أنظمة الأغذية البشرية إلى أبعد من "نباتات الحضارات".

(466) Patel and McMichael 2009; Bruins and Bu 2006.

لتغذية العمال وعائلاتهم في المدن. وكما شاهدنا في الفصلين حول العمل والرعاية، فإن المحافظة على نظام ما للعمل مدفوع الأجر مكلفة، وتزداد كلفتها مع مرور الوقت. ومع توفير الغذاء الرخيص يتمكن ذلك النظام المكلف من در الأموال الطائلة. وقد تدفقت تلك الأموال عبر البنى التحتية للسلطة والإنتاج التي خلقت إيكولوجيا جديدة في المدينة والريف. وكانت هذه العلاقة غير متكافئة، مثلها في ذلك مثل العلاقة بين أصحاب العمل والعمال. وتتغلغل إيكولوجيا ريفية مدنية في بنية الرأسمالية، وهي إيكولوجيا تشكلت أنماطها عبر تخوم الأطلسي، وكبرى مدن أوروبا، والمحيط الهندي، وطرق التوابل في آسيا.

كيف صنع الغذاء العالم الصناعي

بحلول عام 1700م، كان معظم الفلاحين الإنجليز قد استحالوا إلى ساكني أكواخ، أو زُجَّ بهم في العمل الزراعي مدفوع الأجر، أو أجبروا على الخروج من الأراضي إلى المدن – فكان 61 بالمائة من سكان إنجلترا العاملين يعملون في مجال آخر بعيد عن زراعة الغذاء. وكانت نسبة ساكني المدينة قد تضاعفت على مدى القرن السابق.[467] وكانت عمليات التسييج على مدى القرنين السابقين قد جعلت الزراعة عبارة عن تجارة تنافسية ومجموعة من الابتكارات – فقد جعلت المحارث الجديدة، وتدوير المحاصيل، وأنظمة تصريف المياه على وجه الخصوص الزراعة إنتاجية من الناحية البيولوجية. وفي حين يختلف المؤرخون في تحديد بداية الثورة الزراعية في إنجلترا بشكل قاطع، إلا أنَّه من الواضح أنه بحلول عام 1700م، كانت إنجلترا تقوم بأمرين هامين لا بد لكل قوة رأسمالية القيام بهما: زيادة الفائض الزراعي، وإبعاد العمالة عن المزارع.[468] وقد تمكنت من إبعاد العمالة من المزارع لأنها كانت إنتاجية بمفهوم جديد: فقد ازدادت إنتاجية العمالة

(467) Maddison 2007, 43.

(468) Thirsk 1987; Overton 1996.

بشكل متسارع، فارتفعت بنسبة 46 بالمائة بين عامي 1500م و1700م.[469]

أصبحت الزراعة الإنجليزية قوية في مطلع القرن الثامن عشر حتى إنها تمكنت من إنقاذ أوروبا الآخذة في البروليتارية بشكل سريع من المجاعة. وفي حين أننا نميل للاعتقاد بأن التحول الصناعي ينتج المزيد من العمال، إلا أنَّه من الأصدق القول بأن إبعاد اليد العاملة عن الزراعة يحبذ أشكالاً جديدة من التحول الصناعي. وربما يكون سكان أوروبا من العاملين بأجر مدفوع قد ازدادوا بمقدار 60 مليوناً في القرنين التاليين لعام 1550م، ولا بد من تغذيتهم بتكلفة منخفضة. وكل مصنع عالمي في حاجة إلى مزرعة عالمية. وقد كانت تلك الزراعة في القرنين السادس عشر والسابع عشر هي بولندا، والتي ملأ قمحها وشعيرها بطون صيادي السمك، ونشاري الخشب، وقاطعي الخث في هولندا. بيد أنَّه مع حلول عام 1700م كانت صادرات هولندا قد انهارت – بسبب استنزاف التربة بشكل رئيسي. وعلى مدى النصف الثاني من القرن، شكلت إنجلترا صومعة الحبوب في أوروبا الشرقية، إذ ارتفعت صادراتها إلى خمسة أضعاف ما كانت عليه في السابق. وحافظت أسعار الحبوب على استقرارها في مدن أوروبا الشرقية نتيجة لذلك – بيد أن الاستقرار لا يكون أبداً كافياً للرأسمالية المتعطشة دائماً للنمو الاقتصادي.[470] فانهارت أسعار الغذاء في إنجلترا وعبر شمالي أوروبا.[471]

لم يدم انتصار إنجلترا طويلاً. فكما حصل في هولندا، شهدت الجزيرة توقف ثورتها الصناعية. و«صرف» المزارعون احتياطاتهم البيولوجية تدريجياً.[472] ومع حلول عام 1750م، بلغت الأمور نقطة التحول. وتوقف تصدير الحبوب. وتباطأ نمو الإنتاج، وارتفعت أسعار الغذاء.[473] وحتى مع الارتفاع الحاد للواردات من

---

(469) محسوب من G. Clark 2002. لم تكن إنجلترا أول مكان للثورة الزراعية الحديثة، بل هولندا، وقد تعلم الإنجليز الزراعة الرأسمالية من الهولنديين.

(470) Ormrod 2003, 2013-218; الحسابات بناء على R. Davis 1954, 302.

(471) Ormrod 2003, 214.

(472) Overton 1996, 197.

(473) R. Davis 1954. أنظر أيضاً Moore 2010c؛ Broadberry, Campbell, and van Leeuwen 2011.

إيرلندا، ارتفعت أسعار الغذاء الإنجليزي بسرعة تعادل ضعف سرعة مؤشر الأسعار الصناعية، والتي تصاعدت بمعدل أسرع من أسعار الأنسجة بـ66 بالمائة و48 بالمائة أسرع من أسعار الفحم بين عامي 1770م و1795م.[474]

لو كان الأمر مجرد ظاهرة إنجليزية، لكان له أهمية، ولكن الإنتاج تباطأ، واتسعت رقعة انعدام المساواة، وأصبح الغذاء أكثر كلفة في أرجاء العالم الأطلسي. وهوى الإنتاج العمالي أو مرَّ بمرحلة جمود عبر أوروبا الغربية في نصف القرن الذي تلا عام 1750م.[475] وفي فرنسا ارتفع سعر الغذاء بصورة أسرع بثلاث مرات من ارتفاع الأجور قبل ثورة عام 1789م.[476] وفي وسط المكسيك أيضاً، انخفضت المحاصيل، وارتفع سعر الذرة بمعدل 50 بالمائة مع نهاية القرن.[477] وفي أرجاء أوروبا بين عامي 1730م و1810م، ارتفع سعر «حبوب الخبز الرئيسية» (القمح والشعير أكثر من غيرهما) ارتفاعاً كبيراً: بمعدل 250 بالمائة في إنجلترا، وأكثر من 200 بالمائة في شمالي إيطاليا، وألمانيا، والدنمارك، والسويد، والنمسا، وهولندا. وشهدت فرنسا نسباً أقل في تضخم أسعار الغذاء – بمعدل 163 بالمائة في تلك الفترة – ولكنها كانت بالكاد كافية لكبح جماح الاضطرابات الاجتماعية الهائلة.[478]

ومع حلول عام 1760م، ظهرت بوادر تغيّر جذري في الريف الإنجليزي شكلت انتصار الرأسمالية الزراعية – واستنزافها أيضاً. فردًّا على العدد المتزايد للتمردات بسبب الغذاء عبر البلاد وارتفاع أسعار الحبوب،[479] قفز حجم التسييج البرلماني ووتيرته بشكل حاد، في محاولة لإحياء الإنتاجية عبر تكرار سبب الطفرة الزراعية. وبلغ عدد قوانين التسييج التي أقرت بين عامي 1760م

(474) G. Clark, Huberman, and Lindert 1995.

(475) R. Allen 2000, 20.

(476) Hufton 1983, 304.

(477) Lipsett-Rivera 1990; Arroyo Abad, Davies, and van Zanden 2012.

(478) Abel 1980, 197-98.

(479) Charlesworth 1983.

و1790م ستة أضعاف عددها في العقود الثلاثة السابقة.[480] وفي القرن التالي لعام 1750م، جرت خصخصة ربع الأراضي الزراعية في إنجلترا، والتي كانت في السابق حقولاً مفتوحة ومشاعات.[481]

كانت هذه الإيكولوجيا قائمة على الطبيعة الرخيصة والعمل الرخيص، ولكنها كانت أيضاً بحاجة إلى الغذاء الرخيص. ولا يكون الغذاء الرخيص «رخيصاً» إلا بمعنى محدد: وهو إنتاج سعرات حرارية أكثر خلال معدل أقل لساعات العمل ضمن إطار نظام السلع. وبالتأكيد، فقد تمتعت بعض أساليب الزراعة غير الرأسمالية بمستويات عالية جداً من الإنتاج الغذائي بجهد متواضع. في البرازيل في مطلع القرن التاسع عشر، كان بإمكان زراعة الوقيد – والتي يقوم المزارعون خلالها بقطع أجزاء من الغابات للزراعة، ثم يعيدون تكرار العملية بعد بضعة حصادات – أن تدر ما بين 7000 و 17600 سعرة حرارية من الكسافا، والذرة، والبطاطا الحلوة، لكل ساعة عمل. وعلى سبيل المقارنة، كان ذلك تقريباً ما بين 3 إلى 5 أضعاف أكثر من إنتاجية العمالة في إنجلترا في ذات الفترة.[482] ولكن لم تكن زيادة إنتاجية العمالة في الزراعة ثابتة لأعداد كبيرة ومركزة من السكان حتى قيام الرأسمالية.

عمل نموذج الغذاء الرخيص هكذا. ووفَّرت ثورات الرأسمالية الزراعية الغذاء الرخيص، وهذا ما خفَّض الحد الأدنى للأجور: كان بالإمكان دفع أجور أقل للعمال، ولم يتضوروا جوعاً. وبالتالي خفض ذلك تكاليف الأجور بالنسبة إلى أصحاب الأعمال مع ازدياد حجم البروليتارية، ما سمح بارتفاع وتيرة الاستغلال. كان يمكنُ لرأس المال المتراكم أن يستمر في النمو فقط طالما كفل الفائض الغذائي الآخذ في الارتفاع العمل «الرخيص».[483] إنه نموذج بسيط. ولم ينشأ هذا النظام

---

(480) Mantoux 1961, 141-42; Slicher van Bath and Ordish 1963, 319; R. Jackson 1985.

(481) Hobsbawm and Rude 1969, 27.

(482) G. Clark 2007, 67-68.

(483) Moore 2010c.

من الغذاء الرخيص عمداً، ولكن فهم نشأته في إيكولوجيا الرأسمالية يسمح لنا برؤية العالم والتفكير به بشكل مختلف – بما في ذلك كيف ساعدت ضرورات الغذاء الرخيص في صنع العالم الحديث.

لقد أخذنا من بروديل اقتباسًا يتعلق بالأرز، والذرة، والقمح – ولكن جزءاً رئيسياً من مقدار السعرات الحرارية في بريطانيا في الثورة الصناعية كان مرتبطًا بالسكر القادمِ من العالم الجديد. وكما يذكر كينيث بوميرانز «كان استبدال السعرات الحرارية المزروعة محلياً باستهلاك بريطانيا من السكر الكاريبي في عام 1801م، كان لتيكلف ما يتراوح بين 850000 و 102 مليون فدان من أفضل الأراضي القمحية؛ ومع حلول 1831م – قبل الانهيار الكبير في أسعار السكر والارتفاع بعد ذلك في استهلاك الفرد إلى خمس أضعافه – وصل الرقم 102 إلى 106 مليون».[484] فقصة الرأسمالية قصة عالمية، من البطون إلى خارجها.

على مر القرنين السابع عشر والثامن عشر حاولت الحكومات الأوروبية إدارة أسعار الغذاء في المدن، ولم تنجح في ذلك دائماً. كانت هنالك انتفاضات بسبب الخبز قادتها المرأة بشكل كبير، والتي وضعها تقديم الرعاية والاعتماد على الأسواق على خط المواجهة في الكفاح لأجل الغذاء الرخيص.[485] ولعلَّ أشهرها الثورة الفرنسية. ففي عام 1789م، بينما ساءت أزمة أسعار الغذاء، شاركت النساء الباريسيات في تظاهرة في فرساي من أجل الحصول على «الخباز، وزوجة الخباز، وابن الخباز» (الملك وأسرته).[486] وبعد ذلك بعامين، ثارت إحدى مستعمرات قصب السكر ضد مستعمريها الفرنسيين، تحدوها التطلعات لتحقيق أوجه الحرية، والمساواة، والأخوية ذاتها التي كان يهتف بها المتظاهرون في المدينة الأم. ولم تكن الانتفاضات في هاييتي وفرنسا هي الوحيدة في حقبة من التمرد الزراعي حول

---

(484) Pomeranz 2002, 442.

(485) Hufton 1971.

(486) Colwill 1989, 67.

العالم، والتي امتدت من روسيا إلى البيرو في شمال أمريكا.[487]

كانت الإمبراطوريات في حاجة للغذاء من أجل إطعام عمالها. واقتبس الثوري الروسي فلاديمير لينين سيسيل رودز، وهو الاستعماري الذي هدم تمثاله الأرستقراطي مؤخراً من مدرجات جامعة كيب تاون، والذي قال في عام 1895م: «كنت في الطرف الشرقي من لندن بالأمس، وحضرت اجتماعاً للعاطلين عن العمل. واستمعت إلى الخطب الهائجة، التي كانت عبارة عن صرخات من أجل «الخبز»، «الخبز»، «الخبز»، وأثناء عودتي للمنزل تدبرت المشهد، وغدوت مقتنعاً أكثر من ذي قبل بأهمية الإمبريالية.... فالإمبراطورية، كما قلت سابقاً، هي عبارة عن مسألة خبز وزبدة. فإذا كنت تريد تجنّب الحرب الأهلية، فيتعيّن عليك أن تكون إمبرياليّاً».[488] وبعد ذلك بعقدين من الزمان، في عام 1917م، وجد لينين نفسه وسط ثورة كان شعارها «السلام، والأرض، والخبز»، والتي قامت على سنوات من انتفاضات الخبز التي قادتها المرأة، كما حدث في الثورة الفرنسية.[489]

وفّرت الإمبراطورية الغذاء الرخيص للعمال الصناعيين في أوروبا، وإن كان على حساب الأشخاص في أجزاء أخرى من الكوكب. أنشأت الإمبراطورية الأوروبية شبكات من تجارة السلع التي صنعت العالم الثالث، كما يعتقد مايك دايفس.[490] ويوضح أحد الأمثلة من مستعمرة بريطانية القديمة الإزدراء العام تجاه الفلاحين عبر الإمبراطوريات الأوروبية. وخلال مجاعةِ البطاطا التي وقعت بين 1845م 1848م أملى الفقر وقوى السوق على الإيرلنديين العمل من أجل لقمة العيش، حتى إن لم يكن هنالك عمل يمكنهم شغله ولا غذاء يمكنهكم تحمل تكلفته: في أوج المجاعة، كانت إيرلندا تصدر ما يقارب 100 ألف طن من الحبوب سنوياً لإطعام البلد الأم. ولم تكن المجاعة الناجمة عن ذلك، والتي أهلكت أعداداً كبيرة

---

(487) Slaughter 1986; Wallerstein 1989; Bayly 2004.

(488) Lenin 1986, 229.

(489) Engel 1996.

(490) M. Davis 2001. أنظر أيضاً Bohstedt 2016.

من السكان الإيرلنديين، سوى أمر إضافي. وكان تشارلز تريفيلان أمين الخزنة المساعد في بريطانيا والذي كان يتحكم بالأموال المخصصة لتخفيف المجاعة، واضحاً حول هذه المسألة: لم يكن «الشر الحقيقي هو الشر البدني للمجاعة، بل الشر الأخلاقي... للشعب [الإيرلندي]».[491]

وخضعت المستعمرات البريطانية الأخرى لذات القوى. وحلّت علاقات السوق الحرة تحت تهديد السلاح محل التقاليد الهندية في إطعام الفقراء، وذلك كي تتمكن الهند من إصدار الحبوب.[492] وكما شاهدنا في مناقشة الفصل الثاني حول المال، لا تبتعدُ القوة العسكرية كثيراً عن القوة المالية، بل أحيانًا، يمكن استخدام الأخيرة لتمويل الأولى. وتحت الحكم الاستعماري، كلفت الهند بتمويل الإمبريالية البريطانية حول العالم عبر النظام الضريبي: «دفع عامة الهنود ثمن مغامرات الجيش الهندي واسعة النطاق، مثل نهب بكين (1860م)، وغزو إثيوبيا (1868م)، واحتلال مصر (1882م)، وغزو السودان (1896-1898)».[493] واشتدت سطوة الاستغلال الاستعماري أكثر فأكثر مع انضمام ألمانيا والولايات المتحدة – واليابان وسائر أوروبا بعد ذلك بقليل – لبريطانيا في معيار الصرف بالذهب بعد 1871م. وانهارت قيمة الروبية الهندية القائمة على الفضة بمعدل تجاوز الثلث بين عامي 1873م و1894م – بينما كانت مدفوعاتها لبريطانيا تصرف بالذهب.[494]

ارتبطت آليات السوق والعنف ارتباطاً وثيقاً بتدفق الغذاء الرخيص من آسيا إلى أوروبا. عندما حاصرت السفن الحربية البريطانية نهر اللؤلؤ في الصين في نوفمبر 1839م، كان الصراع دائراً حول الفضة والأفيون – وكان الأخير يزرع في مزارع في الهند. حيثُ احتكرت شركة الهند الشرقية إنتاج الأفيون وتجارته في القرن الثامن عشر. ووجدت كمية متزايدة باطراد من الأفيون طريقها إلى الصين –

---

(491) Charles Trevelyan, مقتبس في Ranelagh 1999, 117.

(492) M. Davis 2001.

(493) المصدر السابق، 302.

(494) المصدر السابق، 303.

بشكل غير قانوني، وإن كان مربحاً. ولم يكن الصينيون في حاجة إلى التبادل التجاري مع الإنجليز، ولكن الإنجليز كانوا يريدون الشاي الصيني. ومن أجل ذلك فقد كانوا في حاجة إلى الفضة. ومع تجارة الأفيون، يشير إيرك وولف بسخرية إلى أن «الأوروبيين كان لديهم أخيراً ما يبيعونه للصينيين».[495] وتعرضت تلك التجارة في عام 1839م للخطر عندما «منعت» الحكومة الصينية «الغذاء، والماء، والتجارة عن المهربين البريطانيين حتى يتعهدوا بالتوقف عن جر سفنهم المحملة بالأفيون إلى الصين».[496] وشنت أول حربين للأفيون في السنوات التالية القليلة. وكان التحكم بالسوق الصينية على المحك. وبينما كانت الصين تنفتح تدريجياً على السلطة والتجارة الأوروبية بعد عام 1842م، كان من ضمن أكبر الأرباح غير المتوقعة للبريطانيين هي قدرتهم على تأمين نباتات الشاي. وبحلول عام 1851م، كان روبرت فورتشن قد نقل ما يقارب 2000 نبتة شاي، و17 ألف من بذور الشاي من الصين – عبر هونغ كونغ، التي كانت حينها تحت السيطرة البريطانية – إلى الحديقة النباتية في كالكوتا.[497] ومع نهاية القرن، كان الإنجليز يشربون الشاي المزروع في الهند والسلان (سريلانكا) وليس في الصين.[498]

حوّلت بريطانيا الإمبريالية النباتية إلى شيء يشبه الفن. فجرى تهريب بذور المطاط خارج البرازيل، وحضانتها في الحدائق النباتية الملكية في كيو في لندن، واختبارها في جنوب وجنوب شرق آسيا. كما خضع نبات السيزال، المستخدم في تصنيع الحبال والخيوط الزراعية الجدولة، إلى هجرة مماثلة، من جنوبي المكسيك إلى آسيا. ولكي يتجاوز التمدد الاستعماري الملاريا المستوطنة في المناطق المدارية، جرت زراعة أشجار الكينشونا، وهي مصدر مادة الكينين المضادة للملاريا – ونشرها بعيداً عن موطنها الأصلي في البرازيل.[499]

---

(495) Wolf 1982, 258.

(496) Lovell 2012, 20.

(497) Fortune 1852, 357.

(498) Brockway 1979a, 26-29.

(499) Brockway 1979b.

نشأت أحد الابتكارات الزراعية الأهم، كغيرها من الكثير من الابتكارات التي سبقتها، نتيجة للحرب والسياسة الجغرافية: وهي الأسمدة. فحتى مطلع القرن العشرين، كانت معظم الأسمدة غير العضوية تستخرج من الأرض. وكان الملح الصخري – نترات البوتاسيوم (KNO_3) – معدناً مهماً في الزراعة وفي البارود. في أوروبا، ساهمت التوترات حول إدارة مدخلات الإمدادات الغذائية هذه في تعجيل الحرب العالمية الأولى.[500] كما يعتقد المؤرخ آفنر أوفر. إذ أشرف الحلفاء على حصار مناجم الملح الصخري التشيلية باعتبارها وسيلة لعرقلة إمدادات الأغذية الألمانية والنمساوية المجرية، وحفزت الحملات العسكرية التطور التجاري لتقنيات ما قبل الحرب لتثبيت النيتروجين الجوي، والتي ابتكرها عالما الكيمياء فريتز هابر وكارل بوش.[501] وقد أحدثت أعمالهما تحولاً في كوكب الأرض. إذ إنَّ مستويات أكسيد النتريك (NO) والأمونيا (NH_3) اليوم هي خمسة أضعاف مستوياتها قبل عام 1800م،[502] وتأتي الطاقة اللازمة لتصنيع الأمونيا مباشرة من الوقود الأحفوري الرخيص، كما سنناقش في الفصل السادس. وهذا هو أحد أسباب الحاجة اليوم إلى ما يبلغ ست سعرات حرارية من الزيت لإنتاج سعرة حرارية واحدة من الغذاء.[503]

شهد القرن العشرين تغيرات أخرى جعلت من هذه التدخلات التقنية الحيوية تبدو تافهة. كان في انتشار الأفكار الشيوعية الثورية تحقيق لمخاوف رودز، ومخاوف أصحابه البرجوازيين. وحققت الثورة الروسية كابوس كل رأسمالي – وسعت الحكومات إلى إيجاد سبل لإدارة وإيواء العمال المضطربين عوضاً عن المخاطرة في الوقوع تحت مطارقهم ومناجلهم. وشكلت المكسيك، وهي مستعمرة إسبانية سابقة، ساحة لأحدِ تلك الحلول الوسط فيما بين العمال، والرأسماليين، والدولة.

---

(500) A. Offer 1991.

(501) Erisman et al. 2008.

(502) Galloway et at. 2004.

(503) Manning 2004.

بدأت الثورة المكسيكية عام 1910 ميلادية باعتبارها مسألة تخص الطبقة الوسطى، ولكنها سرعان ما تجاوزتها، مع قيام العمال والفلاحين بمطالبات نضالية. وفي عام 1934م، انتخب لازارو كارديناس لرئاسة المكسيك بناء على برنامج يلبي هذه المطالبات: أسس إصلاحات واسعة النطاق للأراضي، فأعاد توزيع 47 بالمائة من كل الأراضي الصالحة للزراعة[504] – وبدأ بتأميم كافة أصول صناعة النفط، بما في ذلك معامل تكرير شركة ستاندرد أويل. وكان التحكم بالطاقة الرخيصة جزءاً محورياً من مشروع النقابوية المكسيكية.

وبالنسبة إلى العائلة المؤسسة لشركة ستاندرد أويل، وهم آل روكفيليرز، فقد شكّل الأمر فضيحة، فضلاً عن كونه دليلاً آخراً على التهديد الخطير الذي يشكله التعداد السكاني الآخذ في النمو والموارد المحدودة للغذاء. وكان هنالك تخوف عام في أوساط الطبقة الحاكمة الأمريكية من أن توقع مالثوس قد يتحقق: أن يكونَ انهيار المجتمع أسرع عندما يفوق جوع سكان المدن مؤونتها الغذائية.

عكف الأسخياء على إنقاذ المجتمع. وأوضحت وثيقة استراتيجية بعنوان «مشكلة الغذاء في العالم، والزراعة، ومؤسسة روكفيليرز»، والتي أصدرتها مؤسسة روكفيليرز عام 1951م، وبعد عقد من بداية عملها في المكسيك، موضوعات العصيان، والسكان، والغذاء: «سواء أصبح الملايين شيوعيون أم لا، فإن ذلك يعتمد إلى حدٍّ مَّا على درجة إيفاءِ العالم الشيوعي أو العالم الحر بوعودهما. إذ إن الوعود تغري الأشخاص الجوعى، ولكنك قد تكسبهم بالأفعال. وتقدم الشيوعية وعوداً جذابة للأشخاص الذين يعانون من سوء التغذية. وعلى الديمقراطية ألا تعد بالقدر ذاته، بل عليها أن تقدم المزيد».[505]

ذهبت المؤسسة للعمل في المكسيك في عام 1943م، ووظفت مربي نباتات لامع وصغير في السن، هو نورمان بورلوغ، لتطوير محاصيل يمكنها تجنب الجوع في **المدن**. وبما أنَّ الجوع كانَ في المدينة وليس في الريف، أزعج الأمرُ صناع السياسات

---

(504) Alcantara 1973, 25.

(505) Advisory Committee for Agricultural Activities 1951, 4, مقتبس في Brinkmann 2009, 5.

هو أمر جلل. الغذاء والتوظيف للأشخاص في المناطق الريفية - حيث كان جل الجوع العالمي مركزاً - لم يكن يثير قلقاً كبيراً. ولم يبدأ الجوع في إثارة الاهتمام السياسي إلا بعدما انتقل الفقراء إلى المدن، وحوّلوا ذلك الجوع إلى غضب، ومن ثم إلى تمرّد وعصيان تجاه حكم الطبيعة الرخيصة. وهنا بالذات – في غمرة القلق الذي اعترى الطبقة البرجوازية خوفاً على ذلك الحكم والحاجة إلى إخماد تمرّد العمال – نجد أصل نشأة ما عرف لاحقاص بالثورة الخضراء. مكتبة سُر مَن قرأ

يجدر بنا التوقف عند مصطلح «الثورة الخضراء»، التي وضعها في عام 1968م ويليام غود، وهو مسؤول في الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، وقد تحدث بحماس عن مجموعة من التدخلات: «تتضمن التطورات [الأخيرة] في مجال زراعة بوادر لقيام ثورة جديدة. ليست ثورة حمراء عنيفة مثل ثورة السوفيتيين، ولا هي ثورة بيضاء كثورة شاه إيران. بل هي ثورة أسميها الثورة الخضراء».[506] وبعبارة أخرى، استخدمت الثورة الخضراء الزراعة، و أنواعا جديدة من المحاصيل، والأسمدة، والمبيدات، والري، وآليات ملكية الأراضي، وأساليب التسويق، وسلطة الدولة في الحفاظ على العمل الرخيص، والرعاية الرخيصة، والمواد الخام الرخيصة، بالإضافة إلى الطاقة، وذلك تأكيداً على تأثير إيران في أسواق النفط الدولية.

يجسد برنامج الثورة الخضراء في المكسيك نظام الغذاء الرخيص. وتقول الرواية التقليدية إنَّ بورلوغ «أدرك أن المناطق المرتفعة التي يزرع فيها القمح عادة في المكسيك لم تكن تنتج ما يكفي من القمح لجعل البلاد مكتفية ذاتيا في إنتاج القمح».[507] فشرع في إنتاج أنواع من المحاصيل ستسمح للقمح الرخيص يتدفق بسخاء إلى المناطق الحضرية. وقد منح جائزة نوبل للسلام لقاء هذا العمل في 1970م، وهذه هي جاذبية هذا التاريخ للثورة الخضراء التي سعت الحكومات وأصحاب الخير إلى تكرار نجاحها في مكان آخر، مؤخرا عبر التحالف من أجل

(506) Gaud 1968.

(507) Dubin and Brennan 2009, 21.

ثورة خضراء في إفريقيا. ولكن الحكاية الرسمية للثورة الخضراء لا تسرد الأمر بشكل صحيح تماما فيما يتعلق بالمكسيك- إذ أن الذرة بالنسبة إلى غالبية الفلاحين المكسيكيين هي محصول أهم بكثير من القمح. وكانت مساحة الأرض المزروعة بالذرة أكثر بعشر مرات تقريباً (4781759 هكتارًا أو 11815984 فدَّانًا) من المساحة المزروعة بالقمح (555756 هكتارًا أو 1373303 فدانًا) في عام 1951م.[508] إلا أنَّ القمح كان في الغالب يزرع من قبل المزارعين التجاريين باستخدام نماذج وموارد مشابهة لتلك التي يستخدمها نظراؤهم الأمريكيين، أكثر من مشابهتها لنماذج وموارد إنتاج الذرة. وبالمثل، حين أدخلت الثورة الخضراء إلى الهند: كان محصول الذرة في مقدمة الدراسات الاستثمارية، والتي كان يؤلف فيها أقل من 3 بالمائة من إنتاج البلاد الزراعي، ولم يكن منتجاً رئيسياً هناك البتة.[509]

لم تكن تقنيات البذور هي الآلية الوحيدة اللازمة لمحاصيل معينة لتقفز من قارة بأخرى وتبدأ زراعتها عالمياً. واستلزمت الثورة الزراعية تحوُّلًا على مستوى خدمات التمديد الزراعي وعمال الحكومة في الحقول من أجل المحصول الزراعي الجديد. كما كانت في حاجة إلى دعم الحكومة الوطنية للمزارعين، عبر مجالس التسويق الزراعي، من أجل زراعة المزيد من هذه المحاصيل. وتطلب الغذاء الرخيص قمع الانشقاق السياسي. وفي النهاية، كانت الثورة الخضراء عبارة عن رزمة من الإصلاحات المصممة لتجنب الهدف السياسي للثورة الحمراء للعديد من حركات الفلاحين والعمال غير الملاك: وهو الإصلاح الشامل للأراضي والزراعة. ولذا شكّلت الثورة الخضراء في تطبيقها برنامجاً استبدادياً في كثير من الأحيان.[510]

من الممكن أن نرى أن الثورة الخضراء كانت ناجحة. فعلى الصعيد العالمي، ارتفع إنتاج الحبوب إلى الضعف – أما الغلال، وهي مقدار الإنتاج لكل وحدة

---

(508) Dirección General de Estadística 1955, 13-16.

(509) Patel 2013.

(510) المصدر السابق.

مساحة - فقد ارتفعت إلى أكثر من الضعف – بين عامي 1950م و1980م. وفي وسط مناطق الثورة الخضراء، ارتفعت الغلال أسرع من ذلك. وارتفعت غلال القمح في الهند بمعدل 87 بالمائة بين عامي 1960م و1980م، وهو ارتفاع مقارب لما مر به مزارعو الذرة الأمريكان في العقدين التاليين لعام 1935م.[511] وجرى تداول حصة متزايدة من كل هذا الغذاء في السوق العالمية، مع ارتفاع الصادرات العالمية من الحبوب بمعدل 179 بالمائة على مدى الستينيات والسبعينيات.[512] ونجح الإلتزام السياسي تجاه جعل الغذاء رخيصاً عبر الدعم الحكومي والعنف. وانخفضت أسعار الغذاء بنسبة 3 بالمائة في السنة بين عامي 1952م و1972م، وهي وتيرة أسرع بثلاث مرات من الانخفاض الهائل السابق في أسعار السلع على مدى القرن العشرين.[513] كما انخفضت الأسعار الحقيقية للأرز، والذرة، والقمح أكثر وأكثر بين عامي 1976م و2002م.[514] وربما كان أعظم نجاح هو الإسكات الفعال لمطالبات الفلاحين بالإصلاحات المتعلقة بالأراضي والمطالبات في المدن بالتغيير السياسي.

بيد أن المخرجات التي حققتها الثورة الخضراء لم تقلل من نسبة الجوع. وإذا ما أزلنا الصين من التحليلات – حيث كانت الثورة الزراعية فيها أكثر دموية على الرغم من نجاحها- فإن عدد الأشخاص الذي كانوا بحاجة إلى الغذاء قد تضخم بنسبة 11 بالمائة على مدى فترة الثورة الخضراء.[515] وفي الوقت الذي احتفا فيه المحللون بخبر "وصول إنتاج القمح في الهند إلى الضعف" بين عامي 1965م و1972م،[516] واستمراره في الارتفاع بثبات طوال فترة السبعينيات، كان عدد السكان في الهند الذين يصلهم الغذاء فعلياً بالكاد يرتفع خلال ذات الفترة.

---

(511) محسوب من Cochrane 1979, 128; EPI 2012,2013,2014.

(512) Moore 2010c.

(513) محسوب من Fuglie and Wang, 2012, 2; Grantham 2011.

(514) أنظر قاعدة بيانات FAOSTAT على الرابط www.fao.org/faostat/en/#home.

(515) Rosset 2000.

(516) Specter 2014.

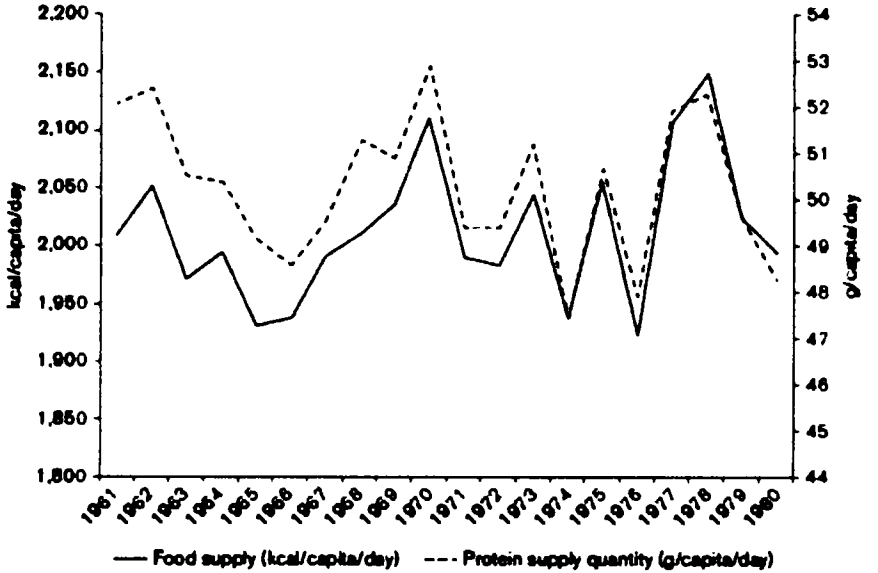

الصورة 4: إمدادات الغذاء والبروتين في الهند: FAOSTAT،
www.fao.org/faostat/en/.

ارتفع استهلاك الهند للمبيدات الحشرية إلى 17 ضعفاً من عام 1955م إلى عام 2005م، مع الحصة الأكبر لولاية البنجاب.[517] كما أن المجتمعات التي مورست فيها الثورة الخضراء بأشد أشكالها أصبحت مؤخراً بؤراً للسرطان، مع إعلان بعض المناطق بشكل رسمي أنها «قرى مصابة بالسرطان».[518] ولكن مرة أخرى، لم تكن الثورة الخضراء موجهة نحو القرويين الهنود – بل إنها استهدفت فقط العمال ضمن الرابطة النقدية في المدينة والذين كان من الممكن أن تراودهم فكرة التمرد على الرأسمالية. وقد تمكنت الحكومات من خلال اتفاقيات التجارة، والدعم، والتقنية، من السيطرة على أسعار الغذاء، لا سيما فيما يتعلق بالأغذية الأساسية والمصنعة. وبالفعل، إنها لظاهرة عالمية أن أسعار الأغذية المصنعة ارتفعت بمقدار

517. Tiwana et al. 2009.
518. Kumar and Kumar 2016, 3.

أقل بكثير من أسعار الفواكه والخضار الطازجة للفترة من 1990م حتى 2015م.[519] وحتى يتمكنوا من تناول حصصهم الموصى بها، وهي خمس وحدات من الفواكه والخضار الطازجة، فإن سكان البلدان ذات الدخل المنخفض في حاجة إلى إنفاق ما يقارب نصف دخل الأسرة على هذه الأصناف الخمسة الصحية فقط، ومع إنفاق الأسر في المناطق الريفية لنسبة أكبر، فإن 70 بالمائة من سكان الريف في البلدان ذات الدخل المنخفض لا يمكنهم تحمل تكلفة شراء ثلاث حصص من أرخص الخضار أو حصتين من الفواكه.[520]

منذ عام 1990، ظلت معدلات أجور العمال في البلدان التي تنتمي إلى منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية ثابتة نسبياً. وكان ذلك نتيجة مباشرة لما ذكرناه في الفصل الثالث من سياسات مناهضة للعمال، والتي يسميها الباحثون «قمع الأجور» على نحو ملائم. ونظراً لانخفاض الأجور بشكل مستمر في عصر الليبرالية الجديدة، فمن المنطقي أن ننظر إلى الغذاء الرخيص باعتباره رخيصاً ليس فقط بالنسبة إلى تكاليف الأجور بل أيضاً من حيث السعر بشكل مباشر. وعندما نفعل ذلك، نجد أنه ليس من قبيل الصدفة أن تكون المادة الغذائية التي انخفضت أسعارها بشكل كبير هي الدجاج في المكسيك - ما يشكل نتيجة مباشرة لاتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية (NAFTA)، وتقنياتها وصناعة فول الصويا في الولايات المتحدة. وكانت الاتفاقية قد استبعدت في الأصل السلع الزراعية، ولكنها شملتها لاحقاً بعد إصرار الحوكمة المكسيكية والتي أرادت أن «تعصرن» فلاحيها عبر نقلهم من الزراعة إلى دوائر الصناعة الحضرية.[521] وقد نجحت تلك الاستراتيجية: فانهار الاقتصاد الزراعي الريفي في المكسيك، كما هو واضح من مظاهرات عام 2003م تحت شعار (لا يمكن للريف التحمل أكثر) (بالإسبانية:

---

(519) Wiggins and Keats 2015.

(520) V. Miller et al. 2016.

(521) Patel 2007, ch 3.

El Campo No Aguanta Más).[522] وكانت النتيجة هي دوائر الهجرة وجموع اليد العاملة للزراعة الأمريكية. ولكن الدجاج كان رخيصاً على الأقل.

كانت اللحوم في قلبِ التحول العالمي للنظام الغذائي منذ السبعينيات. فبينما ننظر في مستقبل الثورة الخضراء الطويلة، نتناول كيف أصبحنا كوكباً آكلاً للحوم بشكل متزايد، وكيف يرتبط المنطق الذي يسمح بتصنيع اللحوم بتكلفة منخفضة مع قيام «الاغتذاء» باعتباره طريقة لحل «الجوع ليس عبر حل الفقر بشكل مباشر، بل من خلال أولوية تقديم مكونات جزيئية محددة من الغذاء لهؤلاء الذين تنقصهم تلك المكونات».[523] وهكذا يطرح مستقبل قاتم للغذاء الرخيص نفسه.

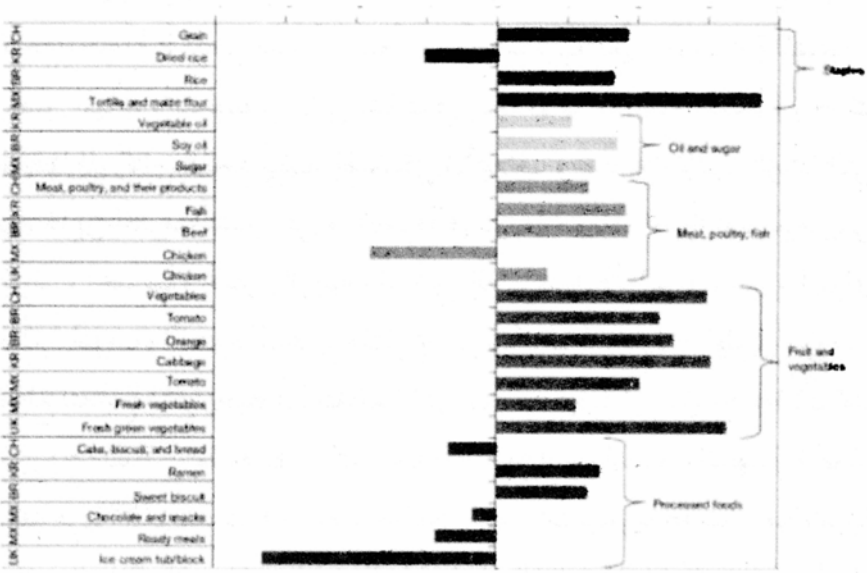

الصورة 5: تغيرات أسعار الغذاء الحقيقية في المكسيك (MX)، وكوريا الجنوبية (KR)، والبرازيل (BR)، والصين (CH)، والمملكة الامتحدة (UK) 1999-2012. المصدر: Wiggins and Keats 2015, 10.

من الخضار مع القليل من اللحم إلى الفقر مع فيتامينات مضافة

أشار الباحث في شؤون الغذاء الكندي توني ويس إلى حجم التغيرات الأخيرة

(522) McMichael 2009.

(523) Patel et al. 2014, 22.

في استهلاك اللحوم: «في عام 1961م، كان ما يتجاوز قليلاً 3 مليارات شخص يأكلون بمعدل 23 كيلوغرامًا [95 باوند] من اللحوم، و5 كيلوغرام [11 باوند] من البيض سنوياً. وبحلول عام 2011م، كان 7 مليار شخص يأكلون 43 كيلوغرامًا [95 باوند] من اللحوم، و10 كيلوغرام [22 باوند] من البيض في السنة... وفي غضون نصف قرن فقط من عام 1961م إلى عام 2010م، قفز الحجم العالمي للحيوانات المذبوحة من حوالي 8 إلى 64 مليار، وهذا الرقم سيتضاعف مرة أخرى إلى 120 مليارًا بحلول عام 2050م إذا ما استمرت معدلات النمو الحالية».[524]

بالنسبة إلى هؤلاء الذين يمتلكون وجهة نظر عاطفية تجاه مصدر غذائهم، يبدو اللحم مكوناً نيئاً وليس مكوناً مصنعاً. بيد أن أساليب العمالة الصناعية للتبسيط، وفصل المهام، والتخصص، التي نشأت في بداية الأمر مع إنتاج السكر، وجدت طريقها إلى إنتاج اللحم أيضاً. إذ تشكل الأعلاف ومحاصيل البذور الزيتية التي مهد لها إلى حد ما انتشار الثورة الخضراء في دول الجنوب، جزءاً مما يسميه ويس «مركب الحبوب والبذور الزيتية والمواشي الصناعية».[525] ومهد إنشاء أسواق لسلع الحبوب واللحوم الموحدة – مثل مجلس شيكاغو للتجارة – الطريق لمثل هذه السلع لتصبح غذاء رخيصاً، ولتدعم الأدوات المالية أيضاً. وتستلزم هذه الأدوات بدورها اتساق المحاصيل التي يحدث بها التحول، وتجانسها، وتحولها الصناعي.[526] وتتطلب هذه الصناعة ابتكار ممارسات بيطرية جديدة – من التربية المكثفة إلى المكملات الهرمونية، وإلى استخدام المضادات الحيوية، وإلى عمليات تغذية الحيوانات المركزة – والتي أحدثت آثاراً تحويلية في جودة الغذاء، والتربة، والماء، والهواء. وبعبارة أخرى، فإن اللحم النيء في السوبرماركت مطبوخ باليد المتطورة والصارمة لإيكولوجيا الرأسمالية.

---

(524) Weis 2013, 1-2.

(525) المصدر السابق.

(526) Cronon 1991.

إن إحدى النتائج هي نظام لإنتاج اللحوم يمكنه تحويل بيضة مخصبة وكيسة علف تزن 9 باوند (4 كيلوغرام) إلى دجاجة تزن 5 باوند (2 كيلوغرام) في 5 أسابيع.[527] أما مدة إنتاج الديك الرومي فقد انخفضت إلى النصف تقريباً بين 1970م و2000م، ليتطلب الأمر 20 أسبوعاً من لتصبح البيضة طيراً يزن 35 باوند (16 كيلوغرام).[528] كما شهدت الحيوانات الأخرى تقدماً مشابهاً من مزيج من التربية، وعمليات التغذية المركزة، وسلاسل الإمداد العالمية. ويؤكل نصف لحم الخنزير في العالم في الصين، وتشكّل موارد العلف المستورد مسألة عالمية. تماماً كما هي النتائج: يأتي 14.5 بالمائة من انبعاثات ثاني أكسيد الكربون المصنع (CO_2) من إنتاج المواشي.[529] إذ يتطلب إنتاج باوند واحد (نصف كيلوغرام تقريبا) من اللحم 1799 غالوناً (6810 لتراً) من الماء، و7 باوند (3 كيلوغرام) من العلف.[530]

إن العواقب البيئية لإنتاج اللحوم هي بالطبع خارج حسابات الأرباح الخاصة بالنظام الصناعي للأغذية. وهذا هو أحد الأسباب التي تجعل اللحم رخيصاً للغاية. والعمالة الرخيصة هي سبب آخر. ويكمن الخطر في رؤية «المصانع الزراعية» على أنها مسألة بيئية، بينما «إنتاج المصانع» مسألة اجتماعية. ونظراً لأهمية القوة العاملة الرخيصة في قطاع تعبئة اللحوم الليبرالي الجديد في الولايات المتحدة، فإنه بإمكاننا أيضاً أن نشير إلى أهمية المهاجرين من أمريكا اللاتينية. وما جعل تقديم هذا العمل الرخيص ممكناً هو إعادة هيكلة الطبقات الاجتماعية على جبهتين. إحداهما في الولايات المتحدة كانت حركة قوية في الثمانينيات قامت بها مؤسسات تعبئة اللحوم العدوانية الجديدة – مثل هورميل – لتدمير قوة النقابة وإحلال العمالة المهاجرة متدنية الأجر محل العمال المنضمين إلى النقابة.[531] أمّا الأخرى،

---

(527) PennState Extension 2015.

(528) EPA 2012.

(529) Gerber et al. 2013.

(530) Olson-Sawyer 2013.

(531) Burbach and Flynn 1980; Moody 1988; Rachleff 1993.

فكانت قد زعزعت استقرار النظام الزراعي المكسيكي بعد عام 1994م من قبل اتفاقية نافتا، والتي نتج عنها تدفقات من العمالة المهاجرة الرخيصة، وهم عمال عاطلون عن العمل هجرتهم إيكولوجيا الرأسمالية من جهة على الحدود الأمريكية إلى الأخرى.[532]

على الرغم من الدعم البيئي والحكومي الكبير المقدم لصناعة اللحوم، لم يتمكن العديد من الأشخاص من شراء منتجات هذه الصناعة. وقد قدم لهم القطاع الخاص ومجتمع التنمية الدولية بديلاً: تغذية محسنة في الغذاء النباتي المنتج صناعياً. وهذا أمر باعث على التهكم: أزال التحول الصناعي والثورة الخضراء التغذية من العديد من المواد الغذائية الأساسية في النظام الغذائي.[533] إذ وقعت تلك المغذيات ضحية للرغبة في مضاعفة المحصول إلى أقصى حد، وزيادة فترة صلاحيته، ورفع نسبة تقبّل المستهلك للسلعة المعيارية. فكانت إعادة إحياء هذه المغذيات وسيلة لزيادة الربح من المواد الغذائية فائقة التصنيع. وبطريقة ما، فإن منطق إنتاج اللحوم الرخيصة يعمل بدورة كاملة، مع المواد المضافة في الغذاء، والتي صممت لإنتاج لحوم حيوانية ربحية، وأيضاً لاستدامة اليد البشرية العاملة الرخيصة، والتي بدورها ستنتج المزيد من الربح في المستقبل.

ويمكننا رؤية هذا المنطق على أرض الواقع بأشد صوره في بلدان الجنوب العالمي. وكانت قمة G8 في عام 2013م تحت عنوان «التغذية من أجل النمو: القضاء على الجوع عبر الأعمال والعلوم»، وهوَ ما يشير بوضوح جليّ إلى اتجاهها الفكري، واتجاه شركائها أيضاً. إذ أطلقت مبادرة بشأن الجوع، وهي التحالف الجديد من أجل أمن الغذاء والتغذية، بهدف نقل عمل الثورة الخضراء الطويلة إلى إفريقيا. ولنستذكر أن الثورة الخضراء بدأت في القرن العشرين بمثابة تدخل في سياسة الطبقات الاجتماعية، وسبيلاً للسيطرة على المخاوف السياسية من المتمردين الجياع والغاضبين في المدن. وقد بُنِي التحالف الجديد على أسس

(532) Bello 2009; 39-53.

(533) Robinson 2013.

اقترحت في المنتدى الاقتصادي العالمي – وهو مجموعة من المصالح التجارية التي أطلقت عليها مجلة فاينانشال تايمز يوماً ما مسمى «أسياد الكون»[534] – وذلك لمواجهة المخاوف إزاء الاضطرابات في المدن أثناء تطوير أسواق للزراعة وصناعات الأغذية.

وهذا يساعد في تفسير كون شركة يارا، كبرى شركات الأسمدة النرويجية هي أكبر متبرع للتحالف الجديد. إذ تحرص يارا على مواجهة عقود من تجريد التربة الإفريقية من الأصول الموجهة للتصدير. فنقص النيتروجين، والبوتاسيوم، والفسفور، والسيليوم، وغيرها من العناصر الشحيحة هو نتيجة لشحنها بعيداً تحت الأنظمة الاستعمارية وبعد الاستقلال، من أجل سداد قروض التصحيح الهيكلي من البنك الدولي، والتي أخذتها بلدان ما بعد الاستعمار في الثمانينيات والتسعينيات.

ليست التربة هي الوحيدة التي آن الأوان لإصلاحها، بل البشر أيضا. تتطلب خطة G8 أن تمنح الشركات الأجنبية وصولاً أكبر للأسواق والأراضي الإفريقية وأن يُعوَّض النقص في الأجساد الإفريقية بالأغذية المصنعة المدعمة للسيطرة على بعض الأمراض المرتبطة بالفقر وعدم القدرة على الوصول للغذاء. وهذا هو جوهر حقبة الفقر مع الفيتامينات المضافة، وهو السياسة الزراعية التي تُصعِّب على الفقراء في الأرياف الازدهار في الفلاحة، ولكنها تعالج عوزهم بالعناصر الغذائية الدقيقة، وهي سياسة تجمع بين الاستغلال واستراتيجية لتمديد ذلك الاستغلال وإدارته.[535]

ونصل هنا إلى نقطة مهمة حول أنظمة الغذاء الرخيص: إنَّها لا تضمن إطعام الأشخاص ولا إطعامهم بشكل جيد – ويشهد على ذلك الاستمرار العالمي في الاعتلالات الصحية والمرتبطة بالنظام الغذائي وسوء التغذية. حقاً، إن أنظمة

---

(534) Giles 2017.

(535) Patel et al. 2014.

الغذاء الرخيص هي، كما يسخر منها فرشاد أراغي، **أنظمة الجوع**.[536]

في الوقت ذاته، تستمر التخوم الزراعية في الضغط على الفلاحين في العالم، والذين يوفرون 75 بالمائة من الغذاء في مناطق ممتدة في الجنوب العالمي.[537] ورغمَ كآبة الحاضر، مع توغل التخوم الزراعية في مناطق الأمازون وتشريدها للفلاحين حول العالم، فإن عقبة جديدة قد ظهرت في القرن الحادي والعشرين من شأنها أن تضعف نظام الغذاء الرأسمالي ذي الخمسة قرون حد الهلاك: التغيّر المناخي. فعند النظر إلى التخم يسهل التفكير بالأراضي فقط. ولكن القرنين الماضيين شهدا تحركاً من نوع مختلف تماماً في التخم: تسييج المشاعات في الغلاف الجوي وجعلها مكبًّا لانبعاثات غازات الدفيئة.

تساهم الزراعة واستغلال الغابات (والتي تتضمن تهيئة الأراضي من أجل زراعة المحاصيل النقدية) بما يتراوح بين ربع وثلث انبعاثات غازات الدفيئة.[538] ولا بد لها من ذلك، لأنها تحتاج إلى قدر كبير من الطاقة، وقد ازداد هذا القدر أكثر فأكثر من الأربعينيات.[539] ويشكل ذلك مشكلة كبيرة، لعدم توفر المزيد من المشاعات الجوية لتسييجها، وعدم وجود طريقة واضحة لإبقاء تكاليف التغير المناخي بعيدة عن دفاتر حسابات الرأسمالية. ويتضح ذلك بشكل خاص في تعثر المزرعة العالمية، إذ يتباطأ نمو إنتاجها، كما حصل مع المزارع الإنجليزية في منتصف القرن الثامن عشر. وفي زراعة الحبوب الأمريكية، تباطأت سرعة نمو الإنتاجية العمالية إلى الثلث من الثمانينيات، كما انخفض نمو مردود القمح في الهند بمعدل 80 بالمائة بين الثمانينيات والتسعينيات.[540] أما ما تعد به التكنولوجيا الحيوية الزراعية من ثورة زراعية جديدة فهو أسوأ بكثير من مجرد وعد زائف – إذ لم تفلح في إحداث طفرة جديدة لمردود المحاصيل، وأنشأت الأعشاب الضارة الخارقة

---

(536) Araghi 2013.

(537) Herrero et al. 2017.

(538) IPCC 2007, 36; 2014.

(539) Moore 2015, 252.

(540) Fuglie, MacDonald, and Ball 2007; Matuschke, Mishra, and Qaim 2007.

والحشرات الضارة الخارقة التي يمكنها مقاومة الغليفوسيت وغيره من السموم، وحافظت على نموذج الغذاء الرخيص الذي يقود التحول المستمر في الحالة في النظام المناخي العالمي.[541]

لطالما سمحت التخوم لزراعة المحاصيل النقدية أن تزدهر عبر التعامل مع التربة، والعمل، والحياة، على أنها أدوات مساندة لدفع الإنتاجية العمالية. ويمثل التغيّر المناخي أمراً أكبر بكثير من مجرد تخم نهائي – فهو أشبه بانهيار داخلي لنموذج الطبيعة الرخيصة، سيجلب معه نهاية الطبيعة الرخيصة والسهلة، وكذلك سيعيد كتابة المعادلات. وكما يتضح من كم متزايد من الدراسات، فإن التغيّر المناخي يعيق الإنتاجية العمالية. وتشير كلمة **مناخ** إلى ظواهر متنوعة للغاية، بما في ذلك الجفاف، وهطول الأمطار الغزيرة، وموجات الحر، وحالات البرد المفاجئة. وقد مرّت «نباتات الحضارة» الخاصة ببروديل – بالإضافة إلى الصويا، المحصول النموذجي لليبرالية الجديدة – بما يطلق عليه خبراء المحاصيل الزراعية تثبيط الغلال نتيجة للتغير المناخي، بسبب الأنشطة البشرية. أما نسبة الانخفاض فما تزال قيد النقاش، إلا أنَّ الكثير من التحليلات تقع تقريبا في حيز انخفاض بنسبة ثلاثة بالمائة في الغلال منذ الثمانينات – وهو ما قيمته 5 مليارات دولار سنوياً منذ 1981م إلى 2002م.[542]

وما أسوأ من ذلك هو أن التغيّر المناخي يعد بمعدلات انخفاض في القيمة المطلقة. إذ تترافق كل زيادة متتالية في الدرجة المئوية في المعدل العالمي السنوي للحرارة مع تهديدات أكبر من الآثار غير الخطية والجذرية في الزراعة العالمية. إذ ستنخفض الغلال الزراعية ما بين 5 إلى أكثر من 50 بالمائة في القرن القادم، حسب الإطار الزمني، ونوع المحصول، والموقع، ومدى استمرار ضخ الكربون في الهواء

---

(541) Gurian-Sherman 2009.

(542) Lobell and Field 2007.

بالمعدلات الضخمة الحالية.[543] وستمتص الزراعة العالمية ثلثي مجموع كلفة التغير المناخي بحلول 2050م.[544] وهذا يعني أن المناخ ليس هو الوحيد الذي يتعرض لتغير في الحالة، بل أيضاً النموذج الزراعي للرأسمالية، وهو تحوُّل يضم التغيرات المفاجئة التي لا يمكن عكس مسارها، والتي ناقشناها في المقدمة. وكانت المزرعة العالمية، ولا تزال، مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالمصنع العالمي والأسرة العالمية. ومع التغير المناخي، سينهار نظام الأغذية ذلك في القرن القادم.

من خلال التغير المناخي، تهدد نهاية الغذاء الرخيص بنهاية مأساوية لإيكولوجيا الرأسمالية، ولكن هذا الغذاء هو ما مكّن العمال الرخيصين من البقاء. ولكن الغذاء ليس المتطلب الوحيد للحفاظ على الرعاية الرخيصة. فعبر التاريخ، بعد تكلفة الغذاء، فإن أهم تكلفة واجهت العمال عبر أوروبا منذ القرن السادس عشر كانت تكلفة الطاقة. وبالفعل، فإنه من خلال العواقب الجوية للطاقة الرخيصة سوف ينتهي أمر الغذاء الرخيص. ولنفهم كيفية ذلك، ننتقل الآن للحديث عن الطاقة الرخيصة.

---

(543) Peng et al. 2004; Cerri et al. 2007; Kucharik and Serbin 2008; Lobell, Schlenker, and Costa-Roberts 2011; National Research Council 2011; challinor et al. 2014; Shindell 2016.

(544) Braconier, Nicoletti, and Westmore 2014.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السادس

الطاقة الرخيصة

سيكون هذا موقعاً جيداً لقرية أو حصن، بسبب الميناء الجيد، والماء الجيد، والأرض الجيدة، ووفرة الوقود.

المذكرات اليومية لكريستوفر كولومبوس، الثلاثاء، 27 نوفمبر 1492م.

قبل أن يصل كولومبوس إلى العالم الجديد، كانت صناعة السكر التي دربته قد أحرقت ماديرا. إذ تحولت أشجار ماديرا (التي تعني «الخشب» بالبرتغالية) من مواد لصناعة السفن، إلى وقود، ثم إلى رماد. وأصبح هذا الخشب مصدراً للطاقة ليس لسبب كامن في خصائصه، بل عبر علاقات بشرية محددة. فتماماً مثلما يمكن استخدام غرافيت القلم الرصاص في المستوقد، أو تحويل الخث من سماد إلى مادة وقود للمدفأة، أو تحويل روث البقر من محسن للتربة إلى وقود للطبخ، تحوّل الخشب بفعل العلاقات المحيطة به، وقد شكل تكوين إيكولوجيا الرأسمالية تفاعل البشر مع الأشجار.

لطالما كانت النار جزءاً من الأرض منذ وجود الأشياء على الأرض اليابسة التي يمكن حرقها.[545] وقبل البشر، كان للنار إيقاعاتها الخاصة، إذ تغذت على مواسم عدة من الإشعال المتراكم، وتأججت بفعل التذبذبات المناخية المؤاتية. أما البشر فقد أشعلوا النار بدورهم في مجموعة واسعة من الأشياء. فعبر الطبخ تحول

. Bowman et al. 2009(545)

الإنسان المتنصب إلى **الإنسان العاقل**.[546] وكانت الحشائش هي أول وقود، ولكن روث الجاموس يبقى مصدراً غنياً للحرارة. وقد أشار هيرودت إلى أن عظام الحيوانات المسمنة كانت تستخدم وقوداً في سكيثيا.[547] كما تدل عظام الماموث المتفحمة على التاريخ الطويل لعلاقة البشر مع النيران. وقد أدى استيطان شعب الماوري في أوتيروا (نيوزيلندا) إلى خسارة نصف غاباتها.[548] بيد أن البشر أدركوا الحاجة إلى التقتير. وتترجم كلمة «تقتير» عادة إلى «الكف عن الشيء» – أي أداء تضحية باستهلاك حالي – ولكن الأدق من ذلك هو أن ندركها على أنها جزء لا يزول من الاستهلاك الحالي. ويمكننا أن نجد هذا القرار في سلالة تشاو (1122–1256)، والتي انخرطت في أولى المحاولات لإدارة الغابات، بما في ذلك إنشاء شرطة سفوح تلال الغابات.[549] وقد مارست الإمبراطورية التقتير للمحافظة على مصدر الطاقة.[550]

تمتلك إيكولوجيا الرأسمالية جغرافية نارية مميزة، هي جزء من سجل الأحافير. وكانت الشعوب الأصلية قد أحدثت تغييراً شاملاً في صفحة الأرض في العالم الجديد من خلال النار. ففي شرقي أمريكا الشمالية، ساهمت الشعوب الأصلية في إنتاج «خاصية الفسيفساء» للغابات، والسافانا، والمروج التي يعتبرها الأوروبيون طبيعة فطرية.[551] وفي الفترة ما بين وصول كولومبوس وعام 1650م تقريباً، انخفضت أعداد السكان الأصليين في الأميركيتين بفعل الأمراض والعنف الاستعماري بنسبة 95 بالمائة تقريباً. ومع وجود عدد أقل من الأشخاص ليحرقوا

---

(546) Berna et al. 2012.

(547) Herodotus 1945, 311, مصدر في Heizer 1963, 188.

(548) Mcglone and Wilmshurt 1999.

(549) Teng 1927.

(550) يستمر البشر في إدارة الاستخدام المستدام لموارد الغابات. وعندما يكون للمجتمعات البشرية استقلال كاف ووصول إلى أساس سميح لهم لتعافي من الخسائر الكوارثية التي تقع بين الفينة والفينة، فسيكون بإمكانهم إدارة مواردهم بشكل جماعي معاً بنجاح (Thirsk 1964). فعلى سبيل المثال، فإن أصحاب المشاعات في القرن الحادي والعشرين هم أفضل في رعاية الأشجار من الشركات أو الحكومات المركزية (Chhatre and Agrawal 2009).

(551) Cronon 1983, 51.

الغابات ويقطعوها، فقد تعافت بشدة حتى أصبح العالم الجديد بمثابة بالوعة للكربون على مستوى الكوكب. كما برّد نمو الغابات الكوكب بشكل كبير، وكأنما ساهمت محرقة الشعب الأصلي في شدة العصر الجليدي الصغير.[552] ومع حلول منتصف القرن السابع عشر سُجلت بعض أسوأ شتاءات مطلع العصر الحديث عبر أوراسيا والأمريكيتين. ولم يكن الأمر محض صدفة، إذ كان ذلك عصر الحرب الضارية والاضطراب السياسي، من بكين إلى باريس.[553] وتكراراً لفكرة من المقدمة، فإنه من الخطأ أن نصف هذه المرحلة من الإبادة الجماعية وإعادة الغابات بأنها من أنشطة البشر. إذ لم تكن الإبادات الاستعمارية للشعوب الأصلية من صنع كافة البشر، بل من صنع الغزاة والرأسماليين. ولذا فإن وصفها نتيجة للأنشطة الرأسمالية سيكون ملائما أكثر. وإذا ما ملنا إلى الجمع بين الرأسمالية والثورة الصناعية، فإن هذه التحولات كفيلة بأن تشير إلى أن الدمار في بداية الرأسمالية كان هائلاً إلى درجة أنه أحدث تغييراً في المناخ على مستوى الكوكب قبل أربعة قرون.[554]

بالنسبة إلى الكثيرين من عامة الشعب في أوروبا وخارجها، كانت الغابات والأراضي المُشجرة، وما تزال، أساسية لبقائها كما الغذاء. وقد انطوى على تدمير المشاعات أكثر من مجرد افتعال الجوع. إذ أزال أيضاً حقوق العوام في جمع الخشب، ما فرض شحاً في الوقود ومواد البناء. وفي أوروبا الإقطاعية، أدى التمدد الديموغرافي والاستيطاني في القرنين الحادي عشر والثاني عشر إلى الصراع ليس على الأراضي الزراعية فحسب، بل على الوصول إلى الغابات أيضاً، والتي كانت قد أصبحت مصادر دخل مغرية للنبلاء والملوك.[555] وعندما أُجبر ملك إنجلترا، الملك جون، على توقيع الماغنا كارتا في 1215 م، فمن الجدير بالذكر أنه أرغم على

---

(552) Dull et al. 2010.

(553) Parker 2014.

(554) S. Lewis and Maslin 2015.

(555) Birrell 1987.

توقيع وثيقة ثانية في ذات الوقت: وهي ميثاق الغابة. وفي حين اعتمدت الماغنا كارتا الحقوق القانونية والسياسية، فقد تناول ميثاق الغابة «البقاء الاقتصادي»: وهو تأمين ما أطلق عليه باللغة الإنجليزية «estovers» للفلاحين، وهو عبارة عن فئة واسعة النطاق من منتجات الخشب المعيشية.[556] وجاءت وثيقة الغابات لتؤمن وصول العوام الإنجليز إلى الوقود، والغذاء، ومواد البناء.

وفي ألمانيا، كما يشير بيتر لاينبو، «طالبت أول ثورة بروليتارية في التاريخ الحديث، وهي ثورة الفلاحين الألمان في عام 1512م، بإعادة الحقوق العرفية للغابات».[557] وقد تضمنت هذه الحقوق استخدام «الخشب الساقط بفعل الرياح، والأشجار الساقطة من جذورها، والأغصان، كما هي معرفة في المطالبات، وأيضاً بالقدر الذي يحط عليه النحل، والعسل في الشجرة، من دون قطع أي فرع رئيسي أو شجرة باللون المنصوص عليه».[558] وقد تقاتل الناس لقرون من أجل الوقود ومواد البناء التي تنشأ من الخشب. ومن الجدير ذكر كل هذا لأننا ننسى في كثير من الأحيان أن ثورة الطاقة الرأسمالية لم تبدأ بالفحم بل من الخشب – بالخصخصة التي انطوى عليها تسييج الغابات.

ولسنا نميّز في هذا الطرح التاريخ الأوروبي أو تاريخ أمريكا الشمالية فيما يتعلّق بالوقود عن سائر تاريخ إزالة الغابات في الصين مثلاً. فعلى الرغم من الآثار المخففة التي أحدثتها شرطة الغابة، إلا أنَّ إزالة الغابات الهائلة في الصين قبل ألف سنة كان لها عواقب استمرت حتى يومنا هذا: إذ يشكّل احتياطي الغابات للفرد في البلاد، والبالغ 10 أمتار مربعة (353 قدم مربع) ثمن المعدل العالمي.[559] بيد أن إيكولوجيا العالم في الصين لم تكن ملتزمة بغزو العالم، بل كانت أوروبا كذلك.

يعود السبب في تناول أمر الطاقة في أوروبا إلى الاستخدام المختلف للوقود –

---

(556) Linebaugh 2008, 6, 306.

(557) المصدر السابق.

(558) P. Lewis 1811, 186، مقتبس في المصدر السابق ص 8.

(559) Elvin 2004, 20.

وهو أحد أنواع الطبيعة الرخيصة – باعتباره جزءاً أساسياً من إيكولوجيا الرأسمالية. وتشكّل الطاقة الرخيصة طريقة لتعزيز العمل الرخيص والرعاية الرخيصة، والحل محلها في بعض الحالات. فإذا كان الغذاء الرخيص هو الطريقة الرئيسية للرأسمالية من أجل خفض تكاليف الأجور، فإن الطاقة الرخيصة هي العلة الضرورية للدفع بإنتاجية العمل. إذ يمكنها العمل بمثابة تسلسل منطقي، حتى إذا كان التاريخ الحقيقي أكثر تعقيداً. أولاً، كان لا بد من إخراج الفلاحين من المشاعات. وكان لا بد لهؤلاء العمال الجدد من إيجاد عمل مدفوع الأجر بشكل ما. ثانياً، كان لا بد للمعامل والمصانع التي توظف هؤلاء العمال أن تتنافس فيما بينها. وفي حين أن هنالك تاريخاً طويلاً حول رؤساء العمل الذين يجهدون عمالهم في العمل فوق طاقتهم، إلا أنَّ الصراع التنافسي فيما بين الرأسماليين تحدده في نهاية المطاف إنتاجية العمل وفي العادة فإننا ننظر إلى إنتاجية العمل – أي إنتاج المزيد من السلع لكل ساعة عمل – على أنها أمر تحدده الآلات.

بيد أن الآلات الرأسمالية تعمل لأنها تعتمد على عمل الطبيعة غير البشرية، وكان لا بد لهذه الطبيعة أن تكون رخيصة، لأن الطلب لا محدود. ولهذا السبب تصادف تسييج المشاعات على الأرض مع تسييج العالم تحت الأرض. وفي كل لحظة انقلبت فيها حياة الفلاحين رأساً على عقب في القرن السادس عشر في إنجلترا، كانت كبرى مناجم الفحم في البلاد تضخ الفحم بآلاف الأطنان. وهنا تنشأ طبقة جديدة من الرخص في صورة العالم الخاصة بنا: لا يتطلب المصنع العالمي للرأسمالية وجود مزرعة عالمية وأسرة عالمية فحسب، بل **منجماً** عالمياً أيضاً.

نستعرض في هذا الفصل كيف أصبحت الطاقة إحدى أشياء الرأسمالية الرخيصة، وذلك من خلال ثورات الطاقة في أوروبا والأمريكيتين، وما الذي تعنيه الطاقة بالنسبة إلى الإيكولوجيا العالمية في القرن الحادي والعشرين. ويمكن تصنيف الطاقة على أنها «شيء» طالما تحولت من كونها جزءاً من شبكة الحياة إلى سلعة يمكن بيعها وشراؤها. ولا تصبح الكائنات المتحجرة مواداً تأكلها النار أو توضع في خزان الوقود لمحرك ما إلا عبر إيكولوجيا الرأسمالية. ولكن نظام الطاقة

الرأسمالي يؤدي عدة مهام في وقت واحد. إذ إنَّه يجعل الطاقة ومستلزمات الإنتاج أرخص: فالفحم الرخيص يصنع الفولاذ الرخيص، والخث الرخيص يصنع الطوب الرخيص (أو الأرخص). وذلك يقلل من تكلفة القيام بالأعمال التجارية ويحسن الربحية.[560] كما تساعد الطاقة على الإبقاء على انخفاض تكاليف العمالة، وذلك بضبط أحد أكبر التكاليف (بعد الغذاء) في ميزانية الأسرة. فقد جعلَ التسييج الطاقة أكثر كلفة بالنسبة لغالبية الفلاحين عبر إزالة إمكانية وصولهم إلى المشاعات – والتي كان جمع الموارد فيها على عاتق النساء في الكثير من المناطق في العالم، كما إنها اجتذبت العمال إلى الاقتصاد النقدي، حيث كان لا بد لهم من الدفع مقابل مواد البناء والوقود.[561] وشكل ضبط تكاليف الطاقة طريقة أخرى للحصول على العمل الرخيص والمحافظة عليه. ولطالما كانت الطاقة جزءاً لا غنى عنه من الحياة، ولكننا كي نوضح كيف أن الطاقة جزء لا غنى عنه في إيكولوجيا الرأسمالية، نحن بحاجة أن نبدأ من مكان يقبع في مقدمة احتياطي الطاقة، وهو هائل إلى درجة أن هذه البلاد جرفت نفسها خارج الأرض: وهي هولندا.[562]

المرض الهولندي

لنبدأ بكلمات بيتر فوستر، والذي كان في عام 2012 الرئيس التنفيذي لشركة (Royal Dutch Shell):

في الولايات المتحدة على سبيل المثال، يقدّر المعهد الأمريكي للبترول أن صناعة الطاقة تدعم أكثر من 9 ملايين وظيفة بشكل مباشر وغير مباشر، ما يعادل 5 بالمائة من مجموع الوظائف في البلاد. وفي عام 2009م، دعمت صناعة الطاقة ما بلغ مجمعه أكثر من تريليون دولار من القيمة المضافة إلى الاقتصاد الوطني، وهو ما

---

(560) هذا النقاش ممتد لأكثر من قرن. أنظر Luxemburg (1913) 2003; Wallerstein 1974; Bunker 1985.

(561) Leach 1978, 64; Nathan and Kelkar 1997; Gylfason and Zoega 2002.

(562) Huber 2009; Abramsky 2010.

يمثل 77 بالمائة من الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة.

وبالإضافة إلى مساهماتها المباشرة في الاقتصاد، فإن الطاقة مرتبطة ارتباطا وثيقاً بقطاعات أخرى بطرق ليست واضحة بشكل مباشر. فعلى سبيل المثال، تتطلب كل سعرة حرارية نستهلكها معدل خمس سعرات حرارية من الوقود الأحفوري، أما بالنسبة إلى المنتجات عالية الجودة مثل اللحم فإن هذا المعدل يرتفع إلى 80 سعرة حرارية. كما أن الطاقة هي أكبر مستخدم صناعي للمياه العذبة، والتي تشكل 40 بالمائة من مجموع سحوبات المياه العذبة في الولايات المتحدة...

إن الجهات الفاعلة بحاجة إلى جعل دور قطاع الطاقة وما يترتب على عملنا من فوائد واضحاً، في حين أنه يمكننا أن نكون جديرين بالثقة فيما يتعلق بالعمل معاً عبر الحدود لمواجهة التحديات القادمة. وفي المقابل، سيمنح المجتمع ككل رخصة للعمل تنقصنا اليوم في كثير من الأحيان.[563]

كان من ضمن واجب فوسر أن يصنع انتصاراً لصناعة الوقود الأحفوري، بعد الاحتجاجات من أشخاص مثل أوغوني كين سارو-ويوا، والذي أعدم في عام 1995م، حين اعتبرت حياته رخيصة من قبل الشركة ونيجيريا بسبب تنظيم المظاهرات ضدهم.[564] وكما جاء في التاريخ الرسمي للشركة – والتي تأسست بهدف تطوير حقول النفط فيما يعرف اليوم بإندونيسيا: «لم يكن قيام شركة رويال داتش ممكناً لولا الانتصار في مجال السياسة الاستعمارية لتلك المبادئ الليبرالية التي يمكن وفقها بلوغ مصالح الهيمنة الآسيوية بأفضل شكل عبر المنافسة الحرة لرأس المال الغربي والعمالة الغربية في تنمية موارد تلك المناطق الإستوائية».[565] وكما هو واضح من الطفرة، وإزالة الغابات، والانهيار في ماديرا على مدى السبعين سنة الماضية، فإن انعدام استقرار الرأسمالية فيما يتعلق بالوقود هو جزء من الإيكولوجيا الخاصة بها. وليست الشركة سوى فاعل أخير في التاريخ الطويل للطاقة الرخيصة.

---

(563). World Economic Forum 2012, 3

(564). Westra 1998

(565). Gerreston 1953, 1

وقد قامت هذه الشركة على العوائد، والأموال، بناء على أزمة في الوقود في هولندا في القرن الخامس عشر، وذلك قبل عدة قرون من إنشائها.

وكانت التربة الهولندية يوماً ما مليئة بالذهب الأسود، ليس النفط، بل الخث، وهو مصدر طاقة ما يزال يستخدم اليوم للتدفئة حتى من أجل توليد الكهرباء.[566] وهو أصغر أنواع الوقود الأحفوري عمراً، ويقدم حوالي ثلثي طاقة الفحم بالوزن.[567] ويعتبر الخث سابقاً للفحم، إذ يتحول الخث إلى فحم بعد زمن وضغط مناسبين. وكان الخث – أي الفحم أيضاً – غطاء نباتياً في الأراضي المبتلة. ومع اضمحلال هذا الغطاء النباتي في شمالي أوروبا ووسطها، شكّل طبقات على شكل وسادات يبلغ قطرها أكثر من ميل (1.6 كيلومتر)، وقد تراكمت حتى شكلت مستنقعات مرتفعة. وبحلول مطلع القرون الوسطى، بلغ ارتفاعها 15 قدماً (4.6 كيلومتر) فوق مستوى سطح البحر. ولكن منذ القرن الحادي عشر، بدأ الفلاحون بجمع الخث من أجل التدفئة، وتكرير الملح، والبيع. وجعل استخراج هذه التربة الفوقية البلدان المنخفضة منخفضة أكثر فأكثر – وعرضة للتغير المناخي. وبالفعل، مع ازدياد برودة المناخ في شمالي أوروبا، وزيادة الأمطار، والعواصف، في نهاية القرن الثالث عشر، ازدادت الفيضانات عبر أوروبا، لا سيما في منطقة بحر الشمال، حيث كانت الأرض تغرق. ولم تشكّل التربة الرطبة أرضاً خصبة. ونعرف ذلك لأن الضرائب على زراعة القمح هبطت بحلول عام 1400م مع تفاقم أزمة إيكولوجية زراعية.[568] وقد أحاطت مدن أمستردام، ورودتردام، وأوترخت مسطحات كانت شبيهة «بالجبنة السويسرية، مع مستنقات الخث المستنزفة المليئة بالماء والتي لم يفصل بينها في كثير من الأحيان سوى ممرات ضيقة وضعيفة من اليابسة تنتشر عليها هياكل كانت يوماً ما مزارع».[569] وساهم التغير

---

(566) Andriesse 1988.

(567) Smil 2010, 83; R. Allen 2013; Oram 2013. Wrigley (1999, 95).

(568) Van Dam 2001.

(569) De Vries and van der Woude 1997, 182.

المناخي وإزالة أراضي الخث في خلق وضع كارثي: مع حلول عام 1500م «كان بحر الشمال يهدد بإغراق المجتمع الهولندي».[570] وفي تلك المرحلة، كانت زراعة الحبوب قد تلاشت فعلياً من المناطق الساحلية.[571]

وكان لذلك تداعيات على الاقتصاد الهولندي، ففي إنجلترا، نشأت القوى العاملة بفعل تسييج الأراضي.[572] أما في هولندا، فقد نشأت بسبب إغراق مستنقعات الخث واستخرجت احتياجات صناعة منتجات الألبان والمواشي الآخذة في الاتساع.[573] كما أن الخث جعل البلاد معتمدة على الطاقة الرخيصة. وخلال القرن السابع عشر، تم استخراج مليون ونصف طن من الخث وشحنه إلى مدن الجمهورية الآخذة في النمو سنوياً، وقد وصلت إلى أمستردام في عام 1636م فقط أكثر من 8 آلاف حمولة سفينة.[574] وبحلول عام 1650م، كان استهلاك الطاقة في الجمهورية الهولندية للفرد أعلى من الهند في عام 2000م.[575]

وبينما كان مجتمع الفلاحين الهولنديين يمر بوقت عصيب بشكل متزايد، كانت الرأسمالية الهولندية مزدهرة. وبالفعل، ازدهرت الرأسمالية لأن الفلاحين انتقلوا شيئاً فشيئاً للعمل في المدن.[576] وكان أحد الأمور الرئيسية في هذه العملية هو الغذاء الرخيص. وبدأ الهولنديون القرن السادس عشر الطويل بأعلى أسعار الحبوب في أوروبا الشرقية وأنهوا القرن ضمن أقل الأسعار.[577] وكما ذكرنا في الفصل السابق، جاءت هذه الحبوب من تخم في بولندا، وهو تخم ذو تربة خصبة، بالإضافة إلى نهر الفيستولا وأصحاب أراضي كانوا مستعدين للوقوع في «مذلة

---

(570) Van Dam 2001.

(571) Davids 2008.

(572) Brenner 1976.

(573) Brenner 2001.

(574) De Zeeuw 1978; De Vries and van der Woude 1997, 182.

(575) Smil 2010, 83.

(576) De Vries and van der Woude 1997; van Dam 2001.

(577) De Vries and van der Woude 1997, 199-200.

دين عالمية».[578] وأرسلت الترتيبات المالية المبتكرة الفضة الأندية من أمستردام وأنتويرب إلى بولندا مقابل القمح والشيلم. وشكل العجز التجاري جزءاً من استراتيجية الإبقاء على تدفق الغذاء الرخيص إلى المدن الهولندية الآخذة في النمو. وتماماً كما حدث في مادیرا، استمرت طفرة القمح والشيلم البولنديين من خمسين إلى خمس وسبعين سنة. بحلول ستينيات القرن السابع عشر، كان تآكل التربة قد خفض الغلال إلى النصف تقريباً، وكانت إيكولوجيا الرأسمالية قد تغلغلت واتسعت إلى خارج أرض بولندا الضعيفة.[579]

كان الهولنديون يدينون بمكانتهم العظمى لثورة زراعية وثورة طاقة. ولم تستمر في الاعتماد على الاستخراج الهائل للخث فحسب، بل أيضاً على التطبيق الريادي – والتطور التقني – لقوة الرياح على مجموعة واسعة من الممارسات الصناعية.[580] ومنذ منتصف القرن السادس عشر، انتشرت طواحين الهواء بكل أشكالها في رقعة الأراضي الهولندية، وعلى امتداد نهر زان، شمال أمستردام، كانت هنالك 600 طاحونة هوائية صناعية بحلول ثلاثينيات القرن الثامن عشر، أي واحدة لكل مائة متر (328 قدم).[581]

ولكن طريق هولندا نحو الرأسمالية واجه ثلاث عقبات خطيرة في وجه التوسع بعد عام 1650م. الأولى، أن البلاد لم يكن لديها أي غابات تذكر. وقد تجاوزت ذلك عبر قوة النقد الجاهز – وهو مورد كان متوفراً بكثرة لديها. إذ اجتاز التجار بحر الشمال إلى البلطيق من أجل الحطب الرخيص ومجموعة واسعة النطاق من منتجات الغابة اللازمة لبناء السفن وتبييض المنسوجات. أما المشكلة الثانية، فكانت أقل مرونة. إذ كان الخث متوفرا بكثرة ولكنه لم يكن رخيصاً على وجه التحديد. وقد ارتفعت تكلفته أسرع من مؤشر الأسعار في أنتويرب بمعدل 50

(578) Wallerstein 1974, 121-22.

(579) Toploski 1962; More 2010b.

(580) Davids 2008, 329, 408-9.

(581) Van der Woude 2003.

بالمائة، وذلك بين عامي 1480م و1530م.[582] وحتى مع وجود الابتكارات بعد عام 1530م والتي أتاحت استخراج الخث تحت خط الماء، استمرت الأسعار في اتجاهها الصاعد، فازدادت إلى ثلاثة أضعافها في شمالي هولندا في القرن التالي لعام 1560م.[583] وكان الفحم يستورد من ليبج القريبة (الواقعة في بلجيكا اليوم)، ولكنه استورد بشكل خاص من إنجلترا، بمكيات متزايدة – حوالي 65 طن سنوياً بحلول خمسينيات القرن السابع عشر.[584] وشكل ذلك قدراً كبيراً من الطاقة، وقد تحولت الصناعات الرئيسية القائمة بشكل كبير على الطاقة إلى الفحم حيث أمكن. وأحرقت معامل تكرير السكر – والتي كانت أبنيتها الضخمة ذات الخمسة طوابق أقرب ما يمكن للمصنع الحديث في القرن السابع عشر – الكثير من الفحم حتى إن مجلس مدينة أمستردام حظر تلك الممارسة في عام 1614م. بيد أنَّه مع تضاعف عدد معامل تكرير السكر في المدينة – مائة معمل مع نهاية القرن – تضاعف الطلب على الطاقة الرخيصة، أو الأرخص على الأقل. وعلى الرغم من الحظر الذي سجل «أكبر ندم لا يطاق» أحدثه حرق الفحم في مواطني أمستردام، أصبح حرق الفحم طوال العام مشروعاً في عام 1674م.[585] وكان الخث أنظف ولكن الفحم كان أرخص.

لم تتمكن هذه الخطوات من حل مشكلة هولندا الثالثة: وهي التكلفة العالية لليد العاملة. فقد كان النجاح الهولندي قائمًا على أزمة زراعية انتجت «إمداداً مرناً من اليد العاملة من البروليتاريين الأوائل».[586] وتلاشت تلك المرونة بحلول عام 1580م، وظلت الأجور الهولندية الأعلى في أوروبا حتى منتصف القرن الثامن عشر.[587] ومع حلول عام 1650م – وقبل ذلك ربما – كان الرأسماليون

---

(582) De Vries and van der Woude 1997, 37.

(583) Van der Woude 2003.

(584) Unger 1984, 245-46.

(585) Van der Woude 2003, 75.

(586) Van Zanden 1993, 172, مقتبس في Davis 2008, 18.

(587) De Vries and van der Woude 1997, ch. 12.

الهولنديون يمتلكون أعلى تكاليف الأجور في أوروبا، وهي تكاليف استمرت في الارتفاع بعد عام 1680م. وفي الفترة ما بين عامي 1590م و1730م، لم تقل الأجور الهولندية عن مستواها الأعلى من الأجور الإنجليزية بمعدل الثلث، والنصف في كثير من الأحيان.[588] بيد أنّه بسبب أشكال الاستعمار الإنجليزي الأكثر مناطقية سرعان ما تمكن الإنجليز من مواكبة الهولنديين.

حدث التحول إلى الاستخراج واسع النطاق للخث في هولندا والفحم في إنجلترا بشكل متزامن، في ثلاثينيات وأربعينيات القرن السادس عشر.[589] إذ يخبرنا تصورنا عن الثورة الصناعية أن الوقود الأحفوري اخترع في القرن الثامن عشر – ولكن الوقود الأحفوري، كالكثير غيره، كان نتاج القرن السادس عشر الطويل. وقد حدث أول تحول صناعي كبير في القرن ما بعد عام 1450م، إذ انتشر في التخوم العظمى لزراعة السكر واستخراج الفحم، كما رأينا، بل أيضا في بناء السفن، وصنع الجعة، وصناعة الزجاج والطباعة، والمنسوجات، والحديد، وصهر الحديد والنحاس.[590] وقد استهلكت جميعها بشكل أو بآخر كميات ضخمة من الطاقة.

كان الفحم يستخرج ويحرق بكميات متواضعة منذ زمن بعيد جداً؛ فبالنسبة إلى الرومانيين، كان الفحم «أفضل حجر في بريطانيا».[591] وفي القرن التالي لعام 1530م، ارتفع إنتاج الفحم ارتفاعاً شديداً، حتى وصل إل ثمانية أضعاف ما كان عليه.[592] وفي نيوكاسل وحدها، حيث كان الفحم سيد المشهد، ارتفع الإنتاج حوالي عشرين ضعفا بين ستينيات القرن السادس عشر وستينيات القرن السابع عشر، وهو ما شكّل ربما ثلث الفحم في إنجلترا كلها.[593] وربما كان الفحم سيد

---

(588) المصدر السابق.

(589) Nef 1934; De Vries and van der Woude 1997, 37-40.

(590) Nef 1964 يمثل سرداً كلاسيكياً لبداية التحول الصناعي. أنظر أيضاً Moore 20116, 78-115; 2017a.

(591) Solinus, Collectanea rerum memorabilium (Polyhistor) 22, مقتبس في Freese 2003, 15.

(592) Malanima 2009, 61.

(593) Braudel 1981, 369.

المشهد في نيوكاسل، أما من حيث نصيب الفرد، فإن إنتاج الطاقة الحرارية الهولندية كان مساوياً له في إنجلترا، أما الطاقة الميكانيكية فقد تجاوزت إنتاجها في إنجلترا، في القرن السابع عشر.[594] وكانت إنجلترا بالكاد تعتبر اقتصاداً منخفض الأجر في ذلك الوقت، وكانت الأجور الحقيقية في ارتفاع سريع أيضاً، على الرغم من نجاح التسييج ومصادرة الملكيات. ومع أن الأجور الإنجليزية بدأت في مستوى أدنى من الأجور الهولندية، إلا أنَّها تزايدت بشكل أسرع بكثير، فبلغت الضعف تقريباً في القرن التالي لعام 1625م.[595] ومع وجود الفحم، كانت أفضلية الاقتصاد الإنجليزي حاسمة: «إلا أنَّ حمل الأجور المرتفعة في إنجلترا عوضته الطاقة الرخيصة».[596]

قادت تكاليف العمال المرتفعة وتوفر الطاقة الرخيصة بغزارة في إنجلترا إلى سلسلة من الإنجازات التقنية في القرن الثامن عشر: استخدام أحد مشتقات الفحم، فحم الكوك، لصناعة الحديد، واستخدام محرك نيوكومن البخاري لاستنزاف مناجم الفحم، والتي كانت مستويات أعماقها الآخذة بالازدياد تعني الفيضانات المتواصلة.[597] وكان فحم الكوك معروفاً منذ القرن السابع عشر، إلا أنَّ الأمر استغرق سلسلة طويلة من الابتكارات بين عامي 1709م و1755م لجعل فحم الكوك مربحاً في إنتاج الحديد – ويعزى الفضل في ذلك عادة إلى توماس داربي.[598] وحرر ذلك الإنجليز من الاعتماد على الفحم الحجري. وشكل الحديد المصنوع باستخدام فحم الكوك 90 بالمائة من إنتاج الحديد الإنجليزي في عام 1784م،[599] مقارنة بنسبة القرن الثامن عشر. فصنعت الطاقة الرخيصة الحديد الرخيص، الذي صنع بدوره الأدوات والآلات الرخيصة. وطالما كان

---

(594) Wrigley 1990, 59.

(595) De Vries and van der Woude 1997, 631.

(596) R. Allen 2009, 105.

(597) المصدر السابق. بالأخص 156-81.

(598) المصدر السابق. 217-37.

(599) Fremdling 2005.

بالإمكان استخراج الطاقة بوفرة، كان بالإمكان ادخار تكاليف اليد العاملة ورأس المال، وأصبحت المواد الخام أرخص.[600]

ولسنا بصدد عرض كل ذلك بمثابة معجزة تقنية إنجليزية بحتة. فبعض التفسيرات قد تقودنا للاعتقاد بأن الرأسمالية الحقيقية لم تكن لتوجد لولا الفحم الإنجليزي. ففي الحقيقة، تسهل المبالغة في أهمية الفحم: حيث أن أهم الابتكارات في تصنيع الأنسجة، مثل المنوال الميكانيكي وآلة الغزل كانت قد سبقت استخدام البخار واسع النطاق ولم تأت بعده، حتى عام 1868م، كان ما نسبته 92 بالمائة من الأسطول التجاري البريطاني يشغل باستخدام الرياح وليس الفحم.[601] وما نعرفه كاف لندرك أن تخم الرأسمالية لم يكن يعتبر شيئاً إذا لم يكن ابتكارياً. ومن الممكن تصور التاريخ الإنجليزي من دون فحم، بوجود طاقة أكبر مستوردة ومكتشفة، وتصور القرن التاسع عشر عرضة لتمرد وعصيان اجتماعي أكثر مما كان عليه. وفي حين أنّنا نعتقد أن هذه الاضطرابات الاجتماعية ستكون مصير القرن الحادي والعشرين من دون تخوم الطبيعة الرخيصة، إلا أنّه من المهم فهم كيف تقاطعت الطاقة الرخيصة مع الغذاء، والرعاية، والمال، والعمل، لكي نرى نشأة النظام الاجتماعي عبرها. ولذا نستعرض هنا ثلاث محطات رئيسية في القرن العشرين تتضمن صراعات دولية حول الطاقة.

الغذاء في القرن العشرين

إن أولى المسائل التي تتجسد فيها أهمية الطاقة الرخيصة اليوم، وربما أهمها، هي عملية هابر-بوش، التي صنعت في مختبرات مصنع الإينيلين والصودا في راينش بالاتينات، وحصلا على براءة الاختراع في 13 أكتوبر 1908م. وكان فرتيز هابر، وهو باحث في جامعة كارلسراه، قد عرض طريقة لاستخدام الكيمياء الصناعية عالية الحرارة وعالية الضغط لإحداث تفاعل بين الهيدروجين (H_2) مع

(600) Von Tunzelmann 1981.

(601) Bonneuil and Fressoz 2016, 108-9.

النيتروجين الجوي (N_2) لإنتاج الأمونيا (NH_3). وقد قام كارل بوش، وهو مهندس في شركة BASF، بحل مشكلات ميكانيكية كبيرة انطوت على بيئة تشغيلية من أكثر من 100 غلاف جوي (1470 باوند لكل إنش مربع، أو 103 كيلوغرام لكل سنتيمتر مربع) لتسويق هذا التفاعل.[602] وكانت هنالك ضرورات استراتيجية خلف دراستهم. وكانت مادة الغوانو، وهي مصدر مهم للأمونيا، تستخرج من قبل ذلك بكميات هائلة، ثم حلّ محلها الملح الصخري من البيرو (نترات الصوديوم $NaNO_3$) من صحراء أتاكاما.[603] وكان هذا «الذهب الأبيض» ضرورياً لإنتاج البارود وخصوبة التربة، وكان البريطانيون يتحكمون بتجارته.[604] وقدمت عملية هابر-بوش بديلاً وكان بديلاً هاماً إلى درجة أن هابر فاز بجائزة نوبل في عام 1918، وفاز بها بوش عام 1931م. وفي واقع الأمر، كان ألفريد نوبل قد صنع ثروته من المتفجرات، أما ما قام به هابر وبوش فقد زوّد ألمانيا بالمستلزمات الأساسية لإنتاج ثالث نترات التولوين (TNT) الديناميت والغلغنيت (المتفجر الهلامي) والذي حصل نوبل على براءة الاختراع لقاءه. وقد أدت تجاربهما في هذا المجال إلى فصل تصنيع البارود عن عنليات استخراج الموارد الطبيعية من مواقع معينة، وسمحت بإنتاج الأسلحة عبر استخدام الطاقة والهواء فقط. وبالإمكان ربط أكثر من 100 مليون حالة قتل في النزاع المسلح بالانتشار الواسع للأمونيا الناتجة عن عملية هابر-بوش.[605]

ولكن الأمونيا مادة للحياة أيضاً. إذ أعلن جستس فون ليبغ، الذي ألهم فكر ماركس حول التفاعل الحيوي، في عام 1840م أنَّ معاناة الزراعة تكمن في إنتاج النيتروجين القابل للهضم بشكل يمكن التعويل عليه.[606] وفي العادة يصبح النيتروجين الخامل في الهواء إلى حد كبير متوافراً جيولوجياً من خلال تفاعله مع

---

(602) Smil 1999.

(603) Foster and Clark 2009.

(604) A. Offer 1991.

(605) Erisman et al. 2008.

(606) Foster 1999; Finlay 2002, 120.

البرق أو تثبيته في التربة من قبل الكائنات الدقيقة. ويشكل النيتروجين شرطاً لازماً، ومحفزاً عند توفره بكميات صحيحة، لنمو النبات. وعند جعل النيتروجين متوافرا جيولوجياً عبر عملية هابر-بوش، يتطلب ذلك كلفة عالية في الطاقة. ويتطلب حدوث التفاعل الهيدروجين، والذي يستلزم بدوره وقوداً رخيصاً. واليوم يأتي الهيدروجين المستخدم في إنتاج الأسمدة من الغاز الطبيعي بشكل رئيسي، على الرغم من أنه يمكن استخدام الفحم والنافتا[607] أيضاً. وذلك يجعل صناعة الأسمدة أكبر مدخلات الطاقة في الزراعة الصناعية الأمريكية.[608]

وخلال تحويل الهواء والوقود الأحفوري إلى سماد، فقد خفضت عملية هابر-بوش تكاليف الغذاء، والعمل، والرعاية.[609] وفور وصوله، در السماد غير العضوي الرخيص عائدات أعلى للمزارعين من أصحاب الأراضي، وأجوراً أقل لعمال الحقول، وأرسل موجات من السلع الغذائية، وهجر الفلاحين إلى المدن.[610] وقد مهد ذلك نمو جبال من الحبوب التي وجدت طريقها إلى معدات المواشي والدواجن التي يلتهم لحومها البشر في الشمال العالمي وحول العالم بعد ذلك بقليل. ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، أعيد توجيه الأمونيا من الذخيرة وتم تفجيرها في التربة. واستخدم ثلثا طفرة الحبوب الناتجة عن ذلك في الولايات المتحدة وأوروبا بمثابة علف للحيوانات. وسمحت عملية هابر-بوش بلحمنة النظام الغذائي العالمي – كما يسميها توني ويس.[611] ومع تسويق اللحوم على أنها مكون أساسي في الوجبة الحديثة، فقد ارتفع الطلب على الأعلاف ارتفاعاً كبيراً. ولتلبية الطلب، فقد أزال المزارعون في البرازيل جزءاً من الغابات لزراعة الصويا للدواجن، وهي عملية مسؤولية وحدها عن 2 بالمائة من كافة غازات الدفيئة

---

[607] ملاحظة من المترجمة: النافتا أو النفثا هي أحد منتجات النفط الوسيطة. وتستخدم في إنتاج بنزين السيارات، وتحضير المواد مثل الإيثيلين والبروبيلين.

(608). Beckman, Borchers, and Jones 2013, 14

(609). Erisman et al. 2008, 637

(610). Wills 1972; Patel 2013

(611). Weis 2013, 72

الناتجة عن الرأسمالية سنوياً.[612] ويكمن مثال آخر على رابطة الغذاء والسماد في هذه الحقيقة: ساهم التلاعب في أسعار الأسمدة في وقوع 44 مليون شخص تحت وطأة الفقر خلال أزمة أسعار الغذاء الأخيرة، في عامي 2007 و2008.[613] ولم يكن كل ذلك ليكون ممكناً، وهو جزء من مشروع لتدمير زراعة الفلاحين والطرق التقليدية لإعداد الطعام للشعب الأصلي، وحل زراعات المحصول الواحد الصناعية محلها، لولا تحويل الطاقة إلى محسن للتربة.[614] أو حسب ماركس، «كل التقدّم في زيادة خصوبة التربة لفترة زمنية محددة هو تقدّم نحو تدمير الموارد الأكثر استدامة لتلك الخصوبة. وكلما ربح بلد ما أكثر من الصناعة كبيرة الحجم باعتبارها خلفية لتقدمها...، كلما كانت عملية التدمير هذه أسرع. وهكذا فإن الإنتاج الرأسمالي لا يطوّر سوى التقينات ودرجة الاندماج للعملية الاجتماعية للإنتاج عبر تقويض الموارد الأصلية لكل الثروة في ذات الوقت – التربة والعامل».[615]

الفحم والعمل في القرن العشرين

يتطلب الإبقاء على الطاقة رخيصة تدخل الدولة المستمر. كما أن دعم الدولة ضروري للإبقاء على العمل الإنجابي مجاناً والعمل مدفوع الأجر رخيصاً. وعندما تخفق الدولة، نلحظ نشوء سياسة المقاومة، كما هي الحال في الحركات بتنوعها مثل الاحتجاجات تحت شعار «Occupy Nigeria» واحتجاجات الوقود في بريطانيا.[616] أما الرابط الثاني في القرن العشرين للوقود الرخيص فيربط بين الاحتجاجات الحديثة وحرب الفلاحين لعام 1525م. ولنتذكر أن الفلاحين أرادوا إمكانية الوصول إلى الخشب كونه يشكل وقوداً ومادة للبناء، وكان ذلك جزءًا من الحق في المشاعات في الغابات. كما أن سياسة المقاومة في القرن العشرين

---

(612) Woods et al. 2010.

(613) Gnutzmann and Spiewanoswski 2016.

(614) Friedmann 1993.

(615) Marx 1976, 638.

(616) Chiluwa 2015; Doherty et al. 2003.

مرتبطة أيضاً بالإسكان والطاقة.

يحتاج العمل إلى سقف فوق رؤوسهم – ليس سقفاً مجانياً. وكانت المنازل في كولورادو بنهاية القرن التاسع عشر تُبنى بالطوب – إذ كان الخشب أغلى من ذلك بكثير، بينما يمكن تصنيع الطوب باستخدام الطين والفحم المتوفرين محلياً. وقد جعل هذا التصنيع الطاقة ضرورية للإسكان. وقد خفضت تقنية استخراج الفحم من سعره، ولكن العملة ظلت تشكل 60-80 بالمائة من كلفته. وكانت هنالك طريقتان لإبقاء تلك الكلفة منخفضة، إما عن طريق دفع القليل جداً للعمال المهاجرين أو تسكينهم في بلدات الشركات، الأمر الذي أجبرهم على إعادة الأجور من أجل الإسكان، والخدمات مثل المدارس، ودروس اللغة الإنجليزية المخفضة، والمرافق الترفيهية. وفي حين لم يمتلكوا سوى القليل من السيطرة فيما يخص حياتهم، فقد شعر العمال أن بلدات الشركات تشبه إحياء النظام الإقطاعي عوضاً عن الرأسمالية المعتدلة. وعندما ضيقت شركة الوقود والحديد في كولورادو المملوكة من روكفيلير أجورهم عليهم، قاوم عمال مناجم الفحم.[617] ولا يزال إضرابهم الذي استمر من ربيع 1913م إلى شتاء 1914م علامة فارقة في تاريخ العمال في أمريكا. وفي 20 أبريل 1914م، قتل ما يقارب 20 رجلاً وامرأة وطفلاً في مخيم المضربين في لودلو، كولورادو. وقاد الغضب المترتب عن ذلك، وبالأخص ضد صاحب المنجم، جون دي روكفيلير الابن إلى تحقيق تقييدات حول عمالة الأطفال بسبب المزيد من النقابات، واستحداث يوم العمل ذي الثماني ساعات.[618]

ويشير تيموثي ميتشل إلى أن سياسة العمل الخاصة بالكربون كان لها تأثير كبير في القرن العشرين. ولندع مناقشة كون بلد «ملعوناً» بمورد مثل الوقود الأحفوري أو المعادن من عدمه.[619] ولننظر كيفَ أنَّ استخراج هذه الموارد قد أنشأ طبقة

(617) Andrews 2008.

(618) Zinn 2003.

(619) Watts 2004.

عاملة قادرة على مقاومة استغلالها والتي كانت مطالبها من أجل المساواة يمكن تلبيتها عن طريق الطاقة التي جعلت عملها مربحاً.[620] ودون سابق إنذار، كان يمكن تصور المصائر الوطنية أكثر من ذي قبل – على وجه الخصوص لأن هذه الأحلام الوطنية كانت مضمونة بفعل الطاقة الرخيصة.

النفط والمال في القرن العشرين

تأتي القصة الثالثة للطاقة الرخيصة في القرن العشرين من تحويل الطاقة إلى مال و«أسلوب الحياة الأمريكية».[621] وكانت الولايات المتحدة قوة نفطية في القرن العشرين. ورغمَ أنَّ روسيا كان لها المكانة الأعلى في مطلع القرن، إلا أنَّه مع اكتشاف النفط في بنسلفانيا، وتكساس، وكاليفورنيا، أصبحت الولايات المتحدة في المقدمة، بحلول عام 1945م، كان اثنان من كل ثلاثة براميل من النفط تنتج في الولايات المتحدة.[622] وظل الأمر على ما هو عليه حتى السبعينيات عندما حل الاتحاد السوفييتي، ومن بعده المملكة العربية السعودية محل أمريكا بصفتها منتج النفط الأول في العالم.[623] وارتفع إنتاج النفط العالمي ارتفاعاً كبيراً بعد الحرب العالمية الثانية، ليتجاوز النمو الاستثنائي لاقتصاد تلك الحقبة بحوالي 60 بالمائة.[624]

عندما تخلّت الولايات المتحدة عن معيار الذهب في أغسطس 1971م،[625] لجأ رأس المال العالمي إلى مشتريات السلع هرباً من «صدمة نيكسون». وفي الوقت ذاته، استبدل الاتحاد السوفييتي – بعد تدني المحاصيل – بنفطه القمح، ما رفع سعر الخبز. وبعد ذلك بأربعة عشر شهراً قامت منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك)

---

(620) Mitchell 2009.

(621) Painter 2014.

(622) Huber 2013.

(623) Kander, Malanima, and Warde, 2013, 260-64; Painter 2014.

(624) ازداد انتاج النفط العالمي بنسبة 7.79 بالمائة بين عامي 1950م و1973م، مقابل 4.9 بالمائة في نمو الناتج المحلي الإجمالي (محسوب من Maddison 2007, 380; EPI 2010, 2).

(625) Prashad 2012.

بالإعلان عن ارتفاع في ضريبة إنتاج النفط بنسبة 70 بالمائة، وذلك استجابة لتداعيات حرب أكتوبر بين مصر وإسرائيل.[626] فقفزت أسعار النفط العالمية من 3 إلى 12 دولار للبرميل. وكانت تلك استجابة بلدان أوبيك لتصدير الولايات المتحدة للتضخم المقوّم بالدولار. وبحسب شاه إيران، فإن الولايات المتحدة كانت قد «رفعت سعر القمح التي تبيعه لنا بنسبة 300 بالمائة، وكذلك بالنسبة إلى السكر والإسمنت».[627] دفع العالم سعراً أعلى للنفط، ووجدت بلدان أوبيك نفسها تحقق دخلاً كبيراً، وأصبحت احتياطات القمح تعرف بالدولارات النفطية. وكانت تلك الاحتياطات بحاجة إلى العوائد، لذا تم تدويرها مرة أخرى إلى البلدان المستوردة للنفط بمثابة قروض منخفضة الفائدة. ولنعتبر ذلك مالاً مدعوماً ليس بالفضة، بل بالنفط – «معيار نفط فعلي».[628] وقد ضاعفت صدمة فولكر في عام 1979م معدلات الفائدة الحقيقية إلى ثلاثة أضعافها على هذه القروض النفطية على مدى السنتين التاليتين.[629] ولتجنب التخلف عن الدفع، فقد التجأت البلدان المدينة، والتي كانت غالبيتها من الجنوب العالمي، إلى الدائنين الوحيدين الذين قد يفكرون بهم: أي صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، وهما مؤسستان يمكنهما إدارة برامج التقشف، والحكومات الصغيرة، والأسواق الحرة، عبر مبادئ الصدمات الخاصة بهم.[630] وهكذا مهد الدولار النفطي للتاريخ المؤسف للحكومة الليبرالية الجديدة.

بيد أن الاقتصاد السياسي للطاقة قد تغيّر على مدى العقدين السابقين. فخلال الثمانينيات والستعينيات، ارتفعت تكاليف إحضار برميل نفط جديد واحد إلى السوق بنسبة قاربت 1 بالمائة لكل عام. وقد تحوّل ذلك – بشكل هائل – مع نهاية القرن. فبين عامي 1999م و2013م، ارتفعت تلك التكاليف بنسبة

---

(626) Mitchell 2011, 184.

(627) شاه إيران، مقتبس في D. Smith 1973، في Prashad 2012, 57.

(628) K. Philips 2009, 15.

(629) Panitch and Gindin 2012.

(630) N. Klein 2007.

قاربت 11 بالمائة في كل عام. أما في حقول النفط الأغلى في العالم – أي الحقول العشرة الأولى في الإنتاج، والتي تحدد في الغالب توقعات أسعار النفط المستقبلية – فقد ارتفعت تكاليف الإنتاج إلى عشرة أضعافها بين عامي 1999م و2007م، وإلى ثلثيها منذ ذلك الوقت.[631] ويقترب النفط الرخيص من نهايته حتى مع توجه التغير المناخي نحو قتل 100 مليون شخص بحلول عام 2030م.[632] ولا تقتصر تلك النهاية على الموت القادم فقط: فالأمور أكثر تلوثاً وعنفاً مما كانت عليه على الإطلاق، بينما تعيد النزاعات الممتدة من ألبيرتا إلى إكوادور إلى الأذهان معركة القرن السادس عشر بين الشعوب الأصلية المنقبين عن الموارد، وما يرافقها مرة أخرى من تداعيات على الكوكب.

ما أهمية النفط الرخيص؟ الأمرُ لا يعني أنَّ الرأسمالية لا يمكنها تدبر أمرها من دون الوقود الأحفوري. فمع ذلك، لا يهتم تجار التجزئة والمصنعون إذا أتت كهرباؤهم من الأحافير القديمة، وطواحين الهواء، أو الشرائح الشمسية. ولكن النفط الرخيص مهم جداً لأن الرأسماليين اليوم لا يرغبون في دعم أنواع الاستثمار الضخمة التي قد تجعل التحول للطاقة الشمسية ممكناً. ومن الواضح أنَّ بعض الأعمال التجارية ستربح من مختلف مبادرات الطاقة المتجددة. إلا أنَّه من الصعب التصديق أن كل الأعمال التجارية في العالم سوف تساهم بمبلغ 45 تريليون دولار، وهو المبلغ اللازم لتحول واسع النطاق لمصادر الطاقة المتجددة بحلول 2050م.[633] وإذا كان التحول للطاقة الشمسية سيحدث في ظل الرأسمالية، فسيكون فقط لأن الحكومات ستدفع ثمنه.[634] إذ تركت الممارسة الليبرالية الجديدة القليل فقط من الحلول السياسية للحكومات خارج نطاق الإعفاء الضريبي – وفي بلدان مثل الولايات المتحدة، فإن فرض الضرائب على الشركات

---

(631) Baffes et al. 2008, 60; IMF 2008, 95; Bina 1990; FTI Consulting 2016; Chapman 2014.

(632) DARA and the Climate Vulnerable Forum 2012.

(633) IEA 2008, 3.

(634) Parenti 2016.

هو بالفعل في أخفض مستوياته تاريخياً، حيث تعدُّ شركات التقنية التي تزعم أنها «خضراء»، (أبل وغوغل) المستفيد الأكبر.[635] وسندفع جميعاً في نهاية المطاف للإبقاء على أسعار أسهم هذه الشركات مرتفعة.

ونود أن نختم بمناقشة عنصر «الرخص» في «الوقود الرخيص». فأزمة الوقود لا تكمن في نقص أو فرط الإنتاج. ولا يشكل الابتعاد عن الوقود الأحفوري نهاية نظام الطاقة الرخيصة. وبالتأكيد، فقد أتاحت أزمة المناخ فرصة للتمويل ليكون آلية لخلاص العالم: فمن خلال أرصدة الكربون الائتمانية، وعمليات المقاصة، ورخص تلويث الغلاف الجوي يمكن إنقاذ الغلاف الجوي – أو هذا ما قيل لنا.[636] وهنا يمكن إنهاء أمر المشاعات أخيراً – من خلال التوريد الخارجي المالي بالكامل للمسؤولية الجماعية، وتحويل ما يلزم أن يكون قرارات جماعية بشأن مصير المشاعات إلى منتج مالي في الأسواق العالمية.

بيد أنَّه لا يمكننا اختتام النقاش حول الطاقة دون الإشارة إلى أن الوكالة الدولية للطاقة قد أعلنت في عام 2016م أن قدرة الطاقة المتجددة تتجاوز قدرة الفحم.[637] فهل يجعل ذلك النقاش بشأن الطاقة الرخيصة موضع جدل؟ بالكاد. فلننظر فقط داخل بطاريات الثورة الشمسية، وسنجد معدن دموية من جمهورية الكونغو الديمقراطية وبوليفيا.[638] ويشبه مجمع استخراج الليثيوم في بوليفيا بوتوسي وكأنها بعثت من جديد.[639] وكان تشييد السدود في الأنهار باعتباره طريقة لمواجهة التغير المناخي أمراً كارثياً – وجزءاً من استراتيجية لتجير الشعوب الأصلية.[640] فالابتعاد عن الوقود الأحفوري والاتجاه نحو السدود ما يزال يفضي إلى انقراض للكائنات متوقع بالكامل وقد يرفع نسبة انبعاثات غاز الدفيئة

---

(635) Srnicek and 2017.

(636) Larry Lohmann 2008.

(637) IEA 2016.

(638) Emmanuel DeMerode.

(639) Revette 2016.

(640) International Rivers Network 2011.

مع تحلل إيكولجيا السدود التي صنعها الإنسان.[641]

والأهم من ذلك كله، أن استراتيجية الوقود الرخيص لا تعتمد على الكربون. كانت تعتمد على الكربون في الماضي ولكنها قد لا تحتاج إلى ذلك في المستقبل. فعلى سبيل المثال، تكشف السدود الكهرومائية أن استراتيجية الطاقة الرخيصة تعتمد دائماً على الدول. فهي تتطلب العنف الذي تعرض لها القطاعان العام والخاص، والتي سمحت بها إيكولوجيا العالم التي تمتد إلى ما وراء الطبيعة الرخيصة والتي مهد لها فهم جماعي أن الطاقة الرخيصة هي جزء من المكافأة **الوطنية**. فمن خلال الأفكار الجماعية للقومية الجماعية، من البترول المدعوم في الهند، عبر عائدات النفط في فنزويلا، إلى أسعار الغاز المنخفضة في الولايات المتحدة. ولكي يتحمل الفقراء تكلفة مشاريع الطاقة، نحن في حاجة إلى مجموعة من الأفكار الحاكمة والمؤسسات التي تتحكم في أفكار المصير الجماعي. ولفهم هذه الأفكار للمصير الجماعي والعنف، ننتقل إلى الشيء الرخيص الأخير: حياة الأشخاص.

---

(641) Benchimol and Peres 2015.

الفصل السابع

حياة الأشخاص الرخيصة

قدّم كولومبوس لملك إسبانيا وملكتها في رحلته الثالثة إلى العالم الجديد وصفاً لجزيرة يمكن بناء حصن عليها، قائلاً:

وإن كنت لا أرى لذلك حاجة، فهؤلاء الناس بسيطون للغاية من حيث استخدام الأسلحة، كما سترون ذلك جلالتكم من السبعة الذين أمرت بأخذهم، لجلبهم إلى البلاد، فيتعلموا لغتنا ويعودوا؛ ما لم تأمروا جلالتكم بإحضارهم جميعاً إلى قشتالة، أو إبقائهم أسرى في ذات الجزيرة؛ إذ يمكن إخضاعهم جميعاً باستخدام خمسين رجل وإجبارهم على القيام بما يؤمرون به.[642]

أدرك كولومبوس في وقت مبكر الفرق بين إنشاء مستعمرة والحفاظ عليها. عندما غرقت سفينة سانتا ماريا خلال رحلته الاستكشافية الأولى، ولم تتسع السفن الأخرى لطاقم السفينة لإعادتهم إلى البلاد، أنقذ البحارة ما يمكن إنقاذه من سفينتهم، وبأمر من كولومبوس، قضوا عيد الميلاد في إسبانيولا. وقد تضمنت هذه المجموعة المؤلفة من أربعين مستعمراً دييغو دي أرانيا، أحد أقرباء عشيقة كولومبوس. وكان جميعهم قد توفوا مع عودة كولومبوس في رحلته الثانية. واكتشف أن رجاله قتلوا بسبب اعتدائهم على نساء الشعب الأصلي. وكانت الرحلة الثانية على أهبة الاستعداد لمواجهة اضطرابات السكان المحليين بشكل أفضل مما كانت عليه الرحلة الأولى. إذ كانت مجهزة بتكليف رسمي للاستعمار، وسبع عشرة سفينة، وألف ومائتي رجل، والمواشي والدواجن – والأمراض

. Columbus 2003, 114(642)

المصاحبة لها، والتي انتشرت في السكان الأصليين كالنار في الهشيم. وعلى الرغم من أن إراقة الدماء كانت جزءاً من الاستعمار، إلا أنَّ الاستعمار لم يكن يوماً قائماً حصراً على القوة الغاشمة. وإن كان كولومبوس ومن جاؤوا بعده قد حملوا السلاح، إلا أنَّهم أيضاً جاؤوا بمنظومة ولغة شرعتا استخدام القوة. وربما تكون الرأسمالية قد استولت على العالم الجديد بالسلاح، والجراثيم، والفولاذ،[643] إلا أنَّ المحافظة على النظام في العالم الجديد تحققت عبر الأعراق، والرقابة على المجتمع، والأرباح. وتشكّل تقنيات الهيمنة والنظام هذه موضوع الفصل الأخير.

ترافقت الأشياء الرخيصة كما رأينا حتى الآن مع أعمال مقاومة منظمة. فقد ناضل ضد التبعية كل من النساء، والعمال المأجورين، والسكان الأصليين، وحتى هؤلاء الذين أفلت الشمس على ثرواتهم ممن كانوا ينتمون إلى الطبقة الحاكمة. ورداً على هذه المقاومة، استحدث الرأسماليون استراتيجيات جديدة لإنشاء تخوم جديدة وتعزيز التخوم القائمة. وشكلّت لعبة القط والفأر هذه فيما بين المقاومة، والاستراتيجية، والاستراتيجية المضادة تاريخ إيكولوجيا الرأسمالية. وقد بلغ كلّ من الحكومات، والتجار، والممولون آفاقاً جديدة من الابتكار والدمار في سبيل البحث عن الربح. ولكن إيكولوجيا الرأسمالية وسّعت من رقعتها وعززت كيانها من خلال إجراء التجارب المذهلة في فنون النظام الاجتماعي وعلومه. ومن بين تقنيات الضبط الاجتماعي الأكثر استمرارية ومرونة تقنية أصبحت مألوفة إلى درجة يسهل معها نسيان بدعتها وغرابتها: الدولة القومية.

يدفع هذا الفصل بفكرة أن إيكولوجيا الرأسمالية شكّلت الدولة القومية الحديثة، والعكس صحيح، وذلك من خلال التخم الاستعماري، ومن خلال التفاعل بين الرأسماليين الأوائل و«الهمجيين»، وكذلك من خلال تقنيات التواصل التي عززتها الرأسمالية في بدايتها. ولطالما جرى تنظيم المجتمع وإعادة تنظيمه عبر الأشياء الرخيصة باستخدام القوة والإقناع، الإكراه والرضى معاً. وكما

(643) أنظر Diamond 2005.

يشير أنطونيو غرامشي فإنَّ المحافظة على الهيمنة تعني توظيف القوى والحفاظ عليها من كافة أطياف المجتمع لتشكّل كتلة قادرة على هزيمة منافسيها باستمرار.[644] وسعياً لتحقيق النظام والهيمنة، غدت فكرة «القومية» ملاصقة للدولة بطرق لم يكن ليتوقعها سوى القليل من الأشخاص، وهي فكرة ما تزال تعمل على تشكيل كوكبنا.

إن الإبقاء على الأشياء رخيصة أمر مكلف. إذ تشكّل قوى حفظ القانون والنظام، محلياً ودولياً، جزءاً باهظ الثمن من إدارة إيكولوجيا الرأسمالية. وقد جعلنا هذا الفصل تحت عنوان «حياة الأشخاص الرخيصة» وليس «الدولة باهظة الثمن» رغبة منا في تسليط الضوء لا على المؤسسات الحكومية بل على عملياتها والعواقب المترتبة عليها. وفي الحقيقة، فإن حياة الأشخاص ليست رخيصة بذات الطريقة التي كانت بها الأشياء الأخرى رخيصة. ولكن الإقرار بذلك مسبقاً كان ليجعل عنوان الكتاب غير موفق. ولكننا إذا ما فهمنا كيف جعلت الرأسمالية «حياة الأشخاص الرخيصة» استراتيجية للطبيعة الرخيصة، فإننا سنفهم القوى اللازمة للإبقاء على المال، والعمل، والرعاية، والغذاء، والطاقة رخيصة، وكذلك سنفهم كيف أن الدولة القومية، وهي أكثر المؤسسات الحديثة تطوراً ودقة، ما تزال تعتمد على الجذور الحديثة الأولى والعلوم الطبيعية في إدارة الحياة الحديثة. والأهم من ذلك هو أنه بينما تواجه الدول حدود قدرتها على إدارة حياة الأشخاص التابعين لها، وتوفير البيئات الناقلة للرأسمالية الليبرالية فإننا نقترب من نهاية حقبة حياة الأشخاص الرخيصة. ولسنا نتبنى هذا الاعتقاد لنسوّغ لما سيأتي بعد الدولة القومية الليبرالية، بل من منطلق شعورنا بالقلق إزاء ما هو آت. وقد تدارسنا التاريخ بتمعن كاف لنعرف أن القادم قد يكون أسوأ بكثير.

تماماً كما كانت الحال مع كل الأشياء الرخيصة في حكايتنا، فإن عناصر الدولة القومية الحديثة وحياة الأشخاص الرخيصة الخاصة بها قد سبقت وجود

(644) Gramschi 1978 . أنظر أيضاً S. Hall 1996.

الرأسمالية. فقد وضع علماء الفسيولوجيا الكلاسيكيون وفي بداية العصر الحديث، أمثال هنري كورنيليوس أغريبا وباراسيلسوس، وأندرياس فيساليوس تصنيفات بشرية تتضمن حصيلة مفردات يمكن من خلالها استقراء مكان أجساد الأشخاص في التسلسل الهرمي الاجتماعي.[645] وتربع البشر المشابهون لهؤلاء المؤلفين على حدود هذا التسلسل الهرمي. وعلى الطرف الآخر، كان «الوحوش»، وكان بالإمكان تفسير السمات الفسيولوجية الوحشية إذا لزم الأمر على أنها ظواهر طبية لاختلافات فطرية في المجتمع، الأمر الذي أسس إلى حد ما لفكرة إمكانية خلق الأنساب المختلفة وتتبعها.[646] وتماماً مثل مصطلح **همجي** فقد كان لا بد لمصطلح **وحش** القريب منه أن يثير القلق لارتباطه بكائنات عابرة للحدود بين البشر والحيوانات غير البشرية. وقد أجاز مصطلح الوحشية فكرة الدم النقي – أي إنه لا يمكن لسلالة ذات دم نقي أن توجد إلا مع وجود خطر «التزاوج الشنيع» الذي يمكن أن يدنسها. [647]

إن هذه الأفكار حول التسلسل الهرمي والأجساد ليست أفكاراً جديدة. ولكن الأمر يتطلب وجود أنواع خاصة من المؤسسات لنشر هذه الأفكار وتسليحها. والدولة القومية هي من هذا النوع من المؤسسات التي نشأت عبر الرأسمالية ومحض الصدفة. ولكي نفهم كيف حدث ذلك، لنعد إلى الموت الأسود. ففي نهاية القرون الوسطى في أوروبا كانت المجتمعات اليهودية في عدد من المدن والدول قد تمكنت من التوصل إلى اتفاقات تسمح لها بممارسة دينها بحسب قوانين لم تكن تأتي من روما أو يقوم بتفسيرها أساقفة محليون، بل من التوراة ويفسرها الحاخامات. ولطالما كانت تلك الهدن محفوفة بالمخاطر. وخلال فترة الحروب الصليبية، أصدر البابا إنوسينت الثالث (حكم 1198–1216) وثيقة بعنوان (Constitutio

---

(645) Hannaford 1996.

(646) Grosfoguel and Mielants 2006.

(647) B. Anderson 2006, 149.

Judaeorum) تلزم الحكام باحترام اليهود.[648] بيد أنه في ذات الوقت ألزم اليهود بالظهور بمظهر مختلف حتى يتنسى لهم الحصول على هذه الحماية. فتعين عليهم لبس شارة «مصنوعة من اللباد الأحمر أو القماش الأصفر الزعفراني» – وذلك من أجل سلامتهم، ولمنع تزاوجهم مع المسيحيين.[649] وأصبح أمر الرقابة على سلالة الدم ذا أهمية كبيرة عندما اتُّهِم أبناء سلالة الدم هذه بالقتل الجماعي.

دخل الموت الأسود المشهد في عام 1347م. وتشير آخر تحليلات للحمض النووي من الجثث التي عثر عليها في مواقع الطاعون إلى أن بكتيريا تسمى بيرسينيا بيستيس قد تسببت في المرض[650] وقد نقلت إلى أوروبا عبر طريقين مختلفين على الأقل، أحدهما عبر جنوب فرنسا، والآخر عبر النرويج والبلدان المنخفضة. وكانت حصيلة الخسائر في الأرواح ستكون أقل مما كانت عليه لولا الاضطرابات الإيكولوجية الاجتماعية في نهاية الفترة الدافئة في القرون الوسطى والتي ناقشناها في المقدمة والفصل الأول. بيد أن الأوروبيين في القرون الوسطى كانت لديهم حقائق أخرى. إذ تذكر إحدى الروايات المؤثرة من لويس سانكتوس من بيرنجين في عام 1348م أن مسببات المرض كانت قد وصلت في مشهد مألوف لمحبي أفلام الزومبي، عندما قدمت السفن التي كانت قد شهدت أمطاراً من العقارب في الهند إلى جنوى، ثم رست بعد طردها من هناك في مارسيليا. واكتشف الأشخاص الذين كانوا على الشاطئ وجود أفراد الطاقم إما ميتين أو يحتضرون فأرسلوا السفينة إلى البحر مجدداً، ولكن الأوان كان قد فات لإيقاف الوباء.[651] واعتقد لويس سانكتوس أن الطاعون أرسل عقوبة إلهية بسبب أفعال جوفانا ملكة نابولي، التي قتلت زوجها أندراس ملك المجر.[652]

كان الأهم من الخوف من عدوى شرقية أو فظاعة تقل امرأة لمالكها الشرعي

---

(648) Anonymous 1893, 128.

(649) Graetz (1894) 1976, 612. أنظر أيضاً Hannaford 1996, 13-15.

(650) Haensch et al. 2010.

(651) Aberth 2005, 21-22.

(652) Goldstone 2011, 2.

هو النظريات التي ألقت باللوم على الجماعة اليهودية التي كانت قد بدأت تتضح معالمها قبل ذلك بقليل. ورداً على الوباء، عذب اليهود وأجبروا على الاعتراف بتسميم المدن. وعلى الرغم من أن البابا كليمنت الخامس (حكم 1342-1352) حرّم القتل خارج حدود القانون، والاعتناق القسري للمسيحية، وتدنيس الممتلكات في عام 1348م، إلا أنَّ ذبح اليهود انتشر في أرجاء أوروبا مع انتشار الوباء في السكان. وقد حدثت إحدى هذه الفظائع الكثيرة على سبيل المثال في 9 يناير 1349م، عندما تم تعميد كافة أطفال اليهود في بازل قسراً، ومن ثم أحرق كافة اليهود البالغين في المدينة وعددهم ستمائة شخص «على الضفة الرملية لنهر الراين».[653] كما جرى قتل الآلاف في مذابح مدبرة مدعومة من الدولة المدينة، وانتحر أعضاء بعض المجتمعات اليهودية قبل أن يتم تعذيبهم وقتلهم على يد جيرانهم. وقد وقعت هذه الفظائع رغماً عن التعليمات المتكررة من روما. وكانت سلطة الكنيسة الكاثوليكية على مراكز التجارة الأوروبية قد بدأت في التلاشي شيئاً فشيئاً، في حين كانت سابقة تحويل بعض الأشخاص إلى أشياء قد ترسخت بالفعل.

العنصرية المستندة إلى العلم والسياسة الاستعمارية

كان مفهوم الدم النقي، وسلطة الدولة المتزايدة مقارنة مع روما، ومجموعة المؤلفات التي تقر بفكرة الترتيب الطبيعي للبشر، كلها قد ترسخت بالفعل. وكانت تستخدم لتغذية وفرض أنواع جديدة من الحوكمة، ومرة أخرى كان المكان الذي مورست فيه هذه الأنواع الجديدة من التحكم العلمي الاجتماعي هو التخم الاستعماري.

ففي إسبانيا الجديدة ظهر نظام أطلق عليه مسمى نظام الطبقات الاجتماعية (بالإسبانية: sistema de castas) ليكون بمثابة طريقة للرقابة على المواطنين، والضرائب، ومتطلبات العمالة، وكذلك القرب من الرب. وقد صنف هذا النظام

---

(653). Cohn 2007a, 20

البشر بحسب دمهم، مع ظهور تصنيفات وكأنها إجابة عن مسألة رياضية توافقية. فمن العبيد الأفارقة الأصليين، والشعوب الأصلية، والإسبان، ظهرت فئات مثل:

Españoles	وهم الإسبان.
Peninsulares	وهم الإسبان وغيرهم من الأوربيين المولودين في أوروبا.
Criollos	وهم الإسبان وغيرهم من الأوروبيين المولودين في الأمريكيتين.
Indios	وهم الأمريكيون الأصليون.
Mestizos	وهم الأشخاص المنتمون إلى نسب أمريكي أصلي أو أوروبي غير معروف.
Castizos	وهم الأشخاص ذوو النسب الأوروبي بنسبة 75% والأصلي بنسبة 25%.
Chalos	وهم الأشخاص ذوو نسب أمريكي أصلي وبعض النسب من الأمريكي الأصلي أو الأوروبي غير المعروف.
Pardos	وهم الأشخاص ذوو النسب الأوروبي، والأفريقي، والأمريكي الأصلي.
Mulatos	وهم الأشخاص ذوو النسب الأفريقي والأوروبي.
Zambos	وهم الأشخاص ذوو النسب الأمريكي الأصلي والأفريقي.
Negros	وهم الأفارقة.

وفي الحقيقة، فقد تطلبت التعقيدات المتعلقة بالنوع الاجتماعي، والجنس، والتاريخ، مفرداتها وحساباتها الخاصة:

1. español (ذكر) + negra (أنثى) = mulato
2. mulato (ذكر) + española (أنثى) = testerón أو tercerón
3. testerón (ذكر) + española (أنثى) = quarterón
4. quarterón (ذكر) + española (أنثى) = quinterón
5. quinterón (ذكر) + española (أنثى) = blanco أو español común.
6. negro (ذكر) + mulata (أنثى) = sambo
7. sambo (ذكر) + mulata (أنثى) = sambohigo
8. sambohigo (ذكر) + mulata (أنثى) = tente en el aire
9. tente en el aire (ذكر) + mulata (أنثى) = salta atrás
10. español (ذكر) + india (أنثى) = mestizo real
11. mestizo (ذكر) + india (أنثى) = cholo
12. cholo (ذكر) + india (أنثى) = tente en el aire
13. tente en el aire (ذكر) + india = salta atrás
14. india (ذكر) + negra (أنثى) = chino
15. chino (ذكر) + negra (أنثى) = rechino or criollo

16. criollo (ذكر) + negra (أنثى) = torna atrás[654]

يعتبر هذا خليطاً من قوعد اللغة، وعلم الوراثة، والرياضيات، والغائية والتي تشير بعض الفئات فيه إلى أن أبناء الإسبان وغيرهم من الأوروبيين المولودين في الأمريكيتين والأفارقة «يعودون» دائماً إلى إفريقيا، أو أن خلط ذكر sambohigo مع أنثى mulata هو أمر «معلق في الهواء».[655] وحال تعيين هذه التصنيفات، تم فرضها على الناس. ما يعني أن الرقابة جرت بشكل آني على أجساد النساء، وعلى العمال، والضرائب، والدين، وحقوق الملكية. وأنشأت الدولة الاستعمارية فئات جديدة، وأشكالاً جديدة من الطبيعة، لتلبية الاحتياجات العمالية من أجل مسكوكات الفضة وبعدها الإنتاج الزراعي بغرض البيع والربح في أوروبا. وجاءت كل من هذه الفئات الحكومية مع واجبات، وامتيازات، ومعاملات ورقية محددة، بما في ذلك الشهادات المتعمدة لنقاء الدم ومعدلات الضريبة. وهكذا كانت بعض الأرواح أرخص من غيرها حرفياً.[656]

كما أسهمت علوم الطبيعة في ترسيخ هذا النظام. فقد وضع السويدي كارل لينايوس (1707–1778) مجموعة المصطلحات التي يعرّف البشر حسبها أنواع الكائنات حتى يومنا. ففي كتابه «النظام العام للطبيعة» يقدم تصنيفاً نوعياً يضع البشر في طائفة الثدييات، رتبة الرئيسيات، جنس **الإنسان**، نوع **الإنسان العاقل**. ولكنه أيضاً وضع مرئيات حول أنواع مختلفة من **الإنسان العاقل**، إشارة إلى اختلافات في المظهر والطبيعة الشخصية:

الطائفة الثدييات (mammalia)

الرتبة 1 الرئيسيات (primates) ولذا فهي وراثياً ذات قواطع علوية، متوازية؛ وحلمتان صدريتان.

---

(654). Cahill 1994, 339

(655). Katzew 2004, 190-92

(656). Martínez 2011

إنسان (HOMO)

عاقل. نهاريّ. يختلف باختلاف تعليمه ووضعه.

وتكون الاختلافات كما يلي:

1. رباعي الأقدام، أبكم، مشعر. فهو رجل البراري.
2. ذو لون نحاسي، ذو مزاج حاد، منتصب. فهو أمريكي.
3. الشعر أسود، مفرود، غليظ؛ المنخران عريضان؛ الوجه قاسي؛ اللحية خفيفة؛ صعب المراس، راضي، حر. يصبغ نفسه بخطوط حمراء دقيقة. تحكمه العادات.
4. فاتح البشرة، متورّد، مفتول العضلات. فهو أوروبي.
5. الشعر أصفر، بني، منسدل؛ العيون زرقاء؛ رقيق، فطن، ابتكاري. تغطيه ملابس ضيقة. تحكمه القوانين.
6. داكن، بائس، متجهم. فهو آسيوي.
7. الشعر أسود؛ العيون داكنة؛ قاسي، متغطرس، جشع؛ تغطيه الملابس الفضفاضة. تحكمه الآراء.
8. أسود، بارد الطبع، مسترخي. فهو أفريقي.

الشعر أسود، متجعد؛ البشرة ملساء؛ الأنف أفطس؛ الشفاه منتفخة؛ مخادع، كسول، مهمل؛ يدهن نفسه بالشحم. تحكمه الأهواء.

متوحش. يختلف باختلاف المناخ أو الفن.

وتكون الاختلافات في هذا النوع كما يلي:

1. صغير الحجم، نشيط، وخجول. فهو متسلق الجبال.
2. كبير الحجم، كسول. فهو باتاغوني.
3. أقل خصوبة. فهو هوتيتي.
4. أملط الوجه. فهو أمريكي.
5. مخروطي الرأس. فهو صيني.

6. مسطح الرأس. فهو كندي.[657]

وهكذا كان بعض البشر، كالأوربيين على سبيل المثال، رقيقين، وفطنين، وابتكاريين، بينما كان بعضهم الآخر يتسمون بمظهر خارجي وشخصية أقل حسناً. وقدم العلم أساساً للتصنيف العنصري، وشرع ذلك التصنيف بدوره مهمة الاستعمار المتمثلة في جعل البشر متحضرين. وما قام به تصنيف لينايوس كان أكثر من مجرد السماح باعتبار بعض أجساد البشر جزءاً من الممتلكات وأدوات للدين. فقد ذهب تأثيره إلى أبعد من ذلك، حيث قدّم أساساً علمياً يجعل أجساد الناس وحياتهم خاضعة لتحكم دولة يديرها بشر وضعوا أنفسهم في أعلى التسلسل الهرمي.

ولكي نرى كل ذلك في توليفة واحدة، فلنأخذ على سبيل المثال الصورة أدناه. والتي تمثل أسلوباً فنياً شائعاً في القرن الثامن عشر: وهو الرسم الطبقي (Casta Painting). وكان البيوقراطيُّون الاستعماريون يكلفون الرسامين برَسم مثل هذه الأعمال الفنية، إذ كانوا حريصين على تصوير الأنشطة التي كانوا يقومون بها في إسبانيا الجديدة ليس بشكلها غير المرغوب بع (والدقيق) والمتمثل في قصص فضائع الفقر والجشع المنتشرة في أوروبا بل باعتبارها مشروعاً في الدماثة والتحضّر. وفي إسبانيا، وعلى الرغم من أن هذه الصورة كانت تعتبر ملكية خاصة، إلا أنَّ بعضها كان متاحاً للعامة، مثلاً في متحف (Gabinete de Historia Natural)، الذي سبق إنشاء متحف التاريخ الطبيعي، حيث كان بإمكان الزوار أيضا مشاهدة أحافير الصناجة، والصنوج الصينية.[658] وكان عرض البشر في مثل هذا المكان يربط الطبيعة، والنوع الاجتماعي، والعمل، والمجتمع، والحضارة بشكل صريح ومرتب.

وما يزال هذا المشروع العلمي للتصنيف القومي مستمراً، في الجنوب العالمي

---

(657). Linné 1806, 375-76

(658). Deans-Smith 2005

والشمال العالمي. وقد استمر إلى حد كبير لأنه أصبح عادياً بفعل دمجه في النِّقاشات القومية من قبل أسياد الاستعمار، وهم الإنجليز.

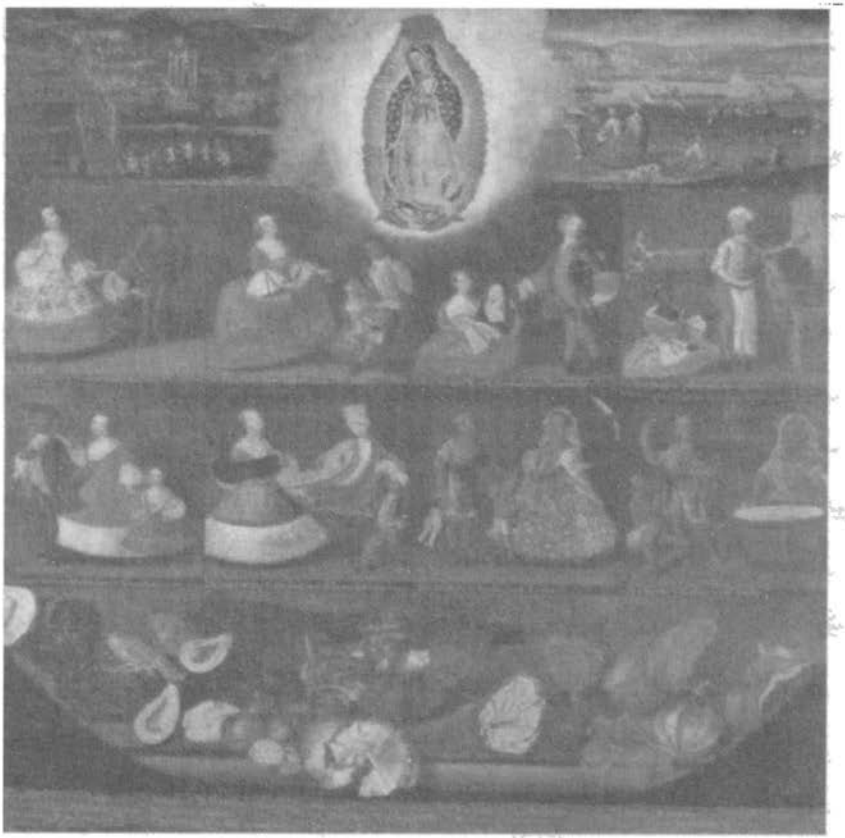

الصورة 6: لويس دي مينا، كاستاس، حوالي 1750م. متحف أمريكا. مادريل. المصدر كلاين 2015، ص 218.

الطبيعة، والحضارة، والدولة الاستعمارية البريطانية

تشكّلت العلاقات الاستعمارية الإسبانية بفعل حاجات الدولة الإسبانية ودائنيها، وبالأخص الاحتياجات العمالية وضبط العمالة. وكان الرأسماليون الإنجليز مهتمين كذلك بالعمالة، ولكنهم كانوا مهتمين أكثر بالأراضي على وجه

الخصوص.[659] وحيث كانت العمالة الرخيصة قد تأمنت عبر التسييج وغزو الشعوب الكلتية، فقد مثلت الأراضي الرخيصة أولوية أكبر في بداية الاستعمار الإنجليزي. وقد ونشأت الدولة الإنجليزية من خلال الحاجة إلى تأمين الأراضي – وإلى استحداث طرق الحكم التي كفلت حقوق الملكية. وكان تنظيم البشر على تلك الأراضي والرقابة عليهم، والحصول على الملكية والحق فيها أموراً أساسية في المؤسسة الاستعمارية الإنجليزية. وقد جرت ممارسة العديد من تقنيات الضبط الاجتماعي في البلاد وتطويرها في أول بؤرة استعمارية كبرى لإنجلترا، وهي إيرلندا. وتعد النقطة في التاريخ التي أعلن فيها هنري السابع لقبه باعتباره ملك إيرلندا في عام 1542م هامة في استعراض كيف كان التخم الإنجليزي – والبريطاني لاحقاً – يعمل بمثابة بؤرة استعمارية بعيدة للسياسة المحلية ومستعمرة محلية.[660] وقد ذكرنا في المقدمة أن الإنجليز كانوا قد طوّقوا أرضاً زراعية حول دبلن، بحيث كان الإيرلنديون خارج تلك الأرض. ومن هذه المنطقة، أقدم الإنجليز على بدء «المزارع» وهي نماذج هدفت إلى تعليم الإيرلنديين كيف تكون الزراعة الصحيحة. وشهد القرن السادس عشر عدداً من التجارب في المزارع النموذجية لعرض الترتيبات الميكانيكية والسياسية للتحكم بالطبيعة.[661] وتضمنت تلك الممارسات الزراعية استملاكاً واسع النطاق للأراضي من قبل ملاك الأراضي، وبما فيها مستأجرين وحرفيين.[662] كما وجدت في تلك المزارع ماشية، وخراف، وقمح، وحطب، وأنواع خاصة من المحاصيل – وسمة الصباغين والفوة الصبغية (وهما مصدرا الصبغتين الزرقاء والحمراء على التوالي) والقنب.[663]

بذل المستعمرون الأوائل قصارى جهدهم لاتباع القوانين الدولية القائمة في

---

(659) Montaño 2011, 23.

(660) Cavanagh 2013.

(661) Drayton 2000.

(662) Canny 2001, 120.

(663) المصدر السابق، ص 148-51.

الحصول على الأراضي. واستأجرت مزارع إنجلترا الأولى من ملاك الأراضي الإيرلنديين المحليين. وفي حالات أخرى، نهبت المزارع عسكرياً، وسلبت من أعداء الدولة باعتبارها غنيمة شرعية للحرب. وعلى الرغم من ذلك، لم تسر الأمور بشكل سلس. وتصادم نظام الزراعة التجارية الإنجليزية مع الأنظمة الرعوية الأصغر حجماً لتوفير الغذاء في إيرلندا، حيث كانت الروابط تخضع للسيطرة الأرستقراطية بدرجة أقل من الروابط العائلية، وكانت الممتلكات مقسمة بين الورثة عوضاً عن توريثها على أساس البكورة.[664] فتمرّد الإيرلنديون. وسرحوا بمواشيهم في أراضي مسيجة من قبل الإنجليز، وردّ الإنجليز بحشد عسكري لحماية الممتلكات الاستعمارية.[665] وقد دفعت الثورات على مدى القرن السادس عشر لظهور استراتيجية جديدة في القرن التالي: نظام زراعة أكثر شدة وعنفاً. وكانت مزرعة ألستير خاضعة بشكل مباشر أكثر لسيطرة لندن، والتي نظمت التجارب الطبيعية والاجتماعية التي كان يتم تكرارها في أماكن أخرى، مثل منح الحقوق للشركات الخاصة لاستعمار ديري في الجهة الشمالية من وسط إيرلندا. وفي تلك الأثناء، كانت الثورات من الشعب الأصلي تتعرض للقمع بقوة متزايدة، مع تبرير العنف بمنطق جديد للاستعمار. وفي حين كانت الضوابط القانونية لحضور إنجلترا في إيرلندا قيد النقاش، وكان القانون الدولي في طور التكوين، بدأت الأسباب التي احتاجتها إنجلترا لتكون في إيرالندا في ضم أفكار مثل هذه: «إن جلالته ملتزم تجاه استخدام كل الطرق المشروعة والعادلة لتحويل شعبه من البربرية إلى التحضر... لأن نصف أراضيهم أصبحت الآن خراباً، ولهذا السبب لم يتم تحسين المناطق المأهولة بالسكان إلى نصف قيمتها؛ ولكن عندما يُزرع المتعهدون [المستوطنون] بينهم...، وسيتم تخزين هذه الأرض وتسميدها بالكامل، وستكون قيمة 500 فدان أفضل من 5000 فدان الآن».[666] وكانت

---

(664) Wily 2012.

(665) Montaño 2011, 2.

(666) Sir John Davies, to the Earl of Salisbury, 1610, مقتبس في E. Wood 2003, 81-82.

هذه المناقشة التي أرسلت من قبل محام استعماري إلى إيرل ساليسبيري تكمن في أن ترك هذه الأصول المنتجة في أيدي أشخاص غير قادرين على استخدامها بشكل جيد يشكل جريمة اجتماعية. وقد أثبتت همجية الإيرلنديين انعدام استخدامهم الجيد للأراضي، وهو ما يؤكد همجيتهم. وهكذا فقد صنعت الطبيعة، والتصدي المستمر للتخم، وأشكال جديدة من النظام والاقتصاد بعضها بعضاً. ووجدت هذه العملية طريقها من تخم إيرلندا إلى العالم الجديد، عبر سيف أحد أكثر أبطال إنجلترا المبجلين وهو السير فرانسيس دريك، وقلم أحد قساوسة الليبرالية جون لوك.[667]

مكتبة
t.me/soramnqraa

الرقابة الليبرالية في التخم الأطلسي

اعتمدت الدولة الاستعمارية البريطانية على الموهبة والتقنيات من كلا جانبي الأطلسي. فقد تعلّم فرانسيس دريك فنون القمع الوحشي للشعب الأصلي في إيرلندا. وساعد دريك في قتل كل رجل، وامرأة، وطفل في جزيرة راذلين في عام 1575م قبل أن يجد لقباً أعلى وثروات أكبر في العالم الجديد.[668] ولكن الأهم من ذلك هو عمل فن الحكم والإدارة وبناء المبررات القانونية للدول للشروع في المغامرات الاستعمارية.[669] وفي خضم ذلك، ظهر جون لوك ابن الإمبريالية الليبرالية. وقد بنى آراءه بشأن الملكية الخاصة والذات من عمله كموظف استعماري. وفي ذات الوقت الذي كان فيه لوك يعيد صياغة «الدساتير الأساسية لكارولينا»، والذي أصدر في عام 1682م، كان يكتب الفصل الخامس من «الرسالة الثانية بشأن الحكومة»، تحت عنوان «حول الملكية». ويؤكد كتاب «الدساتير الأساسية» على أن «لكل رجل حر في كارولينا القوة والسلطة المطلقة

(667) تساعد فكرة التخم في حل النقاش بشأن كون إيرلندا مستعمرة أم مملكة، وهل هي جزء من بريطانيا أو الأطلسي.

(668) Rai 1993; Falls 1950, 240; March 1652; Ellis 1988, 37.

(669) Scarth 2010; Moloney 2011; Neocleous 2014.

على عبيده السود».[670] وهذا هو نفس لوك الذي يدفع في «الرسالة الثانية» بأن «لكل امرئ حق امتلاك شخصه، وهو حق لا ينازعه فيه منازع».[671]

تطلب الأمر العديد من المؤلفات لمحاولة التوفيق بين هذين الموقفين. وقد ذهب البعض أن لوك قد غيّر رأيه حول العبودية على مدى حياته. إلا أنَّ هذا التفسير يناقض كتاباته حول مجلس التجارة والمزارع في نهاية حياته، وهي كتابات يبدو فيها أكثر من متوافق مع السلع التي تصنعها العمالة المستعبدة. كما أنَّ أحد التفسيرات الأكثر إثارة للجدل مؤخراً هي تلك التي تقرأ ما اقترحه لوك في التعامل مع الملكية والتعامل مع الأسرى بعد حرب عادلة وتشير إلى أنَّها تتوافق بشكل جيد مع ما أراد راعيه، وهو إيرل شافتسبيري، أحد الأسياد في كارولينا، أن يحصل في تلك المنطقة. وفي ذلك الوقت، كان أحد الاهتمامات الرئيسية للأسياد هو أسر الشعب الأصلي، واستعباده، ونقله. وقد مهدت نظريات لوك الطريق لشرعية الحصول على رجال شعب الكوسا والتجارة بهم، وهم رجال أسروا خلال محاربتهم للمستعمرين الذين زحفوا إلى أراضيهم فيما أطلق عليه المستعمرون اسم كارولينا. ولم يكن يسمح للعبيد من الشعب الأصلي، باعتبارهم غنائم حرب، أن يكون لهم أي ملكية على ذواتهم – وكان لوك قد وضع أسساً لذلك في «الدساتير الأساسية». أما بالنسبة إلى العبيد من إفريقيا، فقد ظل صامتاً بشأنهم.[672] وبعبارة أخرى، فإن أحد أكثر التناقضات استمرارية في الفكر السياسي الحديث قد نشأت ليس من الرقابة على نظام النظرية الليبرالية بل لأن أحد أهم فلاسفة الليبرالية كان يصدر المؤلفات بشأن التوظيف.

وهذا هو السياق الذي نشأ من خلاله الرعايا الليبراليون الحديثون في تخم استعماري. ولا يجدر بالأمر أن يكون مفاجئاً أن الشخصية القانونية الحديثة قد تم

---

(670) Armitage 2004, 609.

(671) Locke, Second Treatise, §27, مقتبس في المصدر السابق، 609.
ملاحظة من المترجمة: ترجمة الاقتباس منقولة من كتاب "في الحكم المدني" لجون لوك، ترجمة ماجد فخري (1959).

(672) Pitts 2010; Hinshelwood 2013.

تعريفها ومراقبتها بشكل صارم باعتبارها حدود الملكية التي يمكن لهذا الشخص أن يمتلكها.[673] وبالإضافة إلى التمييز العرقي العلمي في القرن الثامن عشر، أصبح من الأسهل رؤية كيف أن الرعية الليبرالية تتضمن كون المرء رجلاً أبيض.

لم تكن حدود الرعية الليبرالية أوضح مما كانت عليه عندما حاول العبيد الحصول على حق ملكيتهم الشخصية. وكان إعلان حقوق الإنسان، الذي أصدر في عام 1789م خلال الثورة الفرنسية، قد أقر أن كل البشر أحرار ومتساوون. وقد أومأ ذلك للعبيد في المستعمرة الفرنسية وأكبر منتج للسكر في العالم سانت دومينغ احتمالية حقيقية في أن يتملكوا أنفسهم، وأن يكونوا جزءاً من «الشعب»،[674] وهي فكرة كانت أساسية للثورة ولكنها قيّدت بشكل مباشر. وقد اعتمدت الثورة في هاييتي التي امتدت من عام 1791م حتى عام 1804م على التاريخ الطويل لثورات العبيد وتمرداتهم، وأسست الدولة القائمة اليوم.[675] إلا أنَّ ملكية الجزيرة والأشخاص الموجودين عليها كانت دائماً أمراً شائكاً. وقد قضى الفرنسيون عقدين من الزمان في محاولة استعادة مستعمرتهم، وفي عام 1825م سددوا آخر ضربة، وهي إرسال ثلاث سفن حربية إلى ميناء بورتوبرينس للمطالبة بالتعويض عن خسائر العبيد وغيرهم من الممتلكات، وذلك بمبلغ 150 مليون فرنك.[676] وقد تسدد الدين أخيرا في أربعينيات القرن العشرين.[677]

استهان شعب هاييتي بمدى خطر تمردهم على الازدهار الليبرالي الأطلسي وكيف أنهم يقعون خارج حدود «الشعب». فقد تمت الرقابة عليهم بالقوة، والمال، والأيديولوجيا، ليتذكروا مرة بعد مرة أن مكانهم هو في جانب الطبيعة في ذلك الانقسام بين الطبيعة والمجتمع. ولكن لا يمكن تخطئتهم لرغبتهم في تقرير مصيرهم – لا سيما في وقت كانت فيه الأفكار الجديدة حول الشكل التكويني

---

(673) Foucault 2008.

(674) Resnick 1992.

(675) Santiago-Valles 2005.

(676) Stein 1984.

(677) Renda 2011.

لذلك المصير تظهر مع وجود المطبعات التي يمكنها نشر هذه الأفكار. إذ إنه عبر تقنيات التواصل الجماعي كان بالإمكان تبادل إيديولوجيات الأصل، والمستقبل. وكانت هذه الأفكار هي التي تدفع بالدولة للمضي قدماً.[678] ولم يكن الشعب الهاييتي يناضل من أجل تأسيس دولة فقط، بل دولة قومية.

الدولة والأمة

في كتابه «المجتمعات المتخيلة»، والذي يمثل نصاً حاسماً حول القومية، يعتقد بنيدكت أندرسون أن ازدهار القومية منوط بانهيار سلطة رجال الدين ووصولهم إلى الحقيقة. وعندما نتخلى عن هذه الأساسيات، يمكن إعادة بناء أساس المجتمع داخل الدولة. وقد سهلت المطابع استبدال الكتب المقدسة باعتبارها مصادر الحقيقة عبر نشر نصوص، وخرائط، وسجلات تعزز أنواعًا جديدة من السلطة. ومن المطابع لم تتدفق الأدوات اليومية لصنع المجتمع – وهي الصحف – بل أيضاً اللهجات الشعبية وإعادة صنع المناطق. وكان الجغرافيون و الكوروغرافيُّون في المراتب الأولى للإمبراطورية، وساعد رسم الخرائط في تحديد معالم الدولة – كان توماس هوبز رسام خرائط هاو – وفي كتابة القصة الجديدة لما يوحّد مواطني تلك الدولة، وهي قصة تدور حول الدم القومي والتربة الوطنية.[679] وفي القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كتبت القصص في أوروبا من أجل شرح أصل تعابير مثل das Volk و la patrie، والقصص الشعبية التي استخدمت من أجل تحديد حدود النقاء القومي. وأتيحت هذه الأساطير، وطبعت باللغة الدارجة في الطبقة الوسطى وطبقة الفقراء – وأتيحت للبيع أيضاً – عبر تقنيات تواصل جديدة. وغيرت المطابع طريقة تدفق المعلومات والمعرفة وطريقة إنشاء المجتمع.

لقد تنازلت الأنظمة الثيوقراطية والأرستقراطية لصالح ديمقراطيات برجوازية وطنية جديدة، مع امتياز امتد في ظل أفكار التنوير (المحدودة للغاية) حول المساواة

---

(678) Theodorou 2014.

(679) أنظر على سبيل المثال B. Anderson 2006; Montaño 2011.

وملكية الذات. وباستخدام لغتهم العامية على الورق، دعا البرجوازيون الجماهير إلى التاريخ، وكما لاحظ توم نيرن، «كان لا بد من كتابة بطاقة الدعوة بلغة يفهمونها».[680] أخذ أندرسون فكرة نيرن إلى أبعد من ذلك، مدركًا أن هذه النصوص الجديدة لها تأثيرها الاقتصادي السياسي الخاص. وكان بالإمكان جني الأموال من خلال تداول رؤى التحرر الشعبي. وكانت المخاوف المالية وارتفاع معدلات معرفة القراءة والكتابة من الشروط المسبقة للخيال الوطني. وبمجرد وضع أفكار القومية في المطبوعات، شكّلت موادها الخاصة، والتي تُرجمت ونُسخت وقُرصِنت وحُرِّفت وأُعيدَ نشرها بشكل مربح. وبالنسبة إلى القراء الأصغر سنًّا: أصبحت الأمم أمراً ما، لأنهم كانوا يحبونها، ويشاركونها، ويزيفونها، ويعلقون عليها.

كان العرق، والأمة، والطباعة الرأسمالية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً. فقد أنتجت الإستراتيجيات التي تتطلب رعاية رخيصة، وعمالة رخيصة، الأنظمة العنصرية وأعادت إنتاجها، وهي أنظمة يجري من خلالها قراءة الأجساد، وتصنيفها، ومراقبتها على حدود المجتمع والطبيعة. وتم تداول المطبوعات والروايات التي أكدت النظام المحلي وطرحت العظمة الوطنية المستقبلية في مكافأة تداولت هذه الأنظمة وأكدتها. وبحسب أندرسون:

«إن القومية تفكّر بلغة المصائر التاريخية، في حين تحلم العنصرية بضروب أبدية من التلوث، منتقلة منذ أوائل الزمن عبر سلسلة لا نهاية لها من التصادفات المقيتة: خارج التاريخ. فالزنوج، بفضل فرشاة القار الخفيّة، هم زنوج إلى الأبد؛ واليهود، ذرية أبراهام، هم يهود إلى الأبد، بصرف النظر عن جوازات السفر التي يحملونها أو اللغات التي ينطقونها ويقرأونها. (وبذلك كان ألماني اليهودي، بالنسبة إلى النازي، أفاكاً على الدوام). والحال أن أصل الأحلام العنصرية هو في إيديولوجيات الطبقة، وليس في إيديولوجيات الأمة: وقبل كل شيء في مزاعم الألوهة بين الحكام ومزاعم «النسل» والدم

(680) Nairn 1977, 340.

«الأزرقين» أو «الأبيضين» بين الأرستقراطيات. فلا عجب أن أبا العنصرية الحديثة المزعوم لم يكن قومياً من البرجوازية الصغيرة، بل جوزيف آرثر، الكونت دي غوبينو، وأن العنصرية ومعاداة السامية، بوجه عام، لا تتجليان عبر الحدود القومية، بل ضمنها. وبعبارة أخرى، فإنهما لا تبرران الحروب الخارجية بل القمع والسيطرة الداخليين».[681]

امتد تأمين النظام المحلي في كل مكان – ليس فقط في ساحات القتال، بل أيضاً في المطابخ وغرف النوم. كما أن الأساطير القومية ملموسة، ومادية، وحميمة. وأصبحت العادات الجنسية (التي سمح بانتشارها الإنتاج الضخم للأدب)[682] موضوعاً مناسباً للقوميين. وفي فرنسا، قاضى اليعاقبة عمال الجنس باعتبارهم أعداء الثورة، على سبيل المثال.[683] كما أن البنية الجسدية لأمة ما تتجسد في طعامها، والذي يحظى باهتمام القوميين. فالعبارات على شاكلة «[الأمة] مثل [أكلة]» – أمريكي مثل فطيرة التفاح، بريطاني مثل اللحم المشوي، هندي مثل عدم وجود اللحم[684] جاءت بهذه الطريقة. وكان أول كتاب حول السمنة، والنظام الغذائي، والأمة، هو كتاب جورج تشاين «العلة الإنجليزية» في عام 1733.[685]

ومن خلال فكرة القومية، امتدت سلطة الدول في مراقبة مواطنيها إلى كل شيء بدءًا من العمل الإنتاجي والإنجابي من خلال إجراءات الدفاع عن العملة ونقاء الغذاء إلى سياسة الصحة العقلية. ولكن كما يُظهر مثال هايتي، لم تكن البرجوازيات الأوروبية وحدها هي التي تبنت ونشرت أفكار القومية وتقنياتها. وفي بعض الأحيان كانت فكرة المصير المشترك تنقلب ضد المستعمرين.

لقد اخترعت المعارك من أجل التحرر من الحكم الاستعماري في الجنوب العالمي مصائرها الوطنية. وكان التمرد الهندي عام 1857 – والذي أطلق عليه

---

(681) B. Anderson 2006, 149-50.

(682) Foucault 1980, 15-50.

(683) Mosse 1988, 8-12.

(684) Appadurai 1988.

(685) أنظر Patel 2007, ch. 4.

البريطانيون اسم تمرد السيبوي - بمثابة صراع بين القوميات. وفي ذروة الاستياء الذي طال أمده بشأن الضرائب والاستغلال والظلم، رفض الجيش الهندي التعاون مع البريطانيين. فتم تحريض الجنود بالذخيرة - على وجه التحديد من خلال الإصدار البريطاني لقذيفة جديدة لبندقية إنفيلد عام 1853م. وجاءت الخراطيش ملفوفة بورق مدهون مسبقًا بدهن لحم الخنزير ولحم البقر. ولم يرغب الجنود المسلمون والهندوس في المخاطرة بمخالفة تعاليم دياناتهم باتباع تعليمات الشركة المصنعة بقضم نهاية الخراطيش قبل استخدامها. فأصر الضباط البريطانيون. وأثارت الانتفاضة التي تلت ذلك سلسلة من التمردات من الهند إلى جامايكا.

لقد شخص البريطانيون الانتفاضة على أنها لم تكن نابعة من استعمارهم، بل من فشلهم في فهم أن الهنود أمة مختلفة بشكل لا يمكن محوه. وبدلاً من الاستمرار في محاولة تحضرهم وتنصيرهم، اقترح المستعمر السير هنري ماين استراتيجية جديدة.[686] كانت تلك استراتيجية خفية وقوية - وهي تقنية حكم لا تزال قائمة حتى اليوم: وهو اختراع فئة «المواطن الأصلي». ومن خلاله، أشرفت الحكومة على إنشاء القضاء وإدارة الطوائف والطوائف الدينية المختلفة داخلها، مما أدى إلى تعميق سيطرة الدولة على حياة رعاياها. لقد ولدت هذه الاستراتيجية من رحم المقاومة المناهضة للاستعمار – والتي رداً عليها، كما يقول محمود ممداني، «بمطالبته بحماية الأصالة ضد تهديد التقدم، قام المستوطن بتعريف السكان الأصليين وتثبيتهم».[687] هذه هي استراتيجية حياة الأشخاص الرخيصة في كلمتين: «حدد واحكم».[688] إنه نظام يمكن رؤية إرثه في أي عدد من دول ما بعد الاستعمار، من جنوب إفريقيا إلى الهند، ومن كندا إلى البيرو. لكن التقنية السياسية لـ «المواطن الأصلي» لم تكن كافية لمنع نهاية حكم شركة الهند الشرقية البريطانية على الهند،

---

(686) Mantena 2010.

(687) Mamdani 2012, 30.

(688) Mamdani 2012.

حيث كانت الانتفاضة بمثابة لحظة مهمة.[689] وقد تم الانتصار بالمعركة من أجل الاستقلال الوطني عبر الجنوب العالمي في القرنين التاسع عشر العشرين. ولكن هذه الدول القومية الجديدة استمرت في الوجود ضمن إيكولوجيا الرأسمالية، وكانت العواقب واضحة على نحو متزايد في القرن الحادي والعشرين.

القوميات البديلة

فلنتناول على سبيل المثال بلداً وَجَدت فيه جماعة مؤثرة – تعتبر قلب الأمة – أن مصيرها يتضعضع في يد الحزب الحاكم الذي يغلب عليه الطموح الليبرالي الدولي. ولذا، عوضاً عن انتخاب الحزب الحاكم مرة أخرى، صوّتت هذه الجماعة لرجل ارتسمت في شخصه بوادر القوة المقنعة للحكم التكنوقراطي. وكان هذا الرجل قد تعهّد بتحقيق التطلعات الوطنية على الرغم من المحاولات الإرهابية لتقويض مصير البلاد. وفي هذا البلد، تبوّأ هذا الزعيم مكانة بارزة شعبياً بفضل الأفكار المتعلقة بالقومية والدين، والتصوّرات التاريخية لسوء الحكم من قبل أصحاب الفكر الدوليّ الين خانوا العظمة القومية للبلاد. وقد يبدو هذا الرجل غائباً عن صفحات وسائل التواصل الاجتماعي، إلا إنه بارز من خلال صفقاته التي يعقدها خلف وراء الكواليس. وقد أدى حكمه إلى زيادة ثراء الطبقة الثرية مسبقاً، وإن كان ذلك قد حدث وسط صخب الحرب ضد الإرهاب والمعارضة.[690] إننا نتحدّث عن الهند في عهد ناريندرا مودي، ولكن قصة بروزه إلى السلطة هي واحدة من العديد من الأمثلة على الحالات التي تسببت في إرباك النظام المهيمن لليبرالية الدولية.

إن الهيمنة، وهي الفكرة التي بدأنا بها هذا الفصل، ليست آمنة أو مضمونة البتة. ويجب الحفاظ عليها دائمًا بالقوة والإقناع. وقد كان دور العمال في الدولة القومية، لأي أمة كانت، بمثابة الشركاء الخاضعين في كتلة قوى مهيمنة. كما أن الأمة عبارة

---

(689) David 2002.

(690) Halperin 2013; McMichael 2017.

عن خيال في حالة تغير مستمر، تمت كتابته وإعادة كتابته لتفسير وتنظيم مصيره، وبالتالي كتابة حاضره. لكن أفكار الأمة ومصيرها الاقتصادي ليست حكراً على كتلة مهيمنة معينة. وفي الواقع، لهذا السبب نرى في لحظات الأزمة الرأسمالية - مثل تلك التي نعيشها اليوم- ظهور تفسيرات بديلة للمصير الوطني. كما أن منطق إيكولوجيا الرأسمالية، ونظامها للأشياء الرخيصة، يتعارض مع لغة القومية للمصير المشترك. ومع تركز ثروات الرأسمالية بشكل صارخ - إذ يمتلك اثنان وستون شخصًا ما يعادل ما يملكه أفقر ثلاثة مليار ونصف المليار على وجه الأرض - فهل من المفاجئ أن هيمنة الكتلة الليبرالية قد بدأت في الانهيار؟[691] إنه تطور قيد الإعداد منذ فترة طويلة، وهي الظاهرة التي أطلقنا عليها اسم «الفاشية العالمية».[692]

إن القلق الذي يحيط بالهوية الجماعية يظهر في لحظة من عدم اليقين في القرن الحادي والعشرين تماماً كما كان الحال في القرن السادس عشر، وتغذّيه المخاوف حيال التجارة وانعدام الأمن الاقتصادي. إن السؤال المطروح هو: إلى أين ستنتقل الدول القومية من هنا، وهو سؤال مفتوح، مع وجود احتمالات على نطاق واسع يمتد من سياسات أكثر فظاعة مما رأيناه حتى الآن في هذا القرن إلى عالم أكثر تحرراً.

ومع ذلك، فإن فكرة الأمة والمجتمع ورؤية المستقبل، التي يتم تداولها ومناقشتها وعيشها من قبل عدد كبير من الناس، ليست سامة أو استبدادية تلقائيًا. خاصة إذا كانت موجودة في معارضة لإيكولوجيا الرأسمالية، كما لا تزال العديد من الدول تفعل ذلك.[693] ولنستذكر أن الولايات المتحدة هي بلد يضم أكثر من 500 دولة: ويعترف مكتب الشؤون الهندية بخمسمائة وستة وستين دولة. وتسجل أستراليا عددًا مماثلاً من دول السكان الأصليين، وكندا لديها أكثر من 600، والهند لديها 255 دولة أصلية، والتي يبلغ مجموع أعضائها 7 بالمائة من

(691) Hardoon, Ayele, and Fuentes-Nieva 2016.

(692) Patel and McMichael 2004.

(693) M Davis 2015.

سكانها. ومن خلال الدراسات والنشاطات الأخيرة، استكشفت مجموعات السكان الأصليين الشكل الذي قد تبدو عليه الأمة الأصلية غير الأبوية. وعلى المستوى المركزي، قد يشمل ذلك إعادة التفاوض على العلاقات المتعلقة بالرعاية، والطبيعة، والعمل، وإدارة الأراضي، في ظل ترتيبات الحوكمة التي تجرد الدولة من ثنائية الدولة القومية. ومن غير الواضح إلى أين قد تنتهي هذه العلاقات.

تقدم مجموعة (Kino-nda-niimi) للناشطين المشاركين في حركة (Idle No More) في كندا سلسلة من الرؤى حول ما يمكن أن يكون عليه العيش في دول خارج إيكولوجيا الرأسمالية.[694] ويقدم غلين شون كولتارد في كتابه «البشرة الحمراء، والأقنعة البيضاء» رؤية أخرى، مع دروس حول مخاطر التعامل مع الدولة في هذا المشروع الوطني الجديد.[695] وهو على حق. وفي دولة بوليفيا المتعددة القوميات، كما يطلق عليها الآن، دفعت قيادات السكان الأصليين تكاليف نظام الرعاية الاجتماعية الموسع من إيرادات التعدين. وليس من الواضح ما إذا كانت هذه الدولة القومية الجديدة تشكّل تحرراً من إيكولوجيا الرأسمالية، إذا سمحت الحكومة بتدميرها لإنقاذ باتشاماما – إلهة الأرض الأنديزية الموقرة.[696] ولسنا متفائلين بأن النجاح الانتخابي للسكان الأصليين والأمم الأخرى التي تحمل وجهات نظر بديلة عن شبكة الحياة يمكن أن تضمن التغيير الجذري. ولكن مع تزايد النضال في المستعمرات الاستيطانية الأخرى – وخاصة تلك الموجودة في أمريكا الشمالية حول الصناعات الاستخراجية – والدعوات المستمرة لمزيد من التحول الجذري في بوليفيا، فإن ذلك يمثل مصدر أمل بالنسبة إلينا بأن تزدهر مثل هذه التجارب، وأن يتم إعادة تقييم الأرواح في ظل هذه القوميات البديلة.

ومع اقترابنا من خاتمة هذا الكتاب، لنعد مجدداً إلى توضيح السبب في تضمين

---

694. Kino-nda-niimi Collective 2014.

695. Coulthard 2014.

696. Webber 2017.

هذا الفصل الذي يتناول حياة الأشخاص في كتاب يتحدث عن الأشياء الرخيصة. فقد تناولنا في المقدمة العملية التي تم من خلالها فصل الطبيعة عن المجتمع باعتبارها استراتيجية في إيكولوجيا الرأسمالية. ويوضّح هذا الفصل كيف تطوّرت فكرة حياة الأشخاص – التي تعرّفها الدولة وتنظّمها – ضمن تسلسل هرمي قائم على التمييز العرقي والسلطة الأبوية. إذ تتحكّم الدولة في حياة هؤلاء الأشخاص عبر ذلك التسلسل الهرمي الذي نعيش من خلاله تحت مسمى الأمة. وإذا ما تصورنا أنه يمكن إنهاء فكرة تفوّق العرق الأبيض عبر إعادة صياغة تعريف الأمة، فإننا ذلك يعني قصوراً في فهمنا لسلسلة عمليات القوى التي أنتجت الأمة بشكلها الحديث ضمن إيكولوجيا الرأسمالية، ويعني أيضاً عدم إدراكنا للقصور الذاتي للدولة القومية عبر التاريخ. وتتطلب السياسة الثورية رؤية موسعة للحوكمة والحساب لما بعد رأسمالية، وهذا الأفق السياسي هو ما يقود مناقشتنا في الخاتمة.

الخاتمة

لم تصنع أشياؤنا الرخيصة نفسها بأعجوبة. إنما قد نشأت عبر خيمياء عنيفة من الأفكار، والغزو، والتجارة في العالم الحديث. وفي قلب هذه الخيمياء كانت سلسلة من الثنائيات التي تداخل بعضها مع بعض منذ البداية: المجتمع والطبيعة، المستعمر والمستعمَر، الرجل والمرأة، الغرب وما سواه، ذوي البشرة البيضاء وذوي البشرة غير البيضاء، الرأسمالي والعامل. ولم تعمل كل هذه الثنائيات فقط لتوصيف وتصنيف العالم بل عملت فعلياً لترخيص حياة كافة البشر تقريباً وسائر الطبيعة والهيمنة عليها. كما أن فهم الرأسمالية باعتبارها إيكولوجيا للعالم تتألف من السلطة، ورأس المال، والطبيعة، يساعدنا في رؤية مدى التداخل العميق بين شقي كل من هذه الثنائيات أحد بالآخر. وكيف عملت السلطة بقوة للرقابة على الحدود القاطعة بينها، ومدى القوة التي تمت بها مقاومة هذه الحدود.

ومرت كل الفئات من العبيد، والسكان الأصليين، والنساء – وكلها فئات غير حصرية كما شاهدنا – بهذه الثنائات المتصلة وقاومتها منذ البداية. وحتى في مطلع الرأسمالية، كانت هنالك مشكلات في التخم، حيث تآخى العمال الأحرار والعبيد، وقاوموا في ماديرا. وقد جرى ترخيص حياتهم، وعاشوا في ظل احتقار أسيادهم وأرباب عملهم، وقاوموا. وأدى رفض العديد من السكان الأصبيين والعمال – آنذاك والآن – للانخراط في إيكولوجيا الرأسمالية إلى ردود فعل من الحكومات، وبحث المستثمرين عن أراضي جديدة للزراعة، ونماذج جديدة للنظام، والربح، والاستخراج.

إن تجارب البشر واستجاباتهم للاستراتيجيات الرأسمالية لا تأتي مع تعليمات بارعة للنجاح، لأنه لا يوجد أي منها. نحن نصنع سياستنا من أفكار عصرنا. نحن

أبناء إيكولوجيا الرأسمالية، وبالتالي، كما ناقشنا في المقدمة، فإننا غير مستعدين للتعامل مع تحول الدولة الذي أنتجته هذه الإيكولوجيا من خلالنا. خذ على سبيل المثال المحاولات المعاصرة لمعالجة مشكلة الطبيعة الرخيصة. إذا كنت تريد رؤية مزيج حديث من التفكير الديكارتي والرأسمالي، فإليك هذا تمرين: انتقل إلى الإنترنت، وابحث عن حاسبة للبصمة الإيكولوجية، وأجب عن الأسئلة. وستخبرك الحاسبة بعدد الكواكب اللازمة إذا عاش الجميع بنفس الطريقة التي تعيش بها. (متوسط آثار بصمتنا هو أربعة كواكب: ولسنا فخورين بذلك). ويستخدم أنصار حماية البيئة التقدميون البصمة الإيكولوجية لتسليط الضوء على التجاوز البشري[697] لقدرة الكوكب على التحمل، لأنهم منذ ستينيات القرن العشرين كانوا يقيسون الزيادة السكانية «ليس بالكثافة السكانية، بل بعدد الأشخاص في منطقة ما بالنسبة إلى مواردها وقدرة البيئة على دعم الأنشطة البشرية».[698] وبعبارة أخرى، يعرّف الاكتظاظ السكاني من خلال حساب القدرة الاستيعابية. كما أن اعتبار هذه القدرات الاستيعابية أمرًا مفروغًا منه هو بمثابة إلقاء اللوم على الفقراء والطبقات العاملة في الشمال العالمي والجنوب العالمي فيما يتعلق بالدمار البيئي المستقبلي، وهم يناضلون من أجل نوع من التكافؤ مع أولئك الذين يبرمجون حاسبة البصمة. ومثل هذا التفكير المالثوسي يجعل اليأس أمراً لا مفر منه، وعنصرياً حتماً.

إن حدود الإنتاج، والاستهلاك، وإعادة الإنتاج، لا يتم تحديدها إلا من خلال النظام الذي نجد أنفسنا فيه. وتلك الحدود ليست في الخارج ولا في الداخل، بل في كليهما، وهي مرتبطة بعضها ببعض من خلال إيكولوجيا الرأسمالية الخاصة بالسلطة، والإنتاج، والطبيعة الخاصة. وتعلّمنا البصمة الفردية أن نفكر في

---

(697) Wackernagel and Rees 1996; Wackernagel and Silverstein 2000; Wackernagel et al. 2002.

(698) Ehrlich and Ehrlich 1990, 38.

الاستهلاك على أنه محدد عبر «خيارات نمط الحياة»[699] بدلاً من المنطقيات المفروضة اجتماعياً. وإذا كنت قد خرجت من حيك القديم وتحتاج إلى ساعة من الزمن للوصول إلى عملك، فإن بصمتك الإيكولوجية ليست خيارًا لأسلوب الحياة. بل هي خيار بنفس الطريقة التي كان بها الفلاحون الإنجليز، بمجرد طردهم من الأرض، «أحرارًا» في العثور على عمل مدفوع الأجر - أو الموت جوعًا. والأسوأ من ذلك أن التفكير في البصمة يعلّمنا أن ننظر إلى مسببات الأزمة الكوكبية باعتبارها ترتكز على تجمعات «الأشخاص» و«الاستهلاك» وليس في ديناميكيات نظام الرأسمالية والإمبراطورية. ولنتذكر أنه في القرن الثالث عشر، قبيل المجاعة، والأمراض الوبائية، والأزمة الإقطاعية، كان من الممكن أن ينتج الفلاحون الفرنسيون في نورماندي قدراً أكبر بكثير من الغذاء لو منحهم الأسياد الإقطاعيون الحكم الذاتي. ويقدّم فلاحو اليوم ادعاءات مماثلة، ولديهم أدلة جيدة تشير إلى أن الزراعة الإيكولوجية يمكن أن تنتج المزيد، وتعزل المزيد من الكربون، من الزراعة الصناعية.[700] وقد ناضل عدد من الحركات النسائية من أجل استقلال المرأة في التحكم بجسدها (مع انخفاض معدلات الخصوبة كواحدة من العديد من العواقب). ومع ذلك، لا يظهر استقلال الفلاحين ولا الحركة النسائية كخيار في العمليات الفردية لحساب الكربون. إن البصمة الإيكولوجية، مثلها مثل العديد من المفاهيم البيئية هذه الأيام، تؤدي عملية الفصل ذاتها للطبيعة عن المجتمع التي صاحبت ظهور الرأسمالية. تذكر الصورة أ: **الأنثروبوسين.**

ودفاعًا عن حاسبة البصمة، قد نتساءل: ألا تقر الحاسبة بواقع عصرنا، من أزمة كوكبية، وتحولات مناخية تاريخية، والانقراض الجماعي؟ نعم، لكن هذه الأنماط من التفكير تفسر حالتنا الكارثية الحالية من خلال التقليل بشكل مستمر وكبير من شأن مدى كون الحاضر نتاج ماضٍ طويل، لتاريخ دموي من السلطة ورأس المال والطبقة، المتشابكة بعضها ببعض في شبكة الحياة. إن ما هو على المحك هو **كيفية**

---

(699) Wackernagel and Rees 1996, 113.

(700) De Schutter 2010.

فهمنا للسكان، والطبيعة، والحدود. وكما يوضح الجغرافي ناثان ساير:

إن كون مفهوم القدرة الاستيعابية له حدود لا يعني أن الحدود التي يزعم تحديدها غير موجودة أو لا معنى لها – بل هي بعيدة كل البعد عن ذلك. بل إن النقطة المهمة هنا هي أن هذه الحدود نادراً ما تكون ثابتة أو قابلة للقياس الكمي، ناهيك عن التنبؤ بها والتحكم فيها. يمكن للمرء أن يشبّه العالم بالسفينة، لكن هذا لا يجعل العالم **مثل** السفينة. إن تصوّر الحدود البيئية بشكل تجريدي عن الزمن والتاريخ – باعتباره جوهريًا إلى حد ما في الطبيعة المثالية – يعني الخلط بين نموذج الواقع والواقع نفسه... ومن غير الواضح ما إذا كان مفهوم القدرة الاستيعابية يحمل أي محتوى على الإطلاق دون المثالية والركود والتعبير العددي الذي تشبث به طوال تاريخه. ما هو واضح هو أنها أداة مملة للغاية للفهم.[701]

ولحسن الحظ، هناك حركات تمتلك أدوات أكثر دقة لفهم كيف يمكن أن تكون علاقاتنا في شبكة الحياة مختلفة، وهي حركات في وضع جيد لتطوير هيمنة مضادة ما بعد الرأسمالية.[702]

على سبيل المثال، تدرك حركة الفلاحين الدولية «Laa Via Campesina» أهمية التغير المناخي والاحترام التحويلي للطبيعة والحياة البشرية.[703] ويفهم العديد من أعضائها ممارسات الزراعة الإيكولوجية و«وضع حد لجميع أشكال العنف ضد المرأة»[704] وكذلك أيضاً الحاجة إلى الاستقرار – الوصول إلى الائتمان، وتخزين الحبوب، والطاقة، وخدمات الإرشاد، وطرق سد الفجوة بين المدينة والريف.

في المستعمرة الاستيطانية بالولايات المتحدة، تمتلك حركة «حياة السود» (Black Lives) ملخصات سياسية حول كل شيء بدءاً من الوقود الأحفوري إلى التمويل المجتمعي، وإلى العسكرة، وإلى التعويضات.[705] وقد قدمت حركة

---

(701) Sayre 2008, 132. أنظر أيضاً Moore 2015.

(702) Gramsci 1978.

(703) Brass 1995.

(704) La Via Campesina 2009.

(705) http://policy.m4bl.org/downloads/.

حقوق ذوي الإعاقة نقدًا ليس فقط للمساحات العامة المبنية، بل أيضًا للعرق والجنس والطبقة.[706] كما تلفت نساء الشعب الأصلي في الأمريكتين، واللاتي كانت أجسادهن على الخط الأمامي لإيكولوجيا الرأسمالية على مدى ستة قرون، الانتباه إلى هذا العنف ويجعلنه مرئياً.[707] كما أن احتجاجات «Idle No More» في كندا والاحتجاجات في ستاندنغ روك في داكوتا الشمالية ملتزمة بإنهاء الاستعمار، ومواجهة استعمار السلطة. وتتظاهر الحركة النسوية الاشتراكية الأرجنتينية «Pan y Rosas» ضد قتل النساء. وتثبت المقترحات الخاصة باستراتيجية الخروج من التغير المناخي نقاط التنظيم والتقارب بين مجموعة من المفكرين والناشطين الذين يفكرون في إعادة التوزيع الجذري للموارد التي يتطلبها الانتقال خارج الرأسمالية.[708]

وفي تخوم الرأسمالية، لا تواجه المجتمعات جبهات التراكم المتعددة فحسب، بل تقاوم وتطور استجابات معقدة ومنهجية.[709] ويعتقد جون جوردان، الناشط والمؤسس المشارك لحركة «Reclaim the Streets» في المملكة المتحدة، إن المقاومة والبدائل تشكل «جزئَي الحمض النووي للتغيير الاجتماعي».[710] سيحتاج هذا التغيير إلى موارد ومساحة للتطوّر. لا توجد خريطة طريق للصراع الطبقي الذي يعيد في الوقت نفسه صياغة علاقات البشر مع شبكة الحياة وداخلها. إذا كانت البيئة الرأسمالية هي التي صنعتنا، فلا يمكن إعادة صنعنا إلا عندما نمارس بدورنا طرقًا جديدة لإنتاج ورعاية بعضنا البعض معًا، وهو ممارسة لإعادة صياغة علاقاتنا الأساسية وإعادة التفكير فيها.

وللمساهمة في هذه الجهود، نقدم بعض الأفكار لتكملة التظاهرات الهامة الجارية حاليًا، وهي أفكار يمكن أن تساعد في تأمل الماضي والحاضر بشكل مختلف

---

(706) McRuer 2006; L. Davis 2016.

(707) Lucashenko 1996; Quijano 2000; Barker 2006; Grey and Patel 2014.

(708) Foster 2013.

(709) Barkin and Lemus 2016.

(710) N. Klein 2014, 405.

على نطاق واسع، مع عين على الحياة، وعلى مدى فترات زمنية لا يمكن أن تتناسب مع الرأسمالوسين. وفي حين أننا قد نشعر باليأس من رؤية أي تغيير منهجي، فإن تاريخ الثورات هو تاريخ حدوث ما هو غير متوقع، بل ومستحيل. والوعد العظيم هو أن البشر - وما سيصبح عليه البشر - يمكن أن يزدهروا مع سائر الكوكب بعد الرأسمالوسين. ودعونا نسميها **إيكولوجيا التعويض**. وهي فكرة لا تُترجم بشكل جيد - بالفرنسية، على سبيل المثال، توجد عبارة (**r**éparation du Pr**é**judice **é**cologique) - والتي تشير إلى استعادة البيئة بعد أن ألحق الإنسان بها الضرر. لكن هذا سبيل معيب، لأن فكرة الطبيعة التي يمكن استعادتها هي فكرة متخلفة وترتكز على رؤية للطبيعة الفطرية التي تطورت من خلال الإبادة الجماعية والغزو.

نحن نفكر هنا بشكل أكبر وبشكل مختلف، باستخدام التعويض وسيلة نتذكر بها كيف صنعت إيكولوجيا الرأسمالية العالم - وقدرتنا على التفكير والعمل - وتعلّم كيفية التفاعل مع شبكة الحياة بشكل مختلف. ومن المؤكد أننا لا نفكر في التعويض من الناحية النقدية فقط. فهذا ليس بحثًا عن الأضرار ولا بحثًا عن الشخص الذي يعاني أكثر من غيره في العالم نتيجة لإيكولوجيا الرأسمالية. ولكننا حين نعلم أن هناك شخصًا خطأه الوحيد هو أن يولد الآن، على الأرجح امرأة، من السكان الأصليين، متضرر من تغير المناخ والتلوث، وستصبح حياته أسوأ بشكل واضح بسبب الأفعال التراكمية لكل شخص قادر على قراءة هذه الجملة، كيف يمكن لنا أن نعيش بشكل مختلف؟

ويجب أن تتضمن الخطوط العريضة لمثل هذا البرنامج الاعتراف، والتعويض، وإعادة التوزيع، وإعادة التصوّر، والترفيه.

الاعتراف

إن فهم إيكولوجيا العالم يعني مواجهة التاريخ والمستقبل. وهو إدراك أن الطريقة التي نعيش بها والتصنيفات الفكرية التي تفصل بين البشر والعالم الطبيعي

هي حقائق تاريخية - وليست أبدية. وعلاوة على ذلك، لا يعمل النظام الثنائي للرأسمالية توصيفاً فحسب، بل برنامجاً معيارياً لتنظيم البشر وسائر الطبيعة - وترخيصهم. كما أن الاعتراف الذي ندعو إليه ليس علاجاً فردياً، بل مؤسسياً ومنهجياً. والاعتراف بالعلاقة بين البشر وما أحدثه البشر، على مستوى المؤسسات الاجتماعية - من الحكومة إلى الشركات وإلى منظمات التغيير الاجتماعي - أمر ضروري وخطير في نفس الوقت. وغالبًا ما تتم دراسة هذه المؤسسات كما لو كانت، إذا ما أخذنا استعارة من الفصل الرابع، سمكة خرجت من الماء؛ وقد تم في كثير من الأحيان إسقاط الرابط الأساسي بالبيئات وصناعة البيئة من الصورة. وخانت الدول، خلال عملية الاعتراف، نفس المجموعات التي زعمت أنها تعترف بها. ولا يحتاج المرء إلا أن ينظر إلى العلاقات المعاصرة بين الدول والسكان الأصليين، في كل مكان، لرؤية ذلك على أرض الواقع. وتشير دروس غلين شون كولتهارت، المستمدة من نضالات السكان الأصليين في كندا، إلى أن التعامل مع الدولة يجب أن يكون محدودا إذا أردنا لمحاولات العيش خارج حدودها أن تنجح.[711] ومع ذلك، فإن إدراك إيكولوجيا الرأسمالية ليس كافياً. فهي بحاجة إلى تغيير. وبالتالي التعويض.

التعويض

لا توجد حسابات سهلة لحساب المعاناة والتعويض. كما أن البحث عن طريقة للحساب يعني افتراض أن كتاب الموتى هو نوع فرعي من المحاسبة، يتم الاحتفاظ به بإدخال مزدوج، أحدهما للخسارة والآخر للتعويض. وليس التعويض بهذه السهولة، ولا هو نهائي على الإطلاق. ولنتأمل هنا حالة غواتيمالا. يرسم كتاب ديان نيلسون بعنوان «الحساب» بشكل مفيد محاولة فهم وتفسير الحرب الطويلة التي أشعلتها سيطرة شركة يونايتد فروت على الموز الرخيص في غواتيمالا،

(711) Coulthard 2014.

واستجابة الشركة لأزمة إصلاح الأراضي التي عجلت بانقلاب وكالة المخابرات المركزية. ويعقب نيلسون المطالبات التي طال انتظارها بالمساءلة والتعويضات، والتي أدت في النهاية إلى سداد دين عن جرائم الحرب، والذي أصبح، جزئيًا، صندوقًا لتمويل زراعة الأشجار. وذكرت عن أحد مخبريها: «في جويا باج، تلقى زوج دونا ميغيلا بعض المال لكنه لم يزرع أي شيء. إنها غاضبة لأنه أنفقها على امرأة أخرى بدلاً من مساعدة ابنهما الأصغر على الوصول إلى الولايات المتحدة».[712] وفي أيدي أخرى، قد يكون هذا دليلاً على عدم جدوى التعويضات، وعلى اليأس من تغيير شيء واحد بينما يجب أن يتغير كل شيء. وبدلاً من ذلك، يقدمها نيلسون كدليل على جهد سياسي منتصر، وهو جهد أمضت الدولة عقودًا في محاولة تحطيمه. وهو أن إنفاق التعويضات بطرق تتعارض مع الغرض منها يمثل مشكلة أفضل بكثير من عدم الحصول على أية أموال على الإطلاق.

ومن المهم أيضًا أن نتذكر أن الدول ليست الهيئات الوحيدة المسؤولة عن الضرر والتعويضات اللاحقة. فالشركات مدينة بالديون أيضًا. وخذ بعين الاعتبار شركة داو كيميكال – المالكة الآن لشركة يونيون كاربايد، المسؤولة عن كارثة بوبال – أو الشركات التي امتلأت خزائنها، على حد تعبير حركة «حياة السود»، «بالثروات المستخرجة من مجتمعاتنا من خلال العنصرية البيئية، والعبودية، والغذاء العنصري، والتمييز في الإسكان، والرأسمالية العنصرية».[713] ومع ذلك فإن ميزان الحساب لن يستوي أبدًا. ليس لأن معادلة الأرواح والمعاناة لا يمكن حسابها، ولكن لأن عملية التعويض تنطوي على نقاش تاريخي قائم. لا توجد «سنة صفر» يمكن أن تكون بمثابة بديل محاسبي لضحايا العبودية والغزو والحرب الطبقية. وأخيراً، فإن فهم النطاق الكامل للأضرار التي أحدثتها إيكولوجيا الرأسمالية، ومن الذي وقع عليه هذا الضرر وما هي أسبابه، لن يتطلب المال

. Nelson 2009, 300(712)

Movement for Black Lives, n. d. (713)

فحسب، بل تصوّر إعادة توزيع غير النقدي.

إننا ندرك أن إيكولوجيا التعويض لها تكلفتها. وهناك مشكلة في المستقبل. فاقتراح بديل للرأسمالية أصبح موضع ترحيب الآن كما كان عندما قُتلت ساحرة تلاكسكالان المجهولة في الفصل الأول قبل أكثر من أربعة قرون. وعندما فعل الشيوعيون في الولايات المتحدة ذلك في الخمسينيات، تعرضوا للاضطهاد؛ وعندما يفعل دعاة حماية البيئة ذلك اليوم، فإنهم أيضًا يصبحون محط اهتمام الدولة الأمنية.[714] إن ممارسة إنهاء الاستعمار أكثر خطورة من التضامن البسيط لأنه من المرجح لها أن تنجح.[715] وفي نهاية المطاف، يكون السؤال «ماذا لديك؟»، «كيف تحصل عليه؟»، وربما الأكثر إثارة للفتنة، «ماذا تريد؟» وسوف تتضمن الإجابات توزيع الموارد التي لا علاقة لها برأسمالية السوق. ولا شك أن الأسواق تخصص الموارد، ولكن ما يدور في أذهاننا هو شكل مختلف من أشكال إعادة التوزيع.

إعادة التوزيع مكتبة سُر مَن قرأ

إن نظرة على المصير الجندري للتعويضات التي حصل عليها نيلسون في غواتيمالا تشير إلى أنه من غير المرجح أن يحقق التعويض النقدي عن الجرائم العدالة في حد ذاته. وعلى النقيض من ذلك، فإن إيكولوجيا التعويض لا تسأل «من يحصل على ماذا؟» ولكن «من حصل على ماذا، ومن يجب أن يدفع ثمن ذلك؟» وفي حالة النظام الأبوي، تشكّل إعادة توزيع العمل المنزلي جزءًا أساسيًا مما نتصور أن إيكولوجيا التعويض ستشمله. وعلى نحو مماثل، نأمل أن تشمل عملية إعادة التوزيع هذه الطاقة اللازمة لتدفئة وتبريد المنازل، والغذاء في نظام غذائي منفصل عن ضروراته الرأسمالية، وعلى أن يخضع كل منهما لأنظمة المشاعات. وللقيام بذلك، تحتاج إلى الأرض، والأماكن التي يمكن للبشر فيها التواصل مع الحياة خارج نطاق البشر، ومناطق المشاركة حيث يمكن للبشر تجديد

(714) Potter 2013.

(715) Walia 2014.

علاقاتهم يوميًّا مع شبكة الحياة. وهذا يدعو إلى إعادة تصور دائم.

إعادة التصوّر

إن إلغاء مركزية البشر والتراجع عن التجريدات الحقيقية للطبيعة والمجتمع لا يمكن أن يتم إلا بشكل ملموس. ويمكن للإجراءات الدفاعية ضد الأنظمة التي تفرض هذه التجريدات – مثل حملة ستاندنج روك – أن تسفر عن انتصارات ولكنها دائمًا جزء من صراع أطول.[716] ولإنهاء استعمار «اسم واحد في كل مرة»، وخريطة واحدة في كل مرة، كما يقترح بيديويانيكويتوك، هي مهمة جسدية ونفسية على حد سواء.[717] وهناك خطر من أن يصبح هذا النوع من المشاريع التي تتطلب الكثير من الوقت على أريكة المعالج النفسي. وهذا لا يعني الاستخفاف بعمل التحليل النفسي المهم الذي ينشأ عن تغير المناخ،[718] ولكن لندرك بأنه لا ينتمي إلى غرف مغطاة بألواح من خشب البلوط، بل إلى أرضيات المتاجر والحقول والمكاتب والفصول الدراسية. كما إن إعادة التصوّر هذه هي عمل جماعي من أجل التحرّر. ولم يحدث قط في ظل الرأسمالية أن تُسأل الأغلبية العظمى عن العالم الذي نود أن نعيش فيه. إن الحلم، والحلم المثير للفتنة، هو أمر يحتاج العديد من البشر إلى ممارسته، لأننا مُنعنا من القيام بذلك لعدة قرون. كما أن أرضيات المتاجر، والمراكز المجتمعية، والفصول الدراسية، وطاولات المطبخ، حيث سيتم مشاركة هذه الأحلام هي في حد ذاتها عرضة لإعادة التصور. وبدلاً من النظر إلى العمل على أنه عمل شاق، فإن إيكولوجيا الترميم تقدم الفرح، وتبحث عن مساحات عمل ومعيشة مليئة بفرص عادلة للترفيه.

الترفيه

هناك حاليًا طفرة صغيرة في بيانات نهاية العمل، المبنية على فكرة إدارة الروبوتات للمهام التي تنطوي على الكدح، وبالتالي تحرير البشر للحصول على

---

(716) Kino-nda-niimi Collective 2014.

(717) Biidewe'anikwetok 2014.

(718) Dodds 2011.

وقت فراغ غير محدود تقريبًا.[719] وفي حين يكمن خطر ما في هذه التحليلات لنسيان العلاقات الوثيقة والعنيفة لآلة الرأسمالية والطبيعة الرخيصة، إلا أنَّنا ممتنون لأنها تبعث على الأمل بأن البشر قد يجنون المعنى والكرامة خارج أخلاقيات العمل البرتستاني، وهو بحد ذاته إرث استعماري مؤلم.[720] وهذا ليس نقاشاً مضاداً للعمل الجاد. ومع ذلك، فإن الأمر يتعلق بالمطالبة بعمل هادف وممتع، والحل التحرري لعلاقة العمل والحياة واللعب، التي تظهر من خلال نضال العمال. وهنا نجد فكرة العدالة التشاركية مفيدة. فقد حظيت العدالة البديلة ببعض الرواج في نظام العدالة الجنائية الأمريكي كبديل للسجن.[721] والمنطق هو أن العدالة البديلة تعيد الأمور إلى الوضع الراهن. ولكن ماذا لو لم يكن الوضع الراهن جيدًا بما فيه الكفاية أو كان فظيعًا تمامًا؟ وفي كتابتهما عن العمل الزراعي الإيكولوجي المضني، وجد كريستيان تيمرمان وجورج فيليكس أن تطبيق المعرفة العميقة في الأرض، وتقرير المصير، والاتصال بشبكة الحياة يوفر فرصة ليس فقط للانخراط في العمل مدفوع الأجر ولكن أيضًا للمساهمة في دولة أفضل، لجعل المرء نفسه، ومجتمعه، والعالم أفضل.[722] إن متعة الكسل[723] والعمل الجيد هي تلك التي نحتفل بها تحت عنوان «إيكولوجيا التعويض».

إننا نعتقد أن هذه الأفكار تقدم طريقة تفكير لما بعد عالم الأشياء الرخيصة لنتخيل كيف يمكن أن نعيش من دون التجريدات الحقيقية للطبيعة والمجتمع والاستراتيجيات التي ولدتها إيكولوجيا الرأسمالية. وإذا كان ذلك يبدو ثورياً، فهذا أفضل بكثير.

---

(719) على سبيل المثال، Srnicek and Williams 2015.

(720) Hudson and Coukos 2005.

(721) Latimer, Dowden, and Muise 2005.

(722) Timmermann and Felix 2015.

(723) أنظر على سبيل المثال Horning, Gerhard, and Michailow 1995.

المصادر

Abel, Wilhelm. 1980. *Agricultural Fluctuations in Europe: From the Thirteenth to the Twentieth Centuries.* London: Methuen.

Aberth, John. 2005. *The Black Death, 1348-1350: The Great Mortality of 1348-1350; a Brief History with Documents.* New York: Palgrave Macmillan.

Abramsky, Kolya. 2010. *Sparking a Worldwide Energy Revolution; Social Struggles in the Transition to a Post-petrol World.* Edinburgh: AK Press.

Abulafia, David. 2008. *The Discovery of Mankind: Atlantic Encounters in the Age of Columbus.* New Haven, CT: Yale University Press.

Abu-Lughod,Janet L. 1989. *Before European Hegemony: The World System A.D.1250-1350.* New York: Oxford University Press.

Advisory Committee for Agricultural Activities. 1951. "The World Food Problem, Agriculture, and the Rockefeller Foundation." June 21. Rockefeller Foundation Records, Administration, Program and Policy, RG 3.1, series 908, box 14, folder 144. Rockefeller Archive Center, New York. Available at http://rockefellerlOO.org/items/show/3780.

Agricola, Georgius. (1556) 1950. *De re metallica.* Translated by Herbert Hoover and Lou Henry Hoover. New York: Dover.

Alatas, Syed Hussein. 1977. *The Myth of the Lazy Native: A Study of the Image of the Malays, Filipinos and Javanese from the 16th to the 20th Century and Its Function in the Ideology of Colonial Capitalism.* Abingdon, Oxford: Frank Cass.

Alcantara, Cynthia Hewitt de. 1973. "The 'Green Revolution' as History: The Mexican Experience." *Development and Change* 4, no. 2: 25-44.

Aldrete, Gregory S. 2013. "Riots." In *The Cambridge Companion to Ancient Rome,* edited by Paul Erdkamp, 425-40. Cambridge: Cambridge University Press.

Alesina, Alberto, Paola Giuliano, and Nathan Nunn. 2013. "On the Origins of Gender Roles: Women and the Plough." *Quarterly journal of Economics* 128, no. 2: 469-530.

Al Jazeera. 2016. "Heatwave Continues to Bake Parts of the Middle East." August 28. www.aljazeera.com/news/ 2016/ 08/heatwave-continues-bake-parts-middle-east-160828091709175.html.

Allen, Martin. 2001. "The Volume of the English Currency, 1158-470." *Economic History Review* 54, no. 4: 595-611.

Allen, Robert C. 2000. "Economic Structure and Agricultural Productivity in Europe, 1300-1800." *European Review of Economic History* 4, no. 1: 1-25. ---. 2009. *The British Industrial Revolution in Global Perspective.* Cambridge: Cambridge University Press. ---.

2013. "Anthropocenic Poetics: Ethics and Aesthetics in a New Geological Age." In "Energy Transitions in History: Global Cases of Continuity and Change," edited by Richard W. Unger. Special issue of *Rachel Carson Center Perspectives* 2013, no. 2: 11-15.

Altieri, Miguel. 1999. "Applying Agroecology to Enhance the Productivity of Peasant Farming Systems in Latin America." *Environment, Development and Sustainability* 1: 197-217.

Altvater, Elmar. 2007. "The Social and Natural Environment of Fossil Capitalism." *Socialist Register* 2007: 37.

Amrine, Frederick. 2010. "The Unconscious of Nature: Analyzing Disenchantment in *Faust I*." *Goethe Yearbook* 17, no.1: 117-32.

Amussen, Susan Dwyer. 1988. *An Ordered Society: Gender and Class in Early Modern England.* oxford: Basil Blackwell.

Anderson, Benedict. 2006. *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism.* Rev. ed. London: Verso.

Anderson, Perry. 1975. *Lineages of the Absolutist State.* London: New Left Books.

Andrews, Thomas G. 2008. *Killing for Coal: America's Deadliest Labor War.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Andriesse, J. P. 1988. *Nature and Management of Tropical Peat Soils.* Rome: Food and Agricultural Organization of the United Nations.

Anonymous. 1893. "Israel." Quarter!>' Review, vol. 176, 106-39. London: John Murray.

Apostolopoulou, Evangelia, and William M. Adams. 2015. "Neoliberal Capitalism and Conservation in the Post-crisis Era: The Dialectics of 'Green' and 'Un-green' Grabbing in Greece and the UK." *Antipode* 47, no. I: 1S-3S.

Appadurai, Arjun. 1988. "How to Make a National Cuisine: Cookbooks in Contemporary India." *Comparative Studies in Society and History* 30, no. 1: 3-24.

Applebaum, Herbert A. 1992. *The Concept of Work: Ancient, Medievat and Modem* Albany: State University of New York Press.

Aptheker, Herbert. 1943. *American Negro Slave Revolts.* New York: Columbia University Press.

Araghi, Farshad. 2013. "The End of Cheap Ecology and the Future of'Cheap Capital.'" Paper presented at the Annual Meeting of the Political Economy of World-Systems Section of the American Sociological Association, University of California, Riverside, April 11-13.

Armitage, David. 2004. ".John Locke, Carolina, and the *Two Treatises of Government.*" *Political Theory* 32, no. 5: 602-27.

Arnold, David. 1996. *The Problem of Nature: Environment, Culture and European Expansion.* oxford: Blackwell.

Arnold, Fred, Sulabha Parasuraman, P. Arokiasamy, and Monica Kothari. 2009. *Nutrition in India.* National Family Health Survey (NFHS-3), India, 2005-6. Mumbai: International Institute for Population Sciences. http://rchiips.org/nfhs/nutrition_report_for_website_1Bsep09.pdf.

Arrighi, Giovanni. 1994. *The Long Twentieth Century:* Money, *Power and the Origins of Our Times.* London: Verso.

Arrighi, Giovanni, and Jason W. Moore. 2001. "Capitalist Development in World Historical Perspective." In *Phases of Capitalist Development: Booms, Crises and Globalizations,* edited by Robert Albritton, Makoto Itoh, Richard Westra, and

Alan Zuege, 56-75. London: Palgrave Macmillan.

Arrighi, Giovanni, and Beverly J. Silver. 1999. *Chaos and* Governance *in the Modem World System.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

Arroyo Abad, Leticia, Elwyn Davies, andJan Luiten van Zanden. 2012. "Between Conquest and Independence: Real Wages and Demographic Change in Spanish America, 1530-1820." *Explorations in Economic History* 49, no. 2: 149-66.

Atkin, M. 1992. *The International Grain Trade.* Cambridge: Woodhead.

Atkins, John. (1735) 1970. *A Voyage to* Guinea, Brazit *and the West Indies in His Majesty's Ships, the Swallow and Weymouth.* London: Cass.

Atwell, William S. 2002. "Time, Money, and the Weather: Ming China and the 'Great Depression' of the Mid-Fifteenth Century." *journal of Asian Studies* 61, no. 1: 83-113.

Bacon, Francis. 1861. *The Philosophical Works of Francis Bacon.* Edited by James Spedding, Robert Leslie Ellis, and Douglas Denon Heath. Vol. 4. London: Longman.

Baffes,John, Donald Mitchell, Elliot Riordan, Shane Streifel, Hans Timmer, and William Shaw. 2008. *Global Economic Prospects* 2009: *Commodities at the Crossroads.* Global Economic Prospects and the Developing Countries. Washington DC: World Bank. http:/ / documents. worldbank.org/ curated/ en/586421468176682557 /Global-economic-prospects-2009-commodities-at-the-crossroads.

Bagnall, Nigel. 1999. *The* Punic *Wars: Rome, Carthage, and the Struggle for the Mediterranean.* London: Pimlico.

Bailes, Kendall E. 1977. "Alexei Gastev and the Soviet Controversy over Taylorism, 1918-24." Soviet *Studies* 29, no. 3: 373-94.

Bakewell, Peter J. 1987. "Mining." In *Colonial Spanish America,* edited by Leslie Bethell, 203-49. Cambridge: Cambridge University Press.

Balee, William. 2006. "The Research Program of Historical Ecology." *Annual* Review *of Anthropology* 35, no. 1: 75-98.

Bales, Kevin, Zoe Trodd, and Alex Kent Williamson. 2009. *Modem Slavery: The Secret World of27 Million People.* Oxford: Oneworld.

Barbin, Herculine. 1980. *Herculine* Barbin: *Being the Recently Discovered Memoirs of a Nineteenth-Century French Hermaphrodite.* Translated by Richard McDougall. New York: Pantheon.

Barker, Joanne. 2006. "Gender, Sovereignty, and the Discourse of Rights in Native Women's Activism." *Meridians: Feminism, Race, Transnationalism* 7, no. 1: 127-61.

Barkin, David, and Blanca Lemus. 2016. "Third World Alternatives for Building Post-capitalist Worlds." Review *of Radical Political Economics* 48, no. 4: 569-76.

Barnhill, David Landis. 2005. "Buddhism." In *The Encyclopedia of Religion and Nature,* edited by Bron Raymond Taylor, 236-39. London: Thoemmes Continuum.

Barnosky, Anthony D., Elizabeth A. Hadly,Jordi Bascompte, Eric L. Berlow,James H. Brown, Mikael Fortelius, Wayne M. Getz, et al. 2012. "Approaching a State Shift in Earth's Biosphere." *Nature* 486, no. 7401: 52-58.

Barnosky, A. D., P. L. Koch, R. S. Feranec, S. L. Wing, and A. B. Shabel. 2004. "Assessing the Causes of Late Pleistocene

Extinctions on the Continents." *Science* 306, no. 5693: 70-75.

Barrera-Osorio, Antonio. 2010. *Experiencing* Nature: *The Spanish American Empire and the Early Scientific* Revolution. Austin: University of Texas Press.

Barreto, Mascarenhas. 1992. *The Portuguese* Columbus, *Secret Agent of King john* II. New York: St. Martin's.

Bayly, C. A. 2004. *The Birth of the Modern World,* 1780-1914: *Global Connections and Comparisons.* Malden, MA: Blackwell.

Beckert, Sven. 2014. *Empire of Cotton: A Global History.* New York: Knopf.

Beckman, Jayson, Allison Borchers, and Carol A.Jones. 2013. *Agriculture's* Supply *and Demand for Energy and Energy* Products. Washington DC: United States Department of Agriculture Economic Research Service.

Behar, Ruth. 1987. "The Visions of a Guachichil Witch in 1599: A Window on the Subjugation of Mexico's HunterGatherers." *Ethnohistory* 34, no. 2: 115-38.

Bello, Walden F. 2009. *The Food Wars.* London: Verso.

Belser, Patrick. 2005. *Forced Labour and* Human *Trafficking: Estimating the Profits.* Geneva: International Labor Organization. http://digitalcommons.ilr.cornell.edu/forcedlabor/17 /.

Belsey, Hugh. 2013. "Andrews, Robert (1725-1806)." In *Oxford Dictionary of National Biography,* edited by Lawrence Goldman. Oxford: Oxford University Press. www.oxforddnb.com/view/article/95074.

Benchimol, Maira, and Carlos A. Peres. 2015. "Predicting Local Extinctions of Amazonian Vertebrates in Forest Islands Created by a Mega Dam." *Biological Conservation* 187: 61-72.

Bennett, Nathan James, Hugh Govan, and Terre Satterfield. 2015. "Ocean Grabbing." *Marine Policy* 57: 61-68.

Berger.John. 2008. *Ways of Seeing.* London: Penguin.

Berna, Francesco, Paul Goldberg, Liora Kolska Horwitz, James Brink, Sharon Holt, Marion Bamford, and Michael Chazan. 2012. "Microstratigraphic Evidence of In Situ Fire in the Acheulean Strata ofWonderwerk Cave, Northern Cape Province, South Africa." *Proceedings of the National Academy of Sciences* 109, no. 20: E1215-E1220.

Bhattacharya, Prabir C. 2006. "Economic Development, Gender Inequality, and Demographic Outcomes: Evidence from India." *Population and Development* Review 32, no. 2: 263-92.

Bianchi, Suzanne M., Liana C. Sayer, Melissa A. Milkie, and John P. Robinson. 2012.

"Housework: Who Did, Does or Will Do It, and How Much Does It Matter?" *Social Forces* 91, no. 1: 55-63.

Biidewe'anikwetok. 2014. "Reclaiming Ourselves One Name at a Time." In *The Winter We* Danced: *Voices from the Past, the Future, and the Idle No More Movement,* edited by the Kino-nda-niimi Collective, 163-66. Winnipeg: ARP.

Billig, Michael. 1995. *Banal Nationalism.* London: Sage.

Bina, Cyrus. 1990. "Limits of OPEC Pricing: OPEC Profits and the Nature of Global Oil Accumulation." OPEC *Review* 14, no. 1: 55-73.

Biro, Andrew. 2005. *Denaturalizing Ecological Politics: Alienation from Nature from Rousseau to the Frankfurt School and Beyond.* Toronto: University of Toronto Press.

Birrel1,jean. 1987. "Common Rights in the Medieval forest: Disputes and Conflicts in the Thirteenth Century." Past *and Present* 117: 22-49.

Bittman, Michael, James Malunud Rice, and Judy Wajcman. 2004. "Appliances and Their Impact: The Ownership of Domestic Technology and Time Spent on Household Work." British *journal of Sociology* 55, no. 3: 401-23.

Black, Jeremy. 1991. *A Military Revolution? Military Change and European Society, 1550-1800.* London: Macmillan.

Blanchard, Ian. 2001. "International Capital Markets and Their Users, 1450-1750." In *Early Modern Capitalism: Economic and Social Change in Europe, 1400-1800,* edited by Maarten Prak, 107-24. London: Routledge.

Bleichmar, Daniela. 2009. "A Visible and Useful Empire: Visual Culture and Colonial Natural History in the EighteenthCentury Spanish World." In *Science in the Spanish and Portuguese Empires, 1500-1800,* edited by Bleichmar, Paula De Vos, Kristin Huffine, and Kevin Sheehan, 290-310. Stanford, CA: Stanford University Press.

Blickle, Peter. 1981. *The Revolution of 1525: The German Peasants' War from a New Perspective.* Translated by Thomas A. Brady and H. C. Erik Midelfort. Baltimore: johns Hopkins University Press.

Bloch, Ruth H. 1978. "Untangling the Roots of Modern Sex Roles: A Survey of Four Centuries of Change." Signs 4, no. 2: 237-52.

Bohstedt,John. 2016. "Food Riots and the Politics of Provisions from Early Modern Europe and China to the Food Crisis of 2008." *journal of Peasant Studies* 43, no. 5: 1035-67.

Bois, Guy. 1984. *The* Crisis *of Feudalism: Economy and Society in Eastern Normandy, c. 1300-1550.* Cambridge: Cambridge University Press.

Boissonnade, Prosper, and Eileen Power. 2011. *Life and Work in Medieval Europe.* Abingdon, Oxford: Routledge.

Boland, Vincent. 2009. "The World's First Modem, Public Bank." *Financial* Times, April 17. www.ft.com/content/6851f286- 288d-11de-8dbf-OOl44feabdco.

Bonneuil, Christophe, and jean-Baptiste Fressoz. 2016. *The Shock of the Anthropocene: The Earth, History and Us.* London: Verso.

Borras, Saturnino M.,Jr.,jennifer C. Franco, Ryan Isakson, Les Levidow, and Pietje Vervest.

2014. "Towards Understanding the Politics of Flex Crops and Commodities: Implications for Research and Policy Advocacy." Amsterdam: Transnational Institute.

Boserup, Ester. 1970. *Woman's Role in Economic Development.* London: Allen and Unwin.

Bowman, D. M.,J. K. Balch, P. Artaxo, W.J. Bond,J. M. Carlson, M.A. Cochrane, C. M. D'Antonio, et al. 2009. "Fire in the Earth System." *Science* 324, no. 5926: 481-84.

Boxer, C.R. 1975. *Women in Iberian Expansion Overseas, 1415-1815: Some Facts, Fancies and Personalities.* New York: Oxford University Press.

Boyle, David. 2008. *Toward the Setting* Sun; *Columbus, Cabot, Vespucci, and the Race for America.* New York: Walker.

Braconier, Henrik, Giuseppe Nicoletti, and Ben Westmore. 2014. "Policy Cha1lenges for the Next 50 Years." OECD Economic Policy Paper No. 9, Organization for Economic Cooperation and Development, Paris. www.oecdilibrary.org/economics/policy-cha11enges-for-the-next-50-years_5jz18gs5fckfen.

Brass, Tom. 1995. *New Farmers' Movements in India.* Ilford, London: Frank Cass.

Braudel, Fernand. 1953. "Qu'est-ce que le xvi• siecle?" *Annales: Economies, Societes, Civilisations* 8, no. 1: 69-73.

---. 1972. *The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II.* Translated by Sian Reynolds. Vol. 1. London: Collins.

---. 1977. *Afterthoughts on Material Civilization and Capitalism.* Translated by Patricia Ranum. Baltimore: johns Hopkins University Press.

---. 1981. *The* Structures *of Everyday Life: The Limits of the Possible.* Translated and revised by Sian Reynolds. London: Co1lins.

---. 1984. *The Perspective of the World.* Translated by by Sian Reynolds. Vol. 3 of *Civilization and Capitalism, 15th-18th Century.* New York: Harper and Row.

Breasted, James Henry. 1919. "The Origins of Civilization." *Scientific Monthly,* October, 289-578.

Brenner, Robert. 1976. "Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-industrial Europe." *Past and Present* 70: 30-75.

---. 1993. *Merchants and Revolution: Commercial Change, Political Conflict, and London's Overseas Traders, 1550-1653.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

---. 2001. "The Low Countries in the Transition to Capitalism." *journal of Agrarian Change* 1, no. 2: 169-241.

Brinkmann, Mankel. 2009. "Fighting World Hunger on a Global Scale: The Rockefe11er Foundation and the Green Revolution in Mexico." www.rockarch.org/publications/resrep/brinkmann.pdf.

Broadberry, S. N., B. M. S. Campbe11, Alexander Klein, Mark Overton, and Bas van Leeuwen. 2010. "English Economic Growth, 1270-1700." CAGE Online Working Paper Series 2010, no. 21, Department of Economics, University of Warwick, Coventry, UK.

Broadberry, Stephen, Bruce Campbe11, and Bas van Leeuwen. 2011. "English Medieval

Population: Reconciling Time Series and Cross Sectional Evidence." www.basvanleeuwen.net/bestanden/medievalpopulation7.pdf.

Broadberry, Stephen, and Bishnupriya Gupta. 2006. "The Early Modern Great Divergence: Wages, Prices and Economic Development in Europe and Asia, 1500-1800." *Economic History Review* 59, no. 1: 2-31.

Brockway, Lucile H. 1979a. *Science and Colonial Expansion: The Role of the British Royal Botanic Gardens.* New York: Academic.

---. 1979b. "Science and Colonial Expansion: The Role of the British Royal Botanic Gardens." *American Ethnologist* 6, no. 3: 449-65.

Bromwich, Jonah Engel. 2016. "Flooding in the South Looks a Lot like Climate Change." *New York* Times, August 16. www.nytimes.com/2016/08/17 /us/climate-change-louisiana.html.

Brotton,Jerry. 1997. *Trading Territories: Mapping the Early Modern World.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Brown, E. H. Phelps, and Sheila V. Hopkins. 1956. "Seven Centuries of the Prices of Consumables, Compared with

Builders' Wage-Rates." *Economica* 23, no. 92: 296-314.

Bruins, Hendrik]., and Fengxian Bu. 2006. "Food Security in China and Contingency Planning: The Significance of Grain Reserves." *journal of Contingencies and* Crisis *Management* 14, no. 3: 114-24.

Bulbeck, David, Anthony Reid, Tan Lay Cheng, and Wu Yiqi. 1998. *Southeast* Asian Exports *since the 14th* Century: *Cloves, Pepper, Coffee, and Sugar.* Singapore: Institute of Southeast Asian Studies.

Bull,]. W., and M. Maron. 2016. "How Humans Drive Speciation as Well as Extinction." *Proceedings of the Royal Society B: Biological Sciences* 283, no. 1833.

Bunge, Jacob. 2015. "How to Satisfy the World's Surging Appetite for Meat." *Wall Streetjoumat* December 4. www.wsj.com/articles/how-to-satisfy-the-worlds-surging-appetite-for-meat-1449238059.

Bunker, Stephen G. 1985. *Underdeveloping the* Amazon: *Extraction, Unequal Exchange, and the Failure of the Modem State.* Chicago: University of Chicago Press.

Biintgen, Ulf, Willy Tegel, Kurt Nicolussi, Michael McCormick, David Frank, Valerie Trouet,Jed O. Kaplan, et al. 2011. "2500 Years of European Climate Variability and Human Susceptibility." *Science* 331, no. 6017: 578-82.

Burawoy, Michael. 1983. "Between the Labor Process and the State: The Changing Face of Factory Regimes under Advanced Capitalism." *American Sociological Review* 48, no. 5: 587-605.

Burbach, Roger, and Patricia Flynn. 1980. *Agribusiness in the Americas.* New York: Monthly Review Press.

Burkett, Paul, and john Bellamy Foster. 2006. "Metabolism, Energy, and Entropy in Marx's Critique of Political Economy: Beyond the Podolinsky Myth." *Theory and Society* 35,

no. 1: 109-56.

Butollo, Florian, and Tobias ten Brink. 2012. "Challenging the Atomization of Discontent." *Critical* Asian Studies 44, no. 3: 419-40.

Buzan, Barry, Ole Wrever, and Jaap de Wilde. 1998. Security: *A New Framework for Analysis.* Boulder, CO: Lynne Rienner. Cadamosto [Al vise da Ca' da Mosto]. (1455) 193 7. *The Voyages of Cadamosto and Other Documents on Western Africa in the Second Half of the Fifteenth Century.* Translated and edited by G. R. Crone. London: Hakluyt Society.

Cahan, Bruce B., Irmgard Marboe, and Henning Roedel. 2016. "Outer Frontiers of Banking: Financing Space Explorers and Safeguarding Terrestrial Finance." *New Space* 4, no. 4: 253-68.

Cahill, David. 1994. "Colour by Numbers: Racial and Ethnic Categories in the Viceroyalty of Peru, 1532-1824." *journal of Latin American* Studies 26, no. 2: 325-46.

Campbell, Bruce. 2010. "Nature as Historical Protagonist: Environment and Society in Pre-industrial England." *Economic History Review* 63, no. 2: 281-314.

Campbell, Chris, and Michael Niblett, eds. 2016. *The Caribbean: Aesthetics, World-Ecology, Politics.* Liverpool: Liverpool University Press.

Canny, Nicholas P. 2001. *Making Ireland British, 1580-1650.* Oxford: Oxford University Press.

Cantor, Norman F. 2002. *In the Wake of the Plague: The Black Death and the World It Made.* New York: HarperCollins.

Carlos, Ann M., Karen Maguire, and Larry Neal. 2006. "Financial Acumen, Women Speculators, and the Royal African Company during the South Sea Bubble." *Accounting,* Business *and Financial History* 16, no. 2: 219-43.

Camey.Judith Ann. 2001. *Black* Rice: *The African* Origins *of Rice Cultivation in the Americas.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Carrington, Damian. 2016. "The Anthropocene Epoch: Scientists Declare Dawn of Human-Influenced Age." *Guardian,* August 29. www.theguardian.com/environment/2016/aug/29/declare-anthropocene-epoch-experts-urge-geologicalcongress-human-impact-earth.

Catz, Rebecca. 1993. *Christopher Columbus and the* Portuguese, *1476-1498.* West-port, CT: Greenwood.

Cavanagh, Edward. 2013. "Kingdom or Colony? English or British? Early Modem Ireland and the Colonialism Question." *journal of Colonialism and Colonial History* 14, no. 2.

Ceballos, Gerardo, Paul R. Ehrlich, Anthony D. Bamosky, Andres Garcia, Robert M. Pringle, and Todd M. Palmer. 2015. "Accelerated Modem Human-Induced Species Losses: Entering the Sixth Mass Extinction." *Science Advances* 1, no. 5.

Cerri, Carlos Eduardo P., Gerd Sparovek, Martial Bemoux, William E. Easterling, Jerry M. Melillo, and Carlos Clemente

Cerri. 2007. "Tropical Agriculture and Global Warming: Impacts and Mitigation Options." *Scientia Agricola* 64: 83-99.

Challinor, *A.J., J.* Watson, D. B. Lobell, S. M. Howden, D. R. Smith, and N. Chhetri. 2014. "A Meta-analysis of Crop Yield under Climate Change and Adaptation." *Nature Climate Change* 4, no. 4: 287-91.

Channell, Rob, and Mark V. Lomolino. 2000. "Trajectories to Extinction: Spatial Dynamics of the Contraction of Geographical Ranges." *journal of Biogeography* 27, no. 1: 169-79.

Chapman, Ian. 2014. "The End of Peak Oil? Why This Topic Is Still Relevant despite Recent Denials." *Energy Policy* 64: 93-101.

Charlesworth, Andrew. 1983. *An Atlas of Rural* Protest *in Britain, 1548-1900.* London: Croom Helm.

Chaudhuri, K. N. 1985. *Trade and Civilisation in the Indian* Ocean: *An Economic History from the Rise of Islam to 1750.* Cambridge:

Cambridge University Press.

Chew, Sing C. 2001. *World Ecological Degradation:* Accumulation, *Urbanization, and Deforestation, 3000* B.C.-A.D. *2000.* Walnut Creek, CA: AltaMira.

Cheyne, George. 1733. *The English Malady;* or, *A Treatise of Nervous Diseases of All Kinds. .. .* London: G. Strahan.

Chhatre, Ashwini, and Arun Agrawal. 2009. "Trade-Offs and Synergies between Carbon Storage and Livelihood Benefits from Forest Commons." *Proceedings of the National Academy of Sciences* 106, no. 42: 17667-70.

Chiluwa, Innocent. 2015." 'Occupy Nigeria 2012': *A* Critical Analysis ofFacebook Posts in the Fuel Subsidy Removal Protests." *Clina* 1, no. 1: 47-69.

Cicero, Marcus Tullius. (45 BCE) 1933. *De natura deorum; Academica.* Translated by H. Rackham. Vol. 19 of *Cicero in Twenty-Eight Volumes.* London: William Heinemann.

City of London. 2016. *Total Tax Contribution of UK Financial Services.* 9th ed. London: City of London Corporation.

Clark, Alice Shaw. 1919. *Working Life of Women in the Seventeenth Century.* London: G. Routledge and Sons.

Clark, Gregory. 2002. "The Agricultural Revolution and the Industrial Revolution: England, 1500-1912." Unpublished manuscript. Department of Economics, University of California, Davis. http://faculty.econ.ucdavis.edu/faculty/gclark/papers/prod2002.pdf.

---. 2007. *A Farewell to Alms: A Brief Economic History of the World.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Clark, Gregory, Michael Huberman, and Peter H. Lindert.1995. "A British Food Puzzle, 1770-1850." *Economic History Review* 48, no. 2: 215-37.

Cline, Sarah. 2015. "Guadalupe and the Castas: : The Power of a Singular Colonial Mexican Painting." *Mexican Studies/*Estudios *Mexicanos* 31, no. 2: 218-47.

Cobarrubias, Sebastian, and john Pickles. 2009. "Spacing Movements: The Turn to Cartographies and Mapping Practices in Contemporary Social Movements." In *The Spatial Turn: Interdisciplinary Perspectives,* edited by Barney Warf and Santa Arias, 36-58. London:

Routledge.

Cochrane, Willard W. 1979. *The Development of American Agriculture: A Historical Analysis.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

Cohn, Samuel K.,Jr. 2002. "The Black Death: End ofa Paradigm." *American Historical Review* 107, no. 3: 703-38.

---. 2006. *Lust for* Liberty: *The Politics of Social Revolt in Medieval Europe, 1200-1425-Italy, France, and Flanders.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

---. 2007a. "The Black Death and the Burning ofJews." *Past and Present* 196: 3-36.

---. 2007b. "Popular Insurrection and the Black Death: *A* Comparative View." *Past and Present* 195, suppl. 2: 188-204.

Coles, Paul. 195 7. "The Crisis of Renaissance Society Genoa, 1488-1507." *Past and Present* 11: 17-4 7.

Columbus, Christopher. 2003. "Journal of the First Voyage of Columbus." In *The Northmen, Columbus and Cabot, 985-1503,* edited by Julius E. Olson and Edward Gaylord Bourne, 85-258. Original Narratives of Early American History. New York: Charles Scribner's Sons, 1906. Available at www.gutenberg.org/files/18571/18571-h/18571-h.htm.

Colwill, Elizabeth. 1989. "Just Another *Citoyenne?* Marie-Antoinette on Trial, 1790-1793." *History Workshop* 28, no. 1: 63-87.

Connell, R. W. 1990. "The State, Gender, and Sexual Politics." *Theory and Society* 19, no. 5: 507-44.

---. 1995. *Masculinities.* Berkeley: University of California Press.

Coontz, Stephanie, and Peta Henderson, eds. 2016. *Women's Work, Men's* Property: *The Origins of Gender and Class.* London: Verso.

Corri, Adrienne. 1983. "Gainsborough's Early Career: New Documents and Two Portraits." *Burlington Magazine* 125, no. 961: 210-16.

Coulthard, Glen Sean. 2014. *Red Skin, White Masks: Rejecting the Colonial Politics of Recognition.* Minneapolis: Minnesota University Press.

Cowan, Ruth Schwartz. 1983. *More Work for* Mother: *The Ironies of Household Technology from the Open Hearth to the Microwave.* New York: Basic.

Cronon, William. 1983. *Changes in the Land: Indians, Colonists, and the Ecology of New England.* New York: W.W. Norton.

---. 1991. *Nature's Metropolis: Chicago and the Great West.* New York: W.W. Norton.

---. 1995. *Uncommon Ground: Toward Reinventing Nature.* New York: W.W. Norton.

Crumley, Carole. 1994. "The Ecology of Conquest." In *Historical Ecology: Cultural Knowledge and Changing Landscape,* edited by Crumley, 183-201. Santa Fe: School of American Research Press.

Dalla Costa, Mariarosa, and Selma James. 1973. *Power of Women and the Subversion of the Community.* 2nd ed. Bristol: Falling Wall.

Daly, Mary. 1990. *Gyn/ecology: The Metaethics of Radical Feminism.* Boston: Beacon.

Dann, Graham M. S., and *A.* V. Seaton. 2001. "Slavery, Contested Heritage and

Thanatourism." *International journal of Hospitality and Tourism Administration* 2, nos. 3-4: 1-29.

DARA and the Climate Vulnerable Forum. 2012. *Climate Vulnerability* Monitor: *A Guide to the Cold Calculus of a Hot Planet.* 2nd ed. Madrid: Estudios Graficos Europeos.

Dauverd, Celine. 2014. *Imperial Ambition in the Early Modern Mediterranean: Genoese Merchants and the Spanish Crown.* Cambridge: Cambridge University Press.

David, Saul. 2002. *The Indian Mutiny: 1857.* London: Viking.

Davids, Karel. 2008. *The Rise and Decline of Dutch Technological Leadership: Technology, Economy and Culture in the Netherlands, 1350-1800.* Vol. 1. Leiden: Brill.

Davis, Angela Y. 1983. *Women, Race and Class.* New York: Vintage.

Davis, Lennard]. 2016. *The Disability Studies Reader.* 5th ed. New York: Routledge.

Davis, Mike. 1986. *Prisoners of the American Dream: Politics and Economy in the History of the US Working Class.* London: Verso.

---. 2001. *Late Victorian Holocausts: El*Niiio *Famines and the Making of the Third World.* London: Verso.

---. 2004. "The Urbanization of Empire: Megacities and the Laws of Chaos." *Social Text* 22, no. 4: 9-15.

---. 2015. "Marx's Lost Theory: The Politics of Nationalism in 1848." *New Left Review* 93: 45-66.

Davis, Ralph. 1954. "English Foreign Trade, 1660-1700." *Economic History* Review 7, no. 2: 150-66.

Day, John. 1978. "The Great Bullion Famine of the Fifteenth Century." Past *and* Present 79: 3-54.

Deans-Smith, Susan. 2005. "Creating the Colonial Subject: Casta Paintings, Collectors, and Critics in Eighteenth-Century Mexico and Spain." *Colonial Latin American* Review 14, no. 2: 169-204.

Decker, Ethan H., Scott Elliott, Felisa *A.* Smith, Donald R. Blake, and F. Sherwood Rowland. 2000. "Energy and Material Flow through the Urban Ecosystem." *Annual Review of Energy and the Environment* 25, no. 1: 685-740.

Delle, James *A.,* Stephen *A.* Mrozowski, and Robert Paynter. 2000. Lines *That Divide: Historical Archaeologies of Race, Class, and Gender.* Knoxville: University of Tennessee Press.

Descartes, Rene. 1985. *Philosophical Writings of Descartes.* Translated by john Cottingham, Robert Stroothoff, and Dugald Murdoch. Vol. 1. Cambridge: Cambridge University Press.

De Schutter, Olivier. 2010. "Agro-ecology and the Right to Food: Report Submitted by the Special Rapporteur on the Right to Food, Olivier De Schutter, to the Sixteenth Session of the Human Rights Council." Edited by the General Assembly. New York: United Nations. http://www2.ohchr.org/english/issues/food/docs/A-HRC-16-49.pdf.

De Ste. Croix, G. E. M. 1981. *The Class Struggle in the Ancient Greek World: From the*

Archaic Age to the Arab Conquests. London: Duckworth.

De Vries, Jan. 1993. "Between Purchasing Power and the World of Goods: Understanding the Household Economy in Early Modem Europe." In *Consumption and the World of Goods,* edited by john Brewer and Roy Porter, 85-132. London: Routledge.

De Vries, Jan, and Ad van der Woude. 1997. *The First Modern Economy: Success, Failure, and Perseverance of the Dutch Economy, 1500-1815.* Cambridge: Cambridge University Press.

Dewitte, Sharon N. 2015. "Setting the Stage for Medieval Plague: Pre-Black Death Trends in Survival and Mortality." *American journal of Physical Anthropology* 158, no. 3: 441-51.

Diamond, Jared M. 2005. *Guns, Germs, and Steel: The Fates of Human Societies.* New York: W.W. Norton.

Direcci6n General de Estadistica, ed. 1955. *Tercer censo agr(cola ganadero y ejidai 1950.* Mexico City: Direcci6n General de Estadistica.

Disney, Anthony R. 2009. *A History of Portugal and the Portuguese Empire.* Vol 2. Cambridge: Cambridge University Press.

Dodds, Joseph. 2011. *Psychoanalysis and Ecology at the Edge of Chaos: Complexity Theory, Deleuze/Guattari and Psychoanalysis for a Climate in Crisis.* London: Routledge.

Doherty, Brian, Matthew Paterson, Alexandra Plows, and Derek Wall. 2003. "Explaining the Fuel Protests." *British]oumal of Politics and International Relations* 5, no. 1: 1-23.

Dohm-van Rossum, Gerhard. 1996. *History of the* Hour: *Clocks and Modem Temporal Orders.* Chicago: University of Chicago Press.

Donkin, R. *A.,* and Wenner-Gren Foundation for Anthropological Research. 1979. *Agricultural Terracing in the Aboriginal New World.* Tucson: University of Arizona Press.

Dotson, John, and Aldo Agosto. 1998. Introduction to *Christopher Columbus and His Family: The Genoese and Ligurian Documents,* edited by Dotson and Agosto, translated by Dotson, 5-26. Los Angeles: UCLA Center for Medieval and Renaissance Studies / Repertorium Columbianum.

Drayton, Richard Harry. 2000. *Nature's Government: Science, Imperial Britain, and the "Improvement" of the World.* New Haven, CT: Yale University Press.

Dredge, James. 1839-43. "Diary: 1 Sept. 1839-8 Oct. 1843." State Library of Victoria, Australia.

Dribe, Martin, Mats Olsson, and Patrick Svensson. 2015. "Famines in the Nordic Countries, AD 536-1875." Lund Papers in Economic History: General Issues 138. Department of Economic History, Lund University.

Dubin, H.J., and john P. Brennan. 2009. "Fighting a 'Shifty Enemy': The International Collaboration to Contain Wheat Rusts." In *Millions Fed: Proven Successes in Agricultural Development,* edited by David]. Spielman and Raju! Pandya-Lorch, 19-24. Washington DC: International Food Policy Research Institute.

Duffy, Michael.1980. *The Military Revolution and the State, 1500-1800.* Exeter: University of Exeter Press.

Duffy, Mignon. 2005. "Reproducing Labor Inequalities: Challenges for Feminists Conceptualizing Care at the Intersections of Gender, Race, and Class." *Gender and Society* 19, no. 1: 66-82.

Dull, Robert *A.,* Richard]. Nevle, William I. Woods, Dennis K. Bird, Shiri Avnery, and William M. Denevan. 2010. "The Columbian Encounter and the Little Ice Age: Abrupt Land Use Change, Fire, and Greenhouse Forcing." *Annals of the Association of American Geographers* 100, no. 4: 755-71.

Dunbar-Ortiz, Roxanne. 2014. *An Indigenous Peoples' History of the United States, Re Visioning American History.* Boston: Beacon Press.

Dunaway, Wilma *A.* 2015. "The Double Register of History: Situating the Forgotten Woman and Her Household in Capitalist Commodity Chains." *journal of World-Systems Research* 7, no. 1: 2-29.

Dunkley, Claudia S. 2014. *Global Warming:* How *Does It Relate to Poultry?* Athens: University of Georgia Extension Service. http://extension.uga.edu/publications/detail.cfm?number=B1382.

Dunn, Rob. 2017. *Never Out of Season.* New York: Little, Brown.

Dussel, Enrique. 2014. "Anti-Cartesian Meditations: On the Origin of the Philosophical Anti-discourse of Modernity." *Journal for Cultural and Religious Theory* 13, no. 1: 11-53. wwwJcrt.org/archives/13.1/dussel.pdf. Translation by George Ciccariello-Maher of"Meditaciones anti-cartesianas: Sobre el origen de! anti-discurso filos6fico de la Modemidad." *Tabula Rasa* 9 (2008): 153-98. www.revistatabularasa.org/numero-9/09dussel.pdf.

Dwyer, Rachel E. 2013. "The Care Economy? Gender, Economic Restructuring, and job Polarization in the U.S. Labor Market." *American Sociological Review* 78, no. 3: 390-416.

Edwards, Mark A. 2009. "Nationalization, De-nationalization, Re-nationalization: Some Historical and Comparative Perspective." *Pace Law Review* 30: 124-53.

Ehrenberg, Richard. 1985. *Capital and Finance in the Age of the Renaissance: A Study of the Fuggers and Their Connections.* Fairfield, NJ: A. M. Kelley.

Ehrlich, Paul R., and Anne H. Ehrlich. 1990. *The Population Explosion.* New York: Simon and Schuster.

Eisenstein, Zillah R. 1979. *Capitalist Patriarchy and the Case for Socialist Feminism.* New York: Monthly Review Press.

Elliott, John Huxtable. 1963. *Imperial Spain, 1469-1716.* New York: St. Martin's.

---. 1984. "Spain and America in the Sixteenth and Seventeenth Centuries." In *Colonial Latin America,* 287-340. Vol. 1 of *The Cambridge History of Latin America,* edited by Leslie Bethell. Cambridge: Cambridge University Press.

---. 1992. *The Old World and the New: 1492-1650.* Cambridge: Cambridge University Press.

Ellis, Peter Berresford. 1988. *Hell* or *Connaught! The Cromwellian Colonisation of Ireland, 1652-1660.* Belfast: Blackstaff.

Eltis, David. 1998. *The Military* Revolution *in Sixteenth-Century* Europe. Vol. 3. London: I. B. Tauris.

Elvin, Mark. 2004. *The Retreat of the Elephants: An Environmental History of China.* New Haven, CT: Yale University Press.

Engel, Barbara Alpern. 1997. "Not by Bread Alone: Subsistence Riots in Russia during World War I." *journal of Modern History* 69, no. 4: 696-721.

EPA (United States Environmental Protection Agency). 2012. "Poultry Production Phases." http://infohouse.p2ric.org/ref/02/01244/www.epa.gov/agriculture/ag101/poultryphases.html.

EPI (Earth Policy Institute). 2010. "World on the Edge-Energy Data-Oil." www.earthpolicy. org/datacenter/pdf/book_wote_energy_oil.pdf.

---. 2012. "Wheat Production, Area, and Yield in India, 1960-2011." September 27. Excel file. Available at www.earthpolicy.org/ data_ center/ C24.

---. 2013. "World Average Corn, Wheat, and Rice Yields, 1960-2012." January 17. Excel file. Available at www.earthpolicy.org/ data_ center/ C24.

---. 2014. "Fertilizer Consumption and Grain Production for the World, 1950-2013." January 8. Excel file. Available at www.earth-policy.org/data_center/C24.

Epstein, Steven. 1996. *Genoa and the Genoese, 958-1528.* Chapel Hill: University of North Carolina Press.

---. 2001. *Speaking of Slavery: Color, Ethnicity, and Human Bondage in Italy.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Erdkamp, Paul, ed. 2013. *The Cambridge Companion to Ancient Rome.* Cambridge: Cambridge University Press.

Erickson, Amy Louise. 2005. "Coverture and Capitalism." *History Workshop journal* 59, no. 1: 1-16.

Erisman, Jan Willem, Mark A. Sutton, James Galloway, Zbigniew Klimont, and Wilfried Winiwarter. 2008. "How a Century of Ammonia Synthesis Changed the World." *Nature Geoscience* 1, no. 10: 636-39.

Ervin, R. Bethene, and Cynthia L. Ogden. 2013. *Consumption of Added Sugars among U.S. Adults, 2005-2010.* NCHS Data Brief 122. Hyattsville, MD: National Center for Health Statistics.

EU (European Union). 2017. *Labour Market and Labour Force* Survey *(LFS) Statistics.* Brussels: European Union.

Evans, Terry. 2014. "Global Poultry Trends 2014: Poultry Set to Become No. 1 Meat in Asia." Poultry *Site,* last modified September 2. www.thepoultrysite.com/articles/3230/global-poultry-trends-2014-poultry-set-to-become-nol-meatin-asia/.

Fagan, Brian. 2008. *The Great Warming: Climate Change and the Rise and Fall of* Civilizations. New York: Bloomsbury.

Falls, Cyril. 1950. *Elizabeth's Irish Wars.* London: n.p.

Falquet,Jules. 2006. "Hommes en armes et femmes 'de service': Tendences neoliberales dans l' evolution de la division sexuelle et internationale du travail." *Cahiers* du *genre* 40: 15-37.

Fanon, Frantz. 2016. "The Fact of Blackness." In *Postcolonial Studies: An Anthology,* edited by Pramod K. Nayar, 15-32. Malden, MA: john Wiley and Sons.

Fantone, Laura. 2007. "Precarious Changes: Gender and Generational Politics in Contemporary Italy." *Feminist Review* 87: 5-20.

Federici, Silvia. 2004. *Caliban and the Witch.* New York: Autonomedia.

---. 2008. "Witch-Hunting, Globalization, and Feminist Solidarity in Africa Today." *journal of International Women's Studies* 10, no. 1: 21-35.

Felloni, Giuseppe, and Guido Laura. 2014. *Genova e la storia della finanza: Dodici primati?/Genoa and the History of Finance: Twelve Firsts?* Translated by Marina Felloni and Authumn Wiltshire. www.giuseppefelloni.it/rassegnastampa/GenovaFinanza12primati.pdf.

Ferguson, Niall. 2009. *The Ascent of* Money: *A Financial History of the World.* London: Penguin.

Fernandez-Armesto, Felipe. 1982. *The Canary Islands after the* Conquest: *The Making of a Colonial Society in the Early Sixteenth Century.* Oxford: Oxford University Press.

Fernow, Brian E. 1911. *A Brief History of Forestry in* Europe, *the United States and Other* Countries: *A Course of Lectures Delivered before the Yale Forest School.* 3rd ed. Toronto: University of Toronto Press.

Fine, Ben. 2001. *Social Capital* versus *Social Theory: Political Economy and Social Science at the* Tum *of the Millennium.* London: Routledge.

Finlay, Mark R. 2002. Review of *Enriching the Earth: Fritz Haber, Carl Bosch, and the Transformation of World Food Production,* by Vaclav Smil. *British journal for the History of Science* 35, no. 1: 97-123.

Fischer-Kowalski, Marina, Simronj. Singh, Lisa Ringhofer, Clemens M. Griinbiihel, Christian Lauk, and Alexander Remesch. 2010. "Sociometabolic Regimes in Indigenous Communities and the Crucial Role of Working Time: A Comparison of Case Studies." Social Ecology Working Paper 121, Institute of Social Ecology, IFF-Faculty for Interdisciplinary Studies, Klagenfurt University, Vienna. https://is.muni.cz/el/1423/jaro2013/HEN633/um/FischerKowalski_et_al_Sociometabolic_regimes.pdf.

Fitzgerald, Deborah Kay. 2003. Every *Farm a Factory: The Industrial Ideal in American Agriculture.* New Haven, *CT:* Yale University Press.

Flynn, Dennis 0. 1984. "Use and Misuse of the Quantity Theory of Money in Early Modem Historiography." In *Miinzpriigung, Geldumlauf und Wechselkurse /Minting, Monetary Circulation and Exchange Rates: Akten der C7-Section des 8th International Economic History Congress Budapest 1982,* edited by Eddy van

Cauwenberghe and Franz Irsigler, 383-419. Trier: Trierer Historische Forchungen.

Flynn, Dennis 0., and Arturo Giraldez. 1995. "Born with a 'Silver Spoon': The Origin of World Trade in 1571." *Journal of World History* 6, no. 2: 201-21.

---. 2002. "Cycles of Silver: Global Economic Unity through the Mid-Eighteenth Century." *journal of World History* 13, no. 2: 391-427.

Folbre, Nancy. 2006. "Measuring Care: Gender, Empowerment, and the Care Economy." *journal of Human Development* 7, no. 2: 183-99.

Fortune, Robert. 1852. *AJoumey to the Tea* Countries *of China.* London: john Murray.

Foster, john Bellamy. 1999. "Marx's Theory of Metabolic Rift: Classical Foundations for Environmental Sociology." *American journal of Sociology* 105, no. 2: 366-405.

---. 2013. "James Hansen and the Climate-Change Exit Strategy." *Monthly* Review 64, no. 9: 1-19.

Foucault, Michel. 1973. *The Order of Things: An Archaeology of the Human Sciences.* New York: Vintage.

---. 1979. *Discipline and Punish: The Birth of the Prison.* Translated by Alan Sheridan. New York: Vintage.

---. 1980. *The History of Sexuality.* Translated by Robert Hurley. Vol. 1, *An Introduction.* New York: Vintage.

---. 2003. *Society Must Be Defended: Lectures at the College de France, 1975-1976.* Edited by Mauro Bertani and Alessandro

Fontana. Translated by David Macey. London: Macmillan.

---. 2008. *The Birth ofBiopolitics: Lectures at the College de France,* 1978-1979. Edited by Michel Senellart. Translated by Graham Burchell. Basing-stoke: Palgrave Macmillan.

Frader, Laura Levine. 2004. "Gender and Labor in World History." In *A Companion to Gender History,* edited by Teresa *A.* Meade and Merry E. Wiesner, 26-50. Malden, MA: Wiley-Blackwell.

Franklin, Benjamin. 1950. Letter to jean-Baptiste Leroy, November 13, 1789. In *The Writings ofBeajamin Franklin.* Edited by Albert Henry Smyth. Vol. 10, *1789-1790.* New York: Macmillan.

Fraser, Nancy. 2012. "Feminism, Capitalism, and the Cunning of History: An Introduction." Working paper FMSHWP- 2012-17. Paris: Fondation Maison des sciences de l'homme. https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-00725055/document.

Freese, Barbara. 2003. *Coal: A Human History.* New York: Basic.

Fremdling, Rainer. 2005. "Industrialization and Scientific and Technological Progress." In *History of Humanity: Scientific*

and Cultural Development. Vol. 4, *The Nineteenth Century,* edited by Peter Mathias and Nikolai' Todorov, 80-94. London: UNESCO/Routledge.

Friedmann, Harriet. 1978. "World Market, State, and Family Farm: Social Bases of Household Production in the Era of Wage Labor." *Comparative Studies in Society and History* 20, no. 4: 545-86.

---. 1993. "The Political Economy of Food: *A* Global Crisis." New *Left* Review I/197: 29-57.

Fry, Matthew. 2013. "Cement, Carbon Dioxide, and the 'Necessity' Narrative: A Case Study of Mexico." *Geoforum* 49: 127-38.

FTI Consulting. 2016. *Oil Price* Drivers: *Bottom of the Barrel?* www.fticonsulting.com/-/media/Files/emea-files/insights/reports/fti-oil-price-drivers-report.pdf.

Fuglie, Keith O.,James M. MacDonald, and Eldon Ball. 2007. "Productivity Growth in US Agriculture." Washington DC: US Department of Agriculture. www.ers.usda.gov/webdocs/publications/ 42924/11854_eb9 _1_.pdf.

Fuglie, K. 0., and S. L. Wang. 2012. "New Evidence Points to Robust but Uneven Productivity Growth in Global Agriculture." *Amber* Waves 10, no. 3: 1-6.

Galbraith, James K., and]. Travis Hale. 2014. "The Evolution of Economic Inequality in the United States, 1969-2012: Evidence from Data on Inter-industrial Earnings and Inter-regional Incomes." *World Economic* Review 3: 1-19.

Gale, Fred, Bryan Lohmar, and Francis Tuan. 2005. *China's* New *Farm Subsidies.* United States Department of Agriculture WRS-05-01. www.ers.usda.gov/webdocs/publications/wrs0501/30113_ wrs0501_002.pdf.

Galloway,]. N., F.J. Dentener, D. G. Capone, E.W. Boyer, R. W. Howarth, S. P. Seitzinger, G. P. Asner, et al. 2004. "Nitrogen Cycles: Past, Present, and Future." *Biogeochemistry* 70, no. 2: 153-226.

Gannon, Clodagh O'Malley. 2015. "Exploring the Links between Communality, the Metabolic Relationship, and Ecological Sustainability: *A* Case Study of a North-west of Ireland Community (c. 1930s-50s)." PhD thesis, Department of Sociology, National University of Ireland Maynooth. http://eprints.maynoothuniversity.ie/6324/.

Garrett, Rebecca, and Liza Kim Jackson. 2015. "Art, Labour and Precarity in the Age of Veneer Politics." *Alternate Routes: A journal of Critical Social Research* 27: 279.

Gaud, W. S. 1968. "The Green Revolution: Accomplishments and Apprehensions." Address to the Society of International Development, Washington DC, March 8. www.agbioworld.org/biotech-info/topics/borlaug/borlaug-green.html.

Genovese, Eugene D. 1992. *From Rebellion to Revolution: Afro-American Slave Revolts in the Making of the Modem World.* Baton Rouge: Louisiana State University Press.

Gerber, P.J., H. Steinfeld, B. Henderson, A. Mottet, C. Opio,J. Dijkman, *A.* Falcucci, and G. Tempio. 2013. *Tackling Climate Change through Livestock: A Global Assessment of Emissions and Mitigation* Opportunities. Rome: Food and Agriculture Organization of the United Nations.

Gerretson, F. C.1953. *HistoryoftheRoyalDutch.* Vol. I. Leiden: Brill.

Giles, Chris. 2017. "Why Davos 2017 Matters: 10 Things to Watch For." *Financial* Times, January 16. www.ft.com/ content/576tb394-dbcd-11e6-86ac-f253db7791c6.

Glacken, Clarence J. 1967. *Traces on the Rhodian Shore: Nature and Culture in Western Thought from Ancient Times to the End of the Eighteenth Century.* Berkeley: University of

California Press.

Gleeson-White, Jane. 2012. *Double Entry: How the Merchants of Venice Created Modern Finance*. London: Allen and Unwin.

Glenn, Evelyn Nakano. 1992. "From Servitude to Service Work: Historical Continuities in the Racial Division of Paid Reproductive Labor." Signs 18, no. 1: 1-43.

---. 2010. *Forced to Care: Coercion and Caregiving in America*. Cambridge, *MA:* Harvard University Press.

Gnutzmann, Hinnerk, and Piotr Spiewanowski. 2016. "Fertilizer Fuels Food Prices: Identification through the Oil-Gas Spread." Last revised September 1. Social Science Research Network.

Gold, Mick. 1984. *"A* History of Nature." In *Geography* Matters, edited by Doreen Massey and John Allen, 12-33. Cambridge: Cambridge University Press.

Goldberg, Harmony. 2014. "Our Day Has Finally Come: Domestic Worker Organizing in New York City." PhD dissertation, Graduate Faculty in Anthropology, City University of New York. http://academicworks.cuny.edu/gc_etds/422/.

Goldstone, Nancy Bazelon. *2011.joanna: The* Notorious *Queen ofNaples,jerusalem and Sicily*. London: Phoenix.

Goodfriend, Glenn A., R. A. D. Cameron, and L. M. Cook. 1994. "Fossil Evidence of Recent Human Impact on the Land Snail Fauna of Madeira." *journal ofBiogeography* 21, no. *3:* 309-20.

Gotzek, D., H.J. Axen, A. V. Suarez, S. Helms Cahan, and D. Shoemaker. 2015. "Global Invasion History of the Tropical Fire Ant: *A* Stowaway on the First Global Trade Routes." *Molecular Ecology* 24, no. 2: 374-88.

Gouge, William. 1622. *OfDomesticall Duties, Eight Treatises, Etc.* London: John Haviland, for William Bladen.

Graetz, Heinrich. (1894) 1967. *History of thejews.* Edited and in part translated by Bella Lowy. Vol. 3. Philadelphia: Jewish Publication Society of America.

Gramsci, Antonio. 1978. *Selections from Political Writings (1921-1926).* Edited and translated by Quintin Hoare. New York: International.

Grantham, J. 2011. "Days of Abundant Resources and Falling Prices Are Over Forever." GMO *Quarterly Newsletter,* April, 1-18.

Grey, Sam, and Raj Patel. 2014. "Food Sovereignty as Decolonization: Some Contributions from Indigenous Movements to Food System and Development Politics." *Agriculture and Human Values* 32, no. *3:* 431-44.

Grosfoguel, Ram6n, and Eric Mielants. 2006. "The Long-Duree Entanglement between Islamophobia and Racism in the Modern/ Colonial Capitalist/ Patriarchal World-System: An Introduction." *Human Architecture: journal of the Sociology of Self-Knowledge* 5, no. 1: article 2. http://scholarworks.umb.edu/humanarchitecture/vol5/iss1/2.

Grove, Richard. 1995. *Green Imperialism: Colonial Expansion, Tropical Island Edens, and the* Origins *of Environmentalism,* 1600-1860. Cambridge: Cambridge University Press.

Gunaratne, Shelton *A.* 2001. "Paper, Printing and the Printing Press: A Horizontally Integrative Macrohistory Analysis." *International Communication Gazette* 63, no. *6:* 459-79.

Gurian-Sherman, Doug. 2009. "Failure to Yield: Evaluating the Performance of Genetically Engineered Crops." Cambridge, MA: Union of Concerned Scientists. www.ucsusa.org/sites/default/files/legacy/assets/documents/food_and_agriculture/failure-to-yield.pdf.

Gylfason, Thorvaldur, and Gylfi Zoega. 2002. *Inequality and Economic Growth:* Do *Natural Resources Matter?* Munich: Center for Economic Studies and Ifo Institute for Economic Research.

Haberlein, Mark. 2012. *The Fuggers of Augsburg: Pursuing Wealth and Honor in Renaissance Germany.* Charlottesville: University of Virginia Press.

Habermann, Friederike. 2016. *Ecommony: UmCARE zum Miteinander.* Sulzbach: Ulrike Helmer.

Haensch, S., R. Bianucci, M. Signoli, M. Rajerison, M. Schultz, S. Kacki, M. Vermunt, D. A. Weston, D. Hurst, M. Achtman,

E. Carniel, and B. Bramanti. 2010. "Distinct Clones of *Yersinia pestis* Caused the Black Death." PLOS *Pathogens* 6, no. 10: e1001134.

Hall, Kim F. 1996. "Culinary Spaces, Colonial Spaces: The Gendering of Sugar in the Seventeenth Century." In *Feminist Readings of Early Modern Culture: Emerging Subjects,* edited by Valerie Traub, M. Lindsay Kaplan, and Dympna Callaghan, 168-90. Cambridge: Cambridge University Press.

Hall, Robert G. 1989. "Tyranny, Work and Politics: The 1818 Strike Wave in the English Cotton District." *International Review of Social History* 34, no. *3:* 433-70.

Hall, Ruth, Marc Edelman, Saturnino M. Borras, Ian Scoones, Ben White, and Wendy Wolford. 2015. "Resistance, Acquiescence or Incorporation? An Introduction to Land Grabbing and Political Reactions 'From Below.' *"journal of Peasant Studies* 42, nos. *3-4:* 467-88.

Hall, Stuart. 1996. "Race, Articulation and Societies Structured in Dominance." In *Black British Cultural Studies,* edited by

Houston A. Baker, Manthia Diawara, and Ruth H. Lindeborg, 16-60. Chicago: University of Chicago Press.

Halperin, Sandra. 2013. *Re-envisioning Global Development: A Horizontal Perspective.* London: Routledge.

Handy.Jim. 2009." 'Almost Idiotic Wretchedness': *A* Long History of Blaming Peasants." *journal of Peasant Studies* 36, no. 2: 325-44.

Hannaford, Ivan. 1996. *Race: The History of an Idea in the West.* Washington *DC:* Woodrow Wilson Center Press; Baltimore: John Hopkins University Press.

Hansen, James E., and Makiko Sato. 2012. "Paleoclimate Implications for Human-Made Climate Change." In *Climate Change: Inferences from Paleoclimate and Regional Aspects,* edited by Andre Berger, Fedor Mesinger, and Djordje Sijacki, 21-47. New York: Springer.

Harding, Sandra G. 1991. *Whose Science? Whose Knowledge? Thinking from Women's Lives.* Ithaca, *NY:* Cornell University Press.

Hardoon, Deborah, Sophia Ayele, and Ricardo Fuentes-Nieva. 2016. "An Economy for the 196." Oxford: Oxfam GB. Available at www.oxfam.org/ en/research/economy-1.

Harris, David R. 1978. "Adaptation to a Tropical Rain-Forest Environment: Aboriginal Subsistence in Northeastern Queensland." In *Human Behavior and Adaptation,* edited by N. Blurton Jones and V. Reynolds, 113-34. London: Taylor and Francis.

Harrison, Peter. 1992. "Descartes on Animals." *Philosophical Quarterly* 42, no. 167: 219-27.

Harrisse, Henry. 1888. *Christopher Columbus and the Bank of Saint George (Ufficio di San* Giorgio *in Genoa): Two Letters Addressed to Samuel L.* M. *Barlow, Esquire.* New York: privately printed.

Hart, Gillian. 1991. "Engendering Everyday Resistance: Gender, Patronage and Production Politics in Rural Malaysia." *journal of Peasant Studies* 19, no. 1: 93-121.

Harvey, David. 1993. "From Space to Place and Back Again: Reflections on the Condition of Postmodernity." In *Mapping the Futures: Local Cultures, Global Change,* edited by john Bird, Barry Curtis, Tim Putnam, and Lisa Tickner, 3-29. London: Routledge.

---. 2005. *A Brief History ofNeoliberalism.* Oxford: Oxford University Press.

Headrick, Daniel R. 1988. *The Tentacles of Progress: Technology Transfer in the Age of Imperialism, 1850-1940.* New York: Oxford University Press.

Heers, Jacques. 1961. *Genes au* XV" *siecle: Activite economique et problemes sociaux.* Paris: SEVPEN.

Heizer, Robert F. 1963. "Domestic Fuel in Primitive Society." *journal of the Royal Anthropological Institute of Great Britain and Ireland* 93, no. 2: 186-94.

Helgerson, Richard. 1992. *Forms of Nationhood: The Elizabethan Writing of England.* Chicago: University of Chicago Press.

Herdt, Gilbert. 1994. *Third Sex, Third Gender: Beyond Sexual Dimorphism in Culture and History.* New York: Zone.

Herlihy, David, and Christiane Klapisch-Zuber. 1985. *Tuscans and Their Families: A Study of the Florentine Catasto ofl427.* New

Haven, CT: Yale University Press.

Herodotus. 1945. *The History of Herodotus.* Translated by G. Rawlinson. Vol. 1. Everymans Library. London: Dent.

Herrero, Mario, Philip K. Thornton, Brendan Power.Jessica R. Bogard, Roseline Remans, Steffen Fritz, James S. Gerber, et al. 2017. "Farming and the Geography of Nutrient Production for Human Use: A Transdisciplinary Analysis." *Lancet Planetary Health* 1, no. 1: e33-e42.

Hewitt de Alcantara, Cynthia. 1973. "The 'Green Revolution' as History: The Mexican Experience." *Development and Change* 4, no. 2: 25-44.

Hildyard, Nicholas. 2016. *Licensed Larceny: Infrastructure, Financial Extraction and the*

Global South. Manchester: Manchester University Press.

Hill, Bridget. 1989. *Women, Work and Sexual Politics in Eighteenth-Century England.* Oxford: Basil Blackwell.

Hills, Sally, Ryland Thomas, and Nicholas Dimsdale. 2010. "The UK Recession in Context-What Do Three Centuries of Data Tell Us?" *Bank of England Quarterly Bulletin,* Q4, 277-91.

Hilton, R. H. 1951. "Y eut-il une crise generale de la feodalite?" *Annales: Histoire, Sciences Sociales* 6, no. 1: 23-30.

---. 2003. *Bond Men Made Free: Medieval Peasant* Movements *and the English Rising of1381.* London: Routledge.

Hinshelwood, Brad. 2013. "The Carolinian Context ofJohn Locke's Theory of Slavery." *Political Theory* 41, no. 4: 562-90.

Hirway, Indira, and Sunny Jose. 2011. "Understanding Women's Work Using Time-Use Statistics: The Case of India." *Feminist Economics* 17, no. 4: 67-92.

Hobsbawm, E.J., and G. Rude. 1969. *Captain* Swing. London: Lawrence and Wishart.

Hoffmann, Richard. 2014. *An Environmental History of Medieval Europe.* Cambridge: Cambridge University Press.

Holborn, Hajo. 1982. *A History of Modem Germany.* Vol. 1, *The Reformation.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Holt-Gimenez, Eric, and Raj Patel. 2009. *Food Rebellions! Crisis and the Hunger for justice.* Oxford: Fahamu.

Homer, Sidney, and Richard Eugene Sylla. 1996. *A History of Interest Rates.* New Brunswick, NJ: Rutgers University Press.

Honeyman, Katrina, and Jordan Goodman. 1991. "Women's Work, Gender Conflict, and Labour Markets in Europe, 1500- 1900." *Economic History* Review 44, no. 4: 608-28.

Hornborg, Alf. 2006. "Footprints in the Cotton Fields: The Industrial Revolution as Time-Space Appropriation and Environmental Load Displacement." *Ecological Economics* 59, no. 1: 74-81.

Horning, Karl H., Anette Gerhard, and Matthias Michailow. 1995. *Time Pioneers: Flexible Working Time and New Lifestyles.* Translated by Anthony Williams. Cambridge: Polity.

Howell, Martha C. 2010. *Commerce before Capitalism in Europe, 1300-1600.* Cambridge: Cambridge University Press.

Huber, Matthew T. 2009. "Energizing Historical Materialism: Fossil Fuels, Space and the Capitalist Mode of Production." *Geoforum* 40, no. 1: 105-15.

---. 2013. *Lifeblood: Oil Freedom, and the Forces of Capital.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

Hudson, Kenneth, and Andrea Coukos. 2005. "The Dark Side of the Protestant Ethic: A Comparative Analysis of Welfare Reform." *Sociological Theory* 23, no. 1: 1-24.

Hufton, Olwen. 1971. "Women in Revolution, 1789-1796." Past *and* Present 53: 90-108.

---. 1983. "Social Conflict and the Grain Supply in Eighteenth-Century France." *journal of*

Interdisciplinary History 14, no. 2: 303-31.

Hurtado, Albert L. 1988. *Indian Survival on the California Frontier.* New Haven, CT: Yale University Press.

IEA (International Energy Agency). 2008. *Energy Technology Perspectives.* Paris: International Energy Agency.

---. 2016. *Medium-Term Renewable Energy Market Report 2016: Market Analysis and Forecasts to 2021.* Paris: International Energy Agency.

ILO (International Labour Office). 2014. *Profits and Poverty: The Economics of Forced Labour.* Geneva: International Labour Office. www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/-ed_norm/-declaration/documents/publication/wcms_243391.pdf.

---. 2015. *World Employment and Social Outlook: Trends 2015.* Geneva: International Labour Office. www.ilo.org/wcmsp5/groups/public/---dgreports/-dcomm/-publ/documents/publication/wcms_337069.pdf.

IMF (International Monetary Fund). 2008. *World Economic Outlook, October* 2008: *Financial* Stress, Downturns, *and* Recoveries. Washington DC: International Monetary Fund.

---. 2014. *Global Financial Stability Report, April* 2014: Moving *from Liquidity- to* Growth-Driven *Markets.* Washington DC: International Monetary Fund.

---. 2015. Greece: *An Update of IMF* Staffs *Preliminary Public Debt Sustainability Analysis.* Washington DC: International Monetary Fund.

Inani, Rohit. 2015. "More Than 2,300 People Have Now Died in India's Heat Wave." *Time,* June 2. http://time.com/3904590/india-heatwave-monsoon-delayed-weather-climate-change/.

Inglehart, Ronald, and Pippa Norris. 2003. *Rising* Tide: *Gender Equality and Cultural Change around the World.* Cambridge: Cambridge University Press.

Ingold, Tim. 1993. "The Temporality of the Landscape." *World Archaeology* 25, no. 2: 152-74.

International Rivers Network. 2011. "Wrong Climate for Big Dams: Fact Sheet-Destroying Rivers Will Worsen Climate Crisis." www.internationalrivers.org/resources/wrong-climate-for-big-dams-fact-sheet-3373.

IPCC (Intergovernmental Panel on Climate Change). 2007. *Climate Change 2007: Synthesis Report.* Geneva: Intergovernmental Panel on Climate Change. www.ipcc.ch/pdf/assessment-report/ar4/syr/ar4_syr_full_report.pdf.

2014. *Climate Change 2014: Mitigation of Climate Change.* Geneva: Intergovernmental Panel on Climate Change. www.ipcc.ch/report/ar5/wg3/.

Jackson,]. B. C. 1997. "Reefs since Columbus." *Coral Reefs* 16, no. 1: S23-S32.

Jackson, R. V. 1985. "Growth and Deceleration in English Agriculture, 1660-1790." *Economic History* Review 38, no. 3: 333-51.

Jameson, Fredric. 1998. *The Cultural Tum: Selected Writings on the* Postmodern, *1983-1998.* London: Verso.

Johnson, Walter. 2013. River *of Dark Dreams.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Jones, Grant D. 1989. *Maya Resistance to Spanish* Rule: *Time and History on a Colonial Frontier.* Albuquerque: University of New Mexico Press.

Jones, W. R. 1971. "The Image of the Barbarian in Medieval Europe." *Comparative* Studies *in Society and History* 13, no. 4: 376-407.

Jordan, William Chester. 1997. *The Great Famine: Northern Europe in the Early Fourteenth* Century. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Josephson, Paul R. 2013. *An Environmental History of* Russia. Cambridge: Cambridge University Press.

Jowett, Benjamin. 1914. *The Dialogues of Plato.* Vol. 4. New York: Hearst's International Libary.

Kagarlitsky, Boris. 2008. *Empire of the Periphery:* Russia *and the World* System. London: Pluto.

Kaimowitz, David, andjoyotee Smith. 2001. "Soybean Technology and the Loss of Natural Vegetation in Brazil and Bolivia." In *Agricultural Technologies and Tropical Deforestation,* edited by Arild Angelsen and David Kaimowitz, 195-212. Wallingford, Oxford: CAB!.

Kain, Roger J. P ., and Elizabeth Baigent. 1992. *The Cadastral Map in the Service of the* State: *A History of Property Mapping.* Chicago: University of Chicago Press.

Kander, Astrid, Paolo Malanima, and Paul Warde. 2013. Power *to the People: Energy in Europe over the Last Five* Centuries. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Kaplan, Mitchell. 2010. "Columbus' Forgotten Patron." *Daily Beast,* October 11. www.thedailybeast.com/articles/2010/10/11/columbus-forgotten-patron.html.

Katzew, Ilona. 2004. *Casta Painting: Images of Race in Eighteenth-Century Mexico.* New Haven, CT: Yale University Press.

Keating, Christine, Claire Rasmussen, and Pooja Rishi. 2010. "The Rationality of Empowerment: Microcredit, Accumulation by Dispossession, and the Gendered Economy." Signs 36, no. 1: 153-76.

Keller, Catherine. 1994. "The Breast, the Apocalypse, and the Colonial journey." *journal of Feminist* Studies *in Religion* 10, no. 1: 53-72.

Kenyon, Susan. 2010. "What Do We Mean by Multitasking? Exploring the Need for Methodological Clarification in Time Use Research." *Electronic International]oumal of Time Use Research* 7, no. 1: 42-60.

Kicza,John E. 1992. "Patterns in Early Spanish Overseas Expansion." *William and Mary Quarterly* 49, no. 2: 229-53.

Kino-nda-niimi Collective, ed. 2014. *The Winter We Danced:* Voices *from the* Past, *the Future, and the Idle No More Movement.* Winnipeg: ARP.

Kinsbruner,Jay. 2005. *The Colonial Spanish-American* City: *Urban Life in the Age of Atlantic Capitalism.* Austin: University of Texas Press.

Klein, Herbert. 2004. "The Atlantic Slave Trade to 1650." In *Tropical Babylons: Sugar and*

the Making of the Atlantic World, 1450-1680, edited by Stuart B. Schwartz, 201-36. Chapel Hill: University of North Carolina.

Klein, Naomi. 2007. *The Shock Doctrine: The Rise of Disaster Capitalism.* New York: Metropolitan Books/ Henry Holt.

---. 2014. *This Changes Everything: Capitalism* vs. *the Climate.* New York: Simon and Schuster.

Knox, James C. 1993. "Large Increases in Flood Magnitude in Response to Modest Changes in Climate." *Nature* 361, no. 6411: 430-32.

Koenigsberger, H. G., and George L. Mosse. 1968. *Europe in the Sixteenth* Century. New York: Holt, Rinehart and Winston.

Koning, Hans. 1976. Columbus: *His Enterprise.* New York: Monthly Review Press.

Kucharik, Christopher J., and Shawn P. Serbin. 2008. "Impacts of Recent Climate Change on Wisconsin Com and Soybean Yield Trends." *Environmental Research Letters* 3, no. 3: 1-10.

Kumar, Avneesh, and Anuj Kumar. 2016. "Black Face of Green Revolution in Malwa Region of Punjab." *Biological Insights* 1: 3-4.

La Berge, Leigh Claire. 2014. "The Rules of Abstraction Methods and Discourses of Finance." *Radical History Review* 118: 93-112.

LaDuke, Winona. 1994. "Traditional Ecological Knowledge and Enviromental Futures." *Colorado journal of International Environmental Law and Policy* 5: 127-48.

Lamb, Hubert H. 2002. *Climate, History and the Modern World.* London: Routledge.

Langley, Paul. 2002. *World Financial Orders: An Historical International Political Economy.* New York: Routledge.

Lappe, Frances Moore, Jennifer Clapp, Molly Anderson, Robin Broad, Ellen Messer, Thomas Pogge, and Timothy Wise. 2013. "How We Count Hunger Matters." *Ethics and International Affairs* 27, no. 3: 251-59.

Latimer, Jeff, Craig Dowden, and Danielle Muise. 2005. "The Effectiveness of Restorative Justice Practices: A Metaanalysis." *Prison journal* 85, no. 2: 127-44.

La Vega, Garcilasso de. 1688. *The Royal Commentaries of Peru, in Two Parts* .... Translated by Paul Rycaut. London: Miles Flesher.

La Via Campesina. 2009. "Via Campesina Campaign to End Violence against Women." https:/ /viacampesina.org/ en/index.php/main-issues-mainmenu-27 /women-mainmenu-39 / 643-via-campesinacampaign-to-end-violence-against-women.

Leach, Gerald. 1987. *Household Energy in South Asia.* London: Elsevier Applied Science.

Le Grange, Lesley. 2012. *"Ubuntu, Ukama* and the Healing of Nature, Self and Society." *Educational Philosophy and Theory* 44: 56-67.

Lenin, Vladimir I. 1965. "The Taylor System-Man's Enslavement by the Machine." In *Collected Works.* Vol. 20, *December 1913-August 1914,* 152-54. London: Lawrence and Wishart.

---. 1987. *Essential Works of Lenin: "What Is to Be Done?" and Other Writings.* Edited by

Henry M. Christman. New York: Dover.

Levine, David. 2001. *At the Dawn of Modernity: Biology, Culture, and Material Life in Europe after the Year* 1000. Berkeley: University of California Press.

Levins, Richard, and Richard C. Lewontin. 1985. *The Dialectical Biologist.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Lewis, Percival. 1811. *Historical Inquiries concerning Forests and Forest Laws with Topological Remarks upon the Ancient and Modern State of New Forest.* London: T. Payne.

Lewis, Simon L., and Mark A. Maslin. 2015. "Defining the Anthropocene." *Nature* 519, no. 7542: 171-80.

Li, Xia, Weihua Li, Hong Wang, Jie Cao, Kenji Maehashi, Liquan Huang, Alexander A. Bachmanov, Danielle R. Reed, Veronique Legrand-Defretin, and Gary K. Beauchamp. 2005. "Pseudogenization of a Sweet-Receptor Gene Accounts for Cats' Indifference toward Sugar." PLoS *Genetics* 1, no. 1: e3.

Lichtenstein, Nelson. 2002. *State of the Union: A Century of American Labor.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Lieberman, Victor. 2009. *Mainland Mirrors: Europe.Japan, China, South Asia, and the Islands.* Vol. 2 of *Strange Parallels: Southeast Asia in Global Context, c. 800-1830.* Cambridge: Cambridge University Press.

Linebaugh, Peter. 2008. *The Magna Carta Manifesto: Liberties and Commons for All.* Berkeley: University of California Press.

Linebaugh, Peter, and Marcus Rediker. 2000. *The Many-Headed Hydra: Sailors, Slaves, Commoners, and the Hidden History of the Revolutionary Atlantic.* Boston: Beacon.

Linne, Carl von [Linnaeus]. 1806. *A General System of Nature* .... Translated and edited by William Turton. Vol. 1. London: Lackington, Allen.

Lipsett-Rivera, Sonya. 1990. "Puebla's Eighteenth-Century Agrarian Decline: A New Perspective." *Hispanic American Historical Review* 70, no. 3: 463-81.

Liu, Yi-Ping, Gui-Sheng Wu, Yong-Gang Yao, Yong-Wang Miao, Gordon Luikart, Mumtaz Baig, Albano Beja-Pereira, ZhaoLi Ding, Malliya Gounder Palanichamy, and Ya-Ping Zhang. 2006. "Multiple Maternal Origins of Chickens: Out of the Asian Jungles." *Molecular Phylogenetics and Evolution* 38, no. 1: 12-19.

Livingston, James. 2016. *No More Work: Why Full Employment Is a Bad Idea.* Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Lo, Jung-Pang. 1955. "The Emergence of China as a Sea Power during the Late Sung and Early Yiian Periods." *Far Eastern Quarterly* 14, no. 4: 489-503.

Lobell, David, and Christopher B. Field. 2007. "Global Scale Climate-Crop Yield Relationships and the Impacts of Recent Warming." *Environmental Research Letters* 2, no. 1: 014002.

Lobell, David B., Wolfram Schlenker, and Justin Costa-Roberts. 2011. "Climate Trends and Global Crop Production since 1980." *Science* 333, no. 6042: 616-20.

Locke, John. 1997. *Political Essays.* Edited by Mark Goldie. Cambridge: Cambridge

University Press.

---. 2003. *Two Treatises of Government and A Letter concerning Toleration.* Edited by Ian Shapiro. New Haven, CT: Yale University Press.

Lohmann, Larry. 2008. "Carbon Trading, Climate Justice and the Production of Ignorance: Ten Examples." *Development* 51, no. 3: 359-65.

Lopez, Robert Sabatino. 1964. "Market Expansion: The Case of Genoa." *journal of Economic History* 24, no. 4: 445-64.

Louys,Julien, Darren Curnoe, and Haowen Tong. 2007. "Characteristics of Pleistocene Megafauna Extinctions in Southeast Asia." *Palaeogeography, Palaeoclimatology, Palaeoecology* 243, no. 1: 152-73.

Lovell, Julia. 2012. *The Opium War: Drugs, Dreams and the Making of China.* London: Picador.

Lucashenko, Melissa. 1996. "Violence against Indigenous Women: Public and Private Dimensions." *Violence against Women* 2, no. 4: 3 78-90.

Lugones, Maria. 2007. "Heterosexualism and the Colonial/Modern Gender System." *Hypatia* 22, no. 1: 186-209.

Lustick, Ian. 1985. *State-Building Failure in British Ireland and French Algeria.* Berkeley: Institute of International Studies, University of California, Berkeley.

Lutz, Helma. 2002. "At Your Service Madam! The Globalization of Domestic Service." *Feminist* Review 70: 89-104.

Luxemburg, Rosa. (1913) 2003. *The Accumulation of Capital* Translated by Agnes Schwarzschild. London: Routledge.

Lynch, John. 1964. *Spain under the Habsburgs.* Vol. 2. Oxford: Blackwell.

Macdonald, Isabel. 2010. "France's Debt of Dishonour to Haiti." *Guardian,* August 16. www.theguardian.com/commentisfree/cifamerica/2010/aug/16/haiti-france.

Maddison, Angus. 2007. *Contours of the World Economy, 1-2030 AD: Essays* in *Macro-economic History.* Oxford: Oxford University Press.

Majid, Anouar. 2009. *We Are All Moors: Ending* Centuries *of Crusades against* Muslims *and Other* Minorities. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Malanima, Paolo. 2009. *Pre-modern European Economy: One Thousand* Years *(10th-19th Centuries).* Leiden: Brill.

Malthus, Thomas Robert. 1798. *An Essay on the Principle of Population, as It Affects the Future Improvement of Society, with Remarks on the Speculations of* Mr. *Godwin,* M. *Condorcet, and Other Writers.* London: J. Johnson.

Mamdani, Mahmood. 1996. Citizen *and Subject: Contemporary Africa and the Legacy of Late Colonialism.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

---. 2012. *Define and Rule: Native as Political Identity.* Cambridge, MA: Harvard University Press.

Manning, Richard. 2004. "The Oil We Eat: Following the Food Chain Back to Iraq." *Harpers,* February.

Mantena, Karuna. 2010. *Alibis of Empire: Henry Maine and the Ends of Liberal Imperialism.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Mantoux, Paul. 1961. *The Industrial Revolution* in *the Eighteenth Century: An Outline of the Beginnings of the Modern Factory System* in *England.* Rev. ed. New York: Macmillan.

Mar~al. Katrine. 2015. *Who Cooked Adam Smith's Dinner? A Story about Women and Economics.* Translated by Saskia Vogel. London: Portobello.

Mariana-Costantini, Alda, and Giancarlo Ligabue. 1992. "Did Columbus Also Open the Exploration of the Modern Diet?" *Nutrition Reviews* 50, no. 11: 313-19.

Martinez, Marfa Elena. 2011. *Genealogical Fictions: Limpieza de sangre, Religion, and Gender* in *Colonial Mexico.* Stanford, CA: Stanford University Press.

Martinez-Alier.Joan. 2014. "The Environmentalism of the Poor." *Geoforum* 54: 239-41.

Marx, Karl. 1967a. *Capital: A Critique of Political Economy.* Edited by F. Engels. Vol. 3, Process *of Capitalist Production as a Whole.* New York: International.

---. 1967b. *Capital: A Critique of Political Economy.* Edited by F. Engels. Vol. 2, Process *of Circulation of Capital.* New York: International.

---. 1973a. "Critique of the Gotha Programme." In *Marx/Engels Selected Works,* vol. 3, 13-30. Moscow: International.

---. 1973b. *Grundrisse.* Translated by Martin Nicolaus. London: Penguin/New Left.

---. 1976. *Capital: A Critique of Political Economy.* Translated by Ben Fowkes. London: Pelican.

---. 2000. "On the Jewish Question." In *Karl Marx: Selected Writings,* edited by David Mclellan, 46-74. New York: Oxford University Press.

Matuschke, Ira, Ritesh R. Mishra, and Matin Qaim. 2007. "Adoption and Impact of Hybrid Wheat in India." *World Development* 35, no. 8: 1422-35.

Maxwell, John Francis. 1975. *Slavery and the Catholic Church: The History of Catholic Teaching concerning the Moral Legitimacy of the Institution of Slavery.* Chichester: Barry Rose.

Maybud, Susan. 2015. "Women and the Future of Work-Taking Care of the Caregivers." ILO's Work in Progress. Geneva: International Labour Office. www .ilo.org/wcmsp5/ groups/public/-ed_protect/-protrav /--travail/documents/publication/wcms_351297 .pdf.

Mayhew, N.J. 2013. "Prices in England, 1170-1750." *Past and* Present 219, no.1: 3-39.

McCarthy, Charles H. 1915. "Columbus and the Santa Hermandad in 1492." *Catholic Historical* Review 1, no. 1: 38-50.

Mcclintock, Anne. 1995. *Imperial Leather: Race, Gender and Sexuality* in *the Colonial Context.* London: Routledge.

Mcglone, Matt S., and Janet M. Wilmshurst. 1999. "A Holocene Record of Climate, Vegetation Change and Peat Bog Development, East otago, South Island, New Zealand." *journal of Quaternary Science* 14, no. 3: 239-54.

McKeon, Michael. 1995. "Historicizing Patriarchy: The Emergence of Gender Difference in England, 1660-1760." *Eighteenth-Century* Studies 28, no. 3: 295-322.

McMichael, Philip. 1998. "Global Food Politics." *Monthly* Review 50, no. 3: 97.

---. 2000. "World-Systems Analysis, Globalization, and Incorporated Comparison." *journal of World-Systems Research* 6, no. 3: 668-90.

---. 2009. "A Food Regime Analysis of the 'World Food Crisis.'" *Agriculture and Human Values* 26, no. 4: 281-95.

---. 2017. *Development and Social Change: A Global Perspective.* 6th ed. Los Angeles: Sage.

McNally, David. 2014. "The Blood of the Commonwealth." *Historical Materialism* 22, no. 2: 3-32.

McNeill, William Hardy. 1976. *Plagues and Peoples.* Garden City, NY: Anchor.

McRuer, Robert. 2006. *Crip Theory: Cultural Signs of* Queerness *and Disability.* New York: New York University Press; London: Euro span.

Mcwhorter, L. 2005. "Where Do White People Come From? A Foucaultian Critique of Whiteness Studies." *Philosophy and Social* Criticism 31, nos. 5-6: 533-56.

Meade, J. E. 1952. "External Economies and Diseconomies in a Competitive Situation." *Economic journal* 62, no. 245: 54-6 7.

Meade, Teresa A., and Merry E. Wiesner. 2004. *A Companion to Gender History.* Malden, MA: Wiley-Blackwell.

Melillo, Edward Dallam. 2015. *Strangers on Familiar Soil: Rediscovering the Chile-California Connection.* New Haven, CT: Yale University Press.

Merchant, Carolyn. 1980. *The Death of Nature: Women, Ecology, and the Scientific Revolution.* San Francisco: Harper and Row.

---. 1987. "The Theoretical Structure of Ecological Revolutions." *Environmental* Review 11, no. *4:* 265-7 4.

---. 2006. "The Scientific Revolution and the Death of Nature." *Isis* 97, no. *3:* 513-33.

---. 2008. "Secrets of Nature: The Bacon Debates Revisited." *journal of the History of Ideas* 69, no. 1: 14 7-62.

---. 2013. "Francis Bacon and the 'Vexations of *Art':* Experimentation as Intervention." *British journal for the History of Science* 46, no. *4:* 551-99.

Mielants, Eric. 2002. "Europe and China Compared." Review *(Fernand Braudel Center)* 25, no. *4:* 401-49.

---. 2008. *The* Origins *of Capitalism and the "Rise of the West."* Philadelphia: Temple University Press.

Mies, Maria. 1986. *Patriarchy and Accumulation on a World Scale: Women* in *the International* Division *of Labour.* London: Zed.

Miller, Owen. 2007. "The Myonjujon Documents: Accounting Methods and Merchants' Organisations in Nineteenth Century Korea." *Sungkyun journal of East* Asian Studies 7, no. 1: 87-114.

Miller, Victoria, Salim Yusuf, Clara K. Chow, Mahshid Dehghan, Daniel]. Corsi, Karen Lock, Barry Popkin, et al. 2016. "Availability, Affordability, and Consumption of Fruits and

Vegetables in 18 Countries across Income Levels: Findings from the Prospective Urban Rural Epidemiology (PURE) Study." *Lancet Global Health* 4, no. 10: e695-e703.

Minge-Klevana, Wanda, Kwame Arhin, P. T. W. Baxter, T. Carlstein, Charles]. Erasmus, Michael P. Freedman, Allen Johnson, et al. 1980. "Does Labor Time Decrease with Industrialization? A Survey of Time-Allocation Studies [and Comments and Reply]." *Current Anthropology* 21, no. 3: 279-98.

Mink, Gwendolyn. 1990. "The Lady and the Tramp: Gender, Race, and the Origins of the American Welfare State." In *Women, the State, and Welfare,* edited by Linda Gordon, 92-111. Madison: University of Wisconsin.

Mintz, Sidney Wilfred. 1985. Sweetness *and* Power. *The Place of Sugar* in *Modern History.* New York: Penguin.

Mitchell, Timothy. 2011. *Carbon Democracy: Political* Power in *the Age ofOiL* London: Verso.

Modest, Wayne. 2012. "We Have Always Been Modern: Museums, Collections, and Modernity in the Caribbean." Museum *Anthropology* 35, no. 1: 85-96.

Mohawk, John. 1992. "Discovering Columbus: The Way Here." In *Confronting Columbus: An Anthology,* edited by john Yewell, Chris Dodge, and Jan DeSirey, 15-29.Jefferson, *NC:* McFarland.

Moloney, Pat. 2011. "Hobbes, Savagery, and International Anarchy." *American Political Science* Review 105, no. 1: 189-204.

Monbiot, George. 2012. "We Were Wrong on Peak *Oil:* There's Enough to Fry Us All." *Guardian,* July 2. www.theguardian.com/commentisfree/2012/jul/02/peak-oil-we-we-wrong.

Montafto,john Patrick. 2011. *The* Roots *of English Colonialism* in *Ireland.* Cambridge: Cambridge University Press.

Moody, Kim. 1988. *An Injury to All: The Decline of American Unionism.* London: Verso.

Moore, Jason W. 2003a. *"The Modern World-System* as Environmental History? Ecology and the Rise of Capitalism." *Theory and Society* 32, no. *3:* 307-77.

---. 2003b. "Nature and the Transition from Feudalism to Capitalism." Review *(Fernand Braudel Center)* 26, no. *2:* 97-172.

2007. "Ecology and the Rise of Capitalism." PhD dissertation, Department of Geography, University of California, Berkeley.

---. 2009. "Madeira, Sugar, and the Conquest of Nature in the 'First' Sixteenth Century, Part I: From 'Island of Timber' to Sugar Revolution, 1420-1506." Review *(Fernand Braudel Center)* 32, no. 4: 345-90.

---. 2010a." 'Amsterdam Is Standing on Norway; Part I: The Alchemy of Capital, Empire and Nature in the Diaspora of Silver, 1545-1648." *journal of Agrarian Change* 10, no. 1: 33-68.

---. 2010b." 'Amsterdam Is Standing on Norway.' Part II: The Global North Atlantic in the Ecological Revolution of the Long Seventeenth Century." *journal of Agrarian Change* 10, no.

2: 188-227.

---. 2010c. "The End of the Road? Agricultural Revolutions in the Capitalist World-Ecology, 1450-2010." *journal of Agrarian Change* 10, no. *3:* 389-413.

---. 2010d. " 'This Lofty Mountain of Silver Could Conquer the Whole World': Potosi and the Political Ecology of Underdevelopment, 1545-1800." *journal of Philosophical Economics* 4, no.1: 58-103.

---. 2010e. "Madeira, Sugar, and the Conquest of Nature in the 'First' Sixteenth Century, Part II: From Local Crisis to Commodity Frontier, 1506-1530." Review *(Fernand Braudel Center)* 33, no. 1: 1-24.

---. 2011. "Transcending the Metabolic *Rift:* A Theory of Crises in the Capitalist World-Ecology." *journal of Peasant* Studies 38, no. 1: 1-46.

---. 2014. "The End of Cheap Nature, or How I Learned to Stop Worrying about 'the' Environment and Love the Crisis of Capitalism." In Structures *of the World Political Economy and the Future of Global Conflict and Cooperation,* edited by Christopher Chase-Dunn and Christian Suter, 285-314. Berlin: Lit.

---. 2015. *Capitalism* in *the Web of Life: Ecology and the Accumulation of Capital* London: Verso.

---, ed. 2016. *Anthropocene or Capitalocene? Nature, History, and the* Crisis *of Capitalism.* Oakland, CA: PM Press.

---. 2017a. "The Capitalocene, Part I: On the Nature and Origins of Our Ecological Crisis." *journal of* Peasant Studies 44, no. *3:* 594-630.

---. 2017b. "The Capitalocene, Part II: Accumulation by Appropriation and the Centrality of Unpaid Work/Energy." *journal of* Peasant Studies (in press).

Moore, Jason, Sharae Deckard, Michael Niblett, and Diana C. Gildea, eds. 2017. *Capitalism's Ecologies: Culture,* Power, *and* Crisis in *the 21st Century.* Oakland, CA: PM Press.

Morgan, Jennifer L. 1997. "'Some Could Suckle over Their Shoulder': Male Travelers, Female Bodies, and the Gendering of Racial Ideology, 1500-1770." *William and Mary Quarterly* 54, no. 1: 167-92.

---. 2004. *Laboring Women: Reproduction and Gender* in *New World Slavery.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Morison, Samuel Eliot, ed. and trans. 1963. *journals and Other* Documents *on the Life and Voyages of Christopher Columbus.* New York: Heritage.

Moshenberg, Daniel. 2015. Interview by Rebecca Mcinroy, Tom Philpott, Raj Patel. "Prison Food," episode of *The Secret Ingredient* (podcast). August 14. http://thesecretingredient.org/prison-food-daniel-moshenberg/.

Mosse, George L. 1988. *Nationalism and Sexuality: Middle-Class Morality and Sexual Nonns* in *Modem Europe.* Madison: University of Wisconsin Press.

Movement for Black Lives. n.d. "Reparations." https://policy.m4bl.org/reparations/.

Mumford, Lewis. 1934. *The Golden Day: A Study* in *American Literature and Culture.*

New York: W.W. Norton.

---. (1934) 2010. *Technics and Civilization.* Chicago: University of Chicago Press.

Munro, john H. 2003. "The Monetary Origins of the 'Price Revolution': South German Silver Mining, Merchant-Banking, and Venetian Commerce, 1470-1540." Working paper no. 8, Department of Economics, University of Toronto.

Miinzer, Thomas. 1524. *Hochverursachte Schutzrede und Antwort wider das geistlose, sanftlebende Fleisch* zu *Wittenberg, welches mit verkehrter Weise durch den Diebstahl der heiligen Schrift die erbiirmliche Christenheit also ganzjiimmerlich besudelt hat.* Nuremburg: Hieronymus Holtzel.

Murali, Atluri. 1995. "Whose Trees? Forest Practices and Local Communities in Andhra, 1600-1922." In *Nature, Culture, Imperialism: Essays on Environmental History of South Asia,* edited by David Arnold and Ramachandra Guha, 50-86. New Delhi: Oxford University Press.

Nader, Helen. 2002. "Desperate Men, Questionable Acts: The Moral Dilemma of Italian Merchants in the Spanish Slave Trade." *Sixteenth Century journal* 33, no. 2: 401-22.

Nairn, I. A., P.R. Shane,]. W. Cole, G.J. Leonard, S. Self, and N. Pearson. 2004. "Rhyolite Magma Processes of the -AD 1315 Kaharoa Eruption Episode, Tarawera Volcano, New Zealand." *journal ofVolcanology and Geothermal Research* 131, nos. 3-4: 265-94.

Nairn, Tom. 1977. *The Break-up of Britain: Crisis and Neo-nationalism.* London: New Left.

Nanni, Giordano. 2011. "Time, Empire and Resistance in Settler-Colonial Victoria." *Time and Society* 20, no. 1: 5-33.

Nathan, Dev, and Govind Kelkar. 1997. "Wood Energy: The Role of Women's Unvalued Labor." *Gender, Technology and Development* 1, no. 2: 205-24.

National Nutrition Monitoring Bureau. 2012. *Diet and Nutritional Status of Rural Population, Prevalence of Hypertension and Diabetes among Adults and Infant and Young Child Feeding Practices-Report of Third Repeat* Survey. Hyderabad: National Institute of Nutrition, Indian Council of Medical Research.

National Research Council. 2011. "Warming World: Impacts by Degree." New York: National Research Council. http://dels.nas.edu/resources/static-assets/materials-based-on-reports/booklets/warming_world_final.pdf.

Naylor, Hugh. 2016. "An Epic Middle East Heat Wave Could Be Global Warming's Hellish Curtain-Raiser." *Washington Post,* August 10. www.washingtonpost.com/world/middle_east/an-epic-middle-east-heat-wave-could-be-globalwarmings-hellish-curtain-raiser/2016/08/09/c8c717d4-5992-11e6-8b48-0cb344221131_story.html.

Neal, Larry. 2015. *A Concise History of International Finance: From Babylon to Bernanke.* Cambridge: Cambridge University Press.

Nef,John U. 1934. "The Progress of Technology and the Growth of Large Scale Industry in Great Britain, 1540-1640." *Economic History* Review 5, no. 1: 3-24.

---. 1941. "Silver Production in Central Europe, 1450-1618." *Journal of Political Economy* 49, no. 4: 575-91.

---. 1964. *The Conquest of the Material World: Essays on the Coming of Industrialism.* New York: Meridian.

Nelson, Diane M. 2009. *Reckoning: The Ends of War* in *Guatemala.* Durham, NC: Duke University Press.

Neocleous, Mark. 2014. *War* Power, *Police* Power. Edinburgh: Edinburgh University Press.

Nguyen, Dan Thu. 1992. "The Spatialization of Metric Time: The Conquest of Land and Labour in Europe and the United States." *Time and Society* 1, no. 1: 29-50.

Nietzsche, Friedrich. 2001. *The Gay Science: With a Prelude* in *German Rhymes and an Appendix of Songs.* Edited by Bernard Williams. Translated by Josefine Nauckhoff and Adrian Del Caro. Cambridge: Cambridge University Press.

Nove, Alec. 1992. *An Economic History of the USSR,* 1917-1991. 3rd ed. London: Penguin.

O'Connell, Sanjida. 2004. *Sugar: The Grass That Changed the World.* London: Virgin.

O'Connor, James. 1988. "Capitalism, Nature, Socialism: A Theoretical Introduction." *Capitalism Nature Socialism* 1, no. 1: 11-38.

Offer, Avner. 1991. *The First World War: An Agrarian Interpretation.* Oxford: Clarendon.

Offer, Shira, and Barbara Schneider. 2011. "Revisiting the Gender Gap in Time-Use Patterns." *American Sociological* Review 76, no. 6: 809-33.

Ohlmeyer,jane. 2016. "Conquest, Civilization, Colonization." In *The Princeton History of Modem Ireland,* edited by Richard Bourke and Ian McBride, 21-4 7. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Olson-Sawyer, Kai. 2013. "Meat's Large Water Footprint: Why Raising Livestock and Poultry for Meat Is So ResourceIntensive." Food Tank, December 16. http://foodtank.com/news/2013/12/why-meat-eats-resources.

Oram, Richard. 2013. "Arrested Development? Energy Crises, Fuel Supplies, and the Slow March to Modernity in Scotland, 1450-1850." In *Energy Transitions* in *History: Global Cases of* Continuity *and Change,* edited by Richard W. Unger, 17-24. Munich: Rachel Carson Centre.

Ormrod, David. 2003. *The Rise of Commercial Empires: England and the Netherlands* in *the Age of Mercantil ism, 1650-1770.* Cambridge: Cambridge University Press.

Orren, Karen. 1991. *Belated Feudalism: Labor, the Law, and Liberal Development* in *the United States.* Cambridge: Cambridge University Press.

Overton, Mark. 1996. *The Agricultural Revolution.* Cambridge: Cambridge University Press.

Oxfam America. 2015. Lives *on the Line: The Human Cost of Cheap Chicken.* Washington DC: Oxfam America. www.oxfamamerica.org/static/media/ftles/Lives_on_the_Line_Full_Report_Final.pdf.

Oyewlimi, Oyer6ni&. 1997. *The* Invention *of Women: Making an African Sense of Western Gender Discourses.* Minneapolis: University of Minnesota Press.

Page, Brian, and Richard Walker. 1991. "From Settlement to Fordism: The Agro-industrial Revolution in the American Midwest." *Economic Geography* 67, no. *4:* 281-315.

Painter, David S. 2014. "Oil and Geopolitics: The Oil Crises of the 1970s and the Cold War." *Historical Social Research* 39, no. *4:* 186-208.

Pal, Jeremy S., and Elfatih A. B. Eltahir. 2016. "Future Temperature in Southwest Asia Projected to Exceed a Threshold for Human Adaptability." *Nature Climate Change* 6, no. *2:* 197-200.

Palmer, G. 1974. "The Emergence of Modern Finance in Europe, 1500-1750." In *The Fontana Economic History of Europe,* edited by Carlo M. Cipolla. Vol. 2, *The Sixteenth and Seventeenth Centuries,* 527-94. London: Collins/Fontana.

Panitch, Leo, and Sam Gindin. 2012. *The Making of Global Capitalism.* London: Verso.

Parenti, Christian. 2016. "Environment-Making in the Capitalocene." In *Anthropocene* or *Capitalocene? Nature, History, and the Crisis of Capitalism,* edited by Jason W. Moore, 166-84. Oakland, CA: PM Press.

Parise, Agustin. 2008. "The Valladolid Controversy Revisited: Looking Back at the Sixteenth-Century Debate on Native Americans While Facing the Current Status of Human Embryos." *journal of Civil Law Studies* 1, no. 1: article 7.

Parker, Geoffrey. 1976. "The 'Military Revolution,' 1560-1660-a Myth?" *journal of Modem History* 48, no. *2:* 196-214.

---. 1996. *The Military Revolution: Military Innovation and the Rise of the West, 1500-1800.* Cambridge: Cambridge University Press.

---. 2014. *Global Crisis: War, Climate Change and Catastrophe in the Seventeenth Century.* New Haven, *CT:* Yale University Press.

Patel, Raj. 2007. *Stuffed and Starved: Markets,* Power *and the Hidden Battle for the World Food System.* London: Portobello.

---. 2013. "The Long Green Revolution." *journal of Peasant Studies* 40, no. 1: 1-63.

Patel, Raj, Rachel Bezner Kerr, Lizzie Shumba, and Laifolo Dakishoni. 2014. "Cook, Eat, Man, *Woman:* Understanding the New Alliance for Food Security and Nutrition, Nutritionism, and Its Alternatives from Malawi." *journal of Peasant Studies* 42, no. 1: 21-44.

Patel, Raj, and Philip McMichael. 2004. "Third Worldism and the Lineages of Global Fascism: The Regrouping of the Global South in the Neoliberal Era." *Third World Quarterly* 25, no. 1: 231-54.

---. 2009. "A Political Economy of the Food Riot." Review *(Fernand Braudel Center)* 32, no. 1: 9-35.

Patterson, Clair C. 1972. "Silver Stocks and Losses in Ancient and Medieval Times." *Economic History* Review 2S, no. *2:* 205-33.

Patterson, Orlando. 1982. *Slavery and Social Death: A Comparative Study.* Cambridge, *MA:* Harvard University Press.

Paul, Diane. 1981." 'In the Interests of Civilization': Marxist Views of Race and Culture in the Nineteenth Century." *journal of the History of Ideas* 42, no. 1: 115-38.

Paul-Majumder, Pratima, and Anwara Begum. 2000. "The Gender Imbalances in the Export Oriented Garment Industry in Bangladesh." Policy Research Report on Gender and Development Working Paper Series No. 12, Development Research Group/ Poverty Reduction and Economic Management Network, World Bank, Washington DC. Available at www.atria.nl/ epublications/2000/Gender Imbalances.pd£.

Payne, Chris S. 2016. "Changes in the Value and Division of Unpaid Care Work in the UK: 2000 to 2015." November 10. London: Office for National Statistics. www.ons.gov.uk/economy/nationalaccounts/satelliteaccounts/articles/changesinthevalueanddivisionofunpaidcareworkintheu

Pearson, M. N. 1987. *The* Portuguese *in India.* Cambridge: Cambridge University Press.

Peet, Richard, and Michael Watts. 2004. *Liberation Ecologies: Environment, Development, Social Movements.* 2nd ed. London: Routledge.

Peng, Shaobing,Jianliang Huang, John E. Sheehy, Rebecca C. Laza, Romeo M. Visperas, Xuhua Zhong, Grace S. Centeno, Gurdev S. Khush, and Kenneth G. Cassman. 2004. "Rice Yields Decline with Higher Night Temperature from Global Warming." *Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America* 101, no. *27:*9971-75.

PennState Extension. 2015. "Modern Meat Chicken Industry." http://extension.psu.edu/animals/poultry/topics/general-educational-material/the-chicken/modern-meatchicken-industry.

Pew Research Center. 2010. "Global Indicators Database." www.pewglobal.org/database/.

Phillips, Kevin. 2009. *Bad Money: Reckless Finance, Failed Politics, and the Global Crisis of American Capitalism.* New York: Penguin.

Phillips, Ulrich Bonnell. 1929. *Life and Labor in the Old South.* New York: Little, Brown.

Phillips, William D., Jr. 2004. "Sugar in Iberia." In *Tropical Babylons: Sugar and the Making of the Atlantic World, 1450-1680,* edited by Stuart B. Schwartz, 27-41. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

---. 2013. *Slavery in Medieval and Early Modem Iberia.* Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Pigou, A. C. 1920. *The Economics of Welfare.* London: Macmillan.

Piketty, Thomas. 2014. *Capital in the Twenty-First Century.* Translated by Arthur Goldhammer. Cambridge, MA: Belknap

Press of Harvard University Press.

Pitts, Jennifer. 2010. "Political Theory of Empire and Imperialism." *Annual* Review *of Political Science* 13: 211-35.

Piven, Frances Fox. 1990. "Ideology and the State: Women, Power, and the Welfare State." In *Women, the State, and Welfare,* edited by Linda Gordon, 250-64. Madison: University of Wisconsin Press.

Planning Commission. 2012. *India Human Development Report 2011: Towards Social Inclusion.* Oxford: Oxford University Press for the Government of India.

Platter, Thomas. 1937. *Thomas Platter's Travels in England, 1599.* Translated by Clare Williams. London: Cape.

Plumwood, Val. 1993. *Feminism and the* Mastery *of Nature.* London: Routledge.

Pollin, Robert. 1996. "Contemporary Economic Stagnation in World Historical Perspective." *New Left Review* I/219: 109-18.

Pomeranz, Kenneth. 2000. *The Great Divergence: China, Europe, and the Making of the Modern World Economy.* Princeton, NJ:

Princeton University Press.

---. 2002. "Political Economy and Ecology on the Eve of Industrialization: Europe, China, and the Global Conjuncture." *American Historical Review* 107, no. 2: 425-46.

Postle, Martin. 2002. *Thomas Gainsborough.* Princeton, NJ: Princeton University Press.

Potter, Will. 2013. *Green* Is *the New* Red: *An* Insider's *Account of a Social* Movement *under Siege.* San Francisco: City Lights.

Prashad, Vijay. 2012. *The Poorer* Nations: *A Possible History of the Global South.* London: Verso.

Price, Brian. 1992. "Frank and Lillian Gilbreth and the Motion Study Controversy, 1907-1930." In *A Mental Revolution: Scientific Management* since *Taylor,* edited by Daniel Nelson, 58-76. Columbus: Ohio State University Press.

Prince, Hugh C. 1988. "Art andAgrarian Change, 1710-1815." In *The Iconography of Landscape,* edited by D. Cosgrove and S. *J.* Daniels, 98-118. Cambridge: Cambridge University Press.

Quaglia, Lucia, and Sebastian Royo. 2015. "Banks and the Political Economy of the Sovereign Debt Crisis in Italy and Spain." *Review of International Political Economy* 22, no. 3: 485-507.

Quijano, Am'bal. 2000. "Coloniality of Power and Eurocentrism in Latin America." *International Sociology* 15, no. 2: 215-32.

Quirk, Robert E. 1954. "Some Notes on a Controversial Controversy: Juan Gines de SupUlveda [sic] and Natural Servitude." *Hispanic American Historical Review* 34, no. 3: 357-64.

Rachleff, Peter J. 1993. *Hard-Pressed in the Heartland: The Hormel Strike and the Future of the Labor* Movement. Boston: South End.

Rae, john M. A. 1895. *Life of Adam Smith.* London: Macmillan.

Rai, Milan. 1993. "Columbus in Ireland." *Race and* Class 34, no. 4: 25-34.

Ramsey, L. F. 1920. "Levada-Walking in Madeira." *Living Age,* 8th ser., vol. 20: 656-63.

Ranelagh,John O'Beirne. 1999. *A Short History of Ireland.* 2nd ed. Cambridge: Cambridge University Press.

Ratekin, Mervyn. 1954. "The Early Sugar Industry in Espanola." *Hispanic American Historical Review* 34, no. 1: 1-19.

Raworth, Kate. 2014. "Must the Anthropocene Be a Manthropocene?" *Guardian,* October 20. www.theguardian.com/commentisfree/2014/oct/20/anthropocene-working-group-science-gender-bias. Registered Nurse Response Network. 2016. "Registered Nurse Response Network Sends Nurse Volunteers on Second Deployment to Standing Rock." Press release, November 7. www.nationalnursesunited.org/press/entry/registerednurse-response-network-sends-nurse-volunteers-on-2nd-deployment/.

Reis, Joiio Jose. 1993. *Slave Rebellion in Brazil: The* Muslim *Uprising of 1835 in Bahia.* Translated by Arthur Brakel. Baltimore: johns Hopkins University Press.

Renda, Mary A. 2001. *Taking* Haiti: *Military Occupation and the Culture of U.S. Imperialism, 1915-1940.* Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Resendez, Andres. 2016. *The Other Slavery: The Uncovered Story of Indian Enslavement in America.* Boston: Houghton Mifflin Harcourt.

Resnick, David. 1992. "John Locke and Liberal Nationalism." *History of European Ideas* 15, nos. 4-6: 511-17.

Revette, Anna C. 2016. "This Time It's Different: Lithium Extraction, Cultural Politics and Development in Bolivia." *Third World Quarterly* 38, no. 1: 149-68.

Rivera-Batiz, L. Francisco. 1999. "Undocumented Workers in the Labor Market: An Analysis of the Earnings of Legal and Illegal Mexican Immigrants in the United States." *journal of Population Economics* 12, no. 1: 91-116.

Roberts, Neil. 1989. *The Holocene: An Environmental History.* Oxford: Basil Blackwell.

Robinson, Jo. 2013. "Breeding the Nutrition Out of Our Food." *New York* Times, May 26. www.nytimes.com/2013/05/26/opinion/sunday/breeding-the-nutrition-out-of-our-food.html.

Rolf, David. 2016. "Life on the Homecare Front." *Generations* 40, no. 1: 82-87.

Roper, john Herbert, and Lolita G. Brockington. 1984. "Slave Revolt, Slave Debate: A Comparison." *Phylon* 45, no. 2: 98-110.

Rose, Gillian. 1993. *Feminism and Geography: The* Limits *of Geographical Knowledge.* Cambridge: Polity.

Rosen, Ruth. 2000. *The World Split* Open: How *the Modern Women's Movement Changed America.* New York: Viking.

Ross, Eric B. 2000. *The Malthus Factor:* Poverty, *Politics and Population in Capitalist Development.* Sturminster Newton, Dorset: Corner House.

Rosset, Peter. 2000. "Lessons from the Green Revolution." Food First/ Institute for Food and Development Policy. Available at https:/ /web.archive.org/web/2008021118154 7 /www.foodfirst.org/media/ opeds/2000/ 4-greenrev.html.

Rosset, Peter M., and Maria Elena Martinez-Torres. 2012. "Rural Social Movements and Agroecology: Context, Theory, and Process." *Ecology and Society* 17, no. 3.

Roy, Ananya. 2010. Poverty *Capital: Microfinance and the Making of Development.* London: Routledge.

Ruddiman, William F. 2005. Plows, *Plagues, and Petroleum:* How *Humans Took Control*

of Climate. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Ruddiman, W. F., D. Q. Fuller,]. E. Kutzbach, P. C. Tzedakis,J. 0. Kaplan, E. C. Ellis, S.J. Vavrus, et al. 2016. "Late Holocene Climate: Natural or Anthropogenic?" Reviews *of Geophysics* 54, no. 1: 93-118.

Rudrappa, Sharmila. 2015. *Discounted Life: The Price of Global Surrogacy in India*. New York: New York University Press.

Ruggiero, Guido. 2015. *The Renaissance in Italy: A Social and Cultural History of the* Rinascimento. New York: Cambridge University Press.

Ruiz, Teofilo F. 1994. *Crisis and Continuity: Land and* Town *in Late Medieval Castile*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press.

Safri, Maliha, and Julie Graham. 2010. "The Global Household: Toward a Feminist Postcapitalist International Political Economy." Signs 36, no. 1: 99-125.

Sahlins, Marshall David. 1972. *Stone Age Economics*. Chicago: Aldine-Atherton.

Salleh, Ariel. 1997. *Ecofeminism as* Politics: *Nature, Marx, and the Postmodem* London: Zed.

---. 2010. "From Metabolic Rift to 'Metabolic Value': Reflections on Environmental Sociology and the Alternative Globalization Movement." *Organization and Environment* 23, no. 2: 205-19.

Santiago-Valles, Kelvin. 2005. "World-Historical Ties among 'Spontaneous' Slave Rebellions in the Atlantic." Review *(Femand Braudel Center)* 28, no. 1: 51-83.

Sayre, Nathan F. 2008. "The Genesis, History, and Limits of Carrying Capacity." *Annals of the Association of American Geographers* 98, no. 1: 120-34.

Scarth, David Todd. 2010. "Sovereignty, Property, and Indigeneity: The Relationship between Aboriginal North America and the Modern State in Historical and Geographical Context." PhD thesis, University of Sussex. http://sro.sussex.ac.uk/ 45251/.

Schlozman, Kay Lehman, Nancy Burns, and Sidney Verba. 1999." 'What Happened at Work Today?': A Multistage Model of Gender, Employment, and Political Participation." *journal of* Politics 61, no. 1: 29-53.

Schneider, Mindi, and Philip McMichael. 2010. "Deepening, and Repairing, the Metabolic Rift." *journal of Peasant Studies* 37, no. 3: 461-84.

Schumpeter,Joseph Alois. 1961. *The Theory of Economic Development: An Inquiry into Profits, Capital Credit, Interest, and the Business Cycle*. Translated by Redvers Opie. Oxford: Oxford University Press.

---, 1976. *Capitalism, Socialism and Democracy*. 5th ed. London: Allen and Unwin.

Schwartz, Stuart B. 1978. "Indian Labor and New World Plantations: European Demands and Indian Responses in Northeastern Brazil." *American Historical* Review 83, no. 1: 43-79.

---. 1985. *Sugar Plantations in the Formation of Brazilian Society: Bahia, 1550-1835*. Cambridge: Cambridge University Press.

---. 2004. "A Commonwealth within Itself: The Early Brazilian Sugar Industry, 1550-1670." In *Tropical Babylons: Sugar and the Making of the Atlantic World, 1450-1680,* edited

by Schwartz, 158-200. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Scott, James C. 1985. *Weapons of the Weak: Everyday Forms of Peasant Resistance.* New Haven, CT: Yale University Press.

Scott, Joan Wallach. 1999. *Genderand the* Politics *of History.* Rev. ed. New York: Columbia University Press.

Seabrook, Jeremy. 2003. "The Language of Labouring Reveals Its Tortured Roots." *Guardian,* January 14. www.theguardian.com/ commentisfree/2013/jan/14/language-labouring-reveals-tortured-rootsl.

Seabury, Seth A., Ethan Scherer, Paul O'Leary, *Al* Ozonoff, and Leslie Boden. 2014. "Using Linked Federal and State Data to Study the Adequacy of Workers' Compensation Benefits." *American journal of Industrial Medicine* 57, no. 10: 1165-73.

Seccombe, Wally. 1992. *A Millennium of Family Change: Feudalism to Capitalism in Northwestern Europe.* London: Verso.

Segato, Rita Laura. 2014. "Las nuevas formas de la guerra y el cuerpo de las mujeres." *Sociedade e Estado* 29: 341-71.

Select Committee of the Legislative Council on the Aborigines. 1859. *Report of the Select Committee of the Legislative Council on the Aborigines.* Melbourne: Government Printer.

Shaikh, Anwar. 2011. "The First Great Depression of the 21st Century." *Socialist Register* 47: 44-63.

Sheiham, Aubrey, and W. Philip T. James. 2014. "A New Understanding of the Relationship between Sugars, Dental Caries and Fluoride Use: Implications for Limits on Sugars Consumption." *Public Health Nutrition* 17, no. 10: 2176-84.

Sherwood, Steven C., and Matthew Huber. 2010. "An Adaptability Limit to Climate Change Due to Heat Stress." *Proceedings of the National Academy of Sciences* 107, no. 21: 9552-55.

Shindell, Drew T. 2016. "Crop Yield Changes Induced by Emissions of Individual Climate-Altering Pollutants." *Earth's Future* 4, no. 8: 373-80.

Sigal, Peter Herman. 2000. *From Moon Goddesses to Virgins: The Colonization ofYucatecan Maya Sexual Desire.* Austin: University of Texas Press.

Silver, Beverly J. 2003. *Forces of Labor: Workers'* Movements *and Globalization since 1870.* Cambridge: Cambridge University Press.

Simpson,}. A., and E. S. C. Weiner, eds. 1989. *The Oxford English Dictionary.* 2nd ed. 20 vols. Oxford: Clarendon.

Sinclair, Upton. 1906. *The jungle.* New York: Doubleday, Page.

Slaughter, Thomas P. 1986. *The Whiskey Rebellion: Frontier Epilogue to the American Revolution.* Oxford: Oxford University Press.

Slicher van Bath, Bernard Hendrik, and O. Ordish. 1963. *The Agrarian History of Western Europe,* A.D. *500-1850.* London: Arnold.

Smil, Vaclav. 1999. "Detonator of the Population Explosion." *Nature* 400, no. 6743: 415.

---. 2010. *Energy* Transitions: *History, Requirements, Prospects.* Santa Barbara, CA:

Praeger.

Smith, Adam. (1759) 1976. *The Theory of Moral Sentiments.* Oxford: Clarendon.

Smith, Daniel Scott. 1993. "The Curious History of Theorizing about the History of the Western Nuclear Family." *Social Science History* 17, no. 3: 325-53.

Smith, William D. 1973. "New Rises Are Feared; Price Quadruples for Iranian Crude Oil at Auction." *New York Times,* December 12, 1.

Snell, Keith D. M. 1987. *Annals of the Labouring* Poor. *Social Change and Agrarian England, 1660-1900.* Cambridge: Cambridge University Press.

Soble, Alan. 1995. "In Defense of Bacon." *Philosophy of the Social Sciences* 25, no. 2: 192-215.

Sohn-Rethel, Alfred. 1978. *Intellectual and Manual Labour. A Critique of Epistemology.* Atlantic Highlands, NJ: Humanities.

Solar, Peter M. 2012. "The Triumph of Cotton in Europe." https://pdfs.semanticscholar.org/5550/0d2aob8483b53f798f537b0370b0316750f7.pdf.

Solow, Barbara L. 1987. "Capitalism and Slavery in the Exceedingly Long Run." *journal of Interdisciplinary History* 17, no. 4: 711-37.

Sonn, Hochul. 1997. "The 'Late Blooming' of the South Korean Labor Movement." *Monthly* Review 49, no. 3: 117-29.

Specter, Michael. 2014. "Seeds of Doubt: An Activist's Controversial Crusade against Genetically Modified Crops." *New Yorker,* August 25.

Spence, 0. M. 1870. "The Bank of St. George, Genoa." Harper's *New Monthly Magazine,* vol. 42, 392-400.

Spin den, Herbert J. 1920. "Central American Calendars and the Gregorian Day." *Proceedings of the National Academy of Sciences* 6, no. 2: 56-59.

Spinola, H., A. Brehm, F. Williams, J. Jesus, and D. Middleton. 2002. "Distribution of HLA Alleles in Portugal and Caho Verde: Relationships with the Slave Trade Route." *Annals of Human* Genetics 66, no. 4: 285-96.

Srnicek, Nick. 2017. *Platform Capitalism.* Malden, MA: Polity.

Srnicek, Nick, and Alex Williams. 2015. Inventing *the Future: Postcapitalism and a World without Work.* Brooklyn: Verso.

Standing, Guy. 2016. *The Precariat: The New* Dangerous *Class.* Rev. ed. New York: Bloomsbury Academic.

Stavig, Ward. 2000. "Ambiguous Visions: Nature, Law, and Culture in Indigenous-Spanish Land Relations in Colonial Peru." *Hispanic American Historical* Review 80, no. 1: 77-111.

Stedman, john Gabriel. 1796. *Narrative of a Five* Years' *Expedition against the Revolted Negroes of Surinam* in *Guyana on the Wild* Coast *of South America; from the Year 1772 to* 1777. Vol. 2. London: J. Johnson.

Stein, Robert L. 1984. "From Saint Domingue to Haiti, 1804-1825." *journal of Caribbean History* 19, no. 2: 189-226.

Steinmetz, Greg. 2016. *The Richest Man Who Ever Lived: The Life and* Times *ofjacob Fugger.* New York: Simon and Schuster.

Stevens-Arroyo, Anthony M. 1993. "The Inter-Atlantic Paradigm: The Failure of Spanish Medieval Colonization of the Canary and Caribbean Islands." *Comparative Studies* in *Society and History* 35, no. *3:* 515-43.

Stoler, Ann L. 1989. "Making Empire Respectable: The Politics of Race and Sexual Morality in 20th-Century Colonial Cultures." *American Ethnologist* 16, no. *4:* 634-60.

---, 2010. *Carnal Knowledge and Imperial* Power. *Race and the Intimate* in *Colonial Rule.* Berkeley: University of California Press.

Stone, Irving. 1999. *The Global Export of Capital from Great Britain, 1865-1914: A Statistical* Survey. Basingstoke: Macmillan.

Stoneman, Adam. 2015. "The New Conspicuous Consumption." *jacobin,June* 8.

Stotsky, Janet G., Sakina Shibuya, Lisa Kolovich, and Suhaib Kebhaj. 2016. "Trends in Gender Equality and Women's Advancement." IMF Working Paper. Washington *DC:* International Monetary Fund.

Strasser, Ulrike, and Heidi Tinsman. 2010. "It's a Man's World? World History Meets the History of Masculinity, in Latin American Studies, for Instance." *journal of World History* 21, no. 1: 75-96.

Studnicki-Gizbert, Daviken, and David Schecter. 2010. "The Environmental Dynamics of a Colonial Fuel-Rush: Silver Mining and Deforestation in New Spain, 1522 to 1810." *Environmental History* 15, no. 1: 94-119.

Suarez de Figueroa, Crist6bal. (1617) 1914. *El passagero.* Madrid: Sociedad de Bibli6filos Espaiioles.

Sudarkasa, Niara. 1986. "'The Status of Women' in Indigenous African Societies." *Feminist Studies* 12, no. 1: 91-103.

Sued-Badillo,Jalil. 1992. "Christopher Columbus and the Enslavement of the Amerindians in the Caribbean." *Monthly* Review 44, no. 3: 71-103.

Tallett, Frank. 2010. *War and Society* in *Early Modem Europe: 1495-1715.* London: Routledge.

Tanumihardjo, Sherry A., Cheryl Anderson, Martha Kaufer-Horwitz, Lars Bode, Nancy J. Emenaker, Andrea M. Haqq, Jessie A. Satia, Heidi]. Silver, and Diane D. Stadler. 2007. "Poverty, Obesity, and Malnutrition: An International Perspective Recognizing the Paradox." *journal of the American Dietetic* Association 107, no. 11: 1966-72.

Taylor, Andrew. 2004. *The World of Gerard Mercator: The Mapmaker Who Revolutionized Geography.* New York: Walker.

Teng, Shu-Chun.1927. "The Early History of Forestry in China." *journal of Forestry* 25, no. *5:* 564-70.

Teschke, Benno Gerhard. 1999. "The Making of the Westphalian State System: Social Property Relations, Geopolitics and the Myth of 1648." PhD thesis, London School of Economics and Political Science. http://etheses.lse.ac.uk/1555/.

't Hart, Marjolein, Pepijn Brandon, and Thomas Goossens. 2008. "The Commercialization of Warfare as a Strategy for Hegemonial Powers: The Dutch Case Compared." Paper presented at the Second European Congress of World and Global History, Dresden, July 3-5.

Theodorou, Angelina E. 2014. "64 Countries Have Religious Symbols on Their National Flags." November 25. Pew Research Center. www.pewresearch.org/fact-tank/2014/11/25/64-countries-have-religious-symbols-on-theirnational-flags/.

Thirsk,Joan. 1964. "The Common Fields." Past *and* Present 29: 3-25.

---. 1987. *Agricultural* Regions *and Agrarian History* in *England, 1500-1750.* London: Macmillan.

Thomas, Hugh. 1997. *The Slave Trade: The Story of the Atlantic Slave Trade, 1440-1870.* New York: Simon and Schuster.

---. 2013. Rivers *of Gold: The Rise of the Spanish Empire, from Columbus to Magellan.* New York: Random House.

Thompson, Edward P. 1967. "Time, Work-Discipline, and Industrial Capitalism." Past *and* Present *38:* 56-97.

Tilly, Charles. 1992. Coercion, *Capitai and European States, AD 99Q-1992.* Oxford: Blackwell.

Timmermann, Cristian, and Georges F. Felix. 2015. "Agroecology as a Vehicle for Contributive justice." *Agriculture and Human Values* 32, no. *3:* 523-38.

Tinker, George E. 1993. Missionary *Conquest: The Gospel and Native American Cultural Genocide.* Minneapolis: Fortress.

Tiwana, N. 5., Neelimajerath, Gurharminder Singh, and Ravleen Singh. 2009. "Pesticide Pollution in Punjab: *A* Review." Asian *journal of Water, Environment and Pollution* 6, no. 1: 89-96.

Tomich, Dale W. 1990. *Slavery in the Circuit of Sugar. Martinique and the World Economy, 1830-1848.* Baltimore: Johns Hopkins University Press.

Topolski,Jerzy. 1962. "La regression economique en Pologne du xvi• au xvm• siecle." *Acta poloniae historica* 7: 28-49.

Toscano, Alberto. 2008. "The Open Secret of Real Abstraction." *Rethinking Marxism* 20, no. 2: 273-87.

---. 2016. "A Structuralism of Feeling?" *New Left Review* 97: 73-93.

Trexler, Richard C. 1995. *Sex and Conquest: Gendered Violence, Political Order and the European Conquest of the Americas.* Cambridge: Polity.

Tronto,joan C. 2002. "The 'Nanny' Question in Feminism." *Hypatia* 17, no. 2: 34-51.

Tsing, Anna Lowenhaupt. 2015. *The Mushroom at the End of the World: On the* Possibility *of Life in Capitalist* Ruins. Princeton, *N]:* Princeton University Press.

Tuck, Richard. 1999. *The Rights of War and Peace: Political Thought and the International Order from* Grotius *to Kant.* Oxford: Oxford University Press.

Ulrich, Laurel. 1991. *Good Wives: Image and Reality in the* Lives *of Women in Northern*

New England, 1650-1750. New York: Vintage.

UNDP (United Nations Development Programme). 1995. *Human Development Report 1995: Gender and Human Development.* New York: Oxford University Press.

Unger, Richard W. 1984. "Energy Sources for the Dutch Golden Age: Peat, Wind, and Coal." *Research in Economic History* 9: 221-53.

USBC (United States Bureau of the Census). 1909. *A Century of Population Growth: From the* First Census *of the United States to the Twelfth,* 179Q-1900. Washington DC: Government Printing Office.

USDA (United States Department of Agriculture). 2017a. "Food Expenditures." Last modified February 28. www.ers.usda.gov/ data-products/food-expenditures.aspx.

2017b. "Sugar and Sweeteners Yearbook Tables." Last modified March 6. www.ers.usda.gov/data-products/sugarand-sweeteners-yearbook-tables.aspx.

van Dam, Petra]. E. M. 2001. "Sinking Peat Bogs: Environmental Change in Holland, 1350-1550." *Environmental History* 6, no. 1: 32-45.

---, 2002. "Ecological Challenges, Technological Innovations: The Modernization of Sluice Building in Holland, 1300-1600." *Technology and Culture* 43, no. 3: 500-520.

van de Pol, Lotte, and Erika Kuijpers. 2005. "Poor Women's Migration to the City: The Attraction of Amsterdam Health Care and Social Assistance in Early Modern Times." *journal of Urban History* 32, no. 1: 44-60.

van der Woude, Ad. 2003. "Sources of Energy in the Dutch Golden Age: The Case of Holland." *NEHA-jaarboek* 66: 64-84.

van Dillewijn, C. 1952. *Botany of Sugarcane.* Waltham, MA: Chronica Botanica.

Van Kirk, Sylvia. 1983. *Many Tender Ties: Women in Fur-Trade Society, 1670-1870.* Norman: University of Oklahoma Press.

van Zanden,J. L. 1993. *The Rise and Decline of Holland's Economy: Merchant Capitalism and the Labour Market.* Manchester: Manchester University Press.

Varoufakis, Yanis. 2016. *And the Weak Suffer What They* Must? *Europe,* Austerity *and the Threat to Global Stability.* London: Bodley Head.

Veblen, Thorstein. (1899) 1973. *The Theory of the Leisure Class.* Boston: Houghton Mifflin.

Verlinden, Charles. 1970. *The Beginnings of Modern Colonization.* Ithaca, NY: Cornell University Press.

Vickers, Brian. 2008. "Francis Bacon, Feminist Historiography, and the Dominion of Nature." *journal of the History of Ideas* 69, no. 1: 117-41.

Vieira, Alberto. 1996. *A escravatura na Madeira nos seculos XV a XVII: O ponto da situafiio.* Funchal, Madeira: Centro de Estudos de Hist6ria do Atlantico. www.madeira-edu.pt/Portals/31/hm-esc-3-ponto.pdf.

---. 2004. "Sugar Islands: The Sugar Economy of Madeira and the Canaries, 1450-1650." In *Tropical Babylons: Sugar and the Making of the Atlantic World, 1450-1680,* edited by Stuart B. Schwartz, 42-84. Chapel Hill: University of North Carolina Press.

Vilar, Pierre, and Judith White. 1976. *A History of Gold and Money, 1450-1920.* London: New Left.

von der Heydt-Coca, Magda. 2005. "Andean Silver and the Rise of the Western World." *Critical Sociology* 31, no. 4: 481-513.

von Tunzelmann, G. N. 1981. "Technological Progress during the Industrial Revolution." In *The Economic History of Britain since* 1700. Vol. 1, 1700-1860, edited by Roderick Floud and Donald Mccloskey, 143-63. Cambridge: Cambridge University Press.

Voss, Barbara L. 2008. "Domesticating Imperialism: Sexual Politics and the Archaeology of Empire." *American Anthropologist* 110, no. 2: 191-203.

Vries, P.H. H. 2001. "Are Coal and Colonies Really Crucial? Kenneth Pomeranz and the Great Divergence." *journal of World History* 12, no. 2: 407-46.

Wackernagel, Mathis, and William Rees. 1996. *Our Ecological Footprint.* Gabriola Island, British Columbia: New Society.

Wackernagel, Mathis, Niels B. Schulz, Diana Deumling, Alejandro Callejas Linares, Martin Jenkins, Valerie Kapos, Chad Monfreda, et al. 2002. "Tracking the Ecological Overshoot of the Human Economy." *Proceedings of the National Academy of Sciences* 99, no. 14: 9266-71.

Wackernagel, Mathis, and Judith Silverstein. 2000. "Big Things First: Focusing on the Scale Imperative with the Ecological Footprint." *Ecological Economics* 32, no. 3: 391-94.

Wakeman, George. 1868. *Official Proceedings of the National Democratic Convention Held at New* Y *ork,july 4-9, 1868.* Boston: Rockwell and Rollins.

W alia, Harsha. 2014. "Decolonizing Together: Moving beyond a Politics of Solidarity toward a Practice of Decolonization." In *The Winter We Danced: Voices from the* Past, *the Future, and the Idle No More Movement,* edited by the Kino-nda-niimi Collective, 44-50. Winnipeg: ARP.

W allerstein, Immanuel. 197 4. *The Modem World-System I: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World-Economy in the Sixteenth Century.* New York: Academic

. 1983. *Historical Capitalism.* London: Verso .

. 1989. *The Modem World-System III.* San Diego: Academic.

Wang, Ting, Donna Surge, and Karen Jo Walker. 2013. "Seasonal Climate Change across the Roman Warm Period/Vandal Minimum Transition Using Isotope Sclerochronology in Archaeological Shells and otoliths, Southwest Florida, USA." *Quaternary International* 308-9: 230-41.

Warrell, Helen 2015. "Ruthless UK Employers Trap Migrants in 'Modern-Day Slavery.'" *Financial Times,* August 12. www.ft.com/ content/ 43daccd0-410d-11e5-9abe-5b335da3a90e.

Watts, Michael.1983. "On the Poverty of Theory: Natural Hazards Research in Context." In *Interpretations of Calamity from the Viewpoint of Human Ecology,* edited by K. Hewitt, 231-62. Boston: Allen and Unwin.

---. 2004. "Resource Curse? Governmentality, Oil and Power in the Niger Delta, Nigeria." *Geopolitics* 9, no. 1: 50-80.

Weatherford, Jack. 2009. *The History of Money.* New York: Three Weathers.

Webber, Jeffery R. 2017. *The Last Day of Oppression, and the First Day of the Same: The Politics and Economics of the New Latin American Left.* Chicago: Haymarket.

Wei, Zhudeng, Xiuqi Fang, and Yun Su. 2014. "Climate Change and Fiscal Balance in China over the Past Two Millennia." *Holocene* 24, no. 12: 1771-84.

Weis, Tony. 2013. *The Ecological Hoofprint: The Global Burden of Industrial Livestock.* London: zed.

Werlhof, Claudia von. 1988. "On the Concept of Nature and Society in Capitalism." In *Women: The Last Colony,* edited by Maria Mies, Veronika Bennholdt-Thomsen, and Werlhof, 95-112. London: Zed.

Westermann, Ekkehard. 1996. "Central European Forestry and Mining Industries in the Early Modern Period." In *L'uomo e laforesta: Secc. XIII-XVIII,* edited by Simonetta Cavaiocchi, 927-53. Florence: Le Monnier.

Westoby,Jack. 1989. *Introduction to World Forestry.* Oxford: Basil Blackwell. Westra, Laura. 1998. "Development and Environmental Racism: The Case of Ken Saro-Wiwa and the Ogoni." *Race, Genderand Class* 6, no.1: 152-62.

White, Lynn Townsend. 1962. *Medieval Technology and Social Change.* London: Oxford University Press.

White, Richard. 1996." 'Are You an Environmentalist or Do You Work for a Living?': Work and Nature." In *Uncommon Ground: Rethinking the Human Place in Nature,* edited by William Cronon, 171-85. New York: W.W. Norton.

---. 2011. *The Organic Machine: The Remaking of the Columbia* River. New York: Macmillan.

Whittle, Jane. 1998. "Individualism and the Family-Land Bond: *A* Reassessment of Land Transfer Patterns among the English Peasantry, c. 1270-1580." *Past and Present* 160: 25-63.

Wickham, Chris. 1994. *Land and Power: Studies in Italian and European Social History, 400-1200.* Rome: British School at Rome.

---. 2008. "Productive Forces and the Economic Logic of the Feudal Mode of Production." *Historical Materialism* 16, no. 2: 3-22.

Wiesner-Hanks, Merry E. 2008. *Women and Gender in Early Modem Europe.* 3rd ed. Cambridge: Cambridge University Press.

Wiggins, Steve, and Sharada Keats. 2015. *The Rising Cost of a Healthy* Diet: *Changing Relative Prices of Foods in High-Income and Emerging Economies.* London: Overseas Development Institute. www.odi.org/sites/odi.org.uk/files/odiassets/publications-opinion-files/9580.pdf.

Williams, Lewis. 2012. "The Human Ecologist as Alchemist: An Inquiry into Ngai Te Rangi Cosmology, Human Agency and

Well-Being in a Time of Ecological Peril." In *Radical Human Ecology: Intercultural and*

Indigenous Approaches, edited by

Williams, Rose Roberts, and Alastair Mcintosh, 91-120. New York: Routledge.

Williams, Michael. 2003. *Deforesting the Earth: From Prehistory to Global Crisis.* Chicago: University of Chicago Press.

Williams, Raymond. 1976. *Keywords: A Vocabulary of Culture and Society.* New York: Oxford University Press.

Wills, Ian R. 1972. "Projections of Effects of Modern Inputs on Agricultural Income and Employment in a Community Development Block, Uttar Pradesh, India." *American Journal of Agricultural Economics* 54, no. 3: 452-60.

Wily, Liz Alden. 2012. "Looking Back to See Forward: The Legal Niceties of Land Theft in Land Rushes." *journal of Peasant Studies* 39, nos. 3-4: 751-75.

Wintle, Michael. 1999. "Renaissance Maps and the Construction of the Idea of Europe." *journal of Historical Geography* 25, no. 2: 137-65.

Wish, Harvey. 1937. "American Slave Insurrections before 1861." *journal of Negro History* 22, no. 3: 299-320.

Wittman, Hannah. 2009. "Reworking the Metabolic Rift: La Via Campesina, Agrarian Citizenship, and Food Sovereignty." *journal of Peasant Studies* 36, no. 4: 805-26.

Wolf, Eric R. 1982. *Europe and the People without History.* Berkeley: University of California Press.

Wood, Andy. 2007. *The 1549 Rebellions and the Making of Early Modem England.* Cambridge: Cambridge University Press.

Wood, Ellen Meiksins. 2003. *Empire of Capital* London: Verso.

Woods, Jeremy, Adrian Williams, John K. Hughes, Mairi Black, and Richard Murphy. 2010. "Energy and the Food System." *Philosophical Transactions of the Royal Society B: Biological Sciences* 365, no. 1554: 2991-3006.

Working Group on the "Anthropocene." 2016. "What Is the 'Anthropocene'?-Current Definition and Status." Last modified January 4. http://quaternary.stratigraphy.org/workinggroups/ anthropocene/.

World Economic Forum. 2012. *Energy for Economic Growth: Energy Vision Update 2012.* Geneva: World Economic Forum. http://reports.weforum.org/energy-for-economic-growth-energy-vision-update-2012/.

---. 2016. *The* New *Plastics Economy: Rethinking the Future of Plastics.* Geneva: World Economic Forum. http://www3.weforum.org/docs/WEF _The_New_Plastics_Economy.pdf.

Worm, Boris, Edward B. Barbier, Nicola Beaumont,]. Emmett Duffy, Carl Folke, Benjamin S. Halpern, Jeremy B. C. Jackson, et al. 2006. "Impacts of Biodiversity Loss on Ocean Ecosystem Services." *Science* 314, no. 5800: 787-90.

Wright, Melissa W. 2006. *Disposable Women and Other Myths of Global Capitalism.* New York: Routledge.

Wrigley, Edward Anthony. 1990. *Continuity, Chance and Change: The Character of the*

Industrial Revolution in *England.* Cambridge: Cambridge University Press.

Yager, Tom. 2002. "What Was Rundale and Where Did It Come From?" *Bealoideas* 70: 153-86.

Yeates, Nicola. 2005. "A Global Political Economy of Care." *Social Policy and Society* 4, no. 2: 227-34.

---. 2009. *Globalizing Care Economies and Migrant Workers: Explorations* in *Global Care Chains.* Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Yuval-Davis, Nira. 1993. "Gender and Nation." *Ethnic and Racial Studies* 16, no. 4: 621-32.

Zaid, Omar Abdullah. 2004. "Accounting Systems and Recording Procedures in the Early Islamic State." *Accounting Historians Journal* 31, no. 2: 149-70.

Zamora, Margarita. 1990. "Abreast of Columbus: Gender and Discovery." *Cultural Critique* 17: 127-49.

Zeeuw, J. W. de. 1978. "Peat and the Dutch Golden Age: The Historical Meaning of Energy Attainability." *AAG Bijdragen* 21: 3-31.

Ziegler, Philip. 2013. *The Black Death.* London: Faber and Faber.

Zinn, Howard. 2003. *A People's History of the United States: 1492-Present.* 3rd ed. London: Pearson/Longman.

Zorrilla, Marcelo Gabriel. 2006. "El acta de requerimiento y la guerra justa." *Revista del Notariado* 885: 247-55.

مكتبة
t.me/soramnqraa

telegram @soramnqraa

حقَّقَ هذا الكتاب منذ صدورهِ ضجَّة كُبرى في الأوساط الأكاديمية والثقافيَّة، إذ تناولَ فكرة الرَّأسمالية من زوايا مختلفة قطعت مع القراءات الأكاديمية المغلقة. يربط الكتاب فكرة الرأسمالية بالطبيعة ويرى المؤلِّفان أنَّ استغلال الطَّبيعة على نحوٍ خاطئ ومتوحِّش مهَّد المجال لاستغلال البشر وبذلكَ نشأت الرأسمالية على ثنائية استغلال الطبيعة والإنسان، وهو استغلال جعل من العالم عالمًا رخيصًا ففكرة الاستعمار هي التي جعلت من المال رخيصًا بما أنَّها استطاعت توفيره من جماجم المضطهدين كما جعلت من الغذاء رخيصًا بما أنها نهبت العوالم الجديدة ودمَّرت الحياة الإيكولوجيَّة فيها كما دمَّرت حيوات الأفراد عبر تعزيز ثقافة العبودية والاستغلال والاضطهاد علاوة على آثارها في جميع مناحي الحياة. يأخذنا هذا الكتاب في رحلة مع الاكتشافات الكُبرى التي شهدها العالم القديم وكيف كانت تلك الاكتشافات مدخلًا لبروز عصور دموية ومريعة، علاوة على تطرقه إلى دور الأوبئة والجوائح في بروز فكرة الاستعمار بشكلها الحالي.

يمكنُ القول إنَّ هذا الكتاب من أبرز الكتب التي تؤرِّخُ للعالم من منظور مختلف ومتحرر من التحيُّزات والمركزية الأوروبية التي سادت في أغلب البحوث الأكاديمية.

WWW.PAGE-7.COM
ISBN 978-603-8387-89-4
9 786038 387894
Designed by: Maher Adnan

صفحة ٧

مكتبة
t.me/soramnqraa